الدكتور أحمد رحمانى
استاذ الدراسات القرآنية بالمعهد الوطنى
للتعليم العالى للعلوم الإسلامية - باتنة الجزائر

الحقيقة الجوهرية

فى مشكلة الأكثرية والأقلية

دراسة فى التفسير الموضوعى

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون : ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م

حقوق الطبع محفوظة

تحذيـر

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر) . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

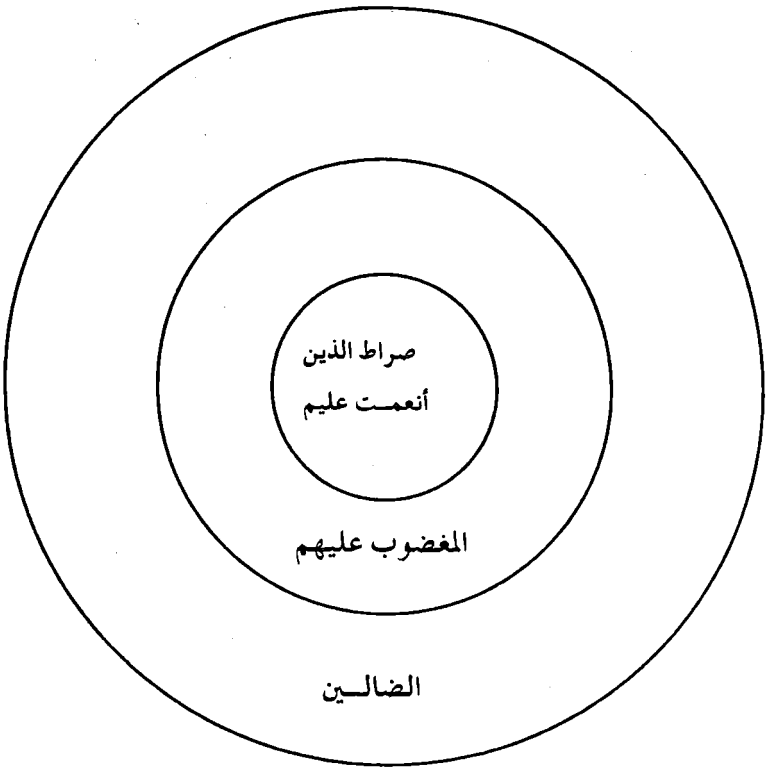

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الأعراف : ٢٠٤]

قال عليه السلام : « الناس كإبل ، مائة لا تجد فيها راحلة »

[حديث شريف]

«بلا شك أن أهل الباطل كلما كثروا فإن الشيطان أقوى فيهم منه مع المنفرد» [ابن حزم : الأحكام]

الإهداء

● إلى كل إنسان عرف قيمة العلم فدافع عنها وقدرها حق قدرها وأخص بالذكر أولئك الذين شيدوا الجامعات بجهودهم الخاصة وبعرق جبينهم في العالم كله، وأخص منهم المجاهد الفاضل المرحوم : **العقيد الحاج لخضر** باني صرح كلية العلوم الإسلامية بالأوراس بالجزائر، والشيخ الفاضل **جمعة الماجد** باني صرح كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبى، والشيخ الدكتور **سلطان القاسمي** باني صرح جامعة الشارقة وإلى **بناة الإمارات العربية المتحدة وماليزيا رمزى العمران المعاصر**، إلى هؤلاء الفضلاء أهدي هذا الكتاب عساهم يكونون قدوة الأغنياء والقادة فى العالم الإسلامي، وإلى **والدىّ العزيزين عثمان والكاملة، وأسرتى الكريمة زكية وسيف الله وخليل وسناء ومريم ومحمد** عرفانا بالجميل وتقديرا للجهود، راجيا من المولى تبارك وتعالى منا ومنهم القبول والتوفيق لصالح الأعمال.

ا ٠ د / أحمد عثمان رحمانى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذي أنعم على البشرية بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، ليبين للناس طريق الحق، ويعلمهم سبيل الرشاد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ونسألك اللهم حفظ القرآن الكريم وفهمه والعمل به وحسن تفسيره، وارزقنا حسن تأويله وتطبيقه، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم وبعد:

فإن هذا الكتاب يعالج مشكلة إنسانية كبيرة تتعلق بقضايا مختلفة متنازع في حقيقتها الدينية والسياسية وما يترتب عليها من قضايا في العقيدة، والمعرفة، ومواقف الناس من كلمة الحق، وأنماط السلوك البشري، وأساليب التعامل بين الناس، وطبيعة العلاقات التي تربطهم ببعضهم، والمآل الذي سيصيرون إليه في الدنيا والآخرة.

وقد سميت هذا الكتاب (الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية – دراسة في التفسير الموضوعي)، وكنت قد فكرت في تسميته (الأكثرية والأقلية من خلال القرآن الكريم) لأن المحور الأساسي الذي عليه مدار التحليل كله هو «الأكثرية والأقلية» إذ أن القرآن الكريم، والكتب السماوية قبله، وأخص بالذكر التوراة والإنجيل [1]، تكشف دائما عن حقيقة كبيرة تلفت انتباه علماء الدين وعلماء السياسة باستمرار، وهي مشكلة الأكثرية والأقلية وعلاقتهما بصلاح المجتمع وإصلاح أحوال البشرية، حتى إن الرسول ﷺ قال: «الناس كإبل مائة

---

(١) جاء في الإنجيل: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين» متى: ١١/ ٢٤ وانظر متى: ٥٨/ ١٣-٥/ ٢٤-١٠/ ٢٤

لاتجد فيها راحلة»[1] والراحلة النجيبة المختارة للركوب، فهي كاملة الأوصاف، ومعناه لاتجد نسبة (١ / ١٠٠) من الصالحين لتحمل الأمانة[2] ، وكان أقصى ما تصل إلية نسبة الأقلية هو ما أطلقت عليه الثقافة الإسلامية مصطلح «رأي الجمهور» فالجمهور منذ الآن يمثل الأقلية بهذا المعنى، لأن القصد بالأكثرية والأقلية في البحث النسبة القائمة في الأمم والشعوب وليس الزمرة من العلماء، لأنهم سيمثلون الأقلية.

وقد ازداد ذلك أهمية في ظل الطرح الديمقراطي الحديث؛ مما يفرض التساؤل : هل يمكن اعتماد رأي الأكثرية دائما في قضية إصلاح المجتمع؟ أم أن مسألة الإصلاح قد يفيد فيها رأي الأقلية الواعية أكثر من رأي الأغلبية كرأي الجمهور بالنسبة للجماهير الشعبية؟.

إذ أننا في اتخاذ كثير من المواقف السياسية نعتمد مبدأ – رغبة الأكثرية (الجماهير الشعبية)– إما عن طريق التصويت العلني، وإما عن طريق الانتخابات السرية، وبهذا نحدد موقفنا من قضايا خطيرة في حياتنا، تتعلق بمصير المجتمعات البشرية الآجل والعاجل ومن هنا كان التساؤل المشروع هو :

هل تكون الأكثرية دائما على حق؟ والأقلية دائما على باطل؟ وهل يكون فهمنا للحديث المروي عن« أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أمتي لاتجتمع على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم الحق وأهله »[3] فهما صحيحا، يقود إلى ضرورة الأخذ بمبدأ (رغبة الأكثرية)؟ أم أن مسألة الحق والباطل تتحدد وفق معيار آخر غير الذي يعتمد على هذا المبدأ وهو معيار الإيمان والإخلاص والعلم أي رأي الجمهور؟ وهذا المعيار لا شك سيقلب المسألة وسيكون مؤشرا قويًا على أن معرفة الحق والعمل من أجل تحقيقه، ومعرفة

---

(١) صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٣٨ ومسلم / ٤ / ٩٧٣

(٢) شرح سنن ابن ماجة : ١ / ٢٨٨ والحديث في صحيح البخاري : ٥ / ٢٣٨٣ ومسلم ٤ / ١٩٧٣

(٣) تهذيب الكمال : ٣٣ / ٢٨٦ و انظر : أحكام القرآن : ٢ / ٣١٤

الباطل والاجتهاد من أجل تفاديه هو من خصوصيات الأقلية، لأن طبيعة البشرية وتاريخها الطويل يبينان ذلك، فيكشفان على أن النجاة من الوقوع في الخطأ ومن ثم تجنب السير في طريق الباطل، إنما يقوم على معرفة الفروق الجوهرية بين الباطل والحق، وهذا يقتضي العودة إلى نهج الرسل والأنبياء عليهم السلام، ومن سار على هديهم من العلماء العارفين المخلصين، وهؤلاء العلماء العارفون قليلون جدا في الغالب الأعم، إذا استثنينا فترة الرسل التي هي فترة الصحابة والاحتكاك المباشر بالأنبياء والرسل، فهذه الفترة لها معيارها الخاص، غالبا ما يكون العلم فيها منتشرا في النفوس والعقول بشكل صحيح فيؤدي إلى أن تكون الأكثرية مع الحق، وتركب الأقلية رأسها عنادا، أما في غير ذلك فإن الوعي سينقص وسيكون أنصار الحق من الأقلية، وأنصار الباطل من الأكثرية وعندئذ لا يستقيم معيار (رغبة الأكثرية) في توجيه سياسة البشرية، وحديث الرسول ﷺ يبين ذلك بقوله: «إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى، أو قال هلك، وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا»(١).

وهذا يصدقه واقع المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ إذ أجمعت الأكثرية المطلقة على اختيار الخلفاء الراشدين الهادين المهديين من بعد الرسول الأعظم، ولكن ما أن تناقص جيل الصحابة الذي تعلم على رسول الله ﷺ حتى بدأ الجهل يغزو العقول وصار أمر الوعي إلى الأقلية وحدها وأقصاها عددا «رأي الجمهور»، فلم يعد معيار رغبة الأكثرية (الجماهير الشعبية) يفيد، ولهذا كان ابن القيم على حق حين قال: (سداد الرأي وتحصيل العلم، وكمال الفهم، سبب الطاعات، وأضداد ذلك سبب المعاصي).

وعلى العكس من ذلك فإن اغترار الناس بالمال يجرهم إلى اتباع أهله ومعاداة العلماء وأهل الوعي، مما يكثّر من سواد أهل الباطل فتصبح الأكثرية

---

(١) مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص ١٥٥ .

لا تصلح معيارا لتوجيه الأمة، بل إن من العلماء من يؤكد أن «الشر أقرب الخلال إلى الإنسان إذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذبه الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجم الغفير إلا من وفقه الله» (١).

وعلى هذا الأساس كان من الضروري الوقوف على هذه الإشكالية تحت عنوان: (الأكثرية والأقلية) ولما كان الهدف من البحث هو الوقوف على الحقيقة، وكان المنهج الأكثر دقة على الإطلاق هو منهج التفسير الموضوعي، لأنه يستقي مادته من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، فإننا قد اعتمدنا في هذا البحث هذا المنهج، فوقفنا على الآيات التي تعرض القضية بصريح العبارة كقوله تعالى في مجال العقيدة ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله في مجال المعرفة: ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وقوله في بيان مواقف الناس من الحق: ﴿ **لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٨]، وفي مجال السلوك البشري: ﴿ **مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٠] وعلى مستوى المعاملات قال: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [ص: ٢٤]، وفي بيان طبيعة العلاقات البشرية قال: ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وقال: ﴿ **تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [المائدة: ٨٠]، وأخيرا قال في مجال المآل: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقد اعتمدنا المنهج المقارن، فقابلنا الأكثرية في كل مجال بالأقلية للوقوف على الحقيقة.

ولا شك أن الآيات التي تعرض هذه القضية غالبا ما تحمل في طياتها التعليل، ولذلك كان من السهل الوقوف على علاقة كل قضية جزئية بالقضية الكلية المتعلقة بالأكثرية والأقلية.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ١/٢٢٣.

ذلك مما جعل الدراسة تتجاوز منهج العرض المجرد إلى منهج التحليل والتفسير الذي يتقصى الأسباب ويقف على العلل كما ذكرها القرآن الكريم أو الحديث النبوي الموثوق من صحته، أو النتائج العلمية التي أثبتت التجربة صحتها، وعلى ذلك فقد جاء المنهج مطابقا لقواعد المنهج القرآني كما تحدده الآية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج: ٨] معتمدا قواعد التفسير الموضوعي التجميعي الذي يقوم بسبر أغوار الموضوعات من خلا ل القرآن الكريم كله للخروج بنظرية فى الموضوع أو بتصور حوله(١).

وقد توزعت مادة البحث على ستة أبواب تناولت مشكلة الأكثرية والأقلية من خلال القرآن، لتقف على الحقيقة الجوهرية فيها على المستويات التالية:

العقيدة، والمعرفة، ومواقف البشرية من الحق، وطبيعة السلوك البشري، وأسلوب المعاملات والعلاقات بين الخلق، ثم مآل الأكثرية والأقلية في الدنيا وفي الآخرة.

هذا وقد طرحت أثناء البحث عدة مشكلات تستعصي الإجابة عنها بغير هذا المنهج المعتمد في التفسير الموضوعي مثل:

١- لماذا تميل الأكثرية إلى الكفر؟

٢- ما الدافع لتعطيل وسائل المعرفة الدينية لدى الأغلبية؟ وكيف أسهم ذلك في انتشار الوعى المزيف؟

٣ - لماذا كانت أغلبية الخلق ميالة إلى الفسوق والفجور والظلم؟ أليس هناك معرفة وثقافة يمكن أن تمد الإنسانية بمفاهيم أخلاقية قادرة على أن تجعل من البشر إنسانا سويا؟

٤- القرآن ينص على أن ﴿ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ فما السبب الحقيقي في كره الناس للحق وحبهم للباطل؟ وما أثر ذلك على الحياة البشرية؟

---

(١) أحمد رحمانى: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ص: ٤٨ .

٥- مآل الأكثرية هو الخسران، وأن الفرق الناجية قليلة لا تتجاوز فرقة من ثلاث وسبعين فرقة فما سبب ذلك؟ ومن هي الفرقة الناجية فعلا؟

٦- نتساءل : ما هو قانون الغلبة وماسنته، وما علاقة الأكثرية بمشكلة الغثائية وأسبابها؟وما سر التناحر بين أبناء البشر؟ وماطبيعة العلاقات بين الأكثرية والأقلية على المستويات الأساسية؛ السياسية والاجتماعية والمعاملات المالية والاقتصادية؟.

تلك هي التساؤلات الكبرى التي حاول البحث أن يجيب عنها، فإن وفق فمن الله، وإن أخطأ فنسأل الله التوفيق لنا ولغيرنا حتى نكشف عن هذه الإشكالية التي نحن أحوج إلى معرفتها في العصر الحديث أكثر من أي زمن آخر مضى. لنبين في النهاية أن الأكثرية غثاء كغثاء السيل، وأن الأقلية هي عمدة الحياة وأن الغلبة تخضع لقانون التقوى، ولا تخضع لقانون الكم والعدد، وأن مآل الأقلية أفضل من مآل الأكثرية، وأن ذلك كله قائم على أسس علمية لا مجال للعبث فيها، وأن القرآن الكريم لم يرد فيه لفظ الأكثرية في معرض الثناء إلا في سورة واحدة حيث جمع بين أكثرية الساجدين وأكثرية الغافلين حيث قال : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ**﴾[الحج : ١٨].

والله المستعان، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

أ.د. أحمد عثمان رحماني

باتنة - الجزائر : ١٠ / ٧ / ٢٠٠١

الباب الأول

الأكثرية والأقلية على مستوى العقيدة في القرآن

توطئـــة:

العقيدة فهم ووعي بالكون والحياة، فهي الأصل الذي تنبني عليه جميع الفروع، من شريعة وأخلاق وسلوك، ولذلك نجد الآية القرآنية تبين أن من أخطأ السبيل في أمر العقيدة فقد أخطأ في الأصل الذي يبنى عليه كل شيء، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ [البقرة: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ [النساء :١١٦] ويعد الشرك ظلما كبيرا: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [لقمان :١٣] ، فالكفر هو الغي الذي يجب على الإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به، وبالمقابل يعد الإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه؛ لأنه نور يكشف به حقائق الأشياء والقيم والأفكار والتصورات فيراها بالصورة الحقيقية التي ينبغي أن يراها بها لا غبش فيها ولا غموض، ومن هنا كان القرآن يربط العقيدة بالعمل، « فسمة الإسلام هي الوحدة بين الشعور والسلوك بين العقيدة والعمل بين الإيمان القلبي والإحسان العملي، وبذلك تستحيل العقيدة منهجا للحياة كلها وتتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطاتها واتجاهاتها »(١) قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ** ﴾ [لقمان: ٢٢]، وكونه مستمسكا بالحبل المتين معناه قد وضع يده في حبل النجاة، أما من زاغ عن ذلك فقد عرض نفسه للضياع في الدارين.

ومن هنا وجب أن يكون التساؤل الأول في هذا البحث متعلقا بموقف

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن :١/ ١٠٤

الأكثرية والأقلية من مسألة العقيدة، وهو الأمر الذي نعالجه في فصلين يتضمن الأول موقف الأغلبية من العقيدة، ويتضمن الثاني موقف الأقلية منها، ولا شك أننا في هذا البحث نتحدث عن الأقليات والأكثريات باعتبار البشرية كلها ، وليس باعتبار فئة معينة أو طائفة محددة إلا إذا كان التحديد من القرآن فتلك مسألة نبين طبيعتها في موضعها إن شاء الله، لأن منهج القرآن يفرض ذلك ، لاسيما إذا كان «الاختلاف بين العلماء المسلمين في هذا المجال لم يمس جوهر الدين ولا أساس العقيدة ولا أصلا من الأصول المتفق عليها، فمثلا لم يكن الاختلاف في وحدانية الله ولا في أن محمدا رسول الله ولا في ركن من أركان الإسلام أو أصلا من الأصول العامة ، وإنما جرى الاختلاف في أمور فرعية لا تمس صميم العقيدة» [١].

والعقيدة في اللغة من العقد وهو الربط والإبرام والإثبات والمسك والجزم والتوثق، وعقد القلب على الشي الالتزام به[٢] ، والعقيدة هي الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، فكل ما عقد عليه الإنسان قلبه جازما به فهو عقيدة سواء كان حقا أو باطلا.

والعقيدة مرتبطة بالقلب قبل أن ترتبط بالعقل، إذ أنها ليست مجرد فهم، ولكن هي في النهاية موقف عاطفي مبني على طبيعة فهم المعتقد للكون والحياة. ولذلك عرفت العقيدة بأنها: الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب وتطمئن إليها النفس حتى تكون يقينا ثابتا لا يشوبها ريب ولا يخالطها شك وسمي عقيدة لأن الإنسان يعقد عليه قلبه.

وللاعتقاد صور ثلاثة أساسية هي : الإيمان ، والكفر بنوعيه؛ كفر بالغيب

---

(١) جمال فاروق جبريل محمود الدقاق: الاختلاف في المسائل الدينية مجالاته ودعائمه الخلقية : ص: ١١

(٢) لسان العرب : مادة عقد.

وكفر بالنعمة،والشرك بمختلف صوره بما في ذلك الشرك الوثني وشرك الضالين وشرك المغضوب عليهم، والقرآن الكريم يبين ذلك بوضوح وهو ما سيتبين لنا من خلال الفصلين التاليين؛وستكون الآية المحورية في الفصل الأول هي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٨٩].

أما النص المحوري الذي يحدد مدار الفصل الثاني فهو قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] ..

* * *

الفصل الأول
الأكثرية على مستوى العقيدة

● المبحث الأول: مشكلة الكفر بنوعيه

توطئة: مفهوم الكفر

الكفر من جهة اللغة يعني الستر والتغطية، ومنه أخذت كلمة الكفر لتدل في العقيدة على تغطية الحق، وينتج أن كفر العقيدة قد يكون سترا لأمر من أمور الغيب على الرغم مما يدل عليه من دلائل عقلية و نقلية، كالكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد يكون سترا لنعم الله على خلقه وجحودا ونسيانا لها، مما يؤدي إلى قلة الشكر أو عدمه.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة تعبيرا جامعا بقوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧]، إذ أن «تعريف (الإنسان) يجوز أن يكون التعريف المسمى تعريف الجنس فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس، وهو استغراق حقيقي وقد يراد به استغراق معظم الأفراد بحسب القرائن فتولد بصيغة الاستغراق إدعاء لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد، ويسمى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني، ويسمى العام المراد به الخصوص في اصطلاح علماء الأصول ... فقوله: ﴿ **مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ تعجيب من كفر جنس الإنسان أو شدة كفره وإن كان القليل منه غير كافر... فغالب الناس كفروا بالله من أقدم عصور التاريخ وتفشى الكفر بين أفراد الإنسان وانتصروا له وناضلوا عنه، ولا أعجب من كفر من ألّهوا أعجز الموجودات من حجارة وخشب أو نفوا أن يكون لهم رب خلقهم... ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كمًّا وكيفا ومعنى، لأنه كفر بوحدانية الله وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه

ﷺ، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد »[1] .

ولا شك أن الاستغراق هنا كما يشمل جنس الأفراد بالأغلبية، يشمل كذلك نوعي الكفر، كفر بالغيب وكفر بالنعمة، مما يؤدي إلى قلة الشكر على فضل الله، ولذلك استدعى الأمر الفصل بين نوعي الكفر.

* * *

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ١٢٠ ـ ١٢١ ـ الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ

● **المطلب الأول : الكفر بالغيب.**

عند تصفح كتاب الله – بحثا عن مواقف البشر من مسألة الكفر والإيمان - قد نفاجأ بالنتيجة، إذ نجد القرآن ينبئنا بقول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٨٩].

والآية بهذه الصيغة تفيد أن الأكثرية مصرة على انتهاج سبيل الكفر على الرغم من أبلغ الآيات الخالدة التي صرَّفها الله للناس ليتبعوا الهداية إذا استعملوا عقولهم وتدبروا خطاب الله إليهم، ولكن الطبائع البشرية يغلب عليها طابع العناد والتكبر واتباع الأهواء مما يجعلهم أميل إلى الكفر لما يجدون فيه من تحرر من قيود المسؤولية التي يقتضيها الإيمان بوجود الله واليوم الآخر، وما يستتبع ذلك من الخوف من الحساب والعقاب.

ويتبين لنا ذلك من التعليق الذي يأتي في الآيات الموالية لهذه الآية من سورة الإسراء إذ جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴾ [الإسراء - ٩٠-٩٢] ... ﴿ **وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٩٧-٩٩].

فهذه الآيات التسع قد جاءت لتبين طبيعة الناس التي اكتسبوها فخالفت الفطرة وخرجت بهم عن طريق الجادة فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية

ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج، لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيه لعرض حقائقه في أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار[1] ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾.

هكذا تنتهي الآيات التسع لتقرر في النهاية النتيجة التي حكمت بها الآية الأولى التي قضت بأن الأكثرية تميل نحو الكفر بقوله تعالى : ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ ، وبذلك يتبين أن علة التعلق بالكفر هي الظلم للحقيقة والظلم للفطرة التي فطر الناس عليها تلك الفطرة النقية التي جبل الإنسان عليها كما بينها قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٣] الفطرة السليمة هي حقيقة ما جبل عليه الإنسان، ولكن الغفلة والنسيان من جهة، والإرث المعوج من جهة ثانية هو الذي يطبع النفوس على الكفر والإلحاد وإلا فإن الله قد جعل «للهدى وللضلال سننا وترك الناس لهذه السنن يسيرون وِفْقها ويتعرضون لعواقبها، ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله وهذا هو المهتدي حقا لأنه اتبع هدي الله، والذين يستحقون الضلالة بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ ويحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ يتكفأون ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم من هذا الزحام جزاء بما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى»[2].

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٢٥٠ دار الشروق .

(٢) سيد قطب نفسه ٢٢٥١ .

إن الأكثرية إذن قد اتخذت لنفسها منهجا فلم ينفع فيها دعوة ولا أداةعقل؛ لأنهم عطلوا أسباب الفهم بأن أغلقوا سمعهم وبصرهم وقلوبهم فلا يتسرب إليها وعي ولا يتشوفون إلى صوت الحق مهما كان مصدره، لأنهم كذبوا بآيات الله التي هي المرجع الوحيد الذي يملك وسائل الهداية.

وقد بينت آية أخرى من سورة الفرقان هذه القضية حين جعلت التنبيه يشير إلى الهدف من تصريف الآيات هو التذكير، فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

فالقرآن صرَّفه الله إلى الناس جميعا ليتذكروا ولكنهم أبوا إلا أن يصروا على الكفر، وصيغة «كفورا» تفيد هنا بطاقتها الصرفية الإصرار، ويدعم ذلك صيغة الحصر في التركيب الذي بنيت عليه هذه الآية فجاءت موافقة في بنائها للآيات السابقة وهي على التوالي:

١ ـ ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٨٩].

٢ ـ ﴿ **فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٩٩].

٣ ـ ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

فالآيات الثلاث صيغت تراكيبها على طريقة واحدة تكشف عن استقرار هذه الحال في حياة البشرية من لدن آدم إلى يومنا هذا.

وهذا ما يفسر كون أكثر الأمم ـ التي جاء إليها الأنبياء والرسل دعاة ـ معرضة عن الدعاة، نافرة من سبل الهداية، متمسكة بشريعة الغاب معتصمة بحبل الشيطان، وكانت النتيجة دائما هي الاستئصال الذي عبرت عنه الآيات التي مهدت لهذه القاعدة القائمة على السنن التي عرضتها سورة الفرقان، يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً * وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾

[الفرقان: ٣٥ـ٣٩]

فمن الواضح أن الآيات لا تشير إلى قوم فرعون ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ فحسب، ولكنها تبين أن هناك قرونا كثيرة كانت بين هذه الأقوام ونالت ما نالته هذه من الاستئصال الذي لا يعبر إلا عن موقف الأكثرية من الرسائل السماوية ومن الدعاة في كل عصر ومصر، على مدى الحركات التاريخية للبشرية، فالكفر ديْدَنُهم، به يعيشون وعليه يموتون أو يُستأصَلون .

والسبب في ذلك تعرضه آيات الفرقان كما عرضته آيات الإسراء واحد لا يتغير ولا يتبدل، إنه الأهواء وتعطيل وسائل المعرفة والتلقي للكتاب المبين وصوت الحق ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

فالسبب يكمن في بنيتهم النفسيّة « فالعلة فيهم أنفسهم فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان ... وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة والموازين المضبوطة وتخضع لهواها وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها فلا تخضع لميزان ولا تعترف بحد، ولا تقتنع بمنطق متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلها يعبد ويطاع... ثم يخطو خطوة ... فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط... بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد، فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا، بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة »(١) .

حين يعطل الإنسان وسائل التلقي سيعجز حتما عن الاستفادة من وسائل الذكر وأدلته المسموعة والمشاهدة، وبذلك يفقد أسباب العودة إلى الطريق المستقيم، وهذا هو حال معظم أهل الأرض، إذ حين نفكر في ستة ملايير شخص

---

(١) في ظلال القرآن ج١٩ ص ٢٥٦٦

فوقها، لانجد المهتدين منهم يزيدون عن أقل من الخمس والخمس كثير في ما يحكم به عالم الشهادة، ونحن نجد في تعبير الآية إنصافا «إذ يذكر» ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ولا يعمم، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى أو تقف عند الحقيقة تتدبرها، فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول فهي كالأنعام، وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع»(١).

ومن هنا وأمام هذه الكثرة التي فقدت أسباب الهدى نجد الدعاة في حيرة من أمرهم من لدن سيدنا نوح عليه السلام الذي كان يرى أنه دعاهم ليلا ونهارا فلم يزدهم دعاءه إلا نفورا، وأنه كلما دعاهم ليغفر الله لهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ [نوح: ٧]، إلى النبي ﷺ الذي كان يقول: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] مما يبين أن «مهمة الرسول ﷺ.. ضخمة شاقة وهو يواجه البشرية وأكثرها أضله الهوى، وأبى إلا الكفر ودلائل الإيمان حاضرة»(٢).

وإذا كانت الأكثرية يغلب عليها الكفر مما يصعب مهمة الرسل في العصور الغابرة فإن مهمة الدعاة اليوم أشق، إذ كثر بالمقابل دعاة الكفر، وهم مسلحون بعاملين أساسيين:

١ ـ تمكنهم من وسائل الإعلام والدعوة إلى الكفر، إذ سَخرت لهم الأنظمةُ القائمة على مستوى العالم كل أجهزة الإرسال المرئية والمكتوبة والمسموعة، فعاثوا في الأرض فسادا.

٢ ـ كثرة جيوشهم التي استطاع الشيطان أن يجندها لهم باسم الحرية والتمدن، وما يزينه لهم من أعمالهم الخبيثة التي تتجدد أساليبها في كل يوم.

---

(١) نفسه.

(٢) في ظلال القرآن ج ١٩ ص ٢٧٥٠

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدور الذي يقوم به أعداء الحق من كل الطوائف، بما في ذلك أهل الكتاب الذين كان الأولى أن يقفوا إلى جانب أهل الحق يسندونهم ويعضدونهم، بدل أن يؤلبوا عليهم الناس فقال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وبسبب حب الكثير من أهل الكتاب لطرق الصد عن سبيل الله تجتمع كثرتان؛ الكثرة التي استفحل فيها الكفر، والكثرة التي تدعو إليه وتحببه للناس حسدا لهم وهم لا يعلمون.

وهذه أيضا تكاد تكون طبيعة بشرية إذ نجد الناس يميلون بشدة إلى أن يشاركهم الناس في الشر في الوقت الذي لا نجد لهم الحماس في أن يشاركوهم في الخير إلا قليلا، وهو ما تبينه الآية التالية: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقد لاحظت هذا الأمر عيانا عندما حضرت ملتقى دوليا بجامعة وهران تحت عنوان «الإنسان في الكتب السماوية» حضره عدد من رجال الدين المسيحيين على رأسهم الأستاذ تيسي (*) ممثل رجال الدين المسيحيين في الجزائر، وكانت محاضرته تحت عنوان «المهمشون في الإنجيل» وكانت محاضرتي بعنوان «اليتيم في القرآن الكريم» مما جعلني أسأله: إن أحق الحقوق للطفل علينا أن نقدم له صورة حقيقية عن العقيدة وعلى رأسها مصادر العقيدة وهي الكتب السماوية، وأنتم معشر رجال الدين المسيحيين تعلمون أن الحقيقة في القرآن، فلماذا لاتعلّمونها الأطفال لتتخلصوا من المسؤولية يوم القيامة؟ فأجاب: إننا لانفعل ذلك لأننا يهود ومسيحيون!!!

(*) على الرغم من قول تيسي ذلك فإني أرى أنه سيدخل الإسلام في وقت قريب لمعرفته بالعربية مما يعينه على الاطلاع على القرآن الكريم بنفسه.

وهكذا يتجلى لنا أن علماء المسيحيين يتعمدون الإصرار على نقل الكفر إلى ذريتهم مما يشكل توجيها أساسيا في التربية يعين الشيطان على الاستكثار من أهل الكفر، فإذا علمنا أن المساحة التي تنتشر فيها المسيحية في العالم كبيرة بحيث تعد أول ديانة في العالم، تبين لنا مفهوم الكثرة بفهم سببه، وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ .

وهكذا تتجلى لنا سورة واضحة عن الموضوع، فنتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الأكثرية يغلب عليها الكفر، ولكن ـ كما رأيت ـ الكفر الذي بيناه كفر عقيدة تتصل بالله وكتابه ورسله واليوم الآخر، ولم تمس الدراسة بعد جانبا آخر من الكفر هو كفر النعمة، وهو ما سنعرضه في مطلب لاحق، وستكتمل الصورة بشكل أوضح حينما نتحدث عن الأقلية ونعرف أن الشيطان توعد الإنسان بالاحتناك والتضليل ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٦٢] .

* * *

• المطلب الثاني : الكفر بالنعمة

في سورة النحل تستوقفنا آيات متتابعة تعرض نعم الله على الإنسان؛ من خلق، وإعطاء سمع وبصر وفؤاد وسكن وتسخير أنعام وسرابيل للوقاية من حر الطبيعة ومن بأس الإنسان نفسه، ثم تختم بحكم يستغرق سلوك الإنسان إزاء هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهو قوله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [النحل: ٨٣] .

ومعنى الآية أنهم ينكرون نعمة الله وهم يعرفونها، ويعرفون مصدرها، وإنما دفعهم لهذا الإنكار إصرارهم على الكفر، والتعبير بصيغة الأكثرية هنا للتعبير عن الغالبية «فظاهر كلمة ﴿ **أَكْثَرُ** ﴾ وكلمة ﴿ **الْكَافِرُونَ** ﴾ أن الذين وصفوا بأنهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإن معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النظر، فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة فكان إشراكهم راسخا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإن لهم ترددا في نفوسهم، ولكن يحملهم على الكفر حب السيادة في قومهم»(١) .

والحال أن الحكم يشمل جنس الإنسان عالمهم وجاهلهم، عامتهم ودهمائهم، ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا قليل، كما سيتبين لنا في فصل عقيدة الأقلية في القرآن الكريم .

ويبين ذلك سلسلة الآيات السابقة لهذه الآية لا سيما قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ [النحل: ٨١] فالآية امتنان بنعمة الإلهام إلى وسائل الوقاية من الحر والقر، والإقامة

---

(١) التحرير والتنوير : ج ١٤ ص ٢٤٣ .

والسكن وجملة ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تذييل لما ذكر من النعم، وإذا كانت (لعل) للرجاء فإنها استعملت هنا في معنى الرغبة في أن يدخل الناس في الإسلام الذي ينتهي فيه الإنسان إلى شكر الله على نعمه [1]، ولكن طبيعة الإنسان يغلب عليها جانب الكفر بالنعمة مما يجعل ذلك الرجاء لا يتحقق إلا بنسبة ضئيلة.

ومن يستقرئ القرآن في هذا السياق سيصل حتما إلى هذه النتيجة إذ أن آيات القرآن تتعاضد كلها على بيان هذه الحقيقة، ففي سورة إبراهيم نقرأ آيات تعرض النعم التي سخرها الله للإنسان ثم تعقب بما يؤكد هذه الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

[إبراهيم: ٣٢-٣٤]

هنا في هذه الآيات يفتح كتاب الله ليوجه أنظارنا لكتاب الكون فيفتحه على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى، وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر، السماوات والأرض والشمس والقمر، الليل والنهار، الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض، البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرؤون ولا يتدبرون ولا يشكرون، إن الإنسان لظلوم كفار، يبدل نعمة الله كفرا ويجعل لله أندادا ... نعم كثيرة سخرها كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه وما يناسب نشاطه وراحته ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ﴿ وَإِن تَعُدُّوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٤١

نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ فهي أكبر بكثير من أن يحصيها فريق من البشر أو كل البشر... فنعم الله مطلقة فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك .. وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١) .

ولا شك أن كفر النعمة شامل بهذا المعنى للكفر بالنعمة المادية، والكفر بالنعمة الروحية التي على رأسها الكفر بالآيات التشريعية التي نزلت لإسعاد الإنسان فكفر بها وأحل نفسه بذلك دار الخسران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [ابراهيم: ٢٨] . إذ فسر بعض العلماء ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ بأرض بدر وفسرها بعضهم بجهنم، وهما معا مقصودتان؛ لأن الكفر هنا يعني كفران النعمة وهو ضد الشكر «ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أنه بوأهم حَرَمَه وأمَّنهم في سفرهم وإقامتهم وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة، ثم أنعم عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه - عليه وعلى الأنبياء جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وهداهم إلى الحق، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدلوا شكر ذلك بالكفر به، فنعمة الله الكبرى هي رسالة - محمد ﷺ - ودعوة إبراهيم وبنيه - عليهم السلام» (٢) .

لقد كفر الناس بنعمة التشريع كما كفروا بالنعم المادية التي لا تحصى، والحق أن كفران النعمتين يحل الأمم والأقوام والشعوب دائما «دار البوار» الذي هو الخسران والهلاك، الذي يصيرون إليه نتيجة كفرهم وبعدهم عن الشريعة التي بها يصلح حالهم وتنضبط دولهم وسلوكاتهم ،كالدار التي يسكنونها، وذلك بيان بالتشبيه المادي المحسوس المرأي لئلا يخطئ الناس في المصيبة حين يرونها قد حلت بالوطن أو بالأمة كلها فيظنون أنها مسألة عادية وليس لهم فيها يد، إذ هم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٣ - ص ٢١٠٦ - ٢١٠٨

(٢) التحرير والتنوير ج١٣ ص ٢٢٨

أنفسهم الذين أحلوا قومهم دار الخسران حين بدلوا نعمة الله كفرا كما سنفصل في الباب الأخير.

إن الآية هنا تقدم سنة اجتماعية تاريخية ترتبط فيها المقدمات بالنتائج، لأن الحياة الاجتماعية للبشر قائمة على قوانين منظمة ودقيقة تتضافر فيها الحياة النفسية بالسلوك الاجتماعي، ويترابطان ترابطا دقيقا لا يعلم دقته إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك لم يوكل أمر التشريع للبشرية؛ لأن تشريع الإنسان لنفسه لا يملك الهيمنة على تلك العلاقات المتداخلة بعمق، فيؤدي تشريعه ـ بسبب ما يعتريه من نقص ـ إلى الفوضى والاضطراب مما يؤدي في النهاية إلى الدمار وإلى (دار البوار).

وأعتقد أن هذه العلاقات القائمة بين التشريع وطبيعة الدار التي ينزل بها الإنسان أو تحل بها الأمة هي التي تفسر لنا من الناحية الاجتماعية معنى قول الله تعالى: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧] وقوله: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٤ـ ١٢٦].

فهناك علاقة وطيدة، علاقة محكمة بين الشكر أو الكفر من جهة، ودوام النعمة أو زوالها من جهة أخرى، كما تبينه الآية الثالثة من سورة هود: ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾ [هود: ٣]، يقول قطب رحمه الله: «ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر، نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق، فلا بد أن يتحقق على أية حال فإذا أردنا أن نرى مصداقا في الحياة ونبحث عن أسبابها المدركة لنا فإننا لا نبعد كثيرا في تلمس الأسباب» (١) ويرجع سيد قطب أسباب ذلك إلى:

---

(١) في ظلال القرآن: ١٣/ ٢٠٨٩

(أ) أن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية .

(ب) إن النفس التي تشكر الله على نعمه تراقبه في التصرف بهذه النعمة، فتتصرف فيها بحكمة، بعيدا عن البطر والاستعلاء أو استخدامها في الشر والدنس والفساد.

(ج) تزكية النفس، لأن السببين السابقين، يدفعان النفس للعمل الصالح وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها فيكونون له عونا، ويصلح روابط المجتمع فتنمو الثروات في أمان .

(د) إهلاك الناس إما بعذاب دار البوار، وقد يتضمن محق النعمة عينا بذهابها أو بسحق آثارها في الشعور، وقد يكون عذابا مؤجلا إلى لحظة من لحظات الدنيا أو إلى الآخرة، فهو واقع؛ لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء[1].

وخلاصة كل ذلك أن الشكر على النعمة ليس فقط شعورا في النفس أو ترديدا للحمد بالقول، ولكنه تصرف سليم في الفعل يورث الخير تبعا لتعميق ذلك الشعور ومستواه، فالطالب الذي يتعمق إحساسه بالشكر يواظب على العمل الحسن الذي يجعل النتائج مرضية، بل يواظب على تحسين طريقة الأداء لأعماله فيكسب منهجا يعينه على إتقان العمل والتعجيل بالنتائج، وهكذا يتبين لنا من المنظور الاجتماعي أن العلاقة بين النعمة والشكر عليها أو الكفر بها علاقة سننية شديدة الترابط، ولذلك قال : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٤].

تلك هي العلاقة بين النعمة والشكر أو الكفر، ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ لقد ظلت البشرية في أكثريتها بعيدة عن الصواب مما جعل الغالبية العظمى ـ كما تبينها الآيات ـ تعيش على الكفر بالنعمة متناسية أفضال الله عليها؛ فضل الحياة بعد الموت، وفضل الهداية والتوحيد، وفضل الموعظة والتنزيل، وفضل الرزق،

---

(١) نفسه : ١٣/٢٠٨٩

وفضل التسخير، كل هذه الأفضال قوبلت من الأكثرية بالكفر وقلة الشكر أو عدمه.

ففي سورة البقرة نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

فالآية تقص باختصار خبر قوم من بني إسرائيل، الأشهر أنهم خرجوا من ديارهم فرارا من وباء الطاعون الذي نزل بساحتهم فأماتهم الله ميتة العقوبة التي تعد الحياة بعدها ممكنة، بخلاف موت الأجل التي لا حياة بعدها إلا القيامة الكبرى [١]، وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف، لأن صيغة «ألوف» جمع كثرة، ولا يقال في عشرة فما دونها ألوف[٢].

ولما خرجوا من ديارهم ﴿ **حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ تبين سوء اعتقادهم الذي ترتب عليه من الناحية الاجتماعية «تخلية البلاد، ولا تخلوا من مستضعفين يصعب الخروج منها، ولا يتأتى لهم ذلك، ويتأذون بخلو البلاد من المياسير الذين كانوا أركانا للبلاد ومعونة للمستضعفين ...فهذه فائدة النهي عن دخول أرض بها الطاعون أو الخروج منها ...قال النبي ﷺ في الوباء إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا نزل وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[٣].

ولهذا السبب استحقوا عقوبة الموت التي بقدر ما هي عقوبة تستوجب الاعتبار فهي راحة من تعب الفزع والخوف من الوباء مما يستوجب الشكر بعد الإحياء.

وهكذا يصبح عظيما؛ فضل الإماتة الذي هو أشبه بموت أهل الكهف من حيث غياب الشعور كالراقد رقدة طويلة تخلف الراحة بعد التعب، وفضل البعث والإحياء بعد الموت والرقاد الطويل.

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) نفسه ٣/ ٢٣١.

(٣) نفسه ٣/ ٢٣١.

وكل ذلك يستوجب الشكر على الأفضال والنعم، ولكن هؤلاء القوم لم يعرفوا قدر النعمة في حدودها وكفروا بالمنعم فلم يحمدوه، ولذلك ختمت الآية بقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ لقد ذيلت آية القصة بما يشبه قاعدة في السلوك والأنفس والمعتقدات تفيد التنعيم لتبين أن هذا ديدن أكثر الناس في قلة الشكر على نعمة الحياة.

وكما لم يشكر الناس ربهم على نعمة الحياة فهم لم يشكروه على نعمة الهداية وفضل الإهداء، ففي سورة يوسف نقرأ قول الله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [يوسف : ٣٨] .

الآية هنا تعرض خطَّ أهل الخير في اتباع ملة الحق، وهي التوحيد، بعد أن عرضت الآيات السابقة تجنبهم وتركهم ﴿ **مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ ثم تذيل بما يفيد أن هذا الاتباع هداية كبرى من فضل الله مما يستوجب الشكر، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ لأنهم لايدركون أن «الهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين، وهو فضل في متناول الناس جميعا لو اتجهوا إليه وأرادوه، ففي فطرتهم أصوله وهواتفه وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه»(١).

من الواضح أن الآية تشير إلى «عموم الفضل»، يتبين ذلك من قوله ﴿ **ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ** ﴾ ، فهو شامل، ولكن الشكر لم يكن من الأكثرية، وإنما كان ممن اهتدوا إلى قيمة الشكر في الحياة البشرية، ومن الواضح أن هذه الأقلية الشاكرة كانت من بيت النبوة مما يبين دور الإرث التربوي في نقل

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢/١٩٨٩ .

الخصال إلى البنين والأحفاد، وهو الأمر الذي سبقت الإشارة إليه في بيان أسباب إصرار الأكثرية على الكفر، فالهداية ليست حكرا على أحد، لكن هناك سننا تحكم المجتمعات في عقائدها كما تحكمها في نظامها الاجتماعي والأخلاقي، بحيث يرث الولد عن طريق التربية عقيدته فترسخ في نفسه، حقا كانت أو باطلا، وهذا ما يفسره الرسول ﷺ بقوله «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1]، هكذا تنتقل العقيدة من الآباء إلى الأبناء ثم إلى الأحفاد، مما جعل الأكثرية يغلب عليها طابع كفر النعمة بما في ذلك نعمة الهداية التي يتنكرون لكل أسبابها بما في ذلك أصوات الأنبياء وهي أعظمها.

ولعل الآية التالية من سورة يونس تبين ذلك بوضوح؛ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧ – ٦٠].

إن الآيات تبين – في نداء يشمل الناس جميعا– أن ما جاءهم هو موعظة ليهتدوا بها ويتعظوا بما جاء فيها، ليتحقق لهم الشفاء من داء التقليد العقدي الذي كرسته العادات وأساليب التربية التي نشأ عليها الآباء بعد أن فسدت فطرتهم، ومن ثم فإن هذه المواعظ، وهذه الآيات القرآنية رحمة ينبغي أن يفرحوا بها، ويشكروا الله عليها.

لكن الناس بدل أن يشكروا الله على هذا الرزق العظيم، تدخلوا في آياته وحرفوها في واقع حياتهم تبعا لأهوائهم التي لا مستند لها ولا دليل[2]. فجعلوا

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ١٧٩٢- ورقمه: ٤٤٩٧-١٣٥٩ وانظر صحيح مسلم: ٢٦٥٨

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٤٢١ دار الفكر.

منه حراما وحلالا وكان ذلك فرية عظيمة وكذبة كبيرة كذبوها على الله، فزادوا في تضليل الناس ووسعوا في رقعة الأكثرية مما جعل الآيات تختم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٠] فالله ذو أفضال كثيرة على الناس أفضال الهداية وأفضال الرزق، وهما سنتان تنسجمان لتعديل الحياة البشرية، إذ خالق الأرزاق هو المشرع للبشرية في كيفية استخدامها لتحقق أغراضها، وما كان لشريعته أن تخالف خلقه، ومن ثم كان الله « ذو فضل على الناس بعد ذلك برزقه وفضله ورحمته التي أنزلها في منهجه هدى للناس وشفاء لما في الصدور ليهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم الذي يزاولون به خير ما في إنسانيتهم من قوى وطاقات ومشاعر واتجاهات، والذي ينسقون به بين خير الدنيا وخير الآخرة، كما ينسقون به بين فطرتهم وفطرة الكون الذي يعيشون فيه ويتعاملون معه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك، فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه وإذا هم يشركون به غيره ثم يشقون في النهاية بهذا كله، يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذي هو شفاء لما في الصدور » (١) .

وموقف الأكثرية يظل هو هو لا يتغير، فكما أنهم لم يشكروا الله على أفضاله في الهداية والشريعة والخلق والحياة فإنهم لم يشكروه على الرزق المادي الذي ينتفعون به في كل حين، ففي سورة النحل نجد الآيتين الآتيتين : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل : ٧١-٧٢] .

موضوع الآيتين هو النعم وموقف الناس منها، ولكن الآيتين لا تستخدمان

---

(١) في ظلال القرآن : ج ١١ / ص ١٨٠٢-١٨٠٣ .

لفظ « الأكثرية » الذي بنينا عليه الدراسة؛ وإنما اكتفتا بضمير الجماعة في السؤالين الأساسيين في سياقهما وهما قوله:

١- ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

٢- ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

ويبقى اللفظ ليتأخر في سياق السورة لغاية الآية (٨٣) ليعرض الموضوع في أسلوب خبري هكذا ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل : ٨٣].

وهكذا يتجلى لنا من ترابط هذه الآيات كيف يكون موقف الأكثرية من نعم الله دائما هو الجحود والكفر، ففي الآيات الأولى يتداخل التفاضل بين بني الإنسان الذي قد يكون الهدف منه هو الابتلاء والامتحان، مع رزق الجو الأسري الذي يتميز به الإنسان على أجناس الحيوان، مما يبين قيمة هذه النعمة التي تستوجب الشكر، ولكنها قوبلت بالباطل وكفر النعمة وجحودها، وفي الآية الأخيرة يبين أن هذه الأكثرية لم تكن تكفر عن جهل بالحقيقة التي تصدر عنها هذه النعم، حتى توجه عبادتها لغير جهتها الصحيحة، وإنما كانت تعرف نعمة الله وتنكرها عنادا، وذلك مما جعل فعلهم كفرا صريحا ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ إذ ليس بعد هذه الأدلة الحسية والبراهين المادية التي تليق لإقناع حتى البليد الذي فقد القدرة على الإدراك المعنوي إلا هذا الحكم عليهم، والذي يبين أن كفرهم ناجم عن العناد بعدما تحقق أنهم يعرفون مصدر جميع أنواع النعم التي سخرها المولى تبارك وتعالى للإنسان.

ولعل الآية الواحدة والستين من سورة غافر تكشف عن جانب آخر يوضح موقف الأكثرية من النعم المسخرة للإنسان، يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر : ٦١].

الله الذي خلق الإنسان يعلم مقدار حاجته إلى الراحة والسكون، ويعلم

حاجته إلى السعي في الأرض لتحقيق أسباب العيش، ولذلك سخر له ما في هذا الكون من أسباب تيسر له سبل العيش وطريق الراحة والسكون، فكما خلق له على المستوى الاجتماعي زوجة ليسكن إليها، فقد جعل له في الحركة الزمانية للكواكب فترة الليل ليسكن فيها فيجد راحته، وفترة النهار مبصرة ليسعى فيها لجلب الرزق، وهكذا نجد «تقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم، ولو كان أحدهما سرمدا، بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة، فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس»(١).

إن الإشارة إلى أن أكثر الناس لا يشكرون على فضل التسخير الكوني للإنسان تبين أن الإنسان يعيش إما على الغفلة الناجمة عن بلادة في الحس، وموت في الشعور، وإما على جحود وكفر بالنعمة على الرغم من ظهور آثارها لكل ذي عقل، ذلك لأن كل عاقل يدرك «أن بناء هذا الكون على القاعدة التي بناه الله عليها ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته، وهو الذي جعل الليل مسكنا له وراحة واستجماما والنهار مبصرا معينا على الرؤية والحركة»(٢).

ولكن الإنسان – بسبب الغفلة وبلادة الحس– عطل عقله في تأمل الكون فلم يدرك هذه النعم، وترتب على ذلك قلة الشكر، بل إن الآيات التابعة لهذه الآية تبين أن تاريخ البشرية يثبت أن الإنسان أفاك وكذاب وجحود لنعم الله، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [غافر: ٦١–٦٣]، فالناس يصرفون عن تأمل الآيات، ويصرفون عن شكر الله

---

(١) في ظلال القرآن: ج ٢٤ ص ٣٠٩٤.

(٢) نفسه ٢٤/٣٠٩٢.

على نعمه في كل زمان بلا سبب ولا حجة ولا برهان، وإنما يفعلون ذلك لأنهم ﴿ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، فليست مشكلة الإنسان في عدم المعرفة والوقوف على الأدلة وإنما مشكلته الأساسية في الجحود، وذلك ما نصت عليه آية أخرى بوضوح : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٦-٨] ، هذا هو طبع الإنسان الذي يقْسم الله عليه بقوله ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ... ﴾ ، إن الذي يقسم الله عليه في هذه السورة هو «حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان .. إن الإنسان ليجحد نعمة ربه وينكر جزيل فضله ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة ... هذا طبعه، مالم يخالط الإيمان فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا»(١).

وخلاصة القول : إن الأكثرية في تاريخ البشرية تصنف من حيث العقيدة - مع كل أسف - في خانة الكفر بنوعيه : كفر العقيدة إذ أكثر البشر لا يوحدون الله ولا يخلصون له عبادتهم ، وكفر النعمة ، إذ لايشكرونه على أفضاله الكثيرة التي بينها قول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾.

وسبب توجه الأكثرية لطريق الكفر يعود للطبع الذي طبع عليه ابن الإنسان في الحياة إما نتيجة انهماكه في ملذات الدنيا فأنساه الشيطان ذكر ربه فأصبح من الغافلين، وإما نتيجة الإرث الذي رسخته فيه أساليب التربية العقدية التي نشأ عليها في مجتمعه .

وهو لهذين السببين يعرف تماما هذا الخلق في بنيته النفسية، ويشهد على كنوده لربه، والكنود في اللغة الكفر بالنعمة والعصيان لله.

ولما كانت الصفة الغالبة على البشر هذه، فإن الله سبحانه وتعالى قد أقسم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج٣٠/٣٩٥٨

له بذلك ليوجه نظره إلى هذا الطبع لعله يعمل على تربية نفسه وذريته على خلق الشكر والتوحيد لصاحب الفضل الأكبر فقال : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** ﴾

[العاديات : ١ – ١١]

ولعله لقيمة هذه السورة في بيان صلب هذه المشكلة الإنسانية قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة العاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا »، ذلك لأن موضوعها كما يقول البقاعي هو « الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم وهو العاديات والمقسم عليه وما عطف عليه وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك لما هدى إليه القسم والمقسم عليه »[1].

* * *

(١) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٨ ص ٥٠٨

• المبحث الثاني : انتفاء الإيمان عند الأكثرية

ينتفي الإيمان عند الأكثرية كنتيجة طبيعية للكفر العقدي وكفر النعمة، إذ هما وجهان لعملة واحدة، فكل كفر يقابله انتفاء الوجه المقابل؛ كفر العقيدة يقابله عدم الإيمان بالغيب، وكفر النعمة يقابله عدم الشكر للمنعم.

وسنلاحظ ونحن نتتبع كتاب الله آية آية أن القرآن ينفي الإيمان على الأكثرية من وجوه مختلفة، مع وجود أسباب الإيمان وتوافرها لمن هدى الله ممن يبحث عن الهداية؛ وجود أسباب حسية، وأسباب تاريخية، وأسباب عقلية، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، ففي سورة هود نقرأ قوله تعالى : ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [هود : ١٧] في الآية كلمات مشعة في سياق ما نحن بصدد بيانه من موقف الأكثرية من مسألة العقيدة، فهناك « البينة » و« الشاهد » و« كتاب موسى » و« كفر الأحزاب » و« الحق » وكلها كلمات تتضافر على بيان شيء واحد هو أن كثرة الأدلة والآيات التي يفترض أن تسوق الناس إلى الهداية والإيمان لم تغن في ذلك شيئا، وظلت الأكثرية على غير الإيمان.

والعلماء والمفسرون الذين يعتمدون المنهج التحليلي تستوقفهم كثير من جزئيات هذه الآية، والراجح أن المقصود بالذي هو على بينة من ربه هو النبي ﷺ ومن آمن معه واهتدى بهديه ، والبينة هي القرآن ، والشاهد هو السنة المطهرة، وقد يكون هو أدلة الإعجاز المتضمنة فيه، على أن قطب فسر الشاهد بالقرآن وبهذا يصبح « المعنى الكلي للآية : أفهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه، حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه، وحيث يعتبر شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني، وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله هو كتاب موسى الذي جاء

إماما لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم وهو يصدق رسول الله ـ ﷺ ـ بما تضمنه من التبشير به، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله .. يقول :أفمن كان هذا شأنه يكون موضعا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات ..»[1].

والذي نستنتجه من كل ذلك هو أن كل هذه البراهين والدلائل العقلية والنقلية من القرآن والسنة والتوراة لم ينتفع بها الناس وظلوا في «مرية» وشك، وكانت النتيجة أن ﴿ **أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ على الرغم من تضافر هذه الشواهد العقلية ، فالعرب الأقحاح كان القرآن يتلى عليهم وهم من أفصح الناس، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وكان الأولى بهم أن يؤمنوا بهذه المعجزة، ولكن أكثرهم لم يؤمنوا حتى مر على الدعوة أزيد من اثنتي عشرة سنة وجاءت غزوة بدر وعدد المؤمنين لم يزد على ثلث الكفار الذين جاءوا من مكة للقضاء على هذه الثلة القليلة من المؤمنين فهزمهم الله ونصر عبده ومن سار على هديه.

واليهود ـ عليهم اللعنة ـ كذلك كانوا يعيشون بالمدينة وكان التوراة يحمل دلائل النبوة المحمدية، ولكنهم عموا وصموا فلم ينفعهم شيء من تلك البينات وظل أكثرهم على الكفر بالنبي ﷺ وما جاء به .

وقد كانت النتيجة التي آل إليها أمرهم جميعا هو بقاؤهم على الكفر الذي ساقهم إلى النار ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ والتعبير بلفظ «الأحزاب» يفيد جمع المجموع، فالحزب في حد ذاته كثرة وجمعه على «الأحزاب» يفيد كثرة الكثرة، ونحن حينما نتذكر حشود اليهود الذين كانوا في المدينة ندرك تلك الكثرة فضلا عن القبائل العربية الكثيرة التي لم تؤمن إلا بعد النصر المبين في فتح مكة، عندئذ فقط نلاحظ الدخول إلى الإسلام أفواجا:

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢ / ١٨٦٤

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١-٢] فلفظ «أفواجا» هنا يقع في مقابل لفظ «الأحزاب» هناك، وهذا يطرح مشكلة بالنسبة للنظرية التي نحن بصدد إثباتها، إذ يوحي بوجود تناقض بين ما آل إليه أمر الناس بعد فتح مكة وما تشير إليه الآيات من أن أكثر الناس لا يؤمنون.

والواقع أن الناس يغلب عليهم طابع البلادة في الغالب فلا يؤثر فيهم، أو يوقظ شعورهم إلا الوقائع الحسية الكبرى التي تزلزلهم زلزلة، فينتبهون من نومهم ويثوبون إلى رشدهم. ويدل على ذلك ما جاء على لسان ابن كثير من أن «أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة»(١).

فدخول الناس أفواجا كان بسبب هذا الحدث التاريخي الكبير، ولكن هذا الأمر يخضع لقاعدة نفسية تخضع لعاملي البلادة من جهة، والتقليد من جهة ثانية، ولذلك يلعب دورا في التوجيه العقدي سلبا وإيجابا، وهو ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا»(٢).

والتجربة التاريخية التي عاشها المسلمون شاهدة على ذلك، فقد دخل الناس في الإسلام أمما من جاكرتا شرقا إلى الأندلس غربا، ولكن جاءت دورة تاريخية خرجوا منه دولا، وبدلوا بنظام الإسلام أنظمة مختلفة المشارب من اشتراكية وشيوعية وامبريالية وليبيرالية، ومعظم هذه الدول لا يزال يبحث عن مخرج، لولا أن الدعاة وضعوا يد الشعوب على الداء وبحثوا عن الدواء وأخذوا ينعتون للناس طريق الحق فشرعوا في العودة إلى الإسلام أفرادا، وعسى الله أن يعين فيعودون أفواجا.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/٥٦٣.

(٢) نفسه ٤/٥٦٣.

لكن ذلك سيبقى أملا نرجو أن تتجدد قوة المسلمين به، أما النص القرآني فإنه يؤكد مسألة الأكثرية في الطرف الذي يمثل السلبية، ففي سورة الرعد تفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿ **الَمر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الرعد: ١] هاهي الآية تؤكد أن أكثر الناس لا يؤمنون، على الرغم من أن القرآن الذي يحمل لهم رسالة ويأمرهم بالتكليف والإيمان هو نفسه الذي يتضمن الآيات الدالة على صدق النبي محمد ﷺ، وأن الذي أنزل إليه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بما دلت الأدلة على الإيمان به، فمن أجل هذا الخلُق الذميم فيهم يستمر النزاع منهم في كونه حقا. لأن أصل كفرهم بالقرآن ناشئ عن تمسكهم بالكفر وعن تطبعهم بالاستكبار والإعراض عن دعوة الحق»(١).

وتلتقي هذه الآية من سورة الرعد بالآية السابقة من سورة هود في أمر واحد هو أن الأكثرية لا يؤمنون مع إقامة الحجة القرآنية عليهم، من حيث هي معجزة كبرى تضافرت فيها أوجه الإعجاز المختلفة، فآية سورة هود تسوق الأمر كما يلي: ﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾، وآية الرعد تعرضه بقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾.

ولو تساءلنا عن السبب لوجدنا آية يوسف تبينه بوضوح بقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠٢، ١٠٣].

يشبه إعراضهم عن الآيات الحسية التي يمرون بها مرور البليد الذي فقد الإحساس بما حوله من الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقد عبرت عن الكثرة هنا بلفظ «كأين» للدلالة على كثرة الآيات لأن ذلك من شأنه أن يحرك

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ١٣ / ٧٩

الأحاسيس نحو علامات الهدى، ولكن النتيجة كانت دائما واحدة، وهي أن أكثرهم لا يؤمنون إلا وهم مشركون، وهذا بيان بأن «إيمانهم بالله كالعدم؛ لأنهم لايؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية»[1].

وتؤكد الآيات القرآنية هذه الحقيقة في سورة الشعراء ثمان مرات [2]، ولكن التأكيد هنا لا يتناول الأدلة الحسية التي تستمد قوتها من الطبيعة، وإنما يتناول الأدلة التاريخية، ولم نجد في سورة الشعراء سوى آية واحدة تتوقف عند الأدلة الحسية هي قول الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

وقد جاءت هذه الآية لتشير إلى الآيات الحسية المتعلقة بالحياة النباتية التي تعد نموذجا حيا لبيان قدرة الله على الإحياء للموتى، إذ تتكرر عملية الإنبات كل عام مرات، يراها الإنسان ويقف عليها وقفة المجرب الذي يستخدم المنهج الحسي في إدراك حقائق الأشياء، وهو منهج أقوى من المنهج العقلي الذي يقوم على التحقيق البرهاني، وهو تحقيق تتوقف صحة نتائجه على صحة المقدمات، أما المنهج الحسي التجريبي فيتوصل المرء إلى نتائج بحثه عن طريق التجربة التي يمكن أن يكررها مراراً حتى يستيقن من طبيعة ما توصل إليه .

فالآية إذ تدعوا الناس إلى أن يستعملوا حواسهم لإدراك هذه الحقيقة النباتية المتكررة ﴿**كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾ تعقب على ذلك بأن أكثرية البشر لا يستخدمون حواسهم، ولذلك ظل أكثرهم لا يؤمنون على الرغم من قوة هذه الأدلة.

وهكذا نجد أن «المنهج القرآني في التربية يربط بين القلب ومشاهد هذا الكون، وينبه الحس الخامد، والذهن البليد، والقلب المغلق إلى بدائع صنع الله المبثوثة حول الإنسان في كل مكان، كي يرتاء هذا الكون الحي بقلب

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٦٣

(٢) سورة الشعراء: (٨-٦٧-١٠٣-١٢١-١٣٩-١٥٨-٧٤-١٩٠).

حي»[1] ولكن في النهاية نجد القرآن يعقب على ذلك بأن أكثر الناس بلداء، ليس لهم ذلك الحس الذي يرتادون به الكون بقلب حي مما يجعل أكثرهم لا يؤمنون.

إن هذه الآية من سورة يوسف، جاءت لتختم الغرض من عرض قصة يوسف، وهو أن كثيرا من أخبار القصة كان غيبا لا يعلمه إلا الله؛ لأن من كانوا يحركون الأحداث في القصة كانوا يعتمدون أسلوب الكتمان، لئلا تكتشف جرائمهم، كان ذلك هو أسلوب إخوة يوسف، وكان ذلك هو أسلوب زوجة العزيز، ولهذا عقب على القصة بقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ لقد كان كل شيء غيبا لأنه كان مكرا، ومن شيمة الماكرين التخفي حتى لا يفضح أمرهم.

ومع أن هذا كله كان غيبا فإن المفروض أن يؤمن الناس بمحمد ﷺ حين يقص عليهم دقائق هذا الغيب التاريخي من حياة البشر، ولكن العناد منعهم من الإيمان فعقبت الآية على ذلك بقوله ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ لكي تبين للرسول ﷺ أن القاعدة النفسية التي بنيت عليها الطبيعة البشرية هي التكذيب وعدم الإيمان، ليس فقط بالنسبة لعالم الغيب الأكبر، ولكن أيضا بالنسبة للغيب الأصغر كالتاريخ، والأنباء المستقبلية، وعليه فإن حرص الدعاة مهما كان ليس من شأنه أن يغير من طبيعة الناس إذا تطبعوا على السلوك الذي يفضي بالنفس إلى أن تتورط فيما يزيدها بعدا عن الحق، والإيمان، والإسلام، وماذا يجدي الحرص إذ لم تجد الآيات والمعجزات في تحسين هذه القلوب، «فالواو للعطف على جملة ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ باعتبار إفادتها أن هذا القرآن وحي من الله وأنه حقيق بأن يكون داعيا سامعيه إلى الإيمان بالنبي ﷺ، ولما كان ذلك من شأنه أن يكون مطمعا في إيمانهم، عقب بإعلام النبي ﷺ ـ بأن أكثرهم لا يؤمنون»[2].

---

(١) في ظلال القرآن ١٥ / ٢٥٨٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٦١

وقد تكرر الأمر نفسه في السورة نفسها تأكيدا لهذه الحقيقة العقدية، بعد هذه الآية مباشرة، إذ قال تعالى بعد ذلك ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٦]

فالآية هنا معطوفة على الآية السابقة لبيان إعراضهم عن الآيات القرآنية التي يأتي بها رجل أمي لا علاقة له بعلم الآثار والتاريخ، لكنها تحمل دقائق أخبار الأمم السابقة.

إن التأكيد على أن أكثر الناس لايؤمنون في سورة الشعراء ثمان مرات له سببه، إذ أن مقدمة السورة تبين أن النبي محمدا ﷺ قد بخع نفسه غضبا من أنهم لم يؤمنوا ﴿ **طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [سورة الشعراء : ١-٣]، أي لعلك تنهك نفسك وتهلكها من غضب وغم حرصا على إيمانهم، وهذا « يصور مدى ما كان رسول الله ﷺ يعاني من تكذيبهم وهو يوقن بما ينتظرهم بعد التكذيب فتذوب نفسه عليهم »[١].

ومن أجل ذلك تأتي الآيات الموالية لتبين للرسول ﷺ حقيقة هامة في حياة البشرية، وهي أن بالإمكان أن تنزل عليهم آية تكرههم على الإيمان، ولكن الله لا يعامل البشرية على هذا الأساس ﴿ **إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [الشعراء : ٤] .

والإشارة هنا إلى الآية المادية؛ لأنها أكثر دلالة على القوي الجبار، بالنسبة للبليد الذي لا يحرك إحساسه وشعوره سوى مثل هذه الآيات المادية الخارقة للعادة، ولكن المولى تبارك وتعالى « لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة ـ كما فعل مع بني إسرائيل إذ نتق الجبل فوقهم كأنه ظله ـ لقد جعل آيتها القرآن منهاج حياة كاملة معجزا في كل ناحية معجزا في بنائه التعبيري وتنسيقه

---

(١) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٨٤

الفني باستقامته على خصائص واحدة في مستوى واحد لا يختلف ولا يتفاوت ولا تتخلف خصائصه... يدل على مصدره الذي لاتختلف عليه الأحوال، معجزا في بنائه الفكري وتناسق أجزائه وتكاملها فلا فلتة فيه ولا مصادفة، كل توجيهاته وتشريعاته تلتقي وتتناسق وتتكامل وتحيط بالحياة البشرية وتستوعبها وتلبيها وتدفعها دون أن تتعارض جزئية واحدة من ذلك المنهج الشامل الضخم مع جزئية أخرى، ودون أن تصطدم واحدة منها بالفطرة الإنسانية أو تقصر عن تلبيتها، وكلها مشدودة إلى محور واحد وإلى عروة واحدة في اتساق لا يمكن أن تفطن إليه خبرة الإنسان المحدودة، ولا بد أن تكون هناك خبرة مطلقة غير مقيدة بقيود الزمان والمكان هي التي أحاطت به هذه الإحاطة ونظمته هذا التنظيم، معجزا في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس .. واستجابة مواضع التأثر والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدها ومشكلاتها في يسر وسهولة عجيبين .. لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة، ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضها وتضطرها إلى التسليم، ذلك لأن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها وللأجيال كلها وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، والخوارق ـ المادية ـ لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى»[1].

إن الآية المادية إذا نزلت ستظل أعناق الجاحدين خاضعة لها خوفا لا إيمانا؛ لأن الإيمان له منهج آخر غير القهر، له منهج يحرك القلوب التي تملك الاستعداد للاستجابة الفورية بمجرد إدراك الحق.

ولكي يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة لرسوله ﷺ، الذي ذهبت نفسه حسرات على الذين لا يؤمنون، استعرض نماذج تاريخية متعددة، وكلها تقدم صورا عن مجتمعات جاءها رسلها وأنبياؤها بمعجزات مادية ولكنها لم تنتفع بها وكان موت أكثرهم على الكفر، فعرض قصة فرعون ثم قصة نوح، ثم هود، ثم

---

(١) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٨٤ – ٢٥٨٥ .

قوم صالح ثم قوم لوط ثم قوم شعيب، وكلما عرض تاريخ أمة من هذه الأمم عقب عليها بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١).

وعلى سبيل المثال عندما عرض قصة فرعون ختمها بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٥٢-٦٧]

فهذا الجزء من قصة فرعون نموذج حي للشعوب التي تتعامل مع المعجزات المادية من منطلق العناد والمكابرة، وهي تدل على طبع أكثرية البشر، إذ أننا نلاحظ أن فرعون يقدم لنا أتباع سيدنا موسى في صورة تمثل القلة ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ فقط هذه القلة هي التي عرفت الحقيقة فاتبعتها دون مكابرة، أما الباقي فلم يستفيدوا من تلك الآية، بل الآيات التي كان آخرها انفلاق البحر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

« فالآيات الخارقة لا تستتبع الإيمان حتما، وإن خضع الناس لها قسرا، إنما الإيمان هدى في القلوب »(٢). ولكن لما كان الغالب على البشرية هو بلادة الحس والشعور فإن النتيجة هي أن أكثرهم لا يؤمنون مهما كانت قوة الخوارق المادية مؤثرة على الحس، لأن المسألة لا تتعلق بالرؤية البصرية، وإنما تتعلق بالرؤية

---

(١) الشعراء : ٦٧-١٠٣-١٢١-١٣٩-١٥٨-١٧٤-١٩٠ .

(٢) في ظلال القرآن ١٩ / ٢٥٩٩ .

القلبية، وأغلبية الناس ممن تعطلت قلوبهم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

وقصة نوح تؤكد الفكرة نفسها، فبعد استعراض تاريخ نوح مع قومه ينتهي الأمر على الشكل التالي: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦ - ١٢١].

هكذا تنتهي القصة لتبين أن أتباع نوح كانوا قلة قليلة، هم فقط الذين شحنتهم السفينة ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾، أما الباقي فقد عصوا رسولهم ولم ينتفعوا بتلك الآيات الحسية التي جاءهم بها رسولهم نوح عليه السلام ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وتأتي قصة ثمود فإذ هي تنتهي بقوله تعالى: ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤-١٥٨].

«هكذا طلبت ثمود تلك الخارقة فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة ... فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين؟ إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة، ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها»(١). لقد كانت النتيجة واحدة لذلك جاء التعقيب واحدا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وتأتي قصة قوم لوط لنجدها تختم بقوله تعالى: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ *

---

(١) في ظلال القرآن ١٩/٢٦١٢

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٩-١٧٤] .

هكذا تنتهي قصة قوم لوط لتبين أن الناجين لم يزيدوا على أهل لوط عليه السلام بل حتى تلك العجوز زوجته كانت مع القوم الضالين فنالها ما نال الأكثرية من العذاب، وكان التعقيب هو هو لم يتغير.

وتأتي بعد ذلك أخيرا قصة أصحاب الأيكة، الذين كذبوا شعيبا لتختم تلك المشاهد كلها ولتؤكد القاعدة التي كانت عليها المجتمعات البشرية ولا تزال: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ١٨٧-١٩٠] .

تلك هي المشاهد التاريخية يعرضها القرآن الكريم في سياق واحد ليدل على هذه القاعدة الأساسية التي تحكم سلوك البشرية كلها، ليدل على أن الأكثرية لا يؤمنون مهما كانت قوة الأدلة والبراهين المادية، لأن المسألة ليست مسألة آيات بينات قاهرة، ولكن المسألة تكمن في طبيعة البشرية، وفي البناء النفسي الذي طبعت عليه، ويؤكد هذا ما جاء في السورة نفسها تعبيرا عن الحال الملازمة للإنسانية حتى في مقام الحساب والعقاب، إذ قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٩٠-١٠٣] .

إنها خاتمة البشرية كلها تقص علينا بإيجاز شديد لتنكشف النتيجة التي سيئول إليها أمر الأكثرية، فإذا هي تندم على السلوك الذي سلكته مع أنبياء الله ورسله، وتتمنى لو تتاح لها فرصة أخرى ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكنها ندامة في غير موضعها، لقد جاءت بعد فوات الأوان، بعد أن كُبكب الناس الغاوون وجنودُ إبليس أجمعون في الجحيم المقيم، حيث لا مرد، لأنهم حتى لو رجعوا إلى الدنيا لما نفعهم ذلك، ما دامت النفس التي يتعاملون بها مع الواقع لم تتغير، وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام : ٢٨] وهوالقائل : ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ..... أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون : ٩٩-١٠٧]

إن الناس بعد الموت سيتمنون العودة إلى دار الدنيا ليعملوا الصالحات، ولكن هذا التمني من جهة لا معنى له، لأنه خارج عن سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ومن جهة هم أنفسهم ليسوا متيقنين من صلاحهم إن عادوا، وذلك ما يفهم من قولهم «لعلي» ثم إن الله يبين أنهم كانوا قد رأوا الآيات وكذبوا بها، ولذلك يوبخهم قائلا : ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيردون معتذرين ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ وهذا إقرار منهم بأنهم اتبعوا لذاتهم وأهواءهم، فسموا اللذات والأهواء شقوة لأنهما يؤديان إليها، وقيل حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق هو الشقوة التي أدت بهم إلى الضلال عن الهدى(١) .

إن قول هؤلاء الناس يوم القيامة ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٥٣

هو الذي يفسر هذه الطبيعة البشرية التي تجر الأكثرية إلى الهلاك، إن الذي غلب على النفس هو أسباب الشقاء، هو الملذات والأهواء التي تغطي القلب وتحجبه عن رؤية الحق، وهي نفسها التي يفسرها قول الله تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] ، وقد فصلنا القول في هذا الأمر في كتاب «التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا».

وإنما نؤكد هنا أن قولهم ﴿ **رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ** ﴾ كقولهم في سورة الأنعام ﴿ **يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ٢٧– ٢٨].

فالآيات هنا تبين حقيقة واحدة وهي أن ثبات هؤلاء على الكفر سنة لا تتغير، لأن المقدمات تسوق حتما إلى النتائج، وعليه فإنهم لو رُدوا إلى الدنيا بتلك النفوس نفسها لكانت مواقفهم من أمر البعث مطابقة لمواقفهم السابقة، لقد غلبت عليهم شقوتهم فلم يملكوا الفرار منها، فصارت كالقدر المحتوم، وما هي بالقدر وإنما هي السنن تقوم على قوانين مضبوطة لا تعرف التبديل ولا التحويل، فالشقوة تعني خبث نفوسهم، وتمكن الشهوات من قلوبهم، فلم يستطيعوا أن يقاوموا دواعي الهوى والشهوة حتى أصبحوا لا همَّ لهم إلا بطونهم وفروجهم وأمر دُنياهم ... وتلك الشهوة غلبت دعوة الدعاة من الأنبياء والرسل، وغلبت الكتب وما نزل فيها، تقرأ عليه الآيات فيكذب، ويوعظ ويحذر، ويبشر وينذر فلا يستمع إلى شيء من هذا أبدا فهم يعترفون بأن غلبة الشقوة علينا ليست بسبب كوننا لم نسمع القرآن أو لم نقرأه أو لأننا لم نؤمر ولم ننه، وإنما شقوتنا هي التي غلبتنا وكنا عن الصراط ضالين (١).

إن اعتراف البشرية يوم القيامة بأن غلبة الشقوة على النفوس هي التي

---

(١) إبراهيم بيوض : في رحاب القرآن : ج٥ ص ٢٧٢–٢٧٣

قادتهم إلى الضلال وما ترتب عليه من ضياع دنيوي وأخروي يؤيده نص آخر جاء في سورة يس هو قوله تعالى : ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس : ٧]، قال ابن عاشور : «هذا تفصيل لحال القوم الذين أرسل محمد ﷺ لينذرهم، فهم قسمان : قسم لم تنفع فيهم النذارة وقسم اتبعوا الذكر وخافوا الله فانتفعوا بالنذارة، وبيَّن أن أكثر القوم حقت عليهم كلمة العذاب، أي علم الله أنهم لا يؤمنون بما جبل عليه عقولهم من النفور عن الخبر فحقق في علمه وكتب أنهم لا يؤمنون، فالفاء لتفريع انتفاء إيمان أكثرهم على القول الذي حق على أكثرهم ، و«حق» بمعنى ثبت ووقع فلا يقبل نقصا»(١).

والشيخ ابن عاشور يبدو كما لو أنه قد جعل هذه الحال التي حقت على الأكثرية راجعة إلى الجبلة، فهم في رأيه لا يؤمنون بسبب ما جبل الله عليه عقولهم من النفور عن الخير، والأمر ليس كذلك، إنما مرجعه إلى السنن التي أودعها الله في خلقه بحيث تصير النفس إلى الحال التي نماها عليها صاحبها، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٧-١٠] .

فالناس جبلوا على الفطرة البيضاء فمنهم من زكى نفسه فدعم تقواها التي جبلت عليه، ومنهم من دساها ولوثها فدعم الفجور الذي لها الاستعداد له، ويؤيد ذلك ما جاء في سورة يس بعد ذلك بمثابة تعليل للحق الذي ثبت على الأكثرية، إذ قال تعالى ـ شارحا سبب تلك النتيجة : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس ٨-١١]

---

(١) التحرير والتنوير : ٢٢ / ٣٤٨-٣٤٩

وقد فسر الشيخ ابن عاشور الجعل بأنه «هنا حقيقة، وهو ما خلق في نفوسهم من خلق التكبر والمكابرة»[1]، وهذا تفسير يبين أن سبب أن حق القول على الأكثرية بأن لا تؤمن إنما مرده إلى التكبر والمكابرة وهو مرض نفسي اكتسبته النفس من جراء ما تعودت عليه فنشأت تنشئة تمنعها من الإذعان للحق والرجوع إليه.

وانتفاء الإيمان على قلوب الأكثرية شامل للإيمان بالله والإيمان بالساعة، فكما أنهم لا يؤمنون بالله على الرغم من الأدلة القوية التي تحسها كل الأبصار والعقول، فإنهم لا يؤمنون بالساعة، يقول المولى جل جلاله: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [غافر: ٥٩] والساعة هنا بمعنى القيامة، والمعنى أن القيامة آتية لا محالة، لا شك فيها ولا مرية، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئها، ولذلك ينكرون البعث والجزاء، وذهب الرازي إلى أن المقصود بأكثر الناس هنا الذين ينكرون البعث والقيامة[2]، وكأنه يجعل الأكثرية مصروفة إلى نسبة ما غير نسبة هذه الأكثرية إلى البشرية كلها، وهذا ليس صحيحا، لأن الأسلوب القرآني لا يعرف المبالغة، فهو حين يقول «أكثر الناس» فإن ذلك ينبغي أن يصرف إلى نسبة المكذبين لعدد سكان الأرض من لدن آدم إلى يوم القيامة، ولو فكرنا قليلا على مستوى البشرية اليوم لوجدنا نسبة المكذبين مرتفعة جدا.

نعم هناك إحصائيات غربية ترى أنه «حتى في أروبا الغربية لا يمكننا أن نسلم بإلحاد على مستوى الشعب، إذ بحسب استفتاء في الرأي تم عام ١٩٨٧ فإن في الولايات المتحدة هناك ٩٤ بالمائة من الأمريكيين يؤمنون بالله، وفي ألمانيا، هناك ٧٠ بالمائة من الألمان يؤمنون بالله مقابل ١٣ بالمائة يرفضونه وفي بريطانيا العظمى بحسب الساندي تايمز (sindqy times)، والساندي تلغراف sundqy Telegrqph هناك ثلاثة أرباع الأشخاص الذين خضعوا للاستفتاء عام

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٥٠.

(٢) انظر تفسيره لآيات سورة يس ٨-١١.

١٩٩٠ يومنون بوجود قوة فائقة الطبيعة، لا شك أن كل ديانة غربية هي في مواجهة جذرية مع مسألة العلمنة إلا أن المجتمع الغربي العلماني لا يعني بالضرورة غياب الدين »[١].

هذا هو الكلام النظري الذي يمكن أن يبرر الاعتقاد بأن نسبة المؤمنين في الغرب أو حتى في العالم كبيرة، ولكن هذا الكلام سيظل كلاما نظريا، لأن واقع المجتمعات يثبت أن الاكثرية لا تؤمن، ألا ترى أن سكان العالم اليوم يزيد على ستة ملايير، ليس فيها سوى المليار الواحد من المسلمين بالانتماء أما المسلمون المطبقون فلعلهم لا يزيدون على ربع المليار، ولعل الربع كثير.

ثم إن النسبة التي يتحدث عنها هانس كينغ في النص السابق تتعلق أساسا بالإيمان بوجود قوة تتحكم في العالم غيبية، أما المعرفة الحقيقية بالله وتوحيده والإيمان به والعمل بتشريعه، فهذا يقتضي الإيمان بالبعث وما يترتب عليه من جزاء، والكتب وما تأتي به من تشريعات، وهذا الذي يكاد يختفي في الفلسفة الغربية كلها، إذ « هنالك بعض الفلاسفة ممن يصرون من جديد في حوارهم أحيانا مع فلاسفة على وجود عصر ما بعد الميتافيزيقا، ويعتمدون فكرا يتخطى الميتافيزيقا (هابرماس) كي يبلغوا من خلال ذلك أخلاقا مبنية على العقل فحسب، لقد ترعرعنا في عصر ومحيط فكريين جردا الدين من أهليته، فاعتبر الدين (كانعكاس) أو (كتغريب) (فيورباخ) أو (كقمع) اجتماعي أو (كأفيون للشعب) - ماركس- أو كعامل (انكفاء) أو كعدم نضج نفسي (فرويد)، وبالتالي تخطاه الزمن »[٢].

كل هذه الفلسفات لا تؤمن بالغيب مطلقا، ومن بين عناصره الأساسية الإيمان بالساعة، ولو أنهم آمنوا لبرز ذلك في مؤلفاتهم على مستوى المقتضيات

---

(١) هانس كينغ : مشروع أخلاقي عالمي ص ٩٠ تعريب جوزيف معلوف وأرسلا عساف المكتبة البوليسية لبنان ط١ ١٩٩٨ .

(٢) نفسه : ٨٨ .

المترتبة عن الإيمان بالبعث، ولكن ذلك لم يحدث، بل هناك إصرار كبير على العلمانية كمذهب جديد للحياة غطى فلسفة القرن التاسع عشر والعشرين.

وهكذا يتجلى لنا أن مفهوم الأكثرية التي تؤمن بالساعة يعبر عن نسبة حقيقية، وليست نسبة مجازية، ويعبر عن نسبة تتعلق بالحياة البشرية فوق كوكب الأرض من لدن أبيهم آدم إلى قيام الساعة.

ويؤيد ذلك آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١-٢]

فالناس - كما يقول سيد قطب رحمه الله - «يواجهون اقتراب الحساب بالغفلة وأمثال هؤلاء موجود في كل زمان، فحينما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن» (١).

ويترتب على انتفاء الإيمان بالله، والإيمان بالساعة استهتار بالأخلاق والقوانين والتشريعات التي ارتضاها الله نظاما لعباده، يصلح حالهم تبعا للاهتمام بها، ويفسد تبعا لإهمالها، وعلى هذا جاء قوله تعالى ليثبت قاعدة الأكثرية في مجال مراعاة العهود والمواثيق: ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٠٠].

إن السياق الذي جاءت فيه هذه الآية يحيل على بني إسرائيل، ومعناه أن الأكثرية التي تنبذ العهود ولا تراعيها هنا، هي اليهود، ومن الواضح أن العهود تنبذ من فريق فقط ﴿ **نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾، ولكن سكوت الباقي على الباطل يدخلهم في الدائرة نفسها، ولذلك جاء الأسلوب معتمدا على الاضراب بالحرف «بل» ليبين أن ذلك النبذ مشترك بين الأكثرية لأنها لا تؤمن

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/ ٢٣٦٧.

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ « أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق »[1]، ولصاحب تفسير « التيسير في أحاديث التفسير » نظرة ثاقبة في بيان العلاقة بين نبذ فريق منهم وكون أكثرهم لا يؤمنون، فهو يرى أن اليهود يتميزون في المعاملات الجماعية « بخصلة الالتواء والتذبذب، والروح الانتهازية الصرفة، و هكذا إذا أعطت جماعتهم للمسلمين عهدا لم يلتزمه كلها وفي مجموعها التزاما تامًا، بل إن فريقًا منها ينبذه في الحين وينتمي في السر إلى الجانب المعارض، بينما يحافظ الفريق الآخر على العهد ظاهرا، فيبقى مع الجانب الذي عاهده، وذلك ليضمنوا مصالحهم مع كلا الجانبين، الجانب المتغلب اليوم، والجانب الذي يمكن أن يتغلب غداً، وهذا ما تشير إلى فحواه الآية الكريمة »[2].

● **دلالات الصيغ المتكررة في قضية نفي الإيمان :**

يبدو لي أن الصيغ المعبرة عن انتفاء الايمان الذي عالجناه في هذا المبحث والذي عبرت عنه صيغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود : ١٧ ، الرعد : ١ ، غافر :٥٩] وصيغة ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] وصيغة ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] وصيغة ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٠]، وصيغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٨] إنما هي صيغ تختلف باختلاف الأحوال التي تعرضها، وتتفق باتفاق الأحوال التي تقدمها، ففي سورة الشعراء مثلا تتكرر صيغة واحدة ثمان مرات للدلالة على حال واحدة هي أن تلك الأمم التي استعرضت السورة تاريخها قد مضت واندثرت، فجاء التعبير للدلالة على مضي الفعل وتحوله إلى نموذج تاريخي للاعتبار، بينما جاءت صيغة الاستدراك ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾التي تكررت في القرآن كله ثلاث مرات للدلالة على أن انتفاء الإيمان على الأكثرية مرده إلى البنية النفسية التي صارت إليها الأغلبية لا إلى غموض

---

(١) الصابوني : صفوة التفاسير ١ / ٨٣ .

(٢) محمد مكي الناصري : التيسير في أحاديث التفسير ج١ ١ / ص ٦٤-٦٥ .

قضية الحق أو إلى ضعف الأدلة والبراهين عليها، وعلى هذا نجد الآيات الثلاث تصوغ القضية بشكل يكاد يكون واحداً لولا اختلاف الموضوع اختلافا فرعيا كمايلي :

١ ـ ﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾

٢ ـ ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾

٣ ـ ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾

فهذه الصيغ الثلاث تقوم على الاستدراك الذي ينفي الإيمان على أكثر الناس، لبيان أن المسألة لا تتعلق بضعف البرهان أو الدليل أو الحجة، ولكن تتعلق بالبنية النفسية التي ستحدد طبيعتها صيغة سورة يس كما سيأتي .

وتلتقي صيغة الاستدراك هذه في هدفها بصيغة الإضراب التي لم تأت إلا مرة واحدة هي : ﴿ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، وهي هنا مرتبطة بالموضوع نفسه، لأن السياق الذي وردت فيه يبين أن أهل الكتاب لا يؤمنون بالتوراة، إذ لو آمنوا بها لصدقوا محمداً ﷺ؛ لأن التوراة تحمل نبأ نبوته وتبشر بمجيئه، فلما أغمضوا عيونهم على ذلك تبين أنهم لا يؤمنون، على الرغم من إقامة الدليل النقلي بين أيديهم، ولذلك عطف على تلك الآية بقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١].

وتلتقي صيغة ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ مع صيغة ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ في الدلالة على السنة التي بنيت عليها النفس البشرية بحيث صار أكثر أهلها إلى انتفاء الإيمان، على أن الأولى تخاطب الرسول ﷺ لتطمئنه على أن النتائج التي قد تتحقق على مستوى الدعوة،لا تعود للجهد الذي يبذله الرسول ﷺ أو الداعية، وإنما تعود للسنن التي آل إليها أمر الإنسانية من عناد وجحود وإنكار للحق وكنود يشهد به الإنسان نفسه﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾[العاديات:٦-٧] ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ

عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] ، والثانية تسوق السنة نفسها لبيان أن من حق القول عليه فلا مناص له من الخضوع له، لأن من حق عليه فعل السنة كان كمن جعلت في عنقه أغلال تجبره على المضي نحو القدر، وسدت أمامه وخلفه المخارج بحيث لا ينفع معه دعوة داع ولا إنذار منذر، ولذلك عقبت عليه الآية بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٨-١٠] .

وتنفرد صيغة : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بفكرة متميزة للدلالة على أن «إيمانهم بالله كالعدم لأنهم لا يؤمنون بوجود الله إلا في تشريكهم معه غيره في الإلهية»(١) .

والفرق بين قضية نفي الإيمان التي عبرت عنها هذه الصيغ مجتمعة، وبين قضية الكفر بمستوييه : كفر العقيدة وكفر النعمة، اللذين سبق الحديث عنهما، يكمن في أن نفي الإيمان أمكن في النفس من كفر العقيدة، وكفر العقيدة أمكن من كفر النعمة، لأن نفي الإيمان هنا جاء ليدل على انغلاق مسالك الهدى أمام حركة الإيمان، فهم من أجل ذلك لا ينتظر منهم التغير إلا إذا تغيرت بنيتهم النفسية تماما كما نفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧] وتغيير بنيتهم النفسية يتطلب ابتلاءات قوية جدا، وبعض النفوس قد لا ينفعها حتى وقوفها على حقيقة البعث، كما بين ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وينبغي ألا يختلط الأمر علينا هنا بسبب كون آية البقرة تتحدث عن الذين

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ٦٣

كفروا، لأن الذين لا يؤمنون هم أنفسهم الذين كفروا، ولكن مع زيادة أمر ذي بال وهو وقوعهم في المجال المغناطيسي الذي يعجزون عن الخروج منه إلى مجال الإيمان.

أما الذين يقعون في مجال صيغة الكفران، ولا سيما كفران النعمة فإنهم يكونون أقرب إلى الهداية والتوبة، متى تحققت الأسباب المؤدية إلى ذلك، كذهاب أسباب العناد، ووقوع الابتلاءات المنبهة لخطر الكفر بنوعيه، وذهاب علة الهوى، وتغير المجال الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد نحو الأحسن، فنحن نجد الكافر في سورة الإسراء يشترط للإيمان الحجة الأقوى كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا * وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴾ [الإسراء: ٨٩ - ٩٠].

فأكثر الكفار هنا يبحثون ـ نتيجة العناد والمكابرة ـ عن الحجة المعجزة طبعا، وهذا يتضمن إصرارهم على الكفر، ولكن يتضمن أيضا إمكانية الاهتداء متى زال سبب الإصرار، وقد بينا ذلك في كتاب «التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا» حين عالجنا موضوع الران.

وقد يتضح الفرق أيضا لو نظرنا لقول الله تعالى معبرا عن قصة إبليس عليه اللعنة مع الإنسان: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٧]. فالأكثرية هنا ليست شاكرة كما توعد الشيطان فعلا، ولكن هذه المشكلة بسيطة إذ يكفي أن يتذكر الإنسان فيستعيذ بالله فينجو من قبضة الشيطان: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [فصلت: ٣٦] (١)، ومعناه أن الشيطان لا يملك قوة القهر على الكفر: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ**

---

(١) انظر المعنى نفسه في الأعراف ٢٠٠

وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥]، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، والشيطان نفسه يعترف غدا يوم القيامة بهذه الحقيقة قائلا: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [ابراهيم: ٢٢].

مجمل القول: وخلاصة الحديث في مجال انتفاء الإيمان على الأكثرية، أن النصوص القرآنية التي تعرضت للأغلبية في هذا المجال نفت عن الأكثرية الإيمان بالله وباليوم الآخر، على الرغم مما قدم لهم من الأدلة العقلية التي يثبتها المنهج البرهاني، والأدلة الحسية التي يعتمدها المنهج الحسي التجريبي، والأدلة النقلية التي يعتمدها المنهج النقلي، وقد كان ذلك بسبب خضوع أكثرية البشرية للسنن التي لا تحابي أحدا، مما جعل القول يحق على أكثرهم، فهم لا يؤمنون كما تبين آية سورة يس، وقد بين تتبعنا للأمم وتاريخها مع مشكلة انتفاء الإيمان من خلال سورة الشعراء التي تكررت فيها القضية ثمان مرات، فانتهى بنا البحث إلى أن أكثرية الأمم التي عرضتها هذه السورة وهي قوم نوح ثم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وبني إسرائيل، كلها نماذج تجسد فكرة انتفاء الإيمان على الأكثرية المطلقة، بحيث لا نجد من أتباع بعض هذه الأمم للأنبياء والرسل إلا قليلا جداً، فلم يركب مع نوح في الفلك إلا قليل، ولم ينج مع لوط سوى ذريته وهكذا.

* * *

• المبحث الثالث : مشكلة الشرك

سبق الحديث في المبحث السابق عن قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف : ١٠٦]، وتبين لنا من التفاسير أن انتفاء الإيمان هنا سببه الشرك الذي يجعل الإيمان كالعدم ومنه تبينت لنا العلاقة الكبيرة بينهما، ونود الآن أن نفصل الحديث في كون الأكثرية مشركين، إذ أن في القرآن آيتين تبينان ذلك :

أما الأولى فهي من سورة الروم، وأما الثانية فمن سورة سبأ، وكلاهما مكية النزول، حيث كان القرآن يعنى عناية فائقة بالوحدانية ونبذ الشرك الذي تغلغل كما يبدو في نفوس المكيين أكثر من تغلغله في نفوس أهل المدينة الذين سارعوا إلى الإيمان كما لو أنهم لم يكونوا مشدودين لعقيدة أخرى تحجزهم عن العقيدة الجديدة .

١ – في سورة الروم جاء قوله تعالى : ﴿ **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ** ﴾ [الروم : ٤٢]، الآية دعوة إلى تأمل تاريخ البشرية من لدن آدم إلى يومنا هذا مرورا بالأمم التي ذكرها الله في القرآن كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم فرعون، وغيرهم من الأمم التي لم يذكرها القرآن الكريم، إذ أن الظاهر أن القرآن كان يخاطب العرب بما يعرفون من حياة شعوب بائدة في الجزيرة العربية التي كانوا يذرعونها ذهابا وإيابا في ترحالهم، لأن ذلك أقرب إلى استثارة الحس التاريخي لديهم لعلهم يعتبرون .

أما الأمم الأخرى التي كانت بعيدة في إفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا فإن الله لم يشر للشعوب البائدة فيها بالذكر المخصص، وإنما وردت بصيغة سريعة شاملة في قوله تعالى : ﴿ **مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ [غافر : ٧٨]، ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ**

الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الفرقان: ٣٩]. ففي الآيات إشارات إلى أن قرونا كثيرة كانت قد أهلكت غير تلك المذكورة لم يحدثنا الله عنها، ورسلا كثيرين لم يقص علينا من أخبارهم مع شعوبهم ما كان من أمرهم، وكل ذلك يدخل في العصر الحديث ـ بعد أن صار العالم كالقرية الواحدة – في مجال العبرة والاعتبار والتأمل التاريخي الراشد.

ومن كل ذلك نستطيع أن نفهم معنى قوله تعالى: ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢]، فالأكثرية التي أهلكها الله كانت قد استحقت الاستئصال؛ لأنها فقدت مبررات الوجود بأن أشركت بالله وعاثت فسادا في الأرض، وتبين ذلك الآيات السابقة عن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤٠-٤١].

قال البيضاوي المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات وكثرة المضار بشؤم المعاصي التي يرتكبها الناس(١).

والحديث عن كل ما يلحق الناس من عذاب نتيجة انتشار الفساد في البر والبحر كان يتوسط الحديث عن كثرة الشرك، مما يجعله سببا رئيسيا في ظهور البغي والفساد، فمن زاوية الرزق والكسب يعالج قضية الشرك وآثارها في حياة من قبلهم، ويعرض نهاية المشركين من قبل، وعاقبتهم التي تشهد بها آثارهم ... ثم يكشف لهم عن ارتباط أحوال الحياة وأوضاعها بأعمال الناس وكسبهم، وأن فساد قلوب الناس وعقائدهم وأعمالهم يوقع في الأرض الفساد، ويجعله مسيطرا على أقدارها غالبا فيها ... فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثا، ولا يقع

---

(١) البيضاوي: تفسير البيضاوي ٢/١٠٦

مصادفة، إنما هو تدبير الله وسنته ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ من الشر .. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيعزمون على مقاومة الفساد ... ويحذرهم في نهاية هذه الجولة أن يصيبهم ما أصاب المشركين قبلهم، وهم يعرفون عاقبة الكثيرين منهم »[1].

لقد كانت أكثر الحقب التاريخية شركا بواحا، والشرك عصيان لا يغفر أبدا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وهو ظلم كبير في ميزان التصور الإسلامي ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ظلم للحقيقة وظلم للفطرة، وظلم في حق الذي يرزقنا ويحيينا ثم نتوجه بالعبودية لغيره .

والقرآن ينبئنا أن الشرك لم يعمر الحقب التاريخية في كل تاريخ البشرية على مستوى عبادة الأوثان المادية والبشرية فحسب، ولكن أكثر الناس كانوا يعبدون الجن، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، فالإشارة في قوله ﴿ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تشمل من تقدم ومن تأخر من المشركين[2]، « والمعنى : بل أكثر هؤلاء يعبدون الجن وكان الجن راضين بعبادتهم إياهم وحاصل المعنى : أنا منكرون عبادتهم إيانا ولم نأمرهم بها، ولكن الجن سولت لهم عبادة غير الله فعبدوا الجن وعبدوا الملائكة»[3] .

والخطاب الموجه للملائكة، والإجابة التي أدلت بها، كلها تفيد « التعريض بضلال الذين عبدوا الملائكة والجن، لأن الملائكة يعلمون مضمون هذا الخبر»[4]، ويعلمون تنزههم عن الشرك والعصيان منذ قصة عصيان الشيطان للسجود لآدم . ومن ثم كان القصد من هذه الآية إبطال قول الناس الملائكة بنات

---

(١) في ظلال القرآن :٢١/ ٢٧٧٢-٢٧٧٣
(٢) صفوة التفاسير : ٢/ ٥٥٨
(٣) التحرير والتنوير : ٢٢/ ٢٢٣
(٤) نفسه.

الله، وخلطهم بين الملائكة التي تتبرأ من الشرك والمشركين والجن الذين يحسِّنون ذلك للناس [1].

وعبارة ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ دالة على الأكثرية التي توجهت في عبادتها هذه الوجهة الظالمة التي لا يسندها أي منطق غير الأهواء وغواية الشيطان، وإلا فإن المنطق السليم يفترض أن تخلص العبادة للخالق والرازق.

والسبب في توجه أكثر الناس إلى الشرك قديما كالسبب في توجه أكثرهم إلى الإلحاد حديثا، إذ هو الحرص على عبادة المادة في الحالين؛ ففي القديم كانوا يعبدون الأصنام طمعا في أن تغدق عليهم من الأرزاق ما يشاءون باعتبارهم إياها واسطة بينهم وبين الله حتى قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فهم يعبدونهم طمعا في شفاعتهم ووساطتهم، لاعتقادهم أنها تماثيل للصالحين من عباد الله، أو للمقربين من الملائكة، فهم «يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة - وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة - ليست عبادة لها في ذاتها، إنما هي زلفى وقربى لله كي تشفع لهم عنده وتقربهم منه ... وإنا لنرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة ... طلبا لشفاعتهم عنده» [2].

وفي العصر الحديث صاروا إلى الإلحاد بسبب تأليه المادة والعلم التجريبي الذي يمثل - مع كل أسف - شيطان العصر، فقد غر الناس وأغواهم بسلطانه المبسوط على المادة فعبدوه بدلا من الرازق الحق، واعتصموا به اعتصام المؤمنين حقا بحبل الله المتين.

وهكذا نرى أكثر البشرية تنحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص الذي جاء به الرسل جميعا، بغض النظر عن طبيعة الانحراف وسببه.

---

(١) نفسه: ٢٢١ - ٢٢٣

(٢) في ظلال القرآن ٢٤/٣٠٣٧

• المبحث الرابع : الأكثرية في الضلال والتضليل

لهذا العنصر دور كبير في انتشار الأكثرية في العناصر السابقة؛ من كفربنوعيه وانتفاء الإيمان والشرك، ذلك لأن التضليل ـ وإن كان عنصرا مستقلا من حيث الخصائص العقدية ـ فإنه هو الذي يؤطر العناصر السابقة كلها، فهو الذي يمهد لكفر العقيدة، وكفر النعمة والشرك وانتفاء حصول الإيمان.

ثم إن التضليل ناجم عن الضلال، فلا يصل المضلون هذه الدركة من الغي حتى يمروا بدركة الضلال، لأن التضليل في الأساس دعوة إلى المجال المغناطيسي الذي ينتمي إليه الضال، وهذا ما يفسر قول الله تعالى على لسان المصلين ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة : ٦ – ٧].

فهناك كما ترى ثلاث دوائر تشكل مجالات مغناطيسية قوية الجاذبية، والناس ينجذبون إليها وفق الدوافع التي يأتي على رأسها هداية الله ثم السنن الاجتماعية والتربوية ثم نزغات الشياطين وتكوّن العادات .

وقد بين القرآن الكريم أن دعاة التضليل كثير من جهة، وقد أضلوا كثيرا من الناس الذين اتبعوهم وساروا على سبيلهم ودخلوا في مجالهم من جهة ثانية، فقال تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة : ٧٧].

فالآية تتضمن نداء إلى أهل الكتاب على الخصوص؛ لأنهم كانوا قد وقعوا في مجالي الضلال والتضليل، وتلاحظ أن عبارة ﴿ **قَدْ ضَلُّوا** ﴾ تؤكد ما بيناه قبل ذلك من أن الضلال سابق، وأن التضليل لاحق، كما تدل عبارة ﴿ **وَأَضَلُّوا كَثِيراً** ﴾ على دور دعاة الباطل في توسيع دائرة الضلال، مما يفسر سرا من أهم الأسرار في كون الأكثرية دائما في مجالات الانحراف عن الحق كما رأينا سابقا، وهو ما تكشف عنه بعمق عبارة : ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا** ﴾ إذ النهي عن

اتباعهم بمثابة تنبيه على خطورة ذلك في التأسيس لدائرة الضلال والتوسيع في مساحتها حتى تشمل الأكثرية، وهذا ما اهتدى إليه القرطبي رحمه الله حين قال: «وتكرير ضلوا على معنى أنهم ضلوا من قبل ومن بعد، والمراد الأسلاف الذين سنوا الضلالة وعملوا بها من رؤساء اليهود والنصارى»[1].

ولما كان التضليل أشد مستويات الكفر خطورة على البشرية فقد عقب الله تعالى على أصحابه باللعن وعلله بالعصيان فقال: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٨]

وإنما لعنهم واستبعدهم من رحمته بسبب شناعة الجريمة التي يأتونها وهي «التضليل» إما بالشرح والتأويل المنحرف قصدا، وإما بتحريف كتاب الله، وقد بينا ذلك بتوسع في كتاب «التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا».

إن التضليل يعني التوسيع في دائرة الضلال بكل أنواعه من كفر عقيدة وكفر نعمة وشرك، وانتفاء الإيمان على القلوب، وله أسباب كثيرة تعين عليه وتعمل على توسيع دائرته، تحددها الآيات كما سيأتي:

١ ـ دور الأكثرية الضالة في التأثير على المحيط الاجتماعي والعقدي:

إن الإنسان يتأثر كثيرا بالمحيط الذي يعيش فيه سلبا وإيجابا، فإن كانت الأكثرية كافرة ساعدت على توسيع دائرة الكفر، وإن كانت مؤمنة عملت على توسيع دائرة الإيمان، ولخطورة المحيط في التأثير السلبي نبه الله عليه حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [الأنعام: ١١٦ – ١١٧].

هذه الآية تحذر من التأثير السلبي الذي يمارسه المحيط على العقلية البشرية، بحيث تصبح طاعة أكثر من في الأرض سبيلا إلى الضلال، والجملة ﴿ **وَإِن تُطِعْ**

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٢٥٢

أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ ﴾ بصيغتها الشرطية تفيد أن هذه سنة اجتماعية تربوية لا تتبدل ولا تتغير، وهذا سر كون الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الانعام: ١١٥].

فالسبب في أن طاعة أكثر من في الأرض يؤدي إلى التضليل هو أن الإنسان المقلد - بحكم طبيعته التقليدية - قلما يراجع علاقته بالموروث الثقافي الذي قد يكون مبنيا على الوهم والظن، ولذلك عقب على السنة الاجتماعية بقوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ والمعنى «إن تطع الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلوك عن سبيل الهدى ...ما يتبعون في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلدون آباءهم ظنا منهم أنهم كانوا على الحق» (١).

والقاعدة عامة تشمل حياة البشرية في كل حين «فقد كان أكثر من في الأرض كما هو الحال اليوم بالضبط من أهل الجاهلية ..لم يكونوا يستخدمون تصوراتهم وأفكارهم ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهاته، ومن كانوا كما هو الحال اليوم في ضلالة الجاهلية لا يملكون أن يشيروا برأي وبقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه، ولايقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال، كانوا كما هم اليوم يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس» (٢).

وعند تأمل حال كل قنوات تلفزيون أهل الأرض نجدها مسخرة للتضليل إلا قليلا، فمن مجموع أكثر من ثلاثمائة قناة لا نجد سوى أقل من واحد بالمائة ١ / ١٠٠ يدعون إلى التي هي أحسن والباقي كلها تركز في النفس أسباب الانحراف العقدي والخلقي وغيرهما، أفلا يعني ذلك أن من يطع أكثر هذه القنوات تضله ؟.

هذا إضافة إلى أن القاعدة التي ساقها ابن حزم تؤكد ذلك إذ قال: «بلا شك أن أهل الباطل كلما كثروا فإن الشيطان أقوى فيهم منه مع المنفرد» (٣).

---

(١) الصابوني: صفوة التفاسير: ١ / ١٤١. (٢) في ظلال القرآن: ٨ / ١١٥٩.
(٣) ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ١-٥٤٩.

٢ ـ دور دعاة التضليل في توسيع دائرته : في سورة نوح عليه السلام نقرأ آيات تعبر عن تقييم سيدنا نوح عليه السلام لدور دعاة التضليل حينما يمكنون من وسائل الدعوة ،فنقرأ قوله تعالى : ﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً** ﴾ [نوح : ٢١ – ٢٤].

هذه الآيات تختزل تجربة سيدنا نوح عليه السلام مع قومه، تلك التجربة الفريدة التي قضى فيها ألف سنة إلا خمسين عاما، وكانت النتيجة هي هذا التصوير الدقيق لما آل إليه أمر الأكثرية من ضلال لا يرجى له زوال، لأن الظالمين لا يزيدهم ظلمهم إلا ضلالا، طبقا لما تقتضيه السنن التربوية، وهي لا تعرف التبدل ولا التحول .

ومن الواضح أن الذين ﴿ **أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾ هم الذين عصوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وفضلوا عليه أهل المال والجاه فاتبعوهم واقتدوا بهم في عبادتهم، لأسباب نفسية كانت ملازمة للنفس البشرية، ولا تزال تسيطر على كثير من الخلق حتى يصلوا إلى يوم القيامة، ليدركوا أن المستكبرين أضلوهم فيحقدوا عندئذ عليهم ويدعوا عليهم بالعذاب الشديد؛ ولكن المولى تبارك وتعالى يبين لهم أن لكل منهم ضعفا من العذاب، وأنهم جميعا شركاء في مأساة الإنسانية، التابع منهم والمتبوع سواء.

وقد بينت سورة سبأ وجها من هذه الوجوه بقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** ﴾ [سبأ : ٣١ –٣٣].

وهكذا يتبين بما لا يدع مجالا للشك بأن المستضعفين ذهبوا ضحية الانبهار بجاه المستكبرين الذين كانوا يأمرونهم بالكفر (مكر الليل والنهار) مما يدل على تكثيف النشاط الدعوي في المجال السلبي بشكل مدهش، سيعرف المستضعفون حقيقته حينما تذهب غشاوة الانبهار والطمع على عيونهم، ففي الآخرة «حيث تسقط الهالات الكاذبة والقيم الزائفة وتتفتح العيون المغلقة وتظهر الحقائق المستورة، ومن ثم لا يسكت المستضعفون ولا يخنعون بل يجبهون المستكبرين بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهارا ولا ليلا للصد عن الهدى وللتمكين للباطل ولتلبيس الحق وللأمر بالمنكر ولاستخدام النفوذ والسلطان في التضليل والإغواء»(١).

وتسير الآيات في السياق نفسه لتعطي قاعدة عامة تبين فيها طبيعة من طبائع المستكبرين وهو الترف والغني الفاحش، فتصوغ القاعدة هكذا ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٥] ذلك لأن الترف من شأنه أن «يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية» مما يجعلهم لا يستمرون في الضلال فحسب بل بحكم موقعهم في المجتمع يتحولون إلى مستكبرين يصدون عن الهدى.

ومن هنا تتبين لنا حقيقة ما عبر عنه سيدنا نوح عليه السلام حين قال: ﴿ **رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً** ﴾ إلى أن يصدر الحكم النهائي ﴿ **وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً** ﴾.

٣ ـ دور التقليد في التضليل.

تحدد آيات من سورة الصافات دور التقليد في التضليل بصورة واضحة، وهي لا تشير فقط إلى الدور، ولكن تشير إلى الكثرة كذلك، مما يبين الدور الخطير الذي يلعبه التقليد في حياة الشعوب العقدية، إذ المقلِّد ربما يغالي أكثر من المقلَّد، والآية توضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ [الصافات: ٦٩ ـ ٧١].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٣ / ٢٩٠٩

الآية تبين أن جرم هؤلاء الناس ـ والمقصود هنا قريش، ولكن الكلام عام للبشرية كلها ـ كان تلقيا وتقليدا لما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وشعبه بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العاقل، فهم مقلدون لدين آبائهم اعتباطا (١) .

وقوله تعالى ﴿ **فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ** ﴾ دال على المغالاة في التقليد، بحيث شبه حالهم في التقليد العقدي بحال من يسير وفق آثار خطى سائر في الصحراء، فهو يتتبعها بسرعة لئلا تزول دون أن يعرف إلى أين ستنتهي به، والحال أن من كان قبلهم ضل، مما يستوجب أن يضلوا عن الطريق هم أيضا بالتبعية ﴿ **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾.

ومادام أكثر الأولين قد ضلوا فمن الواضح أن الأكثرية من المقلدين سيضلون أيضا، وهكذا تتشكل قاعدة من قواعد الأكثرية .

والقرآن الكريم يبين دور التقليد في التبعية العقدية في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى على لسان المقلدين : ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٢] فهم يصرون على التشبث بنموذجهم في الأهتداء إلى منهجهم في التفكير في مسائل العقيدة.

وهناك آيات لا تبين دور التقليد فحسب، ولكن تبين تكرار هذا الأسلوب في حياة البشرية بشكل مستمر، ففي قوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٢٣] إشارة واضحة إلى تكرار هذا الأسلوب التضليلي مع جميع الأجيال، وتخصيص المترفين هنا بالحديث للدلالة على تمكن الأمرين معا وتضافرهما على النفس البشرية، لقد اجتمع التقليد ووجه من وجود الاستكبار، والظاهر أن المترفين يستخدمون التقليد لدغدغة عواطف المغفلين حفاظا على مكاسبهم ومواقعهم الاجتماعية في هذا الوسط الضال.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ص١٢٧

إن هذه الآيات تبين أن عقيدة هؤلاء تقوم على «مجرد المحاكاة ومحض التقليد بلا تدبر ولا تفكر ولا حجة ولا دليل، وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يمضي حيث هو منساق ولا يسأل أين يمضي؟ ولا يعرف معالم الطريق، الإسلام رسالة التحرر الفكري والانطلاق الشعوري لا تقر التقليد المزري ولا تقر محاكاة الآباء والأجداد اعتزازا بالإثم والهوى، فلا بد من سند ولا بد من حجة ولابد من تدبر وتفكير ثم اختيار مبني على الإدراك واليقين»[1] لاسيما إذا كان الأمر يحمل من الثقل والتأثير في مصير الأمم ما يحمله أمر العقيدة، إذ يتحدد وفقها المستقبل الدنيوي والمستقبل الأخروي.

والغريب أن أسلوب التقليد إذا تمكن من أمة لا ينفع معها دعوة رسول ولا عالم، وهذا ما تكشف عن حقيقته الآية تعقيبا على ظاهر التقليد ﴿**قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الزخرف: ٢٤- ٢٥]، فحتى لو كانت الأدلة والبراهين أقوى وأهدى إلى الحق مما بيْن أيديهم من تأثير نفسي فإنهم يكفرون بها ولا يستجيبون لندائها، مما يستوجب الاستئصال والانتقام والخسران بعد ذلك.

وهذا هو ما يفسر دعوة سيدنا نوح على قومه بقوله: ﴿**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

لقد أدرك سيدنا نوح بحكم التجربة الطويلة التي عاشها مع البشرية أن الأجواء الاجتماعية الموبوءة تحتاج إلى «غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه.... لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين، وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٥ / ٣١٨٢

عليه السلام ـ فقال : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾... وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية، ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها ... فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد ينشأ معها المواليد فجارا كفارا»(١).

٤ ـ دور الجهل في التضليل وفي توسيع دائرة الأكثرية :في سورة الأنعام نقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩].

فنجد الحديث عن دور الجهلة في توسيع دائرة التضليل واضحة جلية ، فهم كثير، وهم يضلون تبعا لأهوائهم التي لا تستند لمنهج من مناهج المعرفة ؛ لا العقل ولا الحس والتجربة ولا النقل، فهم ﴿ لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ومن ثم فهم معتدون على حق البشرية في معرفة الحقيقة، ومعتدون على العقل الذي كرم به الله الإنسان ومعتدون على الضوابط الشرعية التي بينها الله في رسالاته إلى الخلق، قال الصابوني : «إن كثيرا من الكفار المجادلين ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بغير شرع من الله بل لمجرد الأهواء والشهوات ... يحلون ويحرمون بدون دليل شرعي من كتاب أو سنة»(٢).

٥ ـ دور عبادة الأصنام في توسيع دائرة الضلال : يبين سيدنا إبراهيم الخليل – بحكم التجربة التي عاشها مع قومه في تشبثهم بعبادة الأصنام – دور عبادة الأصنام في توسيع دائرة الضلال بقوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦] .

---

(١) في ظلال القرآن ٧/٣٧ (٢) الصابوني : صفوة التفاسير : ج١/ص ٤١٥

إننا نعلم أن سيدنا إبراهيم الخليل قد عانى من قومه الأمرين ، حتى بلغ بهم الأمر أن حرقوه لنصرة آلهتهم [1]، ولذلك فهو ينطلق من منطلق من عرف تمسك الناس بعبادة الأصنام بشكل مدهش، فهو يدعو الله أن يجنبه هو وذريته عبادتها، ويبني على ذلك حقيقة، وهي أن توسيع دائرة الكفر والضلال كانت بسبب تلك العبادة: ﴿ **إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ** ﴾ إن سيدنا إبراهيم « يدعو دعوته لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس في جيله وفي الأجيال التي قبله، ومن فتنوا بها ومن افتتنوا، وهم خلق كثير »[2].

ولعل شدة هذه الفتنة، وقوتها على النفوس، وكثرة انتشارها في العراق يومئذ هي التي جعلت سيدنا إبراهيم يلجأ إلى تلك المنطقة النائية، فيهاجر إلى مكة استجابة لأمر ربه وإنقاذا للعقيدة السليمة من الضياع في ذلك المجال الذي تعود الناس فيه على طلب الشفاعة من الأصنام.

إن انتقال سيدنا إبراهيم الخليل من العراق إلى مكة حيث وضع أسس بيت الله، له دلالة كبيرة، لا سيما حينما نقرأ قوله وهو يدعو الله : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ﴾ [إبراهيم : ٣٧]. إنه جهاد للنفس ما بعده من جهاد حين يترك المرء فلذة كبده في صحراء قاحلة ليس بها زرع ولا ضرع ولا دبيب حركة الناس، ولكن ذلك يهون أمام مشكلة العقيدة التي أفسدتها عبادة الأصنام في مناطق آهلة بالسكان وصار أمر اجتثاثها من الواقع لا معنى له ما دامت تسكن القلوب والعقول .

نعم لقد بينت قصة سيدنا إبراهيم الخليل محاولته الاستئصالية لتلك الأصنام ليبرهن على أنها لا تضر ولا تنفع، تمهيدا ليصل إلى استئصالها من القلوب، ولكن الظاهر أنه لم يفلح مع قومه في ذلك كما يبين قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ**

---

(١) انظر سورة الأنبياء: ٦٨

(٢) في ظلال القرآن : ١٣ / ١٠٩

التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٧٠] .

إن هذه القصة تبين هذا التعنت العجيب الذي يشبه الاستماتة، لكن من أجل نصرة الأصنام، لقد أحس القارئ بجدهم في متابعة القضية إحساسا قويا، يوحي بعظمتها في نفوسهم، كما تبين الدور الذي نهض به سيدنا إبراهيم في إقناعهم بخطإ تصورهم وعبادتهم، فلم يفلح، مما جعله – في نظري – ييأس من هذه المنطقة ويعمل على وضع حجر الأساس لمنطقة جديدة لعله يحيي فيها عقيدة التوحيد، فكانت مكة وبناء البيت وهجرة إسماعيل للتأسيس لمجتمع جديد، لا يلد فيه الناس – منذ البداية – الفاجر الكفار، الذي كان سيدنا نوح عليه السلام قد أشار إليه من قبل كما رأينا في دور المحيط ودور التقليد في توسيع دائرة الضلال.

٥- دور إبليس في توسيع دائرة الضلال:

تكشف سورة يس عن دور إبليس – عليه اللعنة – في تغليط البشرية

وإغوائها استكثارا لأهل الضلال وتوسيعا لدائرتهم في المجتمع، فيقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس : ٦٢]

مقام هذا الحديث هو الأعراف، وهو يوم الحشر، ولذلك تعد الآية ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ ذات معنى خاص في سياق هذا البحث؛ إذ تبين أن الأكثرية الضالة قد بلغت أوجها يوم القيامة بسبب الشيطان.

وفي الحديث القدسي: « قال تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم »[1] مما يبين أن هذا الأمر يشكل خطورة كبيرة على مصير البشرية كما سيتضح في باب المآلات.

فالبشرية لم تستفد من نصح الله لها، ولامن التجارب التاريخية الكثيرة التي ساقها القرآن والكتب السماوية الأخرى للعبرة، وضلت منقادة لحبال الشيطان مع أنه لا يملك على الإنسان أي سلطة، غير أنه يدعوه ـ عن طريق تزيين الفواحش ـ إلى الانحراف والكفر والضلال فيتبعه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يبين أن « عداوته واضحة، ووجه وضوحها أن المرء إذا راقب عواقب الأعمال التي توسوسها له نفسه واتهمها وعرضها على وصايا الأنبياء والحكماء وجدها عواقب نحسة، فوضح له أنها من الشيطان بالوسوسة، وأن الذي وسوس بها عدو له لأنه لو كان ودودا لما أوقعه في الكوارث »[2].

وعبر بكلمة ﴿ جِبِلاًّ ﴾ للدلالة على الكثرة، لأن الجِبلّ في اللغة هو الشيء العظيم والجمع الكثير، ووصف « الجِبلّ » بأنه كثير للدلالة على ارتفاع نسبة الضالين عن طريق إبليس عليه اللعنة.

ومرد هذه الكثرة إلى أنه هو السبب وراء كل تلك الأسباب السابقة الذكر:

---

(١) صحيح مسلم، وانظر تفسير ابن كثير: ٢ / ٤٤١

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٤٧.

(البيئة، والتقليد، والأصنام والجهل، ودعاة التضليل)، فكل ذلك كان نتيجة لأصل الأسباب وهو نزغات الشياطين، كما تبينه آية أخرى من سورة سبأ هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١] فقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن القلة الناجية تقع في مقابل النسبة الكبيرة التي وصفت هناك بالجبلة الكثيرة، التي أضلها إبليس على الرغم من ضعف أسلحته بحيث تصبح ليس لها أي سلطان قاهر على الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾ معناه «حقق عليهم ظنه حين انخدعوا لوسوسته فهو لما وسوس لهم ظن أنهم يطيعونه فجد في الوسوسة حتى استهواهم فحقق ظنه عليهم»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ...﴾ جاء لبيان دور السنن في تكريس نمط الحياة، إذ المعنى «جعلنا الشيطان سببا يتوجه إلى عقولهم وإراداتهم فتخامرها وسوسته فيتأثر منها فريق وينجو منها فريق بما أودع الله في هؤلاء وهؤلاء من قوة الانفعال أو الممانعة على حسب السنن التي أودعها الله في المخلوقات»(٢).

ولا شك أن الاستثناء في قوله تعالى ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن الأقلية هي المستثناة من المجموع الكثير الذي اتبعه وصدق عليه ظنه، وهذه الإشارة للأقلية تدفعنا إلى معالجة مسألة الأقلية على مستوى العقيدة لنبين في النهاية أن الأكثرية غثاء كغثاء السيل، وأن الأقلية هي عمدة الحياة وأن الغلبة تخضع لقانون التقوى، ولا تخضع لقانون الكم والعدد.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٨٢

(٢) نفسه ١٨٤

● **المعضلة المنهجية :**

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نحل المعضلة المطروحة بخصوص بعض الأحاديث التي تلزمنا باتباع الأغلبية كالنص الذي يقول : « لا يجمع الله أمتي على ضلالة أبدا، ويد الله على الجماعة هكذا ورفع يده ،وعليكم بالسواد الأعظم فإنه من شذ شذ في النار »[1].

وكذا ما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من أنه ﷺ قال : « من أحب منكم بحبوحة الجنة يلتزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد »[2].

لقد سبقت الإشارة إلى مسألة منهجية وهي أن القرآن يتحدث عن الطبيعة البشرية، ومن ثم ينبغي حل المعضلة من هذه الزاوية، وكان ابن حزم رحمه الله قد توقف في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام » عند هذه القضية، وبسط فيها القول مبينا أنه « إن صح فإن ما ذكر فيه من الجماعة إنما هي بلا شك جماعة الحق ولو لم يكونوا إلا ثلاثة من الناس؛ وقد أسلمت خديجة رضي الله عنها أم المؤمنين وسائر الناس كفار، فكانت على الحق وسائر أهل الأرض على ضلال، ثم أسلم زيد بن حارثة وأبو بكر رضي الله عنهم فكانوا بلا شك هم الجماعة، وجميع أهل الأرض على الباطل، وقد نبئ رسول الله ﷺ وحده فكان على الحق واحدا وجميع أهل الأرض على الباطل والضلال وقد صح عن النبي ﷺ أن زيد ابن عمر بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده ... وذلك لأن زيدا آمن بالله تعالى وحده وجميع أهل الأرض على ضلالة، وقد صح عن الرسول ﷺ أنه قال : إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء، قيل ومن هم يا رسول الله قال : النزاع من القبائل ، وقال عليه السلام : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة »[3].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١ / ١٩٩ و أنظر ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ج١ / ٥٤٥ .

(٢) المستدرك على الصحيحين : ١ / ١٩٩ : وانظر ابن حزم نفسه ١ / ٥٤٥ .

(٣) البخاري : ٥ / ٢٣٨٣ـ وصحيح مسلم : ٤ / ١٩٧٣ : وانظر ابن حزم الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٤٥٦ – ٤٥٨ –تحقيق أحمد شاكر مطبعة الإمام –مصر.

وبعد أن استعرض ابن حزم تلك النماذج التي تبين أن الأقلية كانت تمثل الخير، وقابل بينها وبين النصوص التي تدعو إلى التزام الجماعة من جهة، والآيات التي تبين أن الأكثرية في خسران مبين كقوله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] وقوله ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)، بين رأيه في تلك المعضلة الشديدة التعقيد قائلا : «وكلام الله تعالى حق وكلام رسول الله ﷺ حق، والحق لا يتعارض، وهذه النصوص التي أوردناها هي قرآن منزل أو أثر في غاية الصحة منقول نقل التواتر، وكلاهما في غاية البيان فالأقل في الدين هم أهل الحق وإن أكثر الناس على ضلال وعلى جهل، وإن الواحد قد يكون هو المصيب، وجميع الناس هم على باطل ، لا تحتمل هذه النصوص شيئا غير هذا البتة»(٢).

ثم تدرج ابن حزم بعد هذا البيان إلى التفرقة بين مصطلحين يوهمان بالترادف وهما: « الجماعة » و « الكثرة » مبينا أن ماذكر يعد بمثابة «برهان كاف قاطع لكل من له أقل فهم في أنه عليه السلام لم يرد قط بالجماعة المذكورة كثرة العدد » (٣)، وانتهى بعد هذا البحث إلى أن « أمره عليه السلام بلزوم الجماعة إنما أراد تعيينا جماعة أهل الحق، وإن كانوا أقل من أهل الباطل بلا شك، ولم يرد كثرة العدد قط »(٤) ، على أن الحق إذا كان مما تراه الجماعة والجمهور من علماء المسلمين فإن ذلك يعني ضرورة اتباعه لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام « لاتجتمع أمتي على ضلالة »، ثم إن هذا لايفترق على ما نحن بصدد تحليله لأن الجمهور من العلماء قلة بالنسبة لكافة الناس، والله أعلم .

وهكذا يتبين لنا أن المسألة ليست في القلة أو الكثرة إنما هي في الحق، فالمؤمن المخلص ينبغي أن يدور حيثما دار الحق، وهذا معنى قوله تعالى :

---

(١) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ١/٥٤٨ .
(٢) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ١/٥٤٨ .
(٣) نفسه ١/٥٤٨ .
(٤) نفسه .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ، وهو ما انتهى إليه ابن حزم حين قال : «إن الغرض إنما هو اتباع القرآن وما حكم به رسول الله ﷺ، فإنه لا معنى لقول أحد دون ذلك: كثر القائلون به أو قلوا ، وهذا باب ينبغي أن يتقى فقد عظم الضلال به وكثر ألا يكون فيه» (١). وقد بين القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦]

● **خاتمة البحث في الأكثرية على المستوى العقدي :**

لقد تبين لنا بعد استقراء علمي دقيق لآيات القرآن الكريم أن الأكثرية على مستوى العقيدة تشكل النسبة الغالبة من البشر الذين كفروا، أو نفى القرآن عنهم الإيمان أصلا، أو أشركوا، أو ضلوا وأضلوا.

وقد رأينا صيغ التعبير عن الحالات التي تشير إليها الآيات تختلف باختلاف تلك الحالات من كفر عقيدة إلى كفر نعمة، إلى انتفاء إيمان إلى إشراك، ثم إلى ضَلال أو إلى إضلال وهو أسوأ الحالات التي تمر بها البشرية.

وتأكد لدينا من كل ذلك أن النسبة العالية من البشر سيكونون من الخاسرين، إذ أن الآيات القرآنية التي تصف مآل الخلق بعد البعث تشير إلى أن الأكثرية هي في النار كما يبين الحديث الشريف.

والسبب في أن تكون الأكثرية خاسرة يعود إلى عوامل مختلفة منها الوقوع في قبضة الشيطان، ومنها التقليد ومنها العناد ومنها الأهواء ومنها التعود على العصيان الذي يورث في النهاية الضلال، ومنها كون الجنة حفت بالمكاره والنار

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٥٥٢ .

حفت بالشهوات[1]، ومنها انتشار الغنى مما يوقظ الشهوات فتطغى على عقل الإنسان فينسى ربه، وهو ما أشار إليه حديث الرسول ﷺ بقوله : «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[2].

والحق أن الأحاديث التي تكشف عن دور الجانب الشهواني في توجيه النشاط البشري في سعيه وكدحه ليشبع نهمه من متاع الدنيا كثيرة، ولكن الذي يبين دورها في تكثير أهل الكفر والخسران بوضوح هو قوله ﷺ : «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال : فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال فرجع إليه، قال : فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال ارجع إليها فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[3] .

هذا الحديث يتساوق تماما في النتيجة التي توصل إليها في تعداد الكم الذي سيدخل النار مع تلك النتائج التي ذكرناها بخصوص النصوص القرآنية التي ما فتئت تكشف عن حال الأكثرية في كل مجالات العقيدة، حتى لنجد نصا يحدد المعنى بعمق هو قوله تعالى : ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ**﴾ [النحل : ٦١] لأن الكل إما ظالم - كما يقول البقاعي - يعاقب بظلمه،وإما أن يكون بقاؤه من مسوغات استمرار الظلم.

* * *

---

(١) الترمذي : الجامع الصحيح ٤ /٥٩٨ .

(٢) نفسه ٤ /٥٥٢ . رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) الترمذي : الجامع الصحيح ٤ /٥٩٨ . رواه الترمذي وقال حديث صحيح.

الفصل الثاني
الأقلية على مستوى العقيدة

● **توطئـــة:**

النص المحوري الذي يكشف عن طبيعة العقيدة عند الأقلية هو قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود: ٤٠] فالأقلية كما تتجلى من هذا النص المحوري والنصوص الآتية تمثل المؤمنين في مقابل الأكثرية التي رأينا أنها مثلت الكافرين على اختلاف ألوانهم وأشكالهم من ملحدين وضالين ومغضوب عليهم، وعبدة الأوثان من المشركين وما إلى ذلك، والحق أن هذه النصوص تكشف عن تنوع درجات المؤمنين، فهم درجات تبعا لمكانتهم من العمل بأركان الإيمان والعمل الصالح، والنصوص هي قوله تعالى: ﴿ **قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [هود: ٣٧ – ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾[ص: ٢٤]. وقوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٨]، ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر: ٣٩–٤٠].

هذه النصوص بدلالاتها المختلفة تقتضي أن تتجه المعالجة في موضوع الأقلية من جهة العقيدة نحو ثلاثة جوانب هي: الإيمان والشكر والإخلاص، وسنخصص لكل جانب مبحثا بإذن الله.

* * *

● المبحث الأول : الإيمان

يقع الإيمان في العقيدة الإسلامية في مقابل الكفر العقدي، وقد حددت عناصره الأساسية آية البر من قوله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ... ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

ومن الواضح أن تحديد عناصر الإيمان مهم جدا في تحديد السبب الجوهري في كون المؤمنين حقا يشكلون الأقلية، وقد ساعدنا في بيان ذلك نصان :

الأول : قول الله تعالى في الآية السابقة تعقيبا على أحد العناصر الخمسة وهو الإيمان بالرسل ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾، إذ يعني ذلك أن الإيمان الحق يقتضي أن نؤمن بكل الرسل، كما لوأننا عشنا معهم وعاصرناهم واتبعناهم، وبمعنى آخر « لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود و النصارى بل نؤمن بجميع رُسُلِ الله دون تفريق » (١).

فهذا النص يمكن ـ اعتمادا عليه ـ أن نستثني من الإيمان حتى أهل الكتاب، وهم مجتمعون يمثلون أكبر نسبة دينية فوق الأرض في عصرنا الحديث، هذا فضلا عن الشعوب التي لا تزال مشكلتها العقدية خارج الكتب السماوية كما الحال بالنسبة للبوذية والهندوكية وغيرها من العقائد الوضعية التي لا تؤمن لا برسول الله محمد ﷺ ولا بغيره من الرسل.

ومن هنا يتبين لنا كيف يمثل المؤمنون نسبة قليلة في العالم لا تتجاوز في أحسن الأحوال مليارا واحدا من مجموع ستة ملايير أو يزيد، وسنلاحظ أن هناك حديثا للرسول ﷺ يشير إلى أنه يطمع أن يكون المسلمون ثلث (١ / ٣) أهل

---

(١) صفوة التفاسير ١ / ١٨٠

الجنة أو شطر أهل الجنة [1]،ومنه نفهم كذلك معنى قوله ﷺ « إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو الرقمة في ذراع الحمار » وقوله « ماأنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا في شيء قط إلا كثرتاه يأجوج وما جوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس »[2] إذ أن ذلك كناية عن الأقلية المؤمنة حقا وسط الأكثرية من الغوغاء الضالة، ولكن معرفة المشكلة على وجهها الصحيح يتوقف على معرفة حقيقة يأجوج ومأجوج، فهل هم البوذيون؟ والهندوس؟ ثم مامعنى « وإن معكم لخليقتين. . . » هل ستتوبان وتكونان مما يكثّر صف المؤمنين؟ بعض التفاسير تفيد نقلا عن ابن مسعود أن يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف أمة، كل أمة لايعلم عددها إلا الله، وهم ثلاثة أصناف، صنف منهم أمثال الأرز وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه ويلتحف الأخرى[3] ، وقيل هم بنو قنطراء عراض الوجوه صغار الأعين يتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون بأذناب البقر وهلكوا، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء [4]، وقال الطبري ليس لله خلق ينمو نماءهم سيملؤون الأرض ويفسدون فيها يتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم [5].

الثاني : قول صاحب فتح الباري وهو بصدد شرح حديث الرسول ﷺ بشأن الإيمان : لا يطلق إلا على من صدق بجميع ما ذكر، وقد اكتفى الفقهاء بإطلاق الإيمان على من آمن بالله ورسوله ولا اختلاف، لأن الإيمان برسول الله، المراد به الإيمان بوجوده وبما جاء به عن ربه .... وجميع ما ذكر تحت ذلك »[6].

فقد حصر شارح الحديث الإيمان في من صدق بجميع ما ذكر وهو : الإيمان

---

(١) القرطبي : مختصر التذكرة القرطبية ص ٤٥ – المطبعة الخيرية المصرية

(٢) الطبري: جامع البيان ج ١٧ص ١١٢دار الفكر بيروت

(٣) تفسير القرطبي: ١١ /٥٧ (٤) نفسه : ١١ / ٥٨

(٥) تفسير الطبري١٦ / ١٩ (٦) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١ /١١٩

بالله ورسله والملائكة والنبيين واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، وبذلك يصبح من لم يصدق بهذه العناصر خارجا من دائرة الإيمان، فيخرج الملحدون ثم المشركون وعبدة الأوثان بسبب غياب عنصري الإيمان بالله واليوم الآخر، ويخرج أهل الكتاب بسبب غياب عنصر الإيمان بجميع الرسل وعنصر جميع الكتب السماوية، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ** ﴾ [هود: ١٧] : «أي ومن يكفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ [الأنعام: ١٩] ..»[١].

وهكذا نجد نسبة المؤمنين حقاً تنقص شيئا فشيئا حتى تبلغ فعلاً نسبة تمثل « الأقلية » وهذا ما تبينه الآيات التي سنعرض لها الآن بالدراسة والتفسير.

فسورة هود، وهي سورة مكية تعالج قضايا العقيدة بصفة أساسية، تعرض قصص الأنبياء لبيان تاريخ البشرية في مسألة العقيدة والتقوى، وأول قصة فيها تتحدث عن عقيدة قوم سيدنا نوح عليه السلام، وبالضبط عند قول الله تعالى: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾

[هود: ٣٧ – ٤٠]

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢ / ٤٤١

قصة سيدنا نوح عليه السلام نموذج حي لبيان نسبة الأقلية في مجال العقيدة ،بحيث نجد قول الله ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ واضحا في الدلالة على القلة المؤمنة، وقد سبق القول أن القرآن الكريم غني عن المبالغة في مجال الخبر، لأن الواقع الحقيقي يكفي ليدهش كل ذي لب من خلق الله، ومعناه أن « القلة المؤمنة » قلة فعلا، وتمثل نسبة ضعيفة جدا بالمقارنة إلى نسبة « من سبق عليه القول » الذي يشمل الأكثرية التي تضم كما تبين الآيات ...حتى بعض أفراد أسرته، كزوجة نوح عليه السلام وابنه الذي تبين الآيات في سياق القصة نفسها أن سيدنا نوح ناداه ليركب معه فأبى ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾

[هود : ٤٣]

فالله حينما أمر نبيه عليه السلام بأن يحمل من كل زوجين اثنين ـ حفاظا على بقاء النوع الحيواني ـ حدد له في ذات الأمر من يستحق الحمل من البشرية، وهم أهله ومن آمن، وهم قلة، أما الباقي فقد سبق عليهم القول بما في ذلك زوجته وابنه كنعان (١).

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين آمنوا معه على الرغم من طول مدة الدعوة ـ التي كانت ألف سنة إلا خمسين عاما – كانوا قليلا ومنهم نساؤهم، فقدقيل اثنين وسبعين نفسا وقيل أقل من ذلك (٢).

ولئن كنا لا نستطيع أن نحدد العدد إذ هو غيب فإن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ يكفي للدلالة على مقصدنا من هذا البحث وهو بيان أن نسبة المؤمنين من البشرية قليل، ثم بيان ما يترتب على ذلك من واجبات على الأقلية تتعلق بضرورة استخدام الحكمة والعلم من أجل تحقيق

---

(١) صفوة التفاسير : ٢/١٥

(٢) نفسه : ٣/١٥

العدل بعد تحقيق الغلبة التي سيتبين في موضع لاحق أنها ليست خاضعة لقانون القوة والكثرة، وإنما هي خاضعة لقانون السنن الكبرى التي يأتي على رأسها العلاقة بين الإيمان والنصر، وإذا كانت قصة نوح قد أوقفتنا على هذه النسبة بدقة متناهية مست عن طريق الاستثناء حتى أسرته وأهله فإنها تصلح نموذجا يقاس عليه أمر البشرية كلها، ذلك لأن حدث الغرق كان بمثابة فناء شامل يمكّن المتأملَ من أن يعرف مصير البشرية متى استخدم نوعا من القياس الذي تؤيده آيات أخرى مر بنا بعضها وسيمر بعضها الآخر في موضعه من هذا البحث .

ثم هناك آية أخرى من سورة ص – وهي مكية أيضا – تبين أن نسبة من يجتمع عندها الإيمان والعمل الصالح قليلة، قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص : ٢٤]

فقول الله تعالى ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ معناه : نسبة الذين تجتمع فيهم خصلتا الإيمان والعمل الصالح قليلة، ويرى الزمخشري أن الحرف « ما » في هذه العبارة « للإيهام وفيه تعجب من قلتهم » (١)، ويذكر القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقول في دعائه : اللهم اجعلني من عبادك القليل فقال له عمر ما هذا الدعاء؟ فقال أردت قول الله عز وجل : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم فقال عمر : كل الناس أفقه منك يا عمر »(٢) .

والشيخ ابن عاشور يرى أن : تذييل الكلام بقوله ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ فيه حث للمتخاصمين المذكورين في الآية ليكونا من الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل (٣)، ويستشهد بقوله تعالى ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٧١، وانظر التحرير والتنوير ١٣ / ٢٣٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٧٩ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٣ / ٣٢٦ .

ثم هناك آيتان أخريان تتضمنان فكرة « الأقلية » المؤمنة، تتحدثان عن بني اسرائيل بصفة أساسية، لكنهما تبينان جانبا نفسيا من الجوانب التي تجعل المؤمنين قلة وهما :

١- قول الله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء :٤٦] .

٢- قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء: ١٥٥]. والآيتان من سورة النساء وهي سورة مدنية تعالج من بين ما تعالج مستويات السلوك التي يتعامل بها أهل الكتاب مع رسالات الله إلى خلقه، وتبين الأولى منهما طبائع الذين هادوا بخصوص التحريف والعصيان والإساءة إلى الرسول ﷺ والطعن في الدين، وتصل في النهاية إلى بيان حكم وهو أنهم ﴿ لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وتكشف عن سبب امتناع تسرب الإيمان إلى قلوبهم وهو « اللعنة » التي لحقتهم بسبب كفرهم.

كما تبين الآية الثانية أنهم قد تسببوا بأفعالهم القبيحة؛ من نقض المواثيق، والكفر بآيات الله، والعمل على قتل الأنبياء ظلما وعدوانا، والادعاء بأن قلوبهم معطلة لا تفهم عن الرسول شيئا بأن جُعل في قلوبهم انغلاق وانطباع فصاروا إلى حالة من ﴿ لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ .

ومعنى ذلك أن تلك الأفعال المخالفة للفطرة والشريعة هي التي عطلت قلوبهم عن الفهم ﴿ لا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ومعنى هذه العبارة يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين وكلاهما صحيح.

أما الأول فهو أن المقصود: فلا يؤمن مثل هؤلاء إلا قليلا منهم ممن لم

يَصْدُق عليه القول، وعندئذ تصبح العبارة دالة على «الأقلية» المؤمنة من بني إسرائيل، وهم ذلك النفر اليسير الذي آمن منهم برسول الله ﷺ ودخل في الإسلام مثل :عبد الله بن سلام وأصحابه[١] ، قال قطب معنى الآية: فلا يقع منهم الإيمان إلا قليلا ممن لايستحق بفعله أن يطبع الله على قلبه أي أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه وهم قلة قليلة من اليهود كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيه وأسد بن عبيد الله [٢] وقال في موضع آخر : «ولكن واقع الأمر أنهم بسبب كفرهم مطرودون من هداية الله فلا يؤمن منهم إلا القليل، وصدق قول الله فلم يدخل في الإسلام في تاريخه الطويل إلا قليلا من اليهود ممن قسم الله لهم الخير وأراد لهم الهدى باجتهادهم للخير وسعيهم للهدى أما كتلة اليهود فقد ظلت طوال أربعة عشر قرنا حربا على الإسلام والمسلمين» [٣].

وأما المعنى الثاني فهو أن المقصود من قوله تعالى ﴿ **فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ هو أن تسرب الإيمان إلى قلوب هؤلاء المطبوعة قلوبهم «لايحدث إلا قليلا ، أو لايحدث إلا في فترات قليلة ثم يتراجع، وهو إشارة إلى تردد نفوسهم بين الإيمان الذي تهدي إليه الطبائع الصالحة والنفوس النقية، وبين الكفر الذي تمليه عليهم الأطماع والعناد وما إلى ذلك من الأسباب التي سنتحدث فيها بعد قليل، وإلى هذا المعنى أشار الزمخشري بقوله : «فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ضعيفا ركيكا لا يعبأ به» [٤]، ومثله القرطبي في قوله : «أي إلا إيمانا قليلا لا يستحقون به اسم الإيمان وقيل معناه لا يؤمنون إلا قليلا منهم ، وهذا بعيد لأنه عز وجل قد أخبر عنهم أنه لعنهم بكفرهم»[٥]، وإليه ذهب الصابوني بقوله : «أي أبعدهم الله عن الهدى وعن رحمته بسبب كفرهم السابق فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا ... وهو إيمانهم ببعض الكتب والرسل» [٦].

---

(١) صفوة التفاسير ٣١٧
(٢) في ظلال القرآن ٢ / ٨٠١
(٣) نفسه ٢ / ٦٧٦
(٤) الكشاف ١ / ٥٣١
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٤٤
(٦) الصابوني : صفوة التفاسير ١ / ٢٨٠

والحق أن المعنيين معا، المعنى الذي يشير إلى قلة المؤمنين منهم، والمعنى الذي يشير إلى قلة حصول الإيمان في قلوبهم يؤديان - بالنسبة لغرضنا من البحث - إلى نتيجة واحدة ، وهي أن «الأقلية» فقط هي التي يحصل لها الإيمان، لأن زيادة الإيمان ونقصانه مسألة شاملة لليهود وغير اليهود .

ولعل الآية التي تختلف صياغتها عن الآيتين السابقتين هي آية البقرة من قوله تعالى : ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٧ -٨٨] إذ جاءت صيغة ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ بتقديم لفظ القلة على الإيمان لتدل على أن حصول الإيمان في قلوب المستكبرين - الذين أصيبوا بالغلف والران بسبب كفرهم واللعنة التي لحقت بهم - قلما يحدث، فهم «يؤمنون إيمانا قليلا، وهو إيمانهم ببعض الكتب وكفرهم بالبعض الآخر»[١] ، وذهب الزمخشري إلى أن الميم من قوله ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ مزيدة، وهو إيمانكم ببعض الكتاب ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم»[٢]، وهذا مستبعد؛ لأن أسلوب القرآن في مثل هذه الأحوال يستخدم الحقيقة، إذ لا جدوى من المجاز الذي يستهدف المبالغة، والمقام هنا يستغني عنها تماما.

ومنه نستنتج أن من بني إسرائيل القلة فقط هي التي آمنت، وبقية اليهود الذين - عندئذ - يمثلون الأكثرية قد كفروا، كما بينت الآيات الثلاثة من سورتي النساء والبقرة.

ويمكن أن نضيف هنا تجربة سيدنا لوط إذ حينما جاءت الملائكة لتبشير سيدنا إبراهيم الخليل كانت قد أشارت إلى ضرورة استئصال قومه الذين لم تنفع معهم الدعوة، وتلخص سورة الذاريات المشكلة كما يلي : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات: ٣٦]،

---

(١) صفوة التفاسير ١/٧٧

(٢) الكشاف ١/٢٩٥

بيت واحد من قرية لوط هي «بيت لوط ـ كما ورد في مواضع أخرى ـ فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين»[1] أما بقية البشر فكانوا على الكفر.

فإذا جمعنا هذه النتيجة ـ المتعلقة بأحوال قوم لوط مع تجربة بني إسرائيل كشعب تكررت معه الدعوة إلى الله وجاءهم الرسل مرارا وتكرارا فظلوا على طبعهم، ولم يؤمن منهم بالرسول محمد ﷺ ولا بالنبيئين قبله إلا قليل جدا بالنظر ـ إلى النتيجة التي توصلنا إليها في الآيات السابقة، والتي حددنا فيها القلة بشكل مطلق تبينت لنا النتيجة النهائية التي تشير إلى أن الفئة المؤمنة من البشرية قليلة جدا ، ومن ثم ناسب أن تكون الإشارة إلى العدد يوم القيامة في سورة الجن بقوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** ﴾ [الجن :٢٤] ويمكن أن نضيف هنا تجربة سيدنا لوط إذ حينما جاءت الملائكة لتبشير سيدنا إبراهيم الخليل كانت قد أشارت إلى ضرورة استئصال قومه الذين لم تنفع معهم الدعوة، وتلخص سورة الذاريات المشكلة كما يلي : ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات : ٣٦] ، بيت واحد من قرية لوط هو «بيت لوط ـ كما ورد في مواضع أخرى ـ فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين»[2] .

وهنا تطرح مشكلة أخرى هي مشكلة العلاقة بين الأقلية والغلبة، فهل تكون الغلبة والقهر دائما للأكثرية؟ وهل تعني الأقلية دائما الضعف، ومن ثم الاستكانة؟

من حسن حظ البشرية أن قلة العدد لا تعني الضعف، لأن ميزان القوة والضعف في مثل هذه الأحوال لا يقاس بالكم وإنما يقاس بالقدرة، ولذلك ارتبط التحدي هنا بالنصر ﴿ **مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا** ﴾ فمع قلة العدد يوجد النصر، لأن النصر من عند الله وهو مصدر القوة والقدرة الحقيقية، ولذلك فسر قطب هذه الآية بقوله « وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد، ويقيسون

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧ /٣٣٨٣

(٢) في ظلال القرآن ٢٧ /٣٣٨٣

قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه فسيعلمون حين يرون ما يوعدون إما في الدنيا وإما في الآخرة من أضعف ناصرا وأقل عددا، وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل»[1] .

ويبين ذلك أكثر قوله تعالى : ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾[البقرة : ٢٤٩] وقوله ﴿ **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ [الأنفال : ٦٥] ، فالآيتان تبينان أن الغلبة قائمة على القوة وليست على الكثرة ، والقوة لا تكمن في العدد بقدر ما تكمن في الصبر والفقه .

وقد توقف قطب رحمه الله عند تفسير هذه الظاهرة التي تتحكم في قانون الغلبة قائلا : « فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجيء عجيب ، ولكنه صادق عميق ﴿ **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ فما صلة الفقه بالغلبة في ظاهر الأمر ؟ ولكنها صلة حقيقية وصلة قوية، إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها ... وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله في قوة وفي طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة ... وهذه النسبة (١ / ١٠) واحد لعشرة هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون، وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحد لإثنين (١ / ٢) »[2].

أقول إن الغلبة لا تقاس بالكم وإنما تقاس بالقوة ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، والقوة مصدرها الإعداد المادي والإعداد الروحي ، ومن الواضح أن الإعداد الروحي هو الذي يرفع درجة القوة، ولذلك يرتبط مفعول

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩ / ٣٧٣٧

(٢) في ظلال القرآن ١٠ / ١٥٤٩-١٥٥٠

الغلبة دائما بالصبر والتقوى «الغلبة للأتقى فإن لم يكن بين المتغالبين أتقى فللأقوى» أي للأقوى ماديا.

ولا شك أن تاريخ البشرية، ولا سيما تاريخ الإسلام في عهده الأول يكشف عن سر الغلبة الحقيقي في غزوة بدر، وفي غيرها من فتوحات المسلمين الكثيرة.

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الأقلية لا تعني بأي حال من الأحوال الضعف الذي ينذر بالانهزام، وإنما على العكس من ذلك يشعر بالقوة ويبشر بالانتصار.

ولكن مع ذلك يبقى التساؤل المطروح هو: ما سبب قلة المؤمنين وكثرة الكافرين في جميع الأعصر ومع كل الأنبياء والرسل إلا قوم يونس ثم عهد الرسول ﷺ في ما بعد الفتح؟

أسباب قلة المؤمنين: يرد ابن عاشور رحمه الله سبب قلة المؤمنين وكثرة الكافرين إلى العوامل النفسية فقال بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾: «والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى لذات الدنيا كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهي الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة»(١).

ورد سيد قطب قلة إيمان اليهود إلى عوامل نفسية وأخلاقية فقال: «لو كان الإيمان بالبينة أو بالأسباب الظاهرة لآمنت يهود أول من آمن، ولكن اليهود كانت لها مصالح ومطامع وكانت لها أحقاد وعناد، وكانت هي بطبعها منحرفة صلبة الرقبة كما تعبر عنهم التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة، ومن ثم لم تؤمن»(٢).

---

(١) ابن عاشور: التحرير والتنوير ٢٢/٢٣٦

(٢) في ظلال القرآن ٥/٦٧٧

والحق أن العوامل التي ذكرها كل من ابن عاشور وقطب مهمة جدا في تحديد بعض الأسباب التي جعلت الجنس البشري يكثر في مجال الكفر ويقل في مجال الإيمان، إذ النفس ميالة إلى اتباع الشهوات بطبعها ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف : ٥٣]، ولكن الحركة النفسية ليست هي المتحكمة في مسالة الإيمان والكفر بشكل مباشر، وإنما الذي يتحكم في العقيدة بشكل مباشر هو العقل، غير أن النفس بجريانها على فعل المنكرات تؤثر في القلب والعقل وتؤدي بهما إلى العناد المورِّث لحالة الكفر، وإذا كانت دواعي الحق والكمال هي الدين والحكمة ، كما قال ابن عاشور، فإن هذين يتأسسان بالعقل وهداية الله، ولذلك عقبت الآية السابقة بقوله : ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

وقد نستطيع أن نفهم من قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه : ١١٥]، أن سيدنا آدم كان قد فقد أمام مغريات الشيطان قوة التذكر فنسي حتى أوشك أن يقع في حبائل الشيطان الذي ليس له على الإنسان أي سلطان كما بينا سابقا لولا أن العصمة منعته فلم يقع له ذلك العزم على فعل السوء الذي يقع لغير المعصومين من البشر، والتجربة التي مر بها سيدنا آدم « تمثل المحظور الذي لا بد منه لتربية الإرادة وتأكيد الشخصية والتحرر من رغائب النفس وشهواتها بالقدر الذي يحفظ للروح الإنسانية حرية الانطلاق من الضرورات عندما تريد فلا تستعبدها الرغائب وتقهرها، وهذا هو المقياس الذي لايخطئ في قياس الرقي البشري، فكلما كانت النفس أقدر على ضبط رغائبها والتحكم فيها والاستعلاء عليها كانت أعلى في سلم الرقي البشري ... من أجل ذلك شاءت العناية الإلهية التي ترعى هذا الكائن الإنساني أن تعده لخلافة الأرض باختبار إرادته وتنبيه قوة المقاومة فيه، وفتح عينيه على ما ينتظره من صراع بين الرغائب التي يزينها الشيطان وإرادته وعهده للرحمن، وهاهي ذي التجربة الأولى تعلن نتيجتها الأولى : ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ »[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٤ .

ويمكن أن نضيف إلى السببين السابقين سببا ثالثا وهو البغي والكبر، ذلك ما تفيده الآية: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

وخلاصة القول: إن الآيات التي عرضنا لها في هذا المبحث كانت تتعلق بنسبة المؤمنين إلى الكافرين، وقد وجدنا آية سورة هود تلخص موقف وتجربة سيدنا نوح عليه السلام وتخلص إلى أنه ﴿مَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ كما أن آية سورة ص قد بينت من خلال تجربة سيدنا داوود أن الذين يستطيعون من البشر أن يجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿قَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وعرفنا أن الصيغة هنا تفيد التعجب، كما تجلى لنا من خلال الوقوف عند آيتي سورة النساء وآية سورة البقرة أن تجربة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من قبل، وتجربة سيدنا محمد ﷺ معهم في المدينة لم تثمر إلا النتيجة نفسها فكانت الصيغة الدالة على الأقلية هي قوله تعالى: ﴿فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقوله: ﴿فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهكذا تتجلى لنا الصورة واضحة فندرك أن نسبة المؤمنين هي الأقلية والسبب في ذلك يعود إلى أن الناس الذين يتمكنون من ضبط نفوسهم أمام غوايات الشيطان قليلون، وأن الذين يمكنهم أن يلتزموا بداعي الحق والخير من دين وحكمة وعزم قليلون في مجال العقيدة على مستوى الإيمان، وندرك أن قانون الغلبة لايخضع لمبدأ الكثرة والقلة وإنما يخضع لمبدأ الإيمان والصبر.

والآن سنمضي إلى بيان جانب آخر من جوانب الأقلية في مجال العقيدة وهو جانب الشكر الذي يعد الوجه الآخر لكفران النعمة الذي سبق الحديث فيه في الفصل السابق.

* * *

● المبحث الثاني : الأقلية في مجال شكر الله على النعم

الشكر على النعم سمة الفضلاء من خلق الله، أولئك الذين يحسنون بفضل المنعم فيشكرونه على تفضله، ويعبدونه حق عبادته، ولقد أثنى الله على عباده الشاكرين أمثال نوح عليه السلام فقال : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء: ٣]، وبين أن الشكر أحد أوجه العبادة لله تعالى وجعله في مقابل الكفر فقال : ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣] وبين أن الإنعام ابتلاء للإنسان أيشكر أم يكفر؟ فقال على لسان سليمان عليه السلام ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل: ٤٠]. وبين حالة ضعف الإنسان أمام المادة فقال : ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ** ﴾ [فصلت: ٥١]، وأمرهم بابتغاء الرزق عنده وربط ذلك بالعبادة والشكر له وحده فقال : ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[العنكبوت: ١٧]، وبين أن النعم التي يغدقها على الإنسانية إنما غرضها الشكر، فقال على لسان سيدنا إبراهيم ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وبين العلاقة بين الشكر وزيادة النعم فقال ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم : ٧] .

والحقيقة التي يمكن استنتاجها من كل ذلك هو أن «الكفر ـ هنا ـ مراد به كفر النعمة، وهو مقابلة النعمة بالعصيان، وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أن شكر النعمة مقابلة النعمة بإظهار العبودية

والطاعة »[1]، ولذلك جعل الشكر في مقابل الكفر في قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وهكذا تتجلى لنا قيمة الشكر وحقيقته ومنزلته عند الله سبحانه وتعالى والآن نشرع في بيان ـ حجم المساحة التي يحتلها البشر في مجال مقابلة المنعم بالشكر الحقيقي المتمثل في العبادة والطاعة والتوحيد الخالص.

ففي سورة الأعراف، وهي سورة مكية تستعرض تاريخ البشرية في صراعها مع الشيطان، نجد آية في مقدمتها تصدر حكما شاملا يبين حقيقة الإنسان في مجال الشكر هي : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٠] ، إن الله سخر للإنسان كل ما حوله، فمكن له بذلك في الأرض ليعمرها ويعبد خالقه شاكرا على هذا الفضل العظيم، فضل التمكين بما أوتيه من استعدادات لم يعطها كائن حي فوق هذه الأرض، وفضل التسخير للطبيعة بما فيها من نبات وحيوان وجهاد ومعايش لا تعد ولا تحصى، ولكن الظاهر أن الإنسان الذي أودع القدرة على الاختيار للشكر والكفر، لم يوفق في الاختيار بصفة مطلقة كما هو الحال بالنسبة للملائكة، فكانت الأغلبية كافرة بأنعم الله، وكان الشكر حظ الأقلية كما عبرت عنه هذه الآية ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ والآية بهذه الصيغة التي قدمت فيها كلمة « قليلا » على الفعل لأهميتها في بيان حال الإنسان، وللتعبير عن الحقيقة التي بني عليها تاريخ البشرية كما ستقدمه السورة من بعد، لغاية بيان الوقوف أمام الله يوم الحساب، والحرف (ما) بعد كلمة « قليلا » جاء لبيان ضآلة تلك النسبة الشاكرة وتأكيد القلة[2]، فهي حرف يفيد هنا ما يشبه التعجب من تلك القلة التي هي أشبه بالعدم إذا ما قيست بنسبة الأكثرية الكافرة بالنعم كما رأينا في الفصل السابق.

وهذه القلة تتناسب تماما مع حديث الرسول ﷺ الذي بين فيه نسبة أهل

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٩٤ . (٢) تفسير الجلالين ص ٢٠٠ .

الجنة، كما سيتبين في موضع آخر، فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: أخرج بعث النار، فقال: يا رب وما بعث النار؟ فقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال فذلك حين يشيب الوليد وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد، قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - فاشتد ذلك عليهم فقالوا يا رسول الله: أيُّنا ذلك الرجل؟ فقال أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفا ومنكم رجلا»[1].

إن الآية السابقة ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ هي من سورة الأعراف التي تستعرض تاريخ البشرية وما آل إليه كثير من الخلق حين لم يشكروا الله على نعمه، تبين أن حالة الإنسانية يغلب عليها هذا التطبع على قلة الالتفات لصاحب الفضل بعد حصول المرغوب والتمكين من الأرض، وبذلك كان حكمها بمثابة إخبار عن حقيقة الإنسان في كل زمان ومكان، ولكن هناك آيات أخرى تعنى بجوانب أخرى يمثل فيها نسبة الشكر القلة أيضا، ومنها شكر الله على نعمة السمع والبصر والعقل، فقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٨] وقال في سورة السجدة: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [السجدة: ٩] ثم زاد الأمر تفصيلا في سورة الملك فقال: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ [الملك: ٢٣] والآيات الثلاثة تختم بصيغة واحدة هي ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ وهذه الصيغة تفيد تأكيد قلة الشكر.

ومعنى الآية: «قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره»[2]؛ أي أن الصيغة تأكيد قلة الشكر على

---

(١) القرطبي: مختصر التذكرة القرطبية ص ٧٥ (٢) تفسير الجلالين ص ٤٥٨

النعم المتعلقة بالاستعدادات التي أعطاها الله للإنسان كي يستخدمها في العبادة وعمران الأرض وإصلاح حياته الفردية والاجتماعية، فالشاكرون لله على نعم الاستعدادات قليلون، والشكر على النعمة « يبدأ بمعرفة موجد النعمة، وتمجيده بصفاته ثم عبادته وحده، وهو الواحد الذي تشهد بوحدانيته آثاره في صنعته، ويتبعه استخدام هذه الحواس والطاقات في تذوق الحياة والمتاع بها، بحس العابد لله في كل نشاط وكل متاع »[1].

والسبب في كون الشاكرين يمثلون الأقلية يعود إلى « أنهم في جاهليتهم لا يعلمون، وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر، وأنى لهم الوفاء ؟ لو لا أن الله يقبل منهم ما يطيقون، هؤلاء وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى : ﴿ **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾.

وإذا كانت نعم الله في منح الإنسان الاستعدادات التي لا حصر لها لتمكنه من تسخير الطبيعة كلها لخدمته فإن من هذه النعم الصناعة، وهي نعمة توفر بسبب الاستعدادات السابقة واستعداد اليد القدرة الصناعية، التي تمكنه من تحويل الأفكار والصور والمسموعات إلى أشكال عمرانية وآلات صناعية، وقد بين الله تعالى موقف الإنسان أمام هذه النعمة بقوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] ، المجال هنا مجال الصناعات، وهي نعمة ذات آثار واضحة على الإنسان ، لاسيما في العصر الحديث الذي تمكن فيه الإنسان من تجاوز مستوى الحاجات إلى مستوى التحسينات والكماليات، مما جعل حياته أكثر راحة وتنعما ،مما يستوجب الشكر الذي أمر به هنا عن طريق الأمر الموجه لآل داود ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا** ﴾، أي اعملوا شكرا لله على هذا التسخير مبتعدين عن التباهي والتعالي بما سخره الله، والعمل الصالح شكر لله كبير[2]،

---

(١) في ظلال القرآن : ١٨ / ٢٤٧٦

(٢) في ظلال القرآن :٢٢ / ٢٨٩٩

ولكن الإنسان هو الإنسان قلما يستيقظ من سباته ويفلت من أهوائه، ويستفيق من غفلته، ويتحرر من قبضة السلطان الذي لا سلطان له عليه، لذا قل الشاكرون من عباد الله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، و صيغة لفظ «الشكور» هنا للدلالة على كثرة الشكر، وهذا أقل من القليل، ولعله لذلك أضاف إلى الصيغة هنا ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ ليدل على أن عباده المضافين إليه إضافة مدح قليل منهم من يؤدي لله حق الشكر على وجهه الصحيح، أي الشكر الكثير الخالص الذي تجسده الأعمال الصالحة المقترنة بالإيمان، ففي العبارة «حث على الاهتمام بالعمل الصالح ويجوز أن يكون هذا التذييل كلاما جديدا جاء في القرآن، أي قلنا لآل داود اعملوا فعمل منهم قليل ولم يعمل كثيرون، وسليمان من أول الفئة القليلة»(١).

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا هل قام حتى تنفطر رجلاه فقالت له عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال ﷺ: يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا»(٢).

هكذا كان رسول الله ﷺ، وهكذا كان سيدنا سليمان وداوود وسيدنا إبراهيم ونوح عليهم السلام، شاكرين لله على أنعمه، ولكن الناس لم يقتدوا بالأنبياء والرسل في شكر الله بل تهاونوا فما شكر الله حق الشكر منهم إلا قليل من عباده، فحق عليهم قوله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ فالعبارة «تعقيب تقريري وتوجيهي من تعقيبات القرآن على القصص، يكشف من جانب عن عظمة فضل الله ونعمته حتى ليقل القادرون على شكرها، ويكشف من جانب آخر عن تقصير البشر في شكر نعمة الله وفضله»(٣).

---

(١) التحرير والتنوير: ١٣/ ١٩٤

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٣ الحديث أخرجه مسلم في الصحيح

(٣) في ظلال القرآن الكريم: ٢٢/ ٢٨٩٩

وخلاصة القول:

إن الشكر على النعم يعد عبادة عظيمة لا ينهض بها إلا ذوو الهمم العظيمة والضمائر الحية، وهؤلاء يمثلون نسبة قليلة في حياة البشرية، يأتي على رأس هذه القلة الأنبياء والرسل ثم يليهم عباد الله الصالحين .

على أنه من الواجب التمييز بين مستويين من أساليب الشكر، يترتب عليهما مستويين من الأقليات:

١- أسلوب العبد الشكور الذي يؤدي ما عليه من شكر حتى يبلغ درجة الإحسان، كما رأينا مع قصة قيام الليل عند رسول الله ﷺ، وهذا الأسلوب هو المعبر عنه بقوله ﴿ **الشَّكُورُ** ﴾ أي الكثير الشكر، وهذا أقل من القليل، إنهم خلاصة البشرية.

٢- أسلوب العبد الشاكر الذي يشكر الله بطريقة أقل اجتهادا وهذا هو مستوى معظم عباد الله الصالحين، وهم قليل بالنسبة إلى الأكثرية التي رأينا أنها على ضلال مبين.

* * *

● المبحث الثالث : الإخلاص

إخلاص العبادة لله أعلى مستويات الأعمال القلبية، وقد عبرت الآيات على ذلك بوضوح كما في قوله تعالى : ﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر: ٢-٣] فالمعنى أن الإنسان مأمور بأن يخلص العبادة لله ولا يشرك به شيئا، لأن الإخلاص هو الإمحاض وعدم الشوب بمغاير وهو يشمل الإفراد، وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالألهية »[١]، والدين الخالص، هو الذي لا يشوبه تشريك غيرالله في عبادته وفضيلته «في العبادة قضية أخص من قضية صحة العبادة وإجرائها في ذاتها إذ قد تعرو العبادة عن فضيلة الإخلاص وهي مع ذلك صحيحة مجزئة فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل وزيادته ولا علاقة له بصحة العمل »[٢].

وسبب ذلك هو أن الإخلاص من الأعمال القلبية التي يعد الحكم عليها من خصوصيات علام الغيوب، ويفسر ذلك قول الرسول ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٣].

والدين الخالص لله لن يتم على الوجه الأكمل إلا إذا شمل جانبيه الأساسيين؛ جانب العبادة، وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ** ﴾

[الذاريات: ٥٦ - ٥٧]

وجانب العمران وهو المقصود بقوله عز وجل : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١] .

---

(١) التحرير والتنوير : ٣٠/ ٣١٦ .

(٢) نفسه : ٣٠ / ٣٢٠ .

(٣) صحيح مسلم :٣/١٥١٥- وصحيح البخاري :١ ص ٣ - ٦/ ٢٤٦١

ولما كان الجمع بين هاتين الفضيلتين ـ فضيلة الإخلاص، وفضيلة العمران ـ صعبا صار المخلصون في الدين قلة قليلة، ربما هم المشار إليهم بقوله ﷺ : «إن الدين ليأزر إلى الحجاز كما تأزر الحية إلى جحرها، وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا، فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي سنتي» (١) .

إن الغربة التي يهنئ النبي ﷺ بها الناس هنا بقوله «فطوبى للغرباء» هي غربة المخلصين الذين يمثلون قلة القلة، في وسط اجتماعي يمثل فيه المفسدون والمفلسون دينا ودنيا الأغلبية العظمى، وقد بينا ذلك في موضعه .

أما الآن فنريد أن نتوقف عند المخلصين، فقد جاء في سورة الحجر قوله تعالى مبينا صراع الشيطان مع الإنسان : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] .

إن أسلوب الاستثناء يفيد هنا أن المستثنى ـ وهم المخلصون ـ يمثلون الأقلية، ولا شك أن سبب عجز الشيطان عليهم مع قلتهم، وقدرته على الأكثرية مع كثرتهم يعود إلى الطاقة الروحية التي يتميز بها المخلصون، ولهذا نميل إلى قول الصابوني من أن معنى قوله تعالى : ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ «أن من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه» (٢) ويدل على ذلك ما جاء عقب الآية مباشرة تفسيرا لها وبيانا لمعناها وهو قوله تعالى : ﴿ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ [الحجر :٤١-٤٢]، لقد قضى الله وحكم بأن تكون الحركة النفسية والعقلية للبشرية وفق السنن التي لا تعرف التبدل ولا التحول، وإنما ستعرف الاستقامة الكاملة وتسير وفقها، وعندئذ إن كانت موالية للشيطان فهي له ومعه، وإن كانت موالية للرحمن فهي له ومعه، ومن ثم لا يمكن للشيطان أن يبسط سلطانه عليها وهي خارج السنن التي يتسلط عليها .

---

(١) الترميذي : الجامع الصحيح ٥ / ١٩ .

(٢) صفوة التفاسير :٢ / ١١٠

وقد تكرر وعيد الشيطان للإنسانية، لكنه كان يستثني المخلصين دائما، فجاء في سورة ص قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

والفرق بين هذه الآية وآية الحجْر السابقة يكمن في أن هذه الآية تضمنت القسَم، وآية الحجر تضمنت التعليل، وكلاهما مكمل للآخر.

أما القسَم فيدل على أن الشيطان كان يعلم أن الله قد أعطاه قدرة الإغواء والوسوسة، وقسَمُ إبليس بعزة الله ناشئ عن علمه بأنه لا يستطيع ذلك إلا لأن الله أقدره على ذلك الفعل (١)، كما يدل استثناء المخلَصين على أنه يعلم أن قدرته محدودة تمس فقط من سلم له زمام أموره.

أما تعليله للكيد والغواية فيعود إلى قصته مع آدم حين فضله الله عليه وأمره بالسجود فعصى، فعاقبه الله تعالى تلك العقوبة الخطيرة المتمثلة في قوله تعالى: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقوله قبل ذلك: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

فبسبب هذه العقوبات الكبرى عمد الشيطان إلى الكيد لبني آدم انتقاما منهم وحسدا لهم للمكانة التي أعطاها الله لهم وكرم أباهم بها بين الملائكة.

وأمر آخر تفيده آية الحجْر هو أسلوب الكيد إذ قال الشيطان: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فتوعد بأن يغوي الإنسان في مقابل الغواية التي وقع فيها، وبيَّن أسلوب الغواية متمثلا في التزيين للمحرمات، وقوله ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ ليس الهدف منه تحديد المكان، وإنما تحديد طبيعة العناصر التي يمكنه استخدامها في الغواية، وهي الغرائز وما ترتبط به من شهوات. فهو إذاً لا يستطيع أن يغوي خارج هذا الإطار، ومن ثم

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ ص ٣٠٦

يتعين عجزه أمام المخلَصين، لأنهم محضوا إرادتهم لعبادة الله فتغلبت القوة الروحية فيهم على القوة المادية الغريزية عندهم فعجز إبليس عن غوايتهم.

ولما كانت الغواية في اللغة تعني الضلال والخيبة، فإن غواية الشيطان للإنسان تسري على من يملك الاستعداد للضلال، وهو ما لم يجده عند المخلصين.

ولفظ «المخلصين» يرد في القرآن بفتح اللام حينا وبكسرها أخرى، وهو إن كان دائما يدل على صفة عباد الله الأتقياء فإنه يأتي مفتوحا «ليدل على الذين أخلصهم الله لولايته، وبكسر اللام «المخلِصين» ليدل على الذين اخلصوا دينهم لله» (١).

ومن ثم يتبين أن الذين استثناهم الشيطان من دائرة قدرته هم الفئة التي أخلصها الله لولايته، ومن ثم جاء لفظ المخلَصين - بفتح اللام - صفة للرسل عليهم السلام فقال تعالى بشأن موسى عليه السلام ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا** ﴾ [مريم: ٥١] وجاء بشأن يوسف قوله: ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف: ٢٤]، ففي الحالين جاء اللفظ بفتح اللام للدلالة على أن هذين النبيين من عباد الله الذين أخلصهم الله لولايته، أو أخلصوا ولا يتهم لله وهو مطلق التوكل على الله والاعتماد عليه.

وفي اللغة خالص يخالص، صافاه يصافيه في المودة، وأخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس، وأخلص الطاعة صفاها من الرياء والشيء الخالص؛ المحض الصافي، كلمة الإخلاص هي قول الموحدين: لا إله إلا الله، ومنه سميت سورة التوحيد سورة الإخلاص في أكثر المصاحف «لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى، أي سلامة الاعتقاد من الإشراك بالله غيره في الإلهية» (٢).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ص ١١١

(٢) التحرير والتنتوير: ٣٠/٦٠٩

وقد جاء لفظ «المخلَصين» بفتح اللام في القرآن تسع مرات تفردت سورة الصافات وحدها بخمس مرات هي [1]:

١ ـ ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

٢ ـ ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

٣ ـ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

٤ ـ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

٥ ـ ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾.

فلفظ ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ جاء في هذه السورة بفتح اللام ليدل على: «الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته» وهي قراءة أهل المدينة والكوفة [2]، والأسلوب في الآيات الأربع الأولى استثناء منقطع، أي أن الله يستثني المخلَصين من العذاب الذي سيسلطه على المشركين، كما يستثنيهم من الذين يصفونه بما لا يليق به، لأنهم ينزهونه عن كل نقيصة ويفردونه بالولاء والتوحيد.

والآيات الثلاث الأولى يُستثنى فيها المخلَصون من الذين سيعذبون أو يحضرون إلى النار، أو يعاقبون في الدنيا بالاستئصال وفي الآخرة بالعذاب، أما الآية الرابعة فيستثنى المخلصون من الذين يعذبون بسبب أنهم لم يكونوا ينزهونه، وفي الآية الخامسة يتخلف أسلوب الاستثناء لأن المجال مجال ادعاء الكافرين أنهم لو جاءهم كتاب من عند الله كما جاء للأمم الأخرى من أهل الكتاب لأخلصوا ولاءهم لله، فلما جاءهم القرآن كفروا به فقامت عليهم الحجة إذ لم يستطيعوا أن يتخلصوا من تراكمات ثقافة الشرك، ولذلك عقب على الآية بقوله ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٠].

والآيات الخمسة من سورة الصافات تشترك في إضافة العباد لله، وتصفهم بالإخلاص ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾، وسبب ذلك أن «ذكر المؤمنين بوصف

---

(١) سورة الصافات: ٤٠-٧٤-١٢٨-١٦٠-١٦٩

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٧٦

العبودية لله تعالى تنويه بهم وتقريب، وذلك اصطلاح غالب في القرآن في إطلاق العبد والعباد مضافا إلى ضميره تعالى...ألا ترى أنه لما أريد ذكر قوم من عباد الله من المشركين لم يأت بلفظ العباد مضافا كما في قوله تعالى: ﴿ **أَأَنتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ** ﴾ لأن صفة الإضلال قرينة على أن الإضافة ليست للتقريب »[1].

وقد دل تكرار عبارة ﴿ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ في هذه السورة خمس مرات على وحدة موضوعها، وهو التوحيد المطلق الخالص لله، كما يبينه مطلع السورة من قوله تعالى: ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾ [الصافات: ١-٥]

إذ تضمن المطلع قسما وجوابه، للدلالة والتأكيد على تفرد الله بالوحدانية « لأن المخاطبين كانوا قد علموا أن لهم إلها ولكنهم جعلوه عدة آلهة فأبطل اعتقادهم بإثبات أنه واحد غير متعدد »[2]، فالسورة كلها تستهدف كسائر السور المكية – بناء العقيدة في النفوس وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله[3]، ومن هنا تعدد ذكر عبارة ﴿ **عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ فيها أكثر من أي سورة أخرى، حتى ليمكن أن نسميها سورة الإخلاص يقول البقاعي: ولأجل أن هذه السورة سورة المتجردين عن علائق العوائق عن السير إلى الله كرر وصف الإخلاص كثيرا.

ومن الواضح أن المخلصين في هذه السورة يمثلون الأقلية القليلة التي يصدق عليها هذا الوصف الجليل، ولذلك نجدها تشترك في هذا الوصف مع الأنبياء كما أشرنا إلى ذلك عند تفسير الآية: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً**

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ١١٠ – ١١١

(٢) التحرير والتنوير ٢٣ / ٨٥ – ٨٦

(٣) في ظلال القرآن / ٢٣ / ٢٩٨٠

نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥١] والآية ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

ثم هناك حالة أخرى تأتي عليها كلمة المخلصين بكسر اللام لتدل على الذين أخلصوا دينهم لله، والآيات التي وردت بهذه الصيغة نجدها ترتبط دائما بتحديد موضوع الإخلاص وهو الدين.

لقد وردت الكلمة في عشر آيات بهذه الصورة وهي:

١- ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢]

٢- ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر: ١١].

٣- ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

٤- ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الاعراف: ٢٩]

٥- ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣]

٦- ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٧- ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: ٣٢].

٨- ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤].

٩- ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [غافر: ٦٥].

١٠- ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة : ٥] .

إن كلمة المخلصين قد جاءت في كل الآيات العشر السابقة مرتبطة بكلمة الدين هكذا ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، ولم ترد مجردة من تحديد موضوع الإخلاص، وهو الدين، إلا في آية واحدة جاءت مطلقة وغير مقيدة، هي قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٩] والمفسرون يرون أن التقرير في هذه الآية ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ يعني الإخلاص في الدين والعمل »[١] وبهذا تصبح كلمة ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ عندما ترد بالكسر دالة فعلا على الذين أخلصوا دينهم لله وأفردوه بالطاعة غير مشركين كاليهود والنصارى[٢] ، بينما ترد بالفتح لتدل على الذين أخلصهم الله لولايته، فهم إذا المختارون والمصطفون للقيام فوق إخلاص الدين لله بالدعوة إلى الله وتوحيده، وبهذا المعنى يصبح الفرق بين المعنى العام للآيات التي ترد فيها كلمة ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ بالفتح شاملا للمعنى الذي تتضمنه كلمة ﴿ الْمُخْلِصِينَ ﴾ بالكسر، لأن المصطفى للقيام بالإصلاح والهداية لا يكون كذلك حتى يخلص هو دينه لله في العبادة والعمل.

ثم هناك سمة أخرى بارزة تبين الفرق بين الكلمتين هو أن هذا اللفظ حين يرد بالكسر ﴿ الْمُخْلَصِينَ ﴾ يأتي دائما في سياق يتضمن الإشارة إلى الدعاء ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ حينا أو الإشارة إلى العبادة ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ .

وهكذا يتبين لنا أن السياق الذي ترد فيه كلمة المخلصين بالكسر لا يدل بالضرورة على أقلية الأقلية، لأن الآيات لا تأتي على سبيل الوصف والاستثناء لفئة معينة، وإنما تأتي في الغالب إما لبيان الحال التي أمر العبد بالتعبد عليها، كما في قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ وإما لبيان الحال التي يكون

---

(١) تفسير الجلالين ص ٢٩ (٢) تفسير الطبري ٣٠ / ٢٦٤

عليها الإنسان في حالة الخوف والهلع الشديد كما في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ** ﴾ [لقمان : ٣٢].

ومعناه أن الآيات التي ترد فيها كلمة المخلصين بالكسر ليست دالة على أقلية الأقلية، وإنما أقلية الأقلية تنحصر في الآيات التي ترد فيها الكلمة بالفتح، ومن الملاحظ أنها تتحدث دائما عن طريق الاستثناء لتفيد حصر فئة قليلة من عباد الله في مجالات معينة، إما مجال النجاة من العذاب كما في الآيات (٤٠-٧٤-١٢٨-١٦٠) من سورة الصافات والآية: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ وإما مجال الإشادة بالنبيين والمرسلين كما في الآية (٥١) من سورة مريم والآية (٢٤) من سورة يوسف ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا** ﴾ وإما مجال بيان الذين خرجوا من قبضة الشيطان كما في الآية (٤٠) من سورة الحجر، والآية (٨٣) من سورة (ص) ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾.

على أن الآيات التي ترد فيها كلمة المخلِصين بالكسر فيها دعوة ضمنية إلى أن الذين بلغوا مستوى التطبيق العملي القائم على العلم الصحيح في دعائهم وعبادتهم، وطابقت أقوالهم أعمالهم سيدخلون في دائرة أقلية الأقلية، أي مع الصفوة وهم المخلَصون.

* * *

الباب الثاني

الأكثرية والأقلية على المستوى المعرفي

توطئة في مشكلة المعرفة : أحكام الناس على الأشياء والأفكار منبثقة ـ في الغالب الأعم ـ عن فقههم لها، وتصورهم لحقيقتها، ومعرفتهم لكنهـا، وعلى هذا فإن الحكم الذي تصدره العقول البشرية على الأفكار والعقائد والأفعال والسلوك والأشخاص والأحداث التاريخية إنما هي وليدة مستواهم المعرفي وطبيعة المعرفة التي يملكونها على تلك الأشياء .

ومعناه أن الجاهل بأمور الدين والأخلاق والأنفس وأحوال الاجتماع وسنن التاريخ والطبيعة لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يصدر أحكاما نافعة للبشرية .

ولعل هذه الحقيقة هي التي تصوغها الآية القرآنية بصيغة استفهامية غاية في الدقة والتنبيه كما يلي : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر : ٩] .

نعم ـ من غير المعقول أبدا ـ أن تستوي الأحكام الصادرة عن عقل فقيه بموضوع أو فكرة أو رجل أو أمة، وعقل جاهل بها أو حتى عقل يبني أحكامه على مجرد الظن والتخمين : ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ [النجم : ٢٨] .

فالظن لا يغني من الحق شيئا، وحتى إن كان مفيدا في وضع الاحتمالات والفرضيات، فإن الذي يعين على بلوغ الحقيقة هو العلم الذي لا يشوبه ظن كالوحي مثلا .

أما الجهل أو حتى قلة المعرفة فإنهما لا يعينان على إصدار الأحكام النافعة، بل إنهما ليضلان الأمم والشعوب، ويصرفان اللاحق منها بالضالين السابقين عن

طريق الصواب؛ بما يوهمان به العقل من الوقوع على الحقيقة إيهامًا شديدا، ولذا يَعُد الله الإنسان الذي يصدر أحكاما كاذبة مبنية على الجهل ظلما عظيما وخطأ فادحا في حياة البشرية فيقول: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، بينما يثني على الأشخاص الذين يصدرون في أقوالهم وأحكامهم عن علم وروية وفقه ومعرفة يقينية بالموضوع الذي يتحدثون فيه فيقول: ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [النساء: ١٦٢].

إذا كان العلم بالحقائق هو الطريق السليم لإصدار الأحكام على الأفكار والأشخاص والتاريخ البشري وسلوك الخلق في مسيرتهم فإن التساؤل المطروح الآن بخصوص الموضوع الذي نحن بصدد تحليله هو:

ما حال البشرية إزاء هذا الموضوع؟ هل الأكثرية هي العارفة والعالمة والعاقلة والمتفقهة في شؤون الخلق أم الأقلية؟ وما حال استخدام البشرية لوسائل المعرفة عند الفئتين؟ وما هي القيمة السائدة؟ أهي العلم أم الجهل والغفلة؟ وهل الوعي الصحيح هو الأكثر انتشارا أم الوعي المزيف؟

ذلك ما سنعمد إلى بيانه في الفصلين التاليين، بحيث نتناول في الأول الأكثرية على المستوى المعرفي، ونتناول في الثاني الأقلية فيه، لنصل في نهاية الأمر إلى تسجيل النتائج حول طبيعة كل معرفة، والنتائج النوعية المترتبة عن كل معرفة علمية، وعن الأدوات المنهجية التي تميز كل نمط على حده.

* * *

الفصل الأول
الأكثرية على المستوى المعرفي

توطئة: ينبغي أن نذكر هنا بمقولة ابن حزم: «بلا شك أن أهل الباطل كلما كثروا فإن الشيطان أقوى فيهم منه مع المنفرد»[1]، لأننا سنحتاج إليها بعد أن بينا على المستوى العقدي أن الأكثرية زاغت مع الشيطان لأسباب كثيرة من أهمها دور العقل السائد في توجيه الأفكار والتصورات، ومن ثم الأخلاق والسلوك، بحيث يصبح المولود إذا رأى النور في مجتمع يهودي أو مجوسي أو مسيحي فإنه سيفقد الفطرة، مع طول تعهد المجتمع له بالتربية المخالفة لها، ليأخذ المعرفة من مجتمعه ويتخلق ويفكر ويعتقد باعتقاده.

وهكذا يتبين لنا أن نتائج ما رأيناه في الفصل السابق إنما كانت نهاية لطبيعة البناء المعرفي الأكثر سيادة في المجتمعات البشرية، تلك المعرفة التي يجد الشيطان لنفسه فيها سلطانا أقوى على العقل البشري.

ولكي نقف على حقيقة هذه المشكلة ينبغي ـ منهجيا ـ أن نستقرئ النصوص القرآنية بدقة اعتمادا على قواعد منهج التفسير الموضوعي التجميعي الذي يقوم بسبر أغوار الموضوعات من خلال القرآن كله ليخرج بنظرية فيها أو بتصور حولها.

* * *

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/٥٤٩

● المبحث الأول : انعدام الفقه والعلم عند الأكثرية

في سورة هود يقدم قوم شعيب مبررات لعدم اتباع النبي والاهتداء بهديه على الصورة الآتية: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ [هود: ٩١] .

قوم شعيب هنا ينفون عن أنفسهم الفقه والفهم للمواعظ التي قدمها لهم نبيهم، وهم بهذا يمثلون الأكثرية من جانبين؛ الأكثرية في العدد، بحيث يصبح الذين يتظاهرون بسوء الفقه والفهم هم القوم بأكملهم؛ مما سيستدعي من بعد الاستئصال، والأكثرية في انتقاء الفقه لما يقوله لهم نبيهم: ﴿ **مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ** ﴾.

ونلاحظ أن الآية تبني على كل ذلك نتائج، فهم بسبب الأكثريتين تجبروا وتغطرسوا واغتروا، فإذا هم يرون نبيهم ضعيفا لا وزن له في رأيهم، وأن الذي يمنعهم من قتله إنما هو مكانة عشيرته التي هي جزء من هذه القومية الضالة ﴿ **وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾.

والحق أن عبارة قوم شعيب التي وصفت سوء فقههم بالكثرة معبرة فعلا عن الفضاءات المعرفية التي تجهلها، إذ سنلاحظ من خلال أزيد من عشرين نصا قرآنيا أن أكثرية الخلق تجهل حقائق أساسية في التصور السليم للكون والحياة ومن ثم سنجد آيات تنفي عن الأكثرية العلم بقضايا الحق والخير والجمال.

* * *

● المطلب الأول : الفضاءات المعرفية التي يجهلونها :

من الطبيعي أن تكون الفضاءات المعرفية التي يجهلونها كثيرة، وقد وقفنا على الآيات التي تناولت الكثير منها، مثل الحق والوحدانية وسرها ووجوب اعتقادها، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، وكونه غالبا على أمره، وتصرفه في الأرزاق، والولاء الحق والولاء الباطل، وحقيقة القرآن، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث وقيام الساعة، والفتنة العلمية، والعلم، وفتنة الخير

والشر، وكون العذابين الدنيوي والأخروي من عند الله، وذلك ما سنفصله في هذا المطلب بإذن الله

ففي سورة الأنبياء نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، فنجد أن الإعراض عن اتباع النبي ناجم عن كون الأكثرية لا تعلم الحق الذي هو توحيد الله عز وجل، ولا شك إن الإعراض عن الاتباع للرسول سيؤدي إلى دوام الجهل بأسباب النظر الموصل إلى الحقيقة، لأن المسألة مترابطة ترابطا شديدا، فحين يكون أكثرهم معرضا عن النبي ﷺ، فإنهم سيضلون على الجهل بالحقيقة، مما سيزيدهم نفورا على نفور، ومع أن الرسول يبين لهم هنا أنه يحمل معرفة من قبله بحكم كون القرآن مهيمنا على التوراة والإنجيل[1]، ويقدم لهم المعرفة الجديدة متمثلة في القرآن الكريم فإنهم ظلوا معرضين، مما أدى إلى الحكم الشامل والنهائي ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ** ﴾.

ويؤكد ذلك بصورة أخرى جاءت في سورة النمل هي قوله تعالى: ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النمل: ٦١]. فبعد أن تسوق الآية عن طريق الأسئلة – التي تعد أقدر على تحريك الذهن وتنشيط العقل– مجموعة من الحقائق المادية المذهلة كثبات الأرض على حركتها، وتيسير عملية جريان الأنهار في العالم على الرغم من توزع الجبال على الكرة الأرضية بشكل يجعل العقل حائرا في تناسقها مع وظيفة الأنهار من جهة، ووظيفة الجبال في رسوها وكونها حواجز لتنظيم أسباب الحياة من جهة ثانية.

بعد أن تسوق الآية كل تلك الأدلة المادية تعقب بالعبارة السابقة نفسها تقريبا ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فالآية هناك عقبت بما يفيد أن

---

(١) تفسير الجلالين ٤٢٨

الأكثرية لا يعلمون الحق، والآية هنا تفيد أن الأكثرية تجهل حقيقة التوحيد: ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾.

ويبدو أن تحديد دائرة المعرفة البشرية هنا بنفي العلم عن الأكثرية جاء ليبين أن « هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملي الصناعة فيها والتنسيق وتدبر السنة فيها والناموس، لأن التركيز في السورة كلها على العلم »[1].

ونتيجة لذلك يتجلى جهل الإنسان بحقيقة الدين القيم، وهو ما تعرضه آيتان إحداهما من سورة يوسف وهي قوله تعالى﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩ – ٤٠] أي لا يعلمون الدين القيم.

وثانيهما من سورة الروم وهي قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

والسورتان مكيتان موضوعهما الأساسي هو العقيدة، ومرتكز الآيتين هو بيان أساس الدين القيم وهو التوحيد الذي يجهله أكثر الناس، وقد أُمر النبي ﷺ في الآية الثانية ليقيم وجهه لله وحده، أي يخلص له؛ لأنه بذلك سيلزم الفطرة التي فطر الله عليها الناس وجبلهم على حقيقتها، ومن ثم فهي لا تتبدل ولا تتغير إلا نتيجة انحراف الإنسان إذ ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ إلا إذا مال الإنسان للانحراف فإنه سيكوِّن عندئذ لنفسه عادات وتقاليد ستصير كالسنن الجبلية في القدرة على دفع الإنسان للجمود على الخطأ، ولكن ﴿ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ « فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواضح المستقيم »[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢/ ١٩٩١

(٢) في ظلال القرآن: ٢١/ ٢٧٦٧

وكون الأكثرية لا يعلمون يجعلهم بعيدين عن الدين القيم « فالذي لا يعلم شيئا لا يملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه فإذا وجدنا أناسا لا يعلمون حقيقة الدين لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام، ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداء، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به، وهذا منطق العقل والواقع بل منطق البداهة »[1].

والدين القيم الذي لا يعلمه أكثر الناس هو الدين الحق الذي يعني: « الدينونة لله وحده والخضوع له وحده واتباع أمره وحده سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية أو تعلق بتوجيه أخلاقي أو تعلق بشريعة قانونية، فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله سبحانه بها نفسه ولم يجعلها لأحد من خلقه »[2].

إن آيتي يوسف والروم قد بينتا أن الأكثرية لا تعلم حقيقة الدين القيم، ومن ثم فقد وقعت فيما وقعت فيه من خلط معرفي في الحقائق الأساسية، التي تعد من الضرورة بمكان، لاستقامة أحوال البشرية في الدنيا، وحسن مصيرها في الآخرة.

وهناك آيات أخرى تكشف عن انتفاء العلم عن الأكثرية في جانب معرفي آخر هو وجوب التوحيد وسر ذلك .

ويكشف عن هذه الحقيقة الثانية آيتان تشتركان في الصياغة إحداهما من سورة لقمان والثانية من سورة الزمر وهما سورتان مكيتان.

أما الأولى فتعنى بوجوب التوحيد الذي قامت حجته على الناس بالتأمل في الخلق قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [لقمان :٢٥].

وأما الثانية فتعرض سر التوحيد الذي يجعل حياة الإنسان منطقية بعيدة

---

(١) نفسه : ١٢/١٩٩١

(٢) نفسه

عن التردد: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

والآيتان من حيث الصياغة يرتبط فيهما انتفاء العلم على الأكثرية بالحمد والشكر لله،وحذف فيهما المفعول به، وهذا يحتاج إلى وقفة بيان، والظاهر أن الحمد يجري على الحال المبينة قبل، وهي في الآية الأولى اهتداء الناس إلى أن خالق السماوات والأرض هو الله وحده، وفي الثانية اهتداؤهم إلى عدم مساواة تعامل الإنسان مع سيد واحد وتعامله مع سيدين، فعبارة الحمد جاءت بعد الاهتداء إلى الحق إذ به تقوم الحجة؛ لتقوم بعد ذلك العبارة الموالية للتعليل فتكون عندئذ عبارة: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ففي الآيتين إضراب انتقالي أسند فيه عدم العلم للأكثرية، لأن أكثرهم عامة يتبعون زعماءهم الذين سنوا لهم الإشراك وشرائعه، بحثا عن الانتفاع بالجاه والثناء الكاذب، بحيث غشي ذلك على عملهم [١]. قال ابن كثير: «الحمد لله على إقامة الحجة عليهم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلهذا يشركون بالله»[٢]، وقال القرطبي: «قل الحمد لله أي على ما هدانا له من دينه، وليس الحمد لغيره، بل أكثرهم لا يعلمون، أي لا ينظرون ولا يتدبرون» [٣]، وقال ابن الزبير الغرناطي «حصل مما أعقبت به الآيتان ما في قوة أن لو قيل: كيف يعرفون مع بيان الأمر؟ ما ذلك إلا لمنعهم عن العلم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾... فكفرهم بعد ذلك اتباع للهوى وضلال على علم» [٤].

ومعنى كل ذلك أن الحمد لله جاء ليعقب على الحجة التي قامت على الإنسان من جراء الاعتراف بوحدانية الله في الخلق في الآية الأولى، وضرورة

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣/٤٠٣

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٢

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن العظيم: ٤/٥٢

(٤) ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل: ص ٩٢٢-٩٢٣ تحقيق سعيد الفلاح دار الغرب الإسلامي د ١/١٩٨٣

وحدانيته لصلاح حياة الناس في الآية الثانية، وجاء التعقيب عن طريق الإضراب بقوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ لينفي عنهم العلم فيتحقق النقيض الذي هو الجهل، وهو الذي لم يحصل بسلب وسائله من سمع وبصر وعقل، ولكن حصل بسبب تعطيلهم لتلك الوسائل المؤدية للعلم بما اقترفوه من ذنوب نجمت عن اتباع الهوى مما أدى إلى كفرهم، وهكذا يتحمل الإنسان مسؤوليته عن كفره كاملة إذ قامت عليه الحجة من جهتين؛ من جهة الاعتراف والاهتداء عند السؤال عن الخالق، ومن جهة تسببه في تضليل نفسه بتعطيل وسائل العلم التي غطى عليها بالهوى، وقد بينا ذلك في حديثنا عن الران في كتاب : التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا .

والقرآن يكشف عن جانب عقدي آخر انتفى فيه العلم على الأكثرية هو كون الله غالبا على أمره، وأن قدرته مطلقة في كل شيء ولا يخفى ما لهذا النوع من الجهل من تأثير على المعرفة الناضجة بالله سبحانه وتعالى .

والآيات التي تعرض هذا الجانب ثلاث هي :

١ ـ ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

٢ ـ ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

٣ ـ ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

هذه الآيات الثلاث تعرض صور الجهل التي تنفي العلم عن الأكثرية العظمى من الخلق، وهي آيات مكية موضوعها الجوهري هو إصلاح العقيدة، فهي هنا تعني بانتفاء العلم الذي به وحده تستقيم العقيدة في تصور الإنسان، وإلا ظلت صورة مسائل العقيدة متذبذبة في التصورات لا تعرف نضجا ولا يعرف القلب بسبب ذلك استقرارا .

ففي سورة يوسف تعرض الآية صورة من صور جهل أكثرية الناس وهي انتفاء علمهم بحقيقة كون الله غالبا على أمره لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن ذلك التمكين ليوسف في الأرض ، وتعليمه تأويل الأحاديث والرؤى الصادقة، التي قد يكون الفرق الزمني بينها وبين تحققها ربع قرن أو يزيد كما في رؤية الشمس والقمر والكواكب ساجدة له، وكما في رؤية العزيز سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وما إلى ذلك مما هو داخل في الغيب الزماني الذي يطلع الله القادر عباده الصالحين عليه، يقول قطب : « يعقب السياق على هذا الابتداء في تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبة لا تقف في طريقها قوة، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذي يكون »[١] .

وآية سورة الأنعام تقدم صورة أخرى من صور انتفاء العلم على الأكثرية، يتجلى في القدرة المطلقة التي يمكنها أن تنزل آية ذات طابع مادي خارقة للعادة، تظل أعناقهم خاضعة لها، ويتجلى كذلك في انتفاء علمهم بتبعات تلك الآية المادية، إذ لو نزلت لكان من تبعاتها ما كان بالنسبة للناقة والعصى والمائدة وغيرها مما كان تزولها بلاء عليهم لوجوب هلاكهم إن جحدوها [٢] . وقيل إنهم لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان ذلك تعنتا منهم بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله مما فيه من الوصف وعلم الغيوب[٣] .

ويفسر انتفاء العلم هنا آيات سبقت آية سورة الأنعام أحسن تفسير، إذ هي من باب تفسير القرآن بالقرآن، فقد سُبقت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ**

---

(١) في ظلال القرآن ١٢ / ١٩٧٨-١٩٧٩

(٢) تفسير الجلالين : ١٧٤

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٣٧

فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

[الأنعام: ٣٥ - ٣٦]

فالمشكلة التي يعاني منها هؤلاء القوم ليست هي ضعف الحجة والبرهان، إنما هي مرض نفسي منع الأكثرية من الاستجابة التي هي سمة الذين يسمعون، أما من هم في درجة الموتى فهؤلاء لا يمكنهم ذلك لأن «الناس يواجهون هذا الحق الذي جاءهم به الرسول من عند الله وهم فريقان : فريق حي، أجهزة الاستقبال الفطرية فيه حية عاملة مفتوحة، وهؤلاء يستجيبون للهدى فهو من القوة والوضوح والإصلاح مع الفطرة والتلاقي معها إلى الحد الذي يكفي أن تسمعه فتستجيب له ،... وفريق ميت معطل الفطرة لا يسمع ولا يستقبل ومن ثم لا يتأثر ولا يستجيب، ليس الذي ينقصه أن هذا الحق لا يحمل دليله فدليله كامن فيه، ومتى بلغ إلى الفطرة وجدت فيها مصداقه فاستجابت إليه حتما، إنما الذي ينقص هذا الفريق من الناس هو حياة الفطرة وقيام أجهزة الاستقبال فيها بمجرد التلقي، وهؤلاء لا حيلة فيهم للرسول ولا مجال معهم للبرهان إنما يتعلق أمرهم بمشيئة الله إن شاء بعثهم إن علم منهم ما يستحق أن يحييهم، وإن شاء لم يبعثهم في هذه الحياة الدنيا وبقوا أمواتا بالحياة حتى يرجعوا إليه في الآخرة»[١].

وهكذا يتجلى لنا أن الأكثرية لا تعلم حق العلم حكمة الله في عدم الاستجابة لمطالبهم المتعلقة بالحجة المادية [٢] وسبب ذلك هو العناد من جهة، وتعطل وسائل الاستجابة عندهم من جهة ثانية؛ لأسباب كثيرة منها حب الجاه والغيرة والحرص على المصالح التي كانوا يمتحنون الرسول بها حينما عرض عليهم الدين الجديد، فقد روي أن عتبة بن ربيعة كان سيدا في قومه قال لهم يوما يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل

---

(١) في ظلال القرآن : ٧/١٠٧٩

(٢) نفسه : ١٠٨٠

بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا، ثم مضى إلى الرسول ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن كنت تريد مالاً جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا [1] فهذه العروض الثلاثة: المال، والسيادة، والملك، تترجم الأسباب التي تتحكم في سلوكهم، فهم معطلو القلوب والعقول بهذه العلل التي لا يعلمون حقيقتها ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

تلك هي القضية الثانية التي كان أكثر الناس لا يعلمونها ، أما القضية الثالثة فهي قضية القدرة على إعادة الخلق بعد الموت وهي التي تقدمها آية مكية أخرى من سورة غافر: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [غافر : ٥٧]، يفسر هذه الآية نظيرتها في قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

فالإشارة إلى القدرة في هذه الآية واضحة الدلالة على هذه الحقيقة التي لا يعلمها كثير من الناس، الذين لا يستخدمون عقولهم في إدراك خطاب الله، ولا في تدبير الكون من حولهم ولا في أنفسهم، إنهم لا يعرفون أن من قدر على خلق السماوات والأرض وهي أكبر من خلق الإنسان قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى، فهم لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها فينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا [2]، قال الزمخشري : « حُجوا بخلق السماوات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقدر قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم »[3] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ج ١ ص ٣١٣

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٥٨

(٣) الكشاف : ٣ / ٤٣٣

بهذا تجتمع لدينا ثلاث قضايا لا يعلمها الأكثرية هي كون الله غالبا على أمره وأن قدرته مطلقة في إنزال الآيات، كما هي مطلقة في إعادة الخلق كما بدأه أول مرة، وقد بلغ بهم ذلك مبلغا جعلهم يقسمون باستحالة ذلك كما بينت آية من سورة النحل ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٣٨] ، فهم ما أقسموا بأغلظ الإيمان إلا بسبب انتفاء علمهم، فأكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور (١).

ثم هناك قضية معرفية أخرى رابعة تبين النصوص القرآنية جهل أكثر الناس لحقيقتها هي التصرف الإلهي المطلق في الأرزاق؛ فقد جاء ذلك في سورة سبأ والنحل والقصص.

ففي سورة سبأ قال: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

[سبأ: ٣٤ –٣٦]

وفي سورة القصص قال: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص : ٥٧] وفي سورة النحل قال : ﴿ **ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٧٥] والآيات من سور ثلاث مكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى التي يأتي على رأسها الربوبية التي هي المصدر المطلق للرزق، يبسطه كما يشاء امتحانا، ويضيق على من يشاء كما يشاء ابتلاء، تبعا للحكمة التي لا يعلمها إلا هو، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

---

(١) صفوة التفاسير : ٢/١٢٧

هذه الحقيقة، لأنهم لا يتأملون [1]، مما جعلهم يتوجهون في عبادتهم وفي سلوكهم وجهة غير سوية ضلوا بها وأضلوا كثيرا.

ففي الآية الأولى تعقيب على أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، باعتبار عموم من يشاء من كونه صالحا أو طالحا، ومن انتفاء علمهم بذلك أنهم توهموا بسط الرزق علامة على القرب عند الله، وضده علامة على ضد ذلك» [2] «فبسط الرزق وتقتيره شأن آخر من تصرفات الله المنوطة بما قدره في نظام هذا العالم، أي فلا ملازمة بينه وبين الرشد والغي والهدى والضلال، ولو تأملتم أسباب الرزق لرأيتموها لا تلاقي أسباب الغي والاهتداء، فربما وسع الله الرزق على العاصي وضيقه على المطيع، وربما عكس فلا يغرنكم هذا وذاك فإنكم لا تعلمون، وهذا ما جعل قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ مصيبا المحز، فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور فيخلطون بينها ولا يضعونها في مواضعها زينها وشينها[3].

وفي الآية الثانية نجد التعقيب ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ متعلقا بقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ والمعنى أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده [4].

وفي الآية الثالثة تأتي العبارة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ لتبين أن الحجة قامت عليهم بهذا الدليل الحسي الذي يبين لهم عدم استواء حال من ينفق كما يشاء بالمطلق وحال من لا يملك حتى نفسه إذ هو عبد مملوك لا يقدر على شيء، ومع ذلك فإن أكثر الناس لا يعلمون حدود الحقيقة الكبرى وهي أن الله هو المالك الحق الذي ينفق كيف يشاء ويتصرف في ملكه بالطريقة التي يشاء،

---

(١) الجلالين: ٥٧١ وانظر الجامع لأحكام القرآن ٤/٣٠٥

(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/١١٤

(٣) نفسه: ٣/٢

(٤) الكشاف: ٣/١٨٦

قال القرطبي في معنى قوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أي هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه إذ لا نعمة للأصنام عليهم من يد ولا معروف فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله، لأنه المنعم الخالق ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ** ﴾ أي أكثر المشركين ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن الحمد لي، وجميع النعمة في، وذكر الأكثر وهو يريد الجميع فهو خاص أريد به التعميم، وقيل أي بل أكثر الخلق لا يعلمون وذلك أن أكثرهم المشركون (١) .

ثم هناك حقائق أخرى عقدية نفى الله عن الأكثرية العلم بها، منها الوعود الربانية، ومنها القدر وملابسته بالتطير.

ففي سورة الروم نقرأ بخصوص الوعد الرباني قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ١-٧] .

فالآيات تحدد هنا مسألة الوعود الربانية، وتبين صدق وعد الله الذي لا يتأخر لأن الأمر له من قبل ومن بعد وتكشف عن جهل الأكثرية بهذه الحقيقة العقدية كما تكشف عن سبب هذا الجهل وهو الحدود الضيقة للعلم البشري، إذ هي مبنية على الظاهر من الأمور، في حين أن مسائل العلم ليست مبنية كلها على الظاهر حتى تقبل تفسير المنهج الحسي الظاهري وحده، فهناك مسائل علمية تتطلب منهجا باطنيا يقوم على الوحي أو العلم اللدني، وهو مجال من العلم لا يحصل للإنسان إلا بعد طول تعهد الوحي قرآنا وسنة بالمدارسة والتمرن المستمر على دلالات العبارات التي ينطق بها الرسل عليهم السلام أو العلماء الذين التبست نفوسهم بالوحي لكثرة التعامل معه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٠/١٤٨

ولأهمية ذلك الفرق بين المنهج الحسي والمنهج النقلي استبدل قوله تعالى: ﴿ لا يَعْلَمُونَ ﴾ بقوله ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ ﴾ فأصحاب المنهج الحسي نفى عنهم العلم بتلك القضية العقدية (الوعد الحق) لشدة خفائها على الحس، ثم أثبت لهم علم بعض الظاهر ليبين أن هذا العلم الظاهر لا يغني عن العلم الباطن في مجال البواطن، فهو من هذه الناحية كلا علم، يقول الزمخشري: «قوله يعلمون» بدل من قوله لا يعلمون، وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا ... وفي تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهرا واحدا من جملة الظواهر» (١).

فالحقيقة العقدية التي نفى الله عن الأكثرية العلم بها هنا هي حقيقة الوعود الإلهية، إذ هي لا تعرف التخلف أبدا لأنها مرتبطة بإرادة الله المطلقة، ولبيان ذلك سيقت المسألة التاريخية التي حدثت في عهد الرسول ﷺ، واختلف تصوران متناقضان بشأن تفسيرها، تصور أبي بكر الصديق الذي ينطلق من الخلفية المعرفية لأسرار تدبير مسائل الحياة الدنيا كلها ظاهرها وباطنها، وتصور بعض مشركي قريش الذي لا يزال ينطلق من خلفية معرفية حسية تقف في تفسير الظواهر التاريخية عند الأسباب الظاهرة وحدها.

ومن الطبيعي أن يؤدي أحد المنهجين إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي يؤدي إليها منهج آخر، وهكذا راهن أبو بكر الصديق على صدق وعد الله بنصر الروم بعد بضع سنين كما ذكرت الآية، وراهنت قريش على بطلان هذا الزعم قياسا على الحدث التاريخي السابق الذي يشهد الظاهر بغلبة فارس.

إن الذي نفى الله العلم به على الأكثرية هو منهج أبي بكر الصديق الذي اعتمد على الإيمان الذي يعطي الثقة المطلقة لصاحبه بأن وعد الله حق ﴿ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) الكشاف ٣/٢١٥

﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ لقد استنتج أبو بكر من الآية أن « ذلك النصر وعد من الله فلا بد من تحققه في واقع الحياة فوعده صادر عن إرادته الطليقة وعن حكمته العميقة وهو قادر على تحقيقه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا يكون في الكون إلا ما يشاء، وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير » [1] في حين استنتج أهل الظاهر من قريش أن الغلبة ستكون لفارس بناء على المعطيات الحسية التي قدمتها التجربة السابقة في الصراع بين فارس والروم، وسبب اعتماد هذا المنهج هو أنهم لا يعلمون المعطيات الخفية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولو بدا في الظاهر أنهم علماء وأنهم يعرفون الكثير، ذلك أن علمهم سطحي يتعلق بظواهر الحياة ولا يتعمق سننها الثابتة وقوانينها الأصلية ولا يدرك نواميسها الكبرى وارتباطاتها الوثيقة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ثم لا يتجاوزون هذا الظاهر ولا يرون ببصيرتهم ما وراءه، وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير، مهما بدا للناس واسعا شاملا تستغرق جهودهم بعضه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة، والحياة كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل، تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه، والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ولا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة ولكنه لا يدرك حكمته ولا يعيش بها ومعها، وأكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك لأسرار الوجود، والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس، ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية[2] .

ثم إن هذا الوعد الحق الذي نفى الله عن الأكثرية العلم به يتعلق – مع ذلك – بما يمكن اعتماد الدراسات المستقبلية في التكهن بحدوثه، اعتمادا على المناهج

---

(١) في ظلال القرآن ٢١ / ٢٧٥٨

(٢) في ظلال القرآن: ٢١ / ٢٧٥٨–٢٧٥٩

الحسية القائمة على مراقبة السنن للوقوف على حقيقة الأسباب التي تقوم عليها، ومن ثم أمكن في بعض الأحيان التنبؤ بوقوع بعض النتائج وفق بعض المقدمات، وهذا ما يسمى بالسنن المادية الاجتماعية والطبيعية، ولكن هناك وعودا أخرى لا يمكن معرفة حقائقها إلا بالوحي، وهي التي ينفي الله سبحانه وتعالى على الأكثرية العلم بها كما يتجلى من قوله : ﴿ **وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [يونس : ٥٣ - ٥٦] .

الأكثرية كما تبين هذه الآية تجهل وعد الله بأمر البعث بعد الموت، « فوعد الله بالبعث والجزاء حق ثابت ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك » [١]، لا يعلمونه لأنه معرفة عقدية لا تحصل بالحواس، وإنما تحصل بالتأمل العميق في آيات الكون أو بالتدبر الأمثل لآيات الوحي، وأكثر الناس بعيدون عن وسيلتي التحصيل هاتين، غافلون عنهما بسبب انهماكهم في شؤون الحياة الدنيا التي تلبي الحاجات المادية والغريزية، غافلون بذلك عما يناسب حاجاتهم الروحية المتعلقة بشؤون العالم الآخر، ولهذا ذكرت الآية هذه الأكثرية بمصدر الحياة والموت ﴿ **هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ لكي تبني على ذلك حقيقة البعث والرجوع تنبيها لمن له قلب حاضر، وعقل غير عاطل.

وهاهنا وعد ثالث ينفي الله على أكثر الناس العلم بحقيقته هو الوعد المتعلق بإرجاع الحقوق لأصحابها المؤمنين الصابرين، والمثال الذي تقدمه الآية القرآنية نستمده من سورة القصص وهو قوله تعالى بشأن قصة موسى عليه السلام : ﴿ **فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [القصص : ١٣] .

---

(١) تفسير الجلالين : ٢٨٢

فالأكثرية المطلقة من الناس لم يكونوا يعلمون بهذا الوعد الذي يقتضي أن ترد الأمانة لصاحبها، ولا بأن هذه المرأة التي ترضعه هي أمه، ولا بأن هذه البنت التي كانت تتبع آثاره وتدلهم على المرضعة هي أخته ولا بأن الذي يربيه فرعون هو عدوه المستقبلي الذي سيهزمه[1]، لقد كانوا يجهلون كل تلك الحقائق التي بينها قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ﴾ [القصص: ٧ – ٨].

إن كل ذلك يبين أن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع[2] بالنسبة لمثل هذه الظواهر التي يصعب على المنهج الحسي، وحتى على المنهج العقلي تفسيرها، لخفاء معطياتها على الآليات المعتمدة في هذين المنهجين، ويبقى المنهج الوحيد الذي يقدم الحقيقة المتعلقة بهذا الوعد هو الوحي الذي أوحاه الله لأم موسى.

لقد كانت كل تلك الأحداث التي جرت برعاية فرعون وتحت بصره كيدا له، ولكن أنى له أن يعلم، وكل المعطيات الحسية التي تناسب منهجه في تقييم الأحداث وتفسيرها لا تكشف عن أي شيء من أحداث المستقبل، ولهذا عبر القرآن عن هذا الجهل بقوله: ﴿ **وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [القصص: ٩]، إنهم لم يكونوا يشعرون حتى مجرد الشعور أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه[3].

ذلك سبب انتفاء العلم على الأكثرية بخصوص طبيعة الوعد الإلهي وصدقه، أما سبب انتفاء العلم في قضية القدر وملابسته بالتطير عند أكثر الذين

---

(١) تفسير الجلالين ص: ٥١٢.
(٢) صفوة التفاسير: ٢/٤٢٧
(٣) صفوة التفاسير: ٢/٤٢٦ والجامع لأحكام القرآن: ١٣/٢٥٣

لا يعلمون فتفسره الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]، ومعنى الآية أن الله امتحن آل فرعون وابتلاهم بالقحط والحاجة لكي يتعظوا فيحصل لهم الإيمان، لكنهم لسوء علمهم ولفساد تصوراتهم، ولجهلهم بعلم الغيب ويد الله في ذلك، كانوا يفسرون تلك الظواهر الطبيعية تفسيرا خرافيا، فإذا ابتلاهم الله بالخصب قالوا نحن أهل لذلك ففتنوا ولم يشكروا الله على تلك النعمة، وهذا يدخل في كفر النعمة كما سبق، وإن ابتلاهم بالجدب نسبوا ذلك لسيدنا موسى عليه السلام تطيرا وتشاؤما به وبدعوته، وهم بكل ذلك التفسير الخاطئ للظواهر الطبيعية لا يستخدمون حتى علم الظواهر الذي يتحكم في السنن، وإنما يعتمدون التفسير الخرافي الذي لا يسنده أي دليل حسي أو عقلي أو نقلي، فلم يستطيعوا - نتيجة لذلك - أن يتوصلوا إلى الحقيقة وهي أن ابتلاءهم من عند الله ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١] أي أنهم لا يعلمون أن ما يصيبهم إنما هو قدر من عند الله وابتلاء منه لعلهم يرجعون إلى رشدهم.

ولكن نتيجة انتفاء العلم بالأسباب الحقيقية كانت أنهم قد عدوا ذلك سحرا على الرغم من تكراره مرارا، وبصور مختلفة؛ مجاعة، وطوفان، وجراد، وقمل، وضفادع، ودم، فكل ذلك لم ينفع وظلوا على كفرهم وعيهم بسبب جهلهم واستكبارهم، وهذا ما يبينه قوله تعالى تعقيبا وتفسيرا لسبب كون ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣].

وحين اشتد على آل فرعون الابتلاء تضرعوا لموسى عليه السلام ليدعو لهم

الله فيفرج عنهم الكرب، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك يعني وجود صحوة، وعودة وعي، وحصول علم بالمنهج النقلي الذي يصلح لتفسير مثل هذه الظواهر وفهما لسننها، ولكن هذه الصحوة كانت مؤقتة وغير ناضجة بسبب استحكام الجهل فيهم لدرجة أنهم ينكثون ذلك العهد ويصرون على كفرهم [1] كما تبين الآية: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

وعلى هذا تكون الحجة قد قامت عليهم واستحقوا الاستئصال لأنهم لم ينتفعوا بتلك الصحوة الناجمة عن تلك الابتلاءات المتكررة ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وهذه الآية الأخيرة في القصة تبين أسباب الاستئصال وتحصرها في سببين؛ أحدهما التكذيب بتلك الآيات المادية على ظهورها ووضوحها، وثانيهما انتفاء العلم الذي عبر عنه هنا بالغفلة التي هي سببه ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وقد فسرت الغفلة بانتفاء التدبر [2] وما دامت الصحوة قد تمت، ومعنى الصحوة انكشاف الغطاء على القلب ليستيقظ ويعلم، ثم حدث انكماش في القلب، ونكوص في الإسلام فقد أدى ذلك إلى الاستئصال، وقد عبر القرآن عنه بالغفلة، وفسرت بانتفاء التدبر في الآيات، فإن هذه الصحوة ظاهرة نفسية تتطلب تفسيرا علميا.

وقد وقفنا على جانب من هذا التفسير عند ابن القيم إذ يرى أنه «إذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والهدى والذل والسمت مشابهة لهذه الأصول

---

(١) تفسير الجلالين: ٢٢٠

(٢) تفسير الجلالين: ٢٢٠

مناسبة لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذ كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ومثلها الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا انقطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، وهكذا شجرة الإسلام في القلب إن لم يتعهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح والعودة بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر وإلا أوشكت أن تيبس»[1].

ومعنى ذلك أن تلك الصحوة ليست ظاهرة صادقة، فقد كانت تمويها وخداعا لأن القائم في القلب إنما هو الأفكار الخبيثة، ولكي تحدث صحوة حقيقية مستمرة ينبغي تغيير ما بالنفس جذريا ليحصل العلم المبني على أسس سليمة فيؤدي إلى تفسير صحيح للظواهر يحقق للبشرية النفع والخير، وإلا ظل تفسير أكثر الناس للظواهر الطبيعية تفسيرا خرافيا يعد تطيرا حينا، وعادة في الطبيعة أخرى كما يفسر اليوم الزلزال بأنه كارثة طبيعية سببها وقوع مدينة ما على خط مناطق الزلازل .

ويبدو لي أن انتفاء علم الناس بهذه الظواهر الطبيعية لا يختلف عن انتفاء علم الأكثرية بحقيقة زلزال قيام الساعة، كما تبين الآية التالية : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨٧]. هذه الآية من سورة الأعراف، وهي سورة مكية، مما يجعل الآية تصب في سياق هذه الفترة التي لم يحصل فيها العلم بالحقائق الغيبية بصفة ناضجة وصحيحة، ولهذا نفى الله على أكثر الناس العلم بحقيقة عقدية هي كون علم الغيب ملك لله وحده يطلع رسله على ما يشاء منه، ويخفي عنهم ما يشاء، ومن ذلك حقيقة قيام الساعة التي

---

(١) ابن القيم الجوزية : الأمثال في القرآن الكريم ص ٢٣٣-٢٣٤ دار المعرفة ـ بيروت ـ

استأثر الله بعلمها وأشار إلى بعض ملابساتها، مبينا أنها: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾، فهي من جهة وقت الوقوع لا تأتي إلا بغتة وفجأة، بمعنى أن معرفة مقدماتها غير ممكن، ومن ناحية ثانية فإن حقيقتها تكمن في السماوات والأرض لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب[1].

وتبقى المشكلة الرئيسية التي هي سياق حديثنا في المسألة التي نفى الله علمهم بها بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ فهاهنا حصر العلم بالساعة ليجعله مما استأثر الله به وحده، ثم يأتي نفي العلم على أكثر الناس، مما يطرح تساؤلا بخصوص الفرق بين العلمين، ما لا يعلمه إلا الله، وما لا يعلمه الأكثرية، ولكن هناك أقلية تعلمه.

إن القرطبي يرى أن «أحد العلمين لوقوعها، والآخر لكنهها»[2]، وهذا يتعلق كما رأينا بالعبارة التي بينت أن الساعة ثقلت في السماوات والأرض، وأن وقت وقوعها سيأتي فجأة، وهذا جانب مما لا يعلمه أكثر الناس المفتقرون إلى الوحي الذي هو مصدر العلم اليقيني، ثم هناك ما نفى الله علمه على الأكثرية وهو جانب آخر، إنه كون الساعة غيبا لا يعلمها إلا الله، ومن ثم يصبح السؤال عن وقت حدوثها جهلا، والأفضل منه «أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر .. ما لم يأخذوا حذرهم قبلها .. وما يدري أحد متى تجيء»[3].

والحق أن الإنسان في كثير من الأحيان يصرف اهتمامه عما هو في مستوى عقله وفي حدود منهجه إلى ما هو أكثر غموضا، ومن ذلك أن يصرف عقله على التفكير في نفسه وعقله وفي منهجه وفي طريقة الأحكام التي يصدرها بخصوص الأشياء والأفكار من حوله إلى أمر الغيب الذي استأثر به الله.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧ – ٣٣٥

(٢) نفسه: ص ٧/٣٣٦

(٣) في ظلال القرآن: ٩/١٤٠٩

ومثال ذلك هاهنا آية تكشف عن انتفاء العلم بحقيقة القرآن وفائدة النسخ على الأكثرية، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ١٠١]، فالأكثرية لا تعلم حقيقة القرآن وطريقته في معالجة قضايا المجتمعات البشرية مما يفضي بها إلى إصدار أحكام غير علمية على القضايا الخطيرة في حياتهم الاجتماعية ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ** ﴾ هذا حكم لا يصدر إلا عن جاهل بمنهج الله لأي إصلاح للمجتمعات، إن الأكثرية «لايدركون وظيفة هذا الكتاب، لا يدركون أنه جاء لإنشاء مجتمع إنساني، وبناء أمة تقود هذا المجتمع العالمي ... وأن الله الذي خلق البشر عليم بما يصلح لهم من المبادئ والشرائع، فإذا بدل آية انتهى أجلها واستنفذت أغراضها ليأتي بآية أخرى أصلح للحالة الجديدة التي صارت إليها الأمة وأصلح للبقاء بعد ذلك الدهر الطويل الذي لا يعلمه إلا هو فالشأن له ومثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء تعطي للمريض منه جرعات حتى يشفى ثم ينصح بأطعمة أخرى تصلح للبنية العادية في الظروف العادية، إن المشركين (وهم الأكثرية) لا يدركون شيئا من هذا كله، ومن ثم لم يدركوا حكمة تبديل آية مكان آية في حياة الرسول ﷺ فحسبوها افتراء منه وهو الصادق الأمين الذي لم يعهدوا عليه كذبا قط ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ كل ذلك[1].

والحق أن ما تجهله الأكثرية بخصوص الحقائق القرآنية لم يكن جهلا بهذا الجانب فقط وإنما يتعداه إلى جانب آخر مهم وهو كون هذه الرسالة جاءت للناس كافة، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ: ٢٨] فالأكثرية لا تعلم كون الرسالة القرآنية عالمية، وكون الرسول ﷺ بشيرا ونذيرا لكافة الناس، بعيدا عن النظرة القومية التي تميز بها تصور بني إسرائيل فحصروا دين الله في قومية ضيقة جعلت أهل

---

(١) في ظلال القرآن ١٤/ ٢١٩٤

هذا الدين يتناقصون بتناقص نسبة قوميتهم إلى غيرها من القوميات حتى صار أتباع سيدنا موسى عليه السلام يمثلون الأقلية القليلة على الرغم من العمق التاريخي لهذه الرسالة، وهذا ما يفسر قول «عبد الله بن أبي بن سلول للنبي ﷺ حين جاء مجلسا هو فيه وقرأ عليهم القرآن : لا أحسن مما تقول أيها المرء ولكن اقعد في رحلك فمن جاء فاقرأ عليه»[1] .

فالأكثرية لا تعلم أن هذه الرسالة للناس كافة «وقدم الحال (كافة) على صاحبه للاهتمام بها لأنها تجمع الذين كفروا برسالته كلهم»[2]، وأفاد تركيب الآية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ عموم الرسالة المحمدية على الناس كافة دون تخصيص أهل مكة، والسورة مكية، أو القومية العربية والقرآن عربي اللسان، أو من يقدمون على الرسول ﷺ من المناطق المجاورة كالفرس والروم والحبشة طلبا للإرشاد والإيمان[3] .

والحق أن عالمية الرسالة المحمدية قد وقعت فعلا «فقد ظهر دين الحق لا في الجزيرة وحدها بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان، ظهر في إمبراطورية كسري كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزيرة الهند الشرقية أندونيسيا، وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع، وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها»[4] .

وهذا مصداق كون الرسالة المحمدية كانت للناس كافة، وأن هذا الدين سيظهر على الدين كله كما تبين الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ [الفتح : ٢٨] ولكن أكثر الناس

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٩٩

(٢) نفسه ١٩٨

(٣) نفسه: ١٩٩

(٤) في ظلال القرآن : ٢٦ / ٣٣٣٠-٣٣٣١

كانوا يجهلون هذه الحقيقة حينما نزلت مبشرة المؤمنين في مكة ثم في المدنية، ولا يزالون يجهلونها إلى الآن من جهة قوتها على النفاذ في القلوب والعقول على الرغم من الصراع الإيديولوجي الذي يلاقيه أصحابها في العالم .

وقد بدأت الآن الدراسات التي تهتم بالعولمة في العالم تتساءل بخصوص المقاييس التي يمكن أن تقيَّم بها الأديان ومنها المقياس الأخلاقي في العالم، وأمانة ذلك الدين بأن يبقى أمينا لأصله وقانونه ولا يتناقض، وقبول الديانات السماوية الحقيقية الأخرى، ثم تتساءل: هل الديانة المسيحية هي حقا مسيحية؟ وتريد أن تطبقه أيضا على الديانات الأخرى بعيدا عن كل كبرياء من أجل شرح نقدي للمسألة (١).

إن الأكثرية كانت تجهل هذه الحقيقة التاريخية كما كانت تجهل حقيقة العلم اللدني الذي يؤثر الله به بعض عباده كما تبين قصة يوسف عليه السلام من خلال قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨] فالأكثرية لا تعلم أن الله يلهم أصفياءه(٢) والمخلصين من عباده بالعلم اللدني كالذي ألهمه يعقوب عليه السلام بخصوص عودة ابنه يوسف، والذي ألهمه يوسف بالنسبة لتعبير الرؤى وما إلى ذلك.

ونتيجة لذلك فإن هذه الأكثرية لا تؤمن بالتفاوت القائم بين البشرية بخصوص الوحي، كما لا تعترف بزيف وعيها، لأنها لاتقدر على النقد الذاتي، مما يؤدي إلى كثرة الجاهلين الذين انتفى عليهم العلم بقضايا كثيرة مثل الحق والوحدانية ، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث ، والفتنة العلمية، والعلم، وفتنة الخير والشر، ومن ثم كثرة أهل الكفر هذه الكثرة الغريبة التي سنبينها في خاتمة هذا البحث والتي بيناها في فصل الأكثرية والأقلية في الجانب العقدي، أما الآن فسنقف عند مسائل تتوقف على طبيعة ونوع المعرفة كتحديد المواقف من القضايا المختلفة.

---

(١) هاس كينغ : مشروع أخلاقي عالمي ص ٢٠٣ (٢) تفسير الجلالين ٣٢٠

المطلب الثاني: دور المعرفة في تحديد مواقف الولاء:

سنعرض جانبا معرفيا آخر مهمًّا هو الولاء، إذ أن الولاء يعد عنصرا هاما في العقيدة، بحيث يتوقف عليه الانتماء لأحد الطرفين المتناقضين في التصور الديني الصحيح، إذ يكون الولاء إما للرحمن وإما للشيطان، ويتبين ذلك من قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فالمسألة في النهاية مسألة وقوع الإنسان في دائرة الظلمات، حيث الجهل والغموض، أو وقوعه في دائرة النور، حيث العلم والوضوح ليبصر الطريق المستقيم واضحا بينا يزيده هدى ونورا «فالمراد بالنور البرهان والحق وبالظلمات ظلمات الشبهات والشك، فالله يزيد الذين اهتدوا هدى لأن اتباعهم الإسلام تيسير لطرق اليقين، فهم يزدادون توغلا فيها يوما فيوما، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فإن اختيارهم ذلك دل على ختم ضرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يوما فيوما»(١).

وعلى هذا فإن الولاء إما أن يكون حقا، وإما أن يكون باطلا، وعلى الإنسان أن يجيد التمييز بين أهل الولاء حتى لا يهلك، والنجاح في التمييز يقوم على العلم الصحيح.

وسورة الأنفال تكشف عن دور العلم والمعرفة في تحديد وجهة أكثرية بني الإنسان في أمر الولاء والانتماء فيقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٤] إن هذه الآية تبين أن الأكثرية لم تستطع أن تميز بين ولائهم الولاء الحق، فيعتقد المشركون أنهم أولياء الله، ويعتقد المسيحيون أنهم أولياؤه، كما يعتقد اليهود أنهم الأقرب في الولاء، ولكن كل ذلك يقوم

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٣٠

على الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، إذ المسألة اعتقاد صحيح صادق واستقامة في التفكير والسلوك على الطريق المستقيم، ولذلك ينفي الله على الكفار جملة وَلَايَتَهُم للمسجد الحرام ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ ثم يثبت عن طريق الحصر ولاء المتقين له﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ ويبين أن أكثر الناس لا يعلمون شيئا عن هذه الحقيقة الأساسية في الانتساب وما يترتب عليه من نتائج في الدنيا وفي الآخرة، إذ كيف تكون لهم ولاية على المسجد الحرام وهم يصدون الناس عنه، فلو كانت نفوسهم صافية وعقولهم ناضجة ما وقعوا في هذا التناقض بين الادعاء بأنهم أولياء المسجد الحرام ثم العمل على صد الناس عن الحج إليه، ومن كان كذلك فهو إذاً من أولياء الشيطان ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ولا شك أن من يجعل الشيطان وليا سيخسر كثيرا ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩] .

ثم إن المشكلة الأساسية المطروحة بخصوص الولاء هي مشكلة علمية معرفية ذات طابع غيبي خفي، إذ هناك في الحقيقة علم يؤدي إلى الطريق المستقيم فهو نور، أو جهل يؤدي إلى طرق ملتوية معوجة فهو ضلال، وقد بين ذلك الشيخ محمد المكي الناصري بقوله: «هاهنا كلمتان هما محور الآية الذي يدور عليه موضوعها من أولها إلى آخرها الكلمة الأولى، كلمة (ظلمات) التي وردت بصيغة الجمع، والكلمة الثانية كلمة (نور) التي جاءت بصيغة الإفراد فالنور الواحد الذي لايتجزأ ولا يتعدد هو المصباح الإلهي المنير الذي يضئ به قلوب أوليائه ممن تغلبت طاعة الله وتقواه وامتثال أمره ونهيه على كل هواه، بحيث يصبح التقوى ينير لهم كل شيء، على حد قوله تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ومن كان الله له وليا كفاه كل شيء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] ، وبالظلمات المتعددة التي لا تنحصر أنواعها ولا أصنافها من ظلمة الكفر والشرك إلى ظلمة المعصية والفسق ومن ظلمة الظلم والعدوان إلى ظلمة الزور والبهتان، وهكذا إلى ما لا نهاية له، فهي السحب

السوداء والغيوم الكثيفة التي تغشى أبصار الكافرين والمنافقين وبصائرهم ممن أحاطت بهم خطيئتهم من كل جانب حتى أصبحوا وهم لا يهتدون سبيلا ولا يجدون بين أيديهم دليلا، وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ ...» (١).

إذن مسألة الولاء تقوم على وضوح الرؤية، أي أنها تقوم على العلم ومن انتفى عليه العلم الحقيقي صعب عليه الاهتداء إلى سبيل الولاء الصحيح، ويعبر عن ذلك آية أخرى من سورة العنكبوت هي: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤١]، قال ابن قيم الجوزية: «فإن قيل فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفي عنهم علم ذلك بقوله «لو كانوا يعلمون» فالجواب أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه ﴿ **كالعنكبوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا** ﴾ فلو علموا ذلك لما فعلوا، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقوة فكان الأمر خلاف ما ظنوا»(٢).

والجوانب التي تخفى على الناس بخصوص الولاء كثيرة منها ولاية اليهود والنصارى إذ نهى الله عنها بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [المائدة: ٥١] فالآية هنا تنهى عن موالاة اليهود والنصارى، وتبين أن موالاتهم تؤدي إلى أمرين أحدهما أن من والاهم صار من جملتهم «لأنه قد خالف الله ورسوله كما خالفوا، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم أي من أصحابهم»(٣) ثانيهما

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير ١ / ١٧٠-١٧١

(٢) ابن قيم الجوزية: الأمثال في القرآن - ١٩٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٢١٧

أنهم صاروا من الظالمين وترتب على ذلك أن الله لا يهديهم وكذلك بالنسبة للظالمين، فهم يشكلون دائرة مغلقة، ومن الواجب على المسلمين ألا يوالوهم، لأن الدخول في موكبهم سيصبغ المرء مما يستوجب الحذر من الانتساب إلى صفوفهم، قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الجاثية : ١٩]، فالآية هنا تنهى عن التبعية وإعلان الولاء للذين لا يعلمون، «وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون ..... ، وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له»(١).

إن الذين لا يعلمون يتخذون ميزان تفكيرهم من الأهواء، لذلك يكون ولاءهم تبعا للأهواء فيظلمون ويناصر بعضهم بعضا على أساس هذا الولاء، لذلك ينبغي الحذر منهم، والعمل على اختيار أسلوب للولاء يرضي الله تعالى، ولن يكون إلا باتباع أهل شريعته ﴿ **وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾، وهذا الولاء فوق أنه يحقق الغلبة والنصر فإنه ولاؤهم في الدنيا وفي الآخرة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾ [فصلت : ٣١].

ومن كل ذلك يتبين دور العلم في تحقيق التبصرة التي تعد الأساس في الانتماء وإعلان الولاء، ومن انتفى عليه العلم بقي يتخبط في الظلمات ليس بخارج منها، لأنه يعلن ولاءه على غير هدى إلى الطاغوت بكل أشكاله.

والقرآن الكريم يضرب لنا مثالا حيا لمثل هؤلاء الذين لا يعلمون، لكن بنوع أدق وأوضح، إنه نموذج ممن أوتي علما ثم انسلخ منه وركن إلى هواه فوقع حيث الضياع والخسران : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**

---

(١) في ظلال القرآن : ٢٥ / ٣٢٢٩

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

فهذه قصة رجل آتاه الله علما فتجرد منه وآثر الجهل عليه فوقع في قبضة الشيطان، والآية واضحة في أنه لو عاد إلى العلم لخرج من قبضة الولاء للشيطان، ولكنه لم يفعل إذ أخلد إلى الغرائز واتبع هواه فضاع كما ضاع كل من كذب بآيات الله منذ البداية فلم يعلمها ليستثمرها في طريق الحق، قال الزمخشري في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ «فإن قلت كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلت: المعنى ولو لزم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها، وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات، فذكرت المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه كأنه قيل: ولو لزمها نفعناه بها»[١]، وقال ابن قيم الجوزية: «كان محفوظا محروسا بآيات الله محمي الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئا إلا على غرة ..، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمائهم الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء»[٢]، وقال في موضع آخر: «إنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من آثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[٣].

وقال قطب: «إنه مثل لكل من علمه الله، فلم ينتفع بهذا العلم ولم يستقم على طريق الإيمان وانسلخ من نعمة الله ليصبح تابعا ذليلا للشيطان ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان»[٤].

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٣٠ - ١٣١ دار المعرفة بيروت

(٢) الأمثال في القرآن الكريم: ص ٣١٩

(٣) نفسه: ٢٢٣

(٤) في ظلال القرآن الكريم: ٩/ ١٣٩٨

وعلى الجملة فإن الولاء الذي تعلنه الأكثرية للطاغوت إنما هو ناجم بصورة أساسية عن انتفاء العلم على أهله، ولو علموا دقائق كل تلك الانتماءات وما تجره عليهم لعرفوا كيف يختارون الأنسب لهم في الدارين، وصدق الله إذ قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

ولكن الولاء الناجم عن الجهل وانتفاء العلم ليس إلا قطرة في بحر من الانزلاقات التي كانت نتيجة ذلك، ومنها الفتنة بالغرور العلمي نفسه، وهذا ما تبينه الآيات التالية : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٤٩] . فالأكثرية لا تعلم أن تعاقب الخير والشر امتحان وابتلاء وفتنة، ولا تعلم أيضا أن غرور الإنسان بعلمه ينسب نتائج بعض أفعاله لنفسه فتنة، فأكثر الناس حين يخرجون من شر أصابهم ينسبون ذلك لعلمهم بحيل المساعي للإنقاذ، وحين يحصلون على خير ينسبونه لعلمهم بحيل السعي لجلب الخير، ولذلك عبر القرآن عن عقيدتهم في هذا الأمر بصيغة الحصر ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ وقد تكررت هذه الصيغة بشيء من التشديد على عنصر الفتنة في قصة قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨] والمراد في الآيتين : « العلم بطرق الكسب ودفع الضر كمثل حيل النوتي في هول البحر» والغاية من عرضها أن « ذلك القول سبب فتنة أو سبب عن فتنة في نفوسهم »[١] والاستدراك بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ معناه لا يعلم أكثر الناس ومنهم القائلون، أنهم فتنوا بما أوتوا من نعمة إذا كانوا مثل هؤلاء القائلين الزاعمين أن ما هم فيه من خير نتيجة مساعيهم وحيلهم»[٢] .

وتأتي خطورة أمر الجهل بالفتنة هنا من أن الإنسان إذا بلغ هذا المبلغ من نسبة نتائج أفعاله لعلمه وحيلته فقد أفسد عقيدته إذ معنى قوله ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ أنه اعتقد ذلك فجرى في أقواله، إذ القول على وفق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤ / ٣٦ .

(٢) نفسه .

الاعتقاد[1] لأن الألفاظ تترتب في النطق بحسب ترتيب المعاني في النفس كما يقول الجرجاني رحمه الله

وخلاصة القول: إن صيغة «أكثر الناس لا يعلمون» وردت في القرآن الكريم أزيد من ٢٨ مرة، أحيانا بذكر لفظ الناس، وأخرى بعودة الضمير «هم» على الناس، وقد فسر ذلك في كثير من الأحيان بأن المقصود بالناس هم كفار قريش[2]، والواقع أن المقصود هم البشرية كلها من لدن آدم إلى يومنا هذا كما سيتبين لنا ذلك.

وكان المفعول به في الصيغة محذوفا دائما إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤] أي لا يعلمون توحيد الله بسبب إعراضهم عن الأسباب الموصلة إليه، أما ما دون ذلك من الآيات فقد وردت بغير ذكر المفعول به، والسبب في حذفه هو أنه معلوم من الجملة التي جاءت قبل صيغة نفي العلم على الأكثرية من جهة، ومن ناحية ثانية يكون الحذف إلى جانب ما يدل عليه لتعدل ما يدل عليه في الجملة السابقة، فيكون الأمر الذي تجهله الأكثرية متعددا، وقد مر بنا ذكر نماذج من ذلك.

وتكرار هذه الصيغة ـ ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أو الصيغة ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ لتعبر على سلوك الأكثرية ـ دليل على تعدد الموضوعات التي تخفى على الأكثرية فلا يعلمون حقيقتها، بل قد يكون لهم وعي مزيف يجعلهم يتوهمون أنهم يعرفون، فيتسبب ذلك في خسرانهم وضياعهم، ومن الموضوعات التي نفى القرآن علمها على الأكثرية من الناس جوانب أساسية في العقيدة كالوحدانية وسرها ووجوب اعتقادها، وصدق وعد الله، وقدرته المطلقة، وكونه غالبا على أمره، وتصرفه في الأرزاق، والولاء الحق والولاء الباطل، وحقيقة القرآن، والدين القيم، وعالمية الرسالة الإسلامية، والبعث وقيام الساعة، والفتنة

---

(١) نفسه ص ٣٥

(٢) الجلالين ٥٧١، ٦٢٦/والتحرير والتنوير ١٣/٣٦

العلمية، والعلم، وفتنة الخير والشر، وكون العذابين الدنيوي والأخروي من عند الله كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧] وإذا كانت الموضوعات التي نفى القرآن علمها على أكثر الناس كثيرة فإن طابعها الأساسي هو العقيدة، لأن بقية الأمور تابعة لها ومنبثقة عن طبيعتها، ولكن ما أسبابها.

● **المطلب الثالث: أسباب انتفاء العلم عن الأكثرية**

لانتفاء العلم عن هذه الأكثرية أسبابه الموضوعية، وهي من الوضوح بمكان، لأن الله سبحانه وتعالى لم يهمل البشرية في أي زمان أو أي مكان، بل تعهدها بالرسالات تلو الرسالات مدعمة بمعجزات شتى، ولكن أغلبية الخلق ركنوا إلى أهوائهم وتجاهلوا تلك المواعظ والوصايا والتوجيهات والإرشادات فانتفى عليهم العلم بما كسبت أيديهم، وبسبب استكبارهم وتعنتهم كما تبين ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٩ - ٥٠].

إذ تدل عبارة ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على أن هذا ديدن أكثر الناس على مر التاريخ إنهم جميعا يدَّعون بما لم يعلموا، وقد بين الرسول ﷺ هذا السبب بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، هجروه فلم يسمعوه ولم يتدبروه، ولم يتخذوه دستورا لنظام حياتهم ليقودهم إلى السبيل المستقيم (١).

إن أكثر الناس قد اتخذوا الوحي بصفة عامة مهجورا، هجر المسيحيون الإنجيل وهم اليوم يمثلون الأكثرية، وقرروا على المستويات الرسمية اتخاذ اللائكية منهجا، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على تعميم نظرية التجهيل في المجتمعات

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٥٦١

الإسلامية كلها بكل الوسائل المباشرة وغير المباشرة باسم الديمقراطية أحيانا وبالضغوط الاقتصادية أخرى، وهجر اليهود التوراة، واليوم يُهجر القرآن.

ثم هناك سبب آخر لا يقل خطرا عن هجران الوحي هو الولع بالعلم الظاهر بسبب فتنة المنهج التجريبي الذي يتخذ من الحس أساسا للتأثير في عقول البشرية وإغرائها بسبب طبيعة ميل الإنسان إلى الاقتناع بالمحسوس أكثر من اقتناعه بالمجرد، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الظاهرة وذمها بقوله: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

ثم إن الإنسان يجهل حدود طاقاته المعرفية، فيغتر بالمنهج الحسي والمنهج العقلي ويظن أنهما كافيين ليحيط بالمعرفة كلها، فيقع في أزمة معرفية خانقة، تجعله لا يعلم عن ما وراء الحس شيئا، لأن المنهج العقلي في حد ذاته يقوم على القياس والاستنباط فهو حسي في الأساس، وقد نبه الغزالي الى خطر تلك المحدودية المعرفية بقوله: «إن الإمكان في حق الآدمي والإمكان في حق الملك محدود إلى غاية في الكمال بالإضافة، كما أنه في حق البهيمة محدود إلى غاية النقصان، إنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه، ويفارق علمنا علم الحق تبارك وتعالى في شيئين: أحدهما انتفاء النهاية عنه، والآخر أن العلوم ليست في حقه بالقوة ـ والإمكان الذي ينظر خروجه بالوجود، بل هو بالوجود والحضور، فكل ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر موجود»(١).

إن المعرفة مطلقه، منها ما يدركه الإنسان ويحدده بمنهجيه الحسي والعقلي، ومنها ما لا يمكن تحصيله إلا بالمنهج النقلي الذي يعد الوحي السبيل الوحيد إليه، قال تعالى ﴿ **فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ** ﴾ [الجن: ٢٦] فإذا تجاهله الإنسان فقد جهل أدق المعارف التي هو في أمس الحاجة إليها، إذ أن العلوم الدينية لا بد من أصل وجودها في العالم كما يقول الغزالي(٢)، فمن جهلها ضاع وخسر خسرانا مبينا، ومن عرفها ربح بقدر علمه ومعرفته حتى يبلغ

---

(١) الغزالي: جواهر القرآن الكريم ٤٥

(٢) جواهر القرآن ص ٤٤

درجة التقوى، لذلك حصر القرآن خشية الله في العلماء الحقيقيين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

ثم هناك سبب آخر غاية في الخفاء، والدقة يؤدي إلى أن الأكثرية لا تعلم كثيرا من الحقائق هو أن الإقبال على الوحي بقلوب مادية، لا يسعف الإنسان على أن يدرك الخطاب الروحي الذي يتطلب فقهه صفاء القلوب وطهارة النفوس، وهذا ما يجعل المؤمنين درجات أعلاها، مرتبة الأنبياء والمرسلين، وهو ما تعنيه الآية.

وقد لا حظنا أن جميع الآيات الأساسية في مشكلة انتفاء العلم على الأكثرية كانت آيات مكية، ولعل هذا ما جعل معظم المفسرين يعمدون إلى تفسير كلمة الناس بأنهم أهل مكة، أو أهل الشرك من العرب، ولكن في الواقع كانت الكلمة تؤصل للحياة البشرية كلها، وإنما تركزت مشكلة انتفاء المعرفة اليقينية في الآيات المكية لأنها تنظر لأجواء الإنسان من حيث هو إنسان، بغض النظر عن مكانه أو زمانه؛ لأن الرسالة كانت عالمية والرسول أرسل للناس كافة.

وهكذا نجد أن الأكثرية قد انتفى عنها العلم لسبب تعطيل وسائل المعرفة بأسباب مختلفة، ومعظم المجهول من المعارف هو ما لا يمكن معرفته إلا بالوحي، وقد تجلى ذلك من خلال نصوص القرآن والسنة، والآن سننتقل إلى بيان كون الأكثرية قد انتفى عليها العلم لأنها عطلت وسيلته الأساسية مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٩٣] وقوله: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٧].

فما هي وسائل الإدراك المعرفي المعطلة ؟ وما أسباب تعطيلها ؟

* * *

● المبحث الثاني : تعطيل الأكثرية لوسائل المعرفة

توطئة: سبقت الإشارة إلى أن المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية ذات الطابع الغيبي الصرف هو الوحي، وأن الوحي صادر عن عليم، ولا شك أن العليم غير العالم، لأن العليم يكون العلم ذاتا جوهرية فيه، أما العالم فيحصل العلم له بالاكتساب، ومن أجل ذلك تبين أن المصدر اليقيني الوحيد هو رسالة الله إلى خلقه، فإن عطل الناس الوسائل التي بها تحصل هذه المعرفة فقدوا كل سبيل إليها، وظلوا عندئذ يتخبطون في الجهالة التي لا مخرج منها بالوسائل المعتمدة في علم الظاهر أو علم الاستدلال الذي يقوم أساسا على آليات علم الظاهر كمقدمات تترتب عليها نتائج تابعة لها صوابا وخطأ. ونريد أن نجمل هنا في هذه التوطئة الوسائل الأساسية في التلقي المعرفي لكي ندخل من خلالها إلى التفاصيل لبيان تعطيل الأكثرية لتلك الوسائل .

ففي سورة الأعراف، وهي مكية يقول المولى عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾

[الاعراف: ١٧٩]

الآية تبين أن الأكثرية من الجنسين – جنس الجن وجنس الإنس – مؤهلون للدخول لجهنم، وتكشف عن السبب الأساسي وهو الضلال، ولكنها تبين أن الضلال في حد ذاته نتيجة لأسباب أخرى جعلت تلك الأكثرية من الجنسين تهبط لمستوى الأنعام، وهذه العلل والأسباب إنما هي تعطيل وسائل التلقي المعرفي الثلاثة وهي:

١– البصر الذي هو وسيلة المنهج الحسي ﴿ **لَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا** ﴾.

٢ ـ الآذان التي هي الوسيلة الأساسية لتلقي الخبر، أي آلة المنهج النقلي: و﴿ **لَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾.

٣ ـ القلوب التي هي وسيلة المنهج العقلي المركب من آلتي العقل والفؤاد، لأن الأول يمد المنهج بالفهم والثاني يطبعها بالموقف: ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾ .

ونحن هنا في هذا الموضع لا نريد أن نتحدث عنها من حيث هي آليات المنهج الإسلامي في البحث والاستيعاب والتلقي المعرفي كما تبين الآية: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وإنما نريد أن نتحدث في صميم فكرة البحث التي هي «الحقيقة الجوهرية في مشكلة الأكثرية والأقلية».

وهذا يستدعي الوقوف على موقف الأكثرية من العقل والسمع والبصر أي الحس والخبر والنظر كما يقول ابن تيمية رحمه الله .

ونبادر إلى القول قبل التحليل ـ بأنه من المنطقي أن لا نجد نصا يكشف عن تعطيل البصر وحده عند الأكثرية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه آلتهم الأساسية في التركيز على علم الظاهر كما بينا من قبل، علما أن القرآن يشير بالقسم إلى النوعين بقوله تعالى: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الحاقة: ٣٨] أي بما هو محسوس وما هو غيب وباطن، والآيات التي تستخدم نفي البصر عنهم تقصد البصيرة كقوله تعالى: ﴿ **وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٩٨] أي لا يدركون فحوى ما تقوله وما تعلمهم إياه، وكون آليات التلقي مختلفة يستدعي الوقوف عند كل منها على حده، لاسيما وأن تعطيل وسيلة منها يؤدي إلى وعي مزيف في الغالب.

● **المطلب الأول: بيان أن الأكثرية تعطل العقل.**

الآيات التي تأتي بصيغة صريحة لتدل على أن الأكثرية لا تعقل ثلاثة هي:

١ ـ ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٢ ـ ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

٣ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾

[الحجرات : ٤]

والأولى منها مكية ، ولذلك كانت قد نفت عن الأكثرية عقل قضية البعث من خلال الدليل المادي المحسوس، وهو إحياء الأرض من بعد موتها وجدبها، وأقامت عليهم الدليل نفسه مما استدعى الأمر بالدعاء ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

أما الثانية والثالثة فمدنيتان تتعلقان بالتشريع والأخلاق، لذلك تعلق النفي المعرفي الدقيق بالشرع؛ إذ نفت آية سورة المائدة على الأكثرية عقل مسألة التحليل والتحريم، وأنها ليست قائمة على الاعتباط، بل هي قائمة على علم دقيق بجواهر الأشياء مما ييسر الحكم على العالم بالمقاصد الشرعية التي خفي معظمها على الناس، ومن ثم كان تحليلهم محض افتراء وكذب إذ لا يستند إلى أصول علمية تمكن من ذلك.

أما آية الحجرات فقد نفت على الأكثرية عقل أصول النظام الأخلاقي في المعاملات بما في ذلك مناداة الرسول ﷺ من وراء حجرات نومه دون مراعاة لأسلوب التعامل مع مقام الرسول ﷺ، ولذلك عقبت الآية بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٥].

وهكذا يتبين لنا أن انتفاء العقل على أكثرية الناس قد مس بالنصوص الصريحة ثلاثة مجالات أساسية هي المجال العقدي والمجال التشريعي والمجال الأخلاقي، وهي المجالات الأساسية في صياغة المجتمع الصالح.

وقبل أن نشرع في تحليل ذلك، ينبغي الإشارة إلى أن الآيات التي تتحدث عن دور العقل في المعرفة البشرية السامية، التي تحصل من مصادرها الثلاثة، وهي الحس والخبر والنظر، يعد دورا كبيرا لا يستهان به أبدا، كما يتجلى من قوله

تعالى﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] وقوله: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] وقوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

كما ينبغي الإشارة إلى أن العقل الذي يعتد به فعلا هو عقل العالم الحق، لأنه لا يعطله بأي صورة من الصور، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، قال ابن القيم «وقع في القرآن أمثال، وأن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون»(١)، وإذا كان العقل يعني في اللغة الإمساك والتدبر والفهم، فمعنى ذلك أن العلماء هم الذين يفترض فيهم أن يكونوا رباني السفينة، الذين يمسكون المعاني القرآنية يتدبرونها ويفهمونها ولا يدعونها تفلت منهم أو تصرف عن قلوبهم كي يفهموها حق الفهم ويعملوا على إفهامها غيرهم.

والإشارة الثالثة التي ينبغي الوقوف عليها هي أن الأكثرية يوم البعث ستعترف بأن سبب خسرانها وضياعها إنما قد حدث بسبب تعطيل العقل والسمع كما يتجلى من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، ومعنى ذلك أنهم قد اعترفوا بدورهم في إضلال أنفسهم وتعريضها للخسران نتيجة تعطيل وسائل المعرفة الأساسية في مجال العقيدة والشريعة، ولذلك تعقب الآية عليهم بقول الله تعالى: ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]، سحقا لهم لأنهم عموا عن الحق وعطلوا نعمة الله التي منحهم، وأنزلوا أنفسهم منزلة الأنعام التي لا تدرك من البعد الزماني سوى الحاضر، فغفلت عن المستقبل الذي يتضمن الإيمان بالبعث ومن ثم الاستعداد له: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) الأمثال في القرآن: ١٧٣

والإشارة الرابعة التي ينبغي الوقوف عندها منهجيا هي بيان أن تعطيل الحواس من شأنه أن يؤثر على العقل فيعطله، لأن المنهج العقلي كما قلنا سابقا يستمد براهينه في الغالب من المقدمات الحسية أو الخبرية، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦].

نعود الآن بعد هذه الإشارات الأربعة الأساسية في مسألة العقل إلى الآيات التي نفت عن الأكثرية استخدام العقل في موضعه الصحيح في ثلاث مجالات حساسة جدا هي المجال العقدي والمجال التشريعي والمجال الأخلاقي لنفصل الحديث فيها بإذن الله.

(أ) **أما المجال العقدي** فإن الآية عرضته ضمن سورة العنكبوت وهي سورة مكية موضوعها الأساسي هو العقيدة، ومن ثم فقد جاءت الآية في السياق لتكشف عن طبع من الطبائع البشرية، تتمثل في أن الأغلبية لا تعقل المعاني العقدية مع إقامة الحجة والبرهان على المستوى الحسي، فهذا ما تجليه الآية: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ووجه تخصيص سورة العنكبوت بهذه الآية مناسبتها لما تردد فيها وتكرر من حديث عن البعث في ما يزيد عن عشرة مواضع. قال الغرناطي: «وصف أكثرهم هنا بعدم العقل فوجه ذلك ـ والله أعلم ـ التعريف بإفراط قصورهم حتى استحقوا الوصف بصفات البهائم ومن لا يصح خطابه، وذلك أن العقل فضل الإنسان به امتيازه عن البهيمة، ولا يمكن العلم بشيء إلا بعد حصوله والاتصاف به، وهو مناط التكليف، وهو عند المتكلمين عبارة عن علوم ضرورية، وليس كل العلوم الضرورية، وهو مع هذا خصيصة جليلة إن عدمت لم يكن التكليف ولا وجود علم، وأضداد العلم العامة والخاصة أضداد للعقل، وهو من قولهم عقلت البعير إذا أمسكته بعقال وبه وضع خطاب المكلفين فإذا فقد لحق فاقدها بالبهائم»[1].

---

(١) ملاك التأويل ص ٢/٩٢٣

وهذا ما توضحه آية أخرى من سورة الفرقان وهي قوله تعالى : ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٤] فجاءت الآية هنا لتوضح عن طريق التشبيه أن الأغلبية ليست قادرة عن استعمال العقل بعد أن وضعته في إطار السنن النفسية الفاسدة التي ترغمه على التعطيل قال ابن القيم : « شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرية أضل سبيلا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل لهو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه » (١).

ومن كل ذلك يتبين لنا أن الأكثرية عطلت العقل ومنعته من أداء وظيفته الأساسية وهي اختيار الأحسن، حتى صارت هذه الأكثرية أضل من الأنعام في اختيار العقيدة الصحيحة.

على أن الأمر لا يتوقف عند فشله في اختيار العقيدة، وإنما سيفشل كذلك في مجال آخر لا يصلح حاله إلا بصلاح حال العقيدة وهو الانقياد للشريعة.

(ب) مجال الشريعة: قلنا إن سورة المائدة وهي سورة مدنية مجالها الأساسي هو الشريعة جاء فيها قول الله تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [المائدة : ١٠٣].

---

(١) الإمثال في القرآن ٢٠٠ – ٢٠١

موضوع الآية كما ترى هو المؤاخذة على التدخل الإنساني في ما لا يعرف ولا علم له به، وهو التحليل والتحريم، إذ المعنى : «ما سمى الله ، ولا سن ذلك حكما، ولا تعبد به شرعا، بيد أنه قضى به علما، وأوجده بقدرته وإرادته خلقا، فإن الله خالق كل شيء من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية» [1] ، فالله لم يشرع كل هذه الافتراءات التي اختلقها الآباء وتعبد بها الأبناء من البحيرة التي يمنع درها فلا تحلب، والسائبة التي يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء، والوصيلة من الغنم التي ولدت سبعة أبطن آخرها أنثى مسبوقة بذكر، وقيل الشاة التي أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، فكان ما ولدت بعد ذلك يكون للذكور دون الإناث إلا أن يموت شيء منها، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فيدعوه لآلهتهم [2] .

وعلى الجملة فإنهم كانوا يقولون إن هذه أمَرَ الله بتحريمها ويزعمون أنهم يفعلون ذلك طاعة لله، وطاعة الله إنما تعلم من رسله، وهذا رسول الله ﷺ يأتي بالقرآن ليبين لهم أن هذه فرية وكذبة.

ومن الواضح أن قوله تعالى ﴿ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ يكشف أن الأكثرية التي تفعل ذلك كانت من الكافرين الذين يكْذبون على الله في مجال التشريع. ولذلك قلنا قبلُ: إن الذين لا يعقلون مسائل العقيدة سوف لن يعقلوا بسهولة مسائل الشريعة ومقاصدها، لأنها تبع لها.

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ يبين أن أكثرية الخلق لم تستخدم العقل وإنما ألغته بالتركيز على تقليد الآباء والأجداد جهلا [3] .

ويدل ذلك على أن التشريع يتطلب علما بمجال التشريع ومقاصده، ولا يمكن أن يكون هناك تشريع يجهل صاحبه جوهر الموضوع الذي يشرع فيه

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن: ٦ / ٣٣٥

(٢) تفسير الجلالين: ص ١٦٤

(٣) نفسه

بالتحليل أو التحريم، وهذا ما يبين حكمة الله في منع حتى الرسول ﷺ من تحريم بعض الأشياء على نفسه كما في قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ [التحريم : ١] وكذلك قال بالنسبة للمؤمنين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [المائدة : ٨٧] فلكي تحرم لا بد أن تعقل أولا الموضوع الذي تريد تحريمه لتعرف علة ذلك، ومن هنا نفهم سر اعتماد الفقهاء «علة التحريم» في القياس عند إصدار الأحكام على الأشياء. ولهذا قال القرافي : «إن ترتيب الحكم على الوصف يقتضي علية ذلك الوصف لذلك الحكم »[١]، وقال : «الوصف الذي هو معتبر في الحكم إن أمكن انضباطه لا يعدل عنه إلى غيره كتعليل التحريم في الخمر بالسكر »[٢] وقال : «لا يترتب على المظنة حكم» [٣]وقال : «ترتيب الحكم على الوصف يدل على علية ذلك الوصف لذلك الحكم »[٤] وقال : « إن عدم العلة علة لعدم المعلول فعدم السكر علة لعدم التحريم »[٥] .

وعلى هذا فإن الآية السابقة حين قالت﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ بينت بوضوح أن الذي يقْدم على هذا الفعل هو مفتر وكذاب؛ لأنه يصدر أحكاما على الأشياء دون معرفة حقيقية لأوصافها ولا لعللها، ومن ثم فهم ﴿ **لا يَعْقِلُونَ** ﴾ لأن من يقدم على هذا الفعل بالتأكيد لا يستخدم عقله أبدا، وكيف يمكن أن يكون ذا عقل من يتسبب في الخسران المبين؟.

والمشكلة ليست في من يقدم على هذا الفعل فقط، ولكن في كون «الأكثرية» تفعل ذلك مما يؤدي إلى فساد المجتمع حين يعدل عن حكم الله إلى حكم البشر على الأشياء دون دراية بحقائقها، فالحكم خاص بالله لأنه «قضى به

---

(١) القرافي : الفروق :١/٢٢٧
(٢) نفسه ٢/١٦٥
(٣) نفسه ٢/١٦٦
(٤) نفسه ٣/٢٠٢
(٥) نفسه ٣/٢٧٤

علما » كما قال القرطبي[1]، ولكن الناس في الغالب يقضون به جهلا، بل يقضون به في غياب الوسائل الأساسية للمعرفة البشرية وعلى رأسها العقل.

(ج) **مجال الأخلاق** : إن تعطيل العقل في مجال الأخلاق لا يقل عن تعطيله في مجال العقيدة ومجال الشريعة، إذ نجد قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ [الحجرات: ٤] يكشف عن « انتفاء العقل على الأكثرية » ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ في مجال الأخلاق، إذ تبين الآية أن بعض الناس كانوا لا يتمتعون بالمستوى الخلقي الذي ينبغي أن يتعاملوا به مع الرسول ﷺ حين يكون في بيته، فهم يفتقرون إلى الصبر في أدنى مستوياته، وهي الانتظار بعض الوقت حتى يخرج إليهم الرسول ليخاطبوه في شيء أو يستفتوه فيما يرغبون الاستفتاء فيه في المسجد أو في مكان يليق بمقام الأنبياء والمرسلين.

قال ابن كثير : « إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال : ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ثم أرشدهم تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ** ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة »[2] والآية التي قبل هذه تبين الصورة الإيجابية للمستوى الخلقي الذي يتمتع به بعض الصحابة إذ قال قبل ذلك بشأن طريقتهم في خطاب الرسول ﷺ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الحجرات: ٣].

فآيات الحجرات هذه تقدم صورتين لنموذجين من الناس عبر في إحداهما بعبارة ﴿ **أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ وعبر في الثانية بقوله ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٣٣٥

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٤ / ٢٠٨

﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فدلت العبارتان على المستوى الخلقي الذي يتمتع به الأقلية بالنسبة إلى الأكثرية، وأعربتا عن السبب في الوقت نفسه وهو انتفاء العقل وغيابه عند الأكثرية وحضور القلب التقي عند الأقلية، تلك التي طهر الله قلبها من كل قبيح ورشحها للتقوى فصارت مخلصة(١).

وهكذا ينتج أن غياب العقل بسبب تعطيله كما رأينا حين تحدثنا عن «إلران»(٢)، أحد أهم الأسباب المؤدية إلى فساد السلوك، وانتشار الأخلاق السيئة، ولذلك فسر القرطبي قوله تعالى ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ بقوله: «أي أن الذين ينادونك ـ من وراء الحجرات ـ من جملة قوم الغالب عليهم الجهل» واستدل على جهلهم بقول رسول الله ﷺ وقد سئل عن هؤلاء القوم «هم جفاة بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»(٣).

قال قطب رحمه الله «وصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون، وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي ﷺ ـ وحرمة رسول الله القائد والمربي، وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبب إليهم التوبة والإنابة ورغبهم في المغفرة والرحمة، وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا به شخص رسول الله ـ ﷺ ـ إلى كل أستاذ وعالم، لا يزعجونه حتى يخرج إليهم، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم، يحكى عن عبيد العالم الزاهد الراوية الثقة ـ أنه قال: «ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه»(٤) وذهب الألوسي إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ والمراد أنهم لا يجرون على مقتضى العقل من مراعاة الأدب لا سيما مع أجلّ خلق الله تعالى وأعظمهم عنده سبحانه ـ ﷺ ـ وكثيرا ما ينزل وجود

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم ١٦ / ٣٠٩

(٢) أحمد رحماني التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا موضوع الران

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم ١٣ / ٣١٠

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم ٢٦ / ٣٣٤٠

الشيء منزلة عدمه لمقتضى، والحكم على الأكثر دون الكل؛ ذلك لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما على قليل، وجوز أن يكون المراد بالقلة التي يدل عليها نفي الكثرة للعدم فإنه يكني بها عنه، وتعقبه أبو حيان بأن ذلك في صريح القلة لا في المفهوم من نفي الكثرة »[1] .

وعلى الجملة فإن القرآن الكريم قد أشار إلى « انتفاء العقل » على الأكثرية في ثلاث مجالات تعد أساسية في الحياة البشرية هي المجال العقدي، والمجال التشريعي، والمجال الأخلاقي وبذلك يتبين أن الأكثرية تتحرك في هذه الحياة بدون عقل، لأن العقول من حيث هي أدوات أساسية للإدراك السليم والتوجيه الصالح قد تعطلت بفعل الشهوات والحرص على المادة وخلوّ القلوب من الورع والتقوى.

● المطلب الثاني : انتفاء السمع على الأكثرية.

يطلق السمع في القرآن الكريم على مستويات عدة، مجازية حينا وحقيقية أخرى، وأكثر ما يطلق ليدل على عملية الانتفاع البشري بما يسمع من وحي ووعظ وإرشاد، ومن ثم استخلصنا منه شيئا وهو أنه يطلق على منهج من مناهج البحث في العلوم والمعرفة وهو المنهج النقلي، ويسمى أيضا المنهج الخبري أوالسمعي أو منهج الرواية [2] ، وهو المنهج المتبع في تحقيق ماروي عن رسول الله ﷺ من أخبار قولية أوفعلية أو إقرارية .

ولذلك يطلق في غالب الأحيان مرتبطا بآليات المناهج الأخرى كالعقل والبصر، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الاسراء : ٣٦] وقوله : ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٨]، وقوله : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق : ٣٧] وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا**

---

(١) محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن الكريم العظيم والسبع المثاني ١٣ / ٢٩٣ دار الكتب العلمية بيروت

(٢) ابجد العلوم : ٢ / ١٨٨-١٨٩

وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية: ٢٣]

فالسمع في كل هذه الآيات ينصرف إلى المنهج النقلي، ويرد بالمفرد لسر عظيم هو وحدة المصدر، ولذلك يرتبط بالمنفعة الكبرى المنتظرة منه أكثر مما ينتظر من غيره من المنهجين الآخرين، ومن آليات المناهج الأخرى، فارتبط في الآية الأولى بالمسؤولية، وفي الثانية بالشكر، وفي الثالثة بالذكر، وفي الرابعة بالاستفادة، وفي الخامسة بالهداية.

ومنه يتبين أن السمع يطلق هنا ليدل على آلية أساسية في المنهج النقلي، فمن عطلها عطل منهجا لا يتم إدراك جانب من جوانب المعرفة إلا به: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠] ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦].

ومن المؤسف أن ما تكشف عنه النصوص يبين أن الأكثرية في عالم البشرية ستعطل هذا المنهج كما عطلت المنهج العقلي، وسيترتب على ذلك نتيجة خطيرة جدا وهو انتشار الوعي المزيف وذلك ما يفهم من قوله تعالى:

(أ) ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤].

(ب) ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾

[فصلت: ١-٥]

(ج) ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٧١].

فهذه الآيات الثلاثة من سورتين مكيتين وثالثة مدنية تكشف عن حقيقة أساسية في عالم البشرية، وهو أن الأكثرية عطلت أسماعها عن وظيفتها الأساسية وهي الإنصات إلى الوحي كتابا وسنة للانتفاع والاهتداء، ولا شك أن تعطيل آلة السمع يعني تعطيل منهج الرواية بالكلية، لأن المناهج إنما تتفاوت بآلياتها، إذ الغرض منها جميعا في النهاية واحد هو حصول المعرفة الحقيقية التي توصل إلى الهدى وتبعد عن الضلال، ويبدو أن انتفاء السمع على الأكثرية سببه الأساسي هو انتفاء الإيمان، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٣]، إذ المعنى فإنك يا محمد لا تملك أن تحقق لهؤلاء الاستفادة مما يسمعونه؛ لأنهم لم يؤمنوا بالقرآن الكريم فتعطلت بسبب ذلك آلياتهم، فهم كالموتى أو الصم، وأنت لا تقدر إلا على إسماع المؤمنين سماع إفهام وقبول لأنهم يؤمنون بالقرآن، فهم بسبب ذلك مسلمون مخلصون بتوحيد الله [1] يملكون الاستعداد الفطري للاستفادة مما يسمعون من وعظ وإرشاد، أما هؤلاء الذين فقدوا منهج الرواية فقد عطلوا آلة الإنصات والفهم فاستحال إسماعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]

فلكي يسمع الإنسان سماع فهم وتدبر لا بد أن يملك المنهج النقلي أولا، ونحن نطلق المنهج هنا على العملية التحصيلية بأكملها، بحيث تصبح آلة السمع التي هي الأذن ليست سوى وسيلة ضمن جهاز كامل يشمل عدة آليات مترابطة لا يمكن الاستفادة من بعضها دون البعض، لأن ذلك يتنافى مع طبيعة

---

(١) الجلالين ص ٥٤١

المنهج كما بينه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فالآذان من حيث هي آلة موجودة لكنها معزولة عن الجهاز المنهجي للعلوم النقلية، هذا الجهاز الذي من أهم آلياته الأساسية الإيمان، لأنه الرابط الأساسي الذي ينقل حرارة الفاعلية بين عناصر الجهاز كلها، فإذا انتفى الإيمان تعطل الجهاز وصارت الآليات تشتغل بمعزل عن بعضها، مما يمنع من تحقيق الفائدة الكبرى، لأن الأذن ـ مثلا ـ ستصبح قاصرة على السمع الصوتي فقط، كالأنعام تماما، تسمع ولا تعي.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾ [الروم: ٥٣] يوضح بجلاء هذه الحقيقة، إذ الحديث هنا ليس عن الموتى حقيقة، أو الصم حقيقة، وإنما هو عن الذين هم بمثابة من كانوا كذلك، فهو مجاز حقيقته إنك لا تسمع الذين تعطلت أجهزتهم المنهجية فصاروا كالموتى أو الصم بحيث لا جدوى من مخاطبتهم ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ [الجاثية: ٨].

وسنشرع الآن في تحليل الآيات الثلاث التي تكشف عن تعطيل الأكثرية للجهاز السمعي الذي عليه يقوم المنهج النقلي الذي لا عوض له عن التحصيل المعرفي في مجال الغيبيات وما يبنى عليها من تشريعات.

(أ) وأول آية عندنا كانت قد طرحت المشكلة بصيغة استفهام ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ ﴾ ثم عقبت بما يتضمن الإجابة المبينة لحقيقة ما حدث بقوله تعالى﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الفرقان: ٤٤] والآية من سورة مكية تتحدث عن موقف الناس من العقيدة الجديدة التي يطرحها عليهم القرآن الكريم، وتبين أن الأكثرية لا يسمعون سماع تدبر وفهم؛ لأنهم عطلوا جهازهم كما تعطل جهاز الأنعام، بل هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام توظف جهازها في حدود الإمكانيات المتاحة لها، بحسب الفطرة، وهم ينزلون أنفسهم

بفعلهم منزلة أبشع من الأنعام، لأنهم يسمعون النداء ثم يصرون مستكبرين ليضلوا أنفسهم فيهلكونها.

والحرف «أم» في قوله ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ قيل بمعنى «بل» وجاءت للإضراب عن المعنى السابق وهو قوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ من أجل ترقية مستوى الذم من عبادة الهوى إلى مستوى سلب السمع والعقل، قال الزمخشري: «معناه: (بل أتحسب)، كأن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالإضراب عنها إليها وهي كونهم مسلوبي الأسماع والعقول؛ لأنهم لا يلقون إلى استماع الحق أذنا ولا إلى تدبره عقلا، ومشبهين بالأنعام التي هي مثل في الغفلة والضلال ثم أرجح ضلالة منها»[1] وذلك لأن الأنعام «تنقاد لأربابها التي تتعهدها وتعرف من يحسن إليها ممن يسئ إليها، وتطلب من ينفعها وتجتنب ما يضرها لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذي هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك، ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع»[2].

ويبدو لي أن أسلوب الاستفهام هنا هدفه التنبيه إلى ثلاث مراحل يمر بها أكثرية جنس البشر، في مسألة الوعي وهي:

١ ـ اتخاذ الهوى إلها ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾، وقد قدم المفعول الثاني عن الأول للعناية، ومعناه «هذا الذي لا يرى معبودا إلا هواه كيف يستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟»[3].

٢ ـ لوم الرسول ـ ﷺ ـ على معاتبة نفسه على أنهم لم يهتدوا، فأجابه القرآن بقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ ليبين له أن المسألة خاضعة للسنن النفسية وقوانينها، فما داموا قد عرضوا أنفسهم لها فالنتيجة أنهم

---

(١) الكشاف: ٣/٩٣ (٢) الكشاف: ٣/٩٤

(٣) نفسه

سيجنون ثمار ما عرَّضوا له أنفسهم من انحراف، وهذا شبيه بقوله تعالى : ﴿ **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ﴾ .

٣ - بيان أن المرحلة التي وصل إليها أكثرية البشر - وهي « كونهم مسلوبي الأسماع والعقول » - هي التي تسببت في اتباعهم أهواءهم، أي أن من فقد وسائل المعرفة ليس له أن يغير من خلقه ومن عقيدته شيئا، ما دامت تلك الوسائل معطلة، ولذلك قال الزمخشري : « فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت : كان فيهم من لم يصده عن الإسلام إلا داء واحد وهو حب الرياسة وكفى به داء عضالا » [١]، وقال قطب : وفي التعبير تحرز وإنصاف إذ يذكر « أكثرهم » ولا يعمم، لأن قلةً منهم كانت تجنح إلى الهدى أو تقف عند الحقيقة تتدبرها، فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول فهي كالأنعام، وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع ووقوف عند الحجة والاقتناع [٢].

وهكذا يتجلى لنا أن الغرض من الآية هو إزالة الالتباس والظن في كون الأكثرية مسلوبة السمع.

أما ثاني آية تكشف عن تعطيل السمع فهي قوله تعالى : ﴿ **حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾ [فصلت : ١-٥].

والآية من سورة مكية لذلك تشرح قضية انسداد مسالك المعرفة بشكل مدهش وتعرضها في ترتيب عظيم في الدقة، فبينت أولا أن مصدر هذا الكتاب هو الرحمن الرحيم، ثم كشفت عن كونه مفصلا عربيا لقوم عرب أقحاح،

---

(١) نفسه

(٢) في ظلال القرآن ٥ / ٢٥٦٦

يفترض فيهم أن يفهموه دون أي مشكل؛ لأنه بلسانهم وبلغتهم، وأنه جاء لقوم فيهم من يعلمون: أي لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتميز[1]، ولكن الآية تبين بعد ذلك أن «الأكثرية» أعرضت عن الهدى، وتبين السبب وهو كون أكثرهم لا يسمعون، وأن أجهزة الاستقبال كلها معطلة: فالقلوب في أكنتها وأغلفتها، فعلى الآذان وقر يمنعها من السمع الحقيقي، ومن ثم فإن بين الداعية وهذه الأكثرية حجاب يمنع من الانتفاع بالخطاب.

إن الآيات هنا تبين كيف تعطلت أجهزة المنهج النقلي تماما، فصارت آلاتها لا تؤدي وظيفتها البتة، فهي على الرغم من معرفتها الدقيقة باللغة التي جاء بها الخطاب فإنها لم تستطع فهم ما يقال، والحال أن المشكلة ليست في طبيعة الخطاب، ولكن في طبيعة أجهزة الاستقبال، وما آل إليه أمرها من فساد تبينه هذه الرواية لابن كثير، إذ قال وهو يعرض قصة عتبة مع رسول الله ﷺ التي قرأ عليه فيها هذه السورة حتى بلغ: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ فقال عتبة: «حسبك حسبك ما عندك غير هذا فقال رسول الله ﷺ: لا، فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك، قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته، قالوا فهل أجابك، قال نعم لا والذي نصبها بينة ما فهمت شيئا مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال، قال والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة»[2].

فانظر كيف تعطلت أجهزة عُتبة فلم يشفع له كونه عربيا فصيحا وبليغا في أن يفهم عن الرسول ﷺ شيئا مما يقول غير الوعيد بالصاعقة، وانظر إلى تعجب القوم من هذه الظاهرة حتى قالوا: «ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال» فيجيبهم بما يعمق في الحيرة «والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة».

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٣١٠٨

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩٠

والحقيقة أن عتبة ليس سوى نموذج لهذه الأكثرية التي لم تكن تسمع أو تعقل، وكانت مصابة بأمراض في قلوبها فلم تفقه شيئا، لأن الآلة من حيث هي آلة لا تنفع إلا إذا وقعت في موضعها من الجهاز الصالح للاستعمال، فلما أصيب الجهاز بعطب في العمق وهو «القلب» تعطلت بقية الآلات عن وظيفة التلقي فصاروا يقولون «ما فهمت شيئا» على الرغم من أن الكلام كان بالعربية، والحال أنه «لتباعد المذهبين والدينين كأن بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابا ساترا وحاجزا مانعا من جبل أو نحوه فلا تلاقي ولا ترائي»(١).

ومن ثم ينتج أن قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني أن الاستفادة من آياته المفصلة إنما تتم وتحصل لمن لم يفقد الاستعداد للانتفاع، فهؤلاء هم القوم الذين يمكن أن يعلموا، قال ابن عاشور «يتعلق ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بقوله ﴿تَنزِيلٌ﴾ أو بقوله ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ على معنى أن فوائد تنزيله وتفصيله لقوم يعلمون دون غيرهم، فكأنه لم ينزل إلا لهم، أي فلا بدع إذا أعرض عن فهمه المعاندون فإنهم لا يعلمون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ ... وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]

كما ينتج من التعبير بقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أن الأكثرية معرضة عن السماع حتى بالآلة، أي أنهم «يقاومون أثر هذا القرآن في نفوسهم فكأنهم صم لا يسمعون» لأنهم «يتحامون أن يعرِّضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر»(٢). وثالث الآيات التي توضح سلب الجهاز السمعي وتعطيل وظيفته هي قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ

---

(١) الزمخشري: الكشاف ٣/٤٤٢

(٢) في ظلال القرآن: ٥/٣١٠٨

عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة :٧١]، والآية من سورة مدنية، تبين حالة خاصة ببني إسرائيل، (لكنها تفيد عموم من تعرض لنفس الحال) كما يبين السياق في قوله تعالى قبل ذلك : ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٧٠ - ٧١] ، والآيتان معا تبينان فعل الأكثرية من اليهود، فهم يقتلون من الأنبياء «فريقا» ويكذبون «فريقا» ثم يأتي بعد ذلك الكثرة في الردة كما بينها التكرار ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا... ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ ويأتي اللفظ الصريح في الدلالة على فعل الأكثرية ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾، لقد عموا عن الدين وصموا حين عبدوا العجل ثم تابوا عن عبادة العجل فتاب الله عليهم ثم عموا وصموا كرة ثانية بطلبهم المحال غير المعقول في صفات الله وهو الرؤية في الدنيا (١).

والآية بعد ذلك تكشف عن تعطيل أجهزة الاستقبال السمعية والبصرية فهم كما يقول القرطبي: عموا عن الهدى، وصموا عن سماع الحق لأنهم لم ينتفعوا بما رأوه ولا بما سمعوه، أي عمي كثير منهم وصم بعد تبين الحق لهم في القرآن والكتب السماوية قبله(٢).

ولا شك أن تكرار الحديث عن العمى والصم، يبين مدى استفحال مرض سلب الجهاز السمعي البصري في كثير من اليهود، ولكن ليس اليهود عند النظر الآن في الحياة سوى نموذج تاريخي للبشرية، وإلا فإن الأكثرية من البشرية كلها يصدق عليها هذا الوصف، بحيث نرى اليوم على مستوى جميع الدول الغربية باعتبارها قدوة في التقدم موقفا سلبيا جدا يتمثل في اللائكية التي ليست

---

(١) الكشاف: ١/ ٦٣٤

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٤٨

إلا تعبيرا حديثا عن «الصم» عن الحق الذي أتت به الكتب السماوية وجاء القرآن مهيمنا عليها ومصدقا بما فيها ومصححا لما حرف منها.

إن بني إسرائيل حقا نموذج تاريخي واضح لتعطيل المنهج النقلي، وسجلهم «مع أنبيائهم حافل بالتكذيب والإعراض، حافل بالقتل والاعتداء، حافل بتحكيم الشهوات والأهواء، ولعله من أجل ذلك قص الله تاريخ بني اسرائيل على الأمة المسلمة في تفصيل وتطويل، لعلها تتقي أن تكون كبني إسرائيل، ولعلها تحذر مزالق الطريق أو لعل الواعين منها الموصولين بالله يدركون هذه المزالق أو يتأسون بأنبياء بني إسرائيل حين يصادفون ما صادفوا، وأجيال من ذراري المسلمين تنتهي إلى ما انتهى إليه بنو إسرائيل حين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فتُحَكِّم الهوى وترفض الهدى وتكَذب فريقا من الدعاة إلى الحق وتقتل فريقا كما صنع بغاة بني إسرائيل في تاريخهم الطويل، لقد صنع بنو إسرائيل تلك الآثام كلها، وهم يحسبون أن الله لن يفتنهم بالبلاء ﴿**وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا**﴾ طمس الله على أبصارهم فلا يفقهون مما يرون شيئا، وطمس على مسامعهم فلا يفيدون مما يسمعون شيئا»[1].

وعلى الجملة فقد عطلت الأكثرية أجهزتها السمعية فتعطل بذلك منهج التلقي عن الله ورسله، وهو المنهج الوحيد للتحصيل المعرفي في ما فوق مستوى الإدراك الحسي الذي يتكفل به المنهج التجريبي، ولذلك جاءت الآيات لتبين أن الأكثرية قد عطلت هذا المنهج بصيغ ثلاث هي على الترتيب:

١ - ﴿**فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ**﴾

٢ - ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ**﴾

٣ - ﴿**ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ**﴾

فكشفت الصيغة الأولى عن تعطيل السمع وحده، وبينت الثانية أن

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/٢٤٨

أكثرهم عطلوا السمع مرتبطا بالعقل، وأبرزت الثالثة صورة سلب البصر والسمع لكثير من الناس .

وهكذا يتبين أن السمع كان هو العامل المشترك بين الآيات الثلاث، وما ذلك إلا لأهميته الكبرى في التحصيل المعرفي الغيبي الذي لا يملك الإنسان منهجا للوصول إليه غير المنهج النقلي، فمن عطله جهل بالضرورة هذا المجال المعرفي الضروري للحياة الدنيا والآخرة، ولذلك نبه الله تعالى عليه بقوله : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ * وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ [طه ١٢٣-١٢٧]، إذ أن تحديد مصدر الهدى هنا ﴿ **إِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى** ﴾ يدل دلالة قطعية على عدم إمكان الاستفادة من مصدر آخر، فليس له سوى المنهج النقلي الذي يأتينا رواية عن الرسل – عليهم الصلاة والسلام – وكل إعراض عن ذكر الله يؤدي حتما إلى الجهل بالغيبيات والتجاهل للتشريعات ويتولد عن ذلك وعي مزيف، فيترتب عنه شقاءان؛ شقاء روحي، وشقاء تنظيمي اجتماعي وخلقي هو المعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ **مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾، هذا فضلا عن الخسران المبين يوم القيامة .

● المطلب الثالث : تعطيل آلة البصر : هل انتفاء البصر يصدق على الأكثرية ؟

قلنا في المباحث السابقة إن البصر يوظف في القرآن توظيفا حقيقيا أحيانا ومجازيا أخرى، وحين يوظف توظيفا مجازيا فإنه يؤوَّل بالمنهج الحسي، تماما كما يؤوَّل السمع بالمنهج النقلي والعقل والفؤاد بالمنهج العقلي .

وإذا كان الإنسان ميالا إلى المادة بسبب استجابتها لشهواته أكثر وأسرع من

أي شيء آخر، فإن المنهج الحسي هو الذي سيحتل أوسع مجال في نشاط الإنسان الفكري، وما ينجر عنه من أنشطة عملية أخرى .

ومعنى هذا أن «انتفاء البصرّ سوف لن يأخذ حجما كبيرا في الذكر الحكيم، بمعنى أننا سوف لن نجد من الآيات القرآنية ما يشير إلى ذلك بالصورة التي وجدناها صريحة في مجالي المنهجين الآخرين ؛ العقلي والنقلي» .

إن الآية الوحيدة التي تشير إلى الأكثرية في هذا المجال هي قول الله تعالى : ﴿ **وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٧١]، وهي كما سبق الحديث تجمع بين انتفاء السمع والبصر معا، أما الآية التي تفيد انتفاء البصر على الأكثرية خاصة فلم نجدها أبدا .

فما السبب في ذلك ؟

الآية التي تجيب بصريح اللفظ عن ذلك هي قوله تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٣٦] فالذي يفسد في المنهج ليس هو الآلة إنما هو روح المنهج، وهو فساد القلوب التي في الصدور، فحين تخلوا من ردود الأفعال الصحيحة تفقد الاستجابات الصحيحة، فتصير المناهج بسبب ذلك فاقدة لفعالياتها، إذ ليست الحواس إلا قنوات لتمرير أوامر القلب، فإذا فسد تعطلت هي عن دورها الحقيقي الشامل، واكتفت بالدور الثانوي الذي هو عملية النظر، وهذا ما بينه قول الله تعالى : ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٩٨] .

إن قوله تعالى ﴿ **لا تَعْمَى الأَبْصَارُ** ﴾ وقوله ﴿ **يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ يبين أن المنهج الحسي لا يُفتقد عند الأكثرية من حيث هو منهج يملك كامل الاستعداد للتعامل مع المادة، وإنما يفتقد فيه العمق الروحي بسبب عمى القلوب التي يفترض فيها أن توجه الحواس إلى ما فيه خير الإنسانية الشامل.

إن المجال المادي الذي يمكن أن يستخدم فيه المنهج الحسي لتحقيق فائدة روحية هو مجال العبرة، وهو المقصود بقول الله تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران : ١٣]، وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور : ٤٣ - ٤٤] وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر : ٢] .

فهذه الآيات الثلاث، تعرض مظهرين حسيين مختلفين أحدهما تاريخي اجتماعي وثانيهما كوني، ولكنها تعقب بمضمون واحد هو الدعوة للاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ .

ولفظ الأبصار هنا يتعدى دور الحاسة البصرية إلى المنهج الشامل الذي يحتوي إلى جانب استيعاب معطيات المنهج الحسي التجريبي الصرف المنهج الحسي الاعتباري.

ولا شك أن هذا يمثل عمق الفرق بين المنهجين، فحين يكتفي الباحث بنتائج المخبر يكون في حدود المعرفة المادية وحدها، وهذا مهم، وهو الذي يهيمن على ساحة التفكير البشري، ولذلك لم نجد من الآيات ما ينفي البصر على الأكثرية، أما حينما يتجاوز نتائج المعرفة المادية إلى الاعتبار الذي به تتحقق

المعرفة الروحية في إطار المنهج الحسي، فإن المنهج عندئذ سيصير أنفع وأوكد، وهو الذي لا يملكه إلا «أولوا الأبصار» وهو الذي نسميه هنا «المنهج الحسي الاعتباري»، وهو منهج الأقلية؛ لأنه محصور في المؤمنين المخلصين وهم قلة كما بينا في موضوع الأقلية على مستوى العقيدة.

وقول الله تعالى: ﴿ **هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقوله: ﴿ **هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] يبين أن الحجج المادية تحقق هدفها متى حصل اليقين، والإيمان، ففي الآية الأولى تكون الحجج بصائر لقوم يوقنون، وفي الثانية تكون بصائر لقوم يؤمنون، أما من فقد هذه الطاقة الروحية فلا يستفيد منها إلا ماديا تبعا لطبيعة المنهج ومستواه.

بل إن القرآن يبين بشكل أوضح أن فقدان حاسة البصر من حيث هي آلة في المنهج لا يكون له تأثير كبير على الاستيعاب متى كان المنهج برمته سليما، لوجود آلات تعويضية للدور، وهي آلة التخييل عن طريق السمع، وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يونس: ٤٣]، بمعنى أنهم لو كانوا يبصرون بقلوبهم لأمكن هدايتهم على الرغم من عمي حاسة النظر الناقلة للصور إلى العقل والقلب حيث يتم الإدراك ويحصل الاعتبار، وقد سبق بيان ذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج: ٤٦] أما إذا كان العطب في صلب الجهاز وهو القلب فإن المنهج سيكتفي بالدور الثانوي وهو إدراك الظواهر بمعزل عن البواطن، وقد سبق بيانه في تحليل قوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم: ٧].

والسر يكمن في ضرورة تكامل المنهج، إذ لا يختلف فيه عطب الأذن عن عطب العين، فهما عنصران مكملان في منهجي العقل والحس، يؤثر غيابهما تأثيرا ثانويا، ولذلك جمعا معا في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ**

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢ - ٤٣] ، فهناك استماع ونظر لكن بدون وعي واستيعاب لمضمون المسموع والمنظور، فصار وجود الآلة كلا وجود، ما لم تنظبط مع المنهج بأكمله فيكون منهجا نقليا يتضافر فيه السمع والإيمان لحدوث الوعي، أو منهجا حسيا اعتباريا يتضافر فيه البصر والتجربة مع اليقين في الله.

يقول الزمخشري: «ومنهم من يستمعون إليك» معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون، ثم قال: أتطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صمم عدم عقولهم؟ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل فقد تم الأمر، وأتحسب أنك تقدر على هداية العمي، ولو انضم إلى العمى وهو فقْد البصر فقْد البصيرة، لأن الأعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحس ويتظنن، وأما العمى مع الحمق فجهد البلاء، وقوله (أفأنت) دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى مسلوبي العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده»[1].

إن كل ذلك يعني أن الاتصال بين أجزاء المنهج لا بد أن يكون اتصالا سليما، وسلامته تتم عن طريق الإيمان، فالإيمان هو الذي يضيء للعقل منطقة الرؤية ليرى، وهو الذي يضيء للبصر موضوع الرؤية والنظر، وهو الذي يكشف للسمع عن حقيقة ما يسمع، فإذا فقد المرء طاقة الإيمان تعطلت المناهج، وفقدت الآلات القدرة على الاستيعاب والإدراك المؤدي إلى المنفعة، يقول قطب في تفسير الآية السابقة من سورة يونس «وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة،

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٣٩

وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة، فلا يئوبون من السمع والنظر بشيء، ولا يهتدون إلى الطريق ... إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا، وينظرون ولا يميزون ما نظروا، إن هؤلاء لكثير في كل زمان ومكان، والرسول ﷺ لا يملك شيئا، لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم، فكأنها معطلة لا تؤدي حقيقة وظيفتها، والرسول ﷺ لا يملك أن يُسمِع الصم ولا أن يُبصِر العمي، فذلك من شأن الله وحده عزوجل، والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التي لا تتخلف ولا تحابي، ولقوا جزاءهم عدلا (١).

● **وخلاصة القول :**

إن الأكثرية على المستوى المعرفي قد انتفى عليها العلم الحقيقي فانتفى الوعي في المجالات المختلفة العقدية والاجتماعية والخلقية فسيطر عليها الجهل حينا والوعي المزيف أخرى، بسبب انسداد مسالك الفهم وتعطل المناهج الأساسية الثلاثة العقلي والحسي منها والنقلي بصورة خاصة.

لقد تبين لنا أن المنهج الحسي لم يتعطل بنفس الصورة التي تعطل بها المنهجان الآخران العقلي والنقلي، والسبب في ذلك هو طبيعة الإنسان الميالة للحس بصورة قوية، مما كشف عن منهج حسي متميز يقوم على العبرة في مستواها الكوني والاجتماعي أسميناه المنهج الحسي الاعتباري، لأن المنهج في صورته هذه الأخيرة يمكّن البشرية من الاهتداء للحق، ولكن أكثر الناس - مع الأسف - لا يمارسون أنشطتهم الفكرية وفق هذا المنهج إلا قليلا منهم.

وقد ترتب على كل ذلك جهل كبير بالمعرفة الغيبية مما أدى إلى أن الأكثرية فاقدة للوعي بالخطر الذي يهددها، فهي كافرة بحيث لا ينفع معها حتى البراهين والحجج الحسية، كما تبين الآية : ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ**

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٧٩٥

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

والذين لهم مسك من معرفة كان أكثرهم غافلين كما تبين الآية: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢] فهم غافلون عن الآيات التاريخية كحدث فرعون، وعاد وثمود، وغافلون عن الآيات الكونية، وغافلون عن آيات الوحي قرآنا وسنة لأنهم لا يوجهون إليها قلوبهم وعقولهم، ولا يتدبرونها في الآفاق وفي أنفسهم (١).

وقد ترتب عن الجهل والغفلة انتماء الأكثرية لأهل الظلمات حيث يغيب الوعي بالكون والحياة بطريقة صحيحة ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، ويحل محله الوعي المزيف الذي يقوم بوظيفة التضليل والإيهام، وأنى يكون له النور وقد اتخذ الوحي مهجورا، فهو قد يسمع الآيات القرآنية ثم يصر مستكبرا كأنه لم يسمعها، ويرى الحقائق المادية فيتجاهلها: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١].

* * *

(١) في ظلال القرآن: ١١/١٨١٨

الفصل الثاني
الأقلية في المجال المعرفي

● **توطئة :**

يمكن بادئ ذي بدء الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أعلم البشرية أن العلم الذي يمكن أن يحصله الإنسان قليل بالنسبة لعلم الله المطلق فقال : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الاسراء: ٨٥] فقد ذكر الزمخشري أن الرسول ﷺ لما أنبأ بني إسرائيل وغيرهم عن بعض ما سألوه تعجيزا، قالوا «نحن مختصون بهذا الخطاب – قوله : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾» - أم أنت معنا فيه ؟ فقال بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلا قليلا، فقالوا : ما أعجب شأنك ساعة تقول : ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ وساعة تقول هذا، فنزلت ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ...** ﴾ وليس ما قالوه بلازم أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى ما فوقه وبالكثرة مضافا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي ﷺ، قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ فقيل لهم إن علم التوراة قليل في جنب علم الله»[1].

فالعلم الذي أوتيه الإنسان عن الحقائق الغيبية والكونية وحتى النفسية والاجتماعية والتاريخية قليل جدا بالنسبة إلى علم الله المطلق، ولكن المعرفة التي نود أن نتحدث عنها هنا بالنسبة للبشرية هي الفقه بما أنزله الله على الإنسانية، لتنتفع به في المجالات كلها : الروحية والاجتماعية والخلقية وغيرها.

والآيات الصريحة في حصر العلم والفقه في الأقلية هي :

١ – ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [الكهف : ٢٢].

---

(١) الكشاف : ٢/٤٦٤ .

٢ـ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الفتح : ١٥].

فالآيتان تحصران العلم والفقه في القلة، ولكن الأولى تتحدث عن العلم والثانية تتناول الفقه وهما ليسا شيئا واحدا لذلك سنحلل كل واحدة في مبحث خاص.

المبحث الأول: طبيعة العلم عند الأقلية:

الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ تحصر العلم بحدث تاريخي محدد ـ هو حقيقة أهل الكهف وعدد أصحابه ـ في الأقلية، وفي الوقت نفسه تجري ما يشبه المقارنة بين العلم الحق والمطلق وهو علم الله الذي لا يخفى عليه شيء، وبين علم الإنسان المحدود الذي لا يكاد يتجاوز المعطيات الحسية البسيطة التي لم تحجزها بعد الحجب المكانية والزمانية، فإن حجبتها دخلت في دائرة المجهولات، لأن سيطرة الإنسان على الزمان والمكان سيطرة محدودة تبعا لمحدودية طاقته وأدواته في الإدراك.

وقد عبرت الآية بصيغة التفضيل مسندة إلى الله تعالى لتفيد « أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل، وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه » (١).

ثم إن الناس يتفاوتون في العلم بعد ذلك تبعا لطاقاتهم وتقواهم واطلاعهم وتحكمهم في المناهج المختلفة، إذ حتى « العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء » (٢)، وكمال العقل في مجال ما من مجالات المعرفة الممتدة إلى مالا نهاية يكون بتعميق النظر فيه، لأن التعمق في دقائق العلم يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه (٣)، أي أن العلماء يتفاوتون

---

(١) التحرير والتنوير : ١٥ / ٢٩٣ .
(٢) التدبير : ١ / ٢٠٣ .
(٣) إحياء علوم الدين : ١ / ٢٨ .

في طاقاتهم العقلية من حيث قوة الذكاء وقوة الذاكرة، ويتفاوتون في البصائر تبعا لتقواهم وزادهم من الفتح الرباني، ويتفاوتون من جهة ما ألفوا من استخدام للأدوات المنهجية الموصلة بانتظامها إلى إدراك الحقائق العلمية تبعا لاختلاف المناهج المناطة بالغايات والأهداف وهي :

- منهج أهل الدراية والعقل.
- منهج أهل التجربة والحس.
- منهج أهل الرواية والنقل والخبر أو المنهج السمعي.
- منهج أهل الاعتبار وهوالمنهج الحسي حين تدخله عناصر الإيمان والتقوى، ليعبُر من الحادثة الحسية إلى ما وراء الحس بواسطة اكتساب طاقة روحية تمنح العقل قدرة فاعلة في الحاضر والمستقبل، كما رأينا (١).

ومن البديهي أن يرتبط المنهج الاعتباري بالفقه أكثر من ارتباطه بالعملية الذهنية أو التجريبية، ولو أنه يرتبط بها كذلك بعض الشيء، لأن عملية الاعتبار تتطلب فقه الواقع الحسي بدقة ليعبر منها إلى غيرها من المستنبطات الذهنية، يقول الغرناطي: بصدد الحديث عن الفرق بين لفضي (يفقهون) و(يعلمون) من قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** ﴾ وهما الآيتان (٩٧-٩٨) من سورة الأنعام : « مرجع العلم بنشأة الإنسان وتقلبه من صلب إلى رحم، وارتباط أعضائه الظاهرة والباطنة، وجمع أجزائه وتصرف كل عضو في مالهُ خلق، واحتياج الأعضاء بعضها إلى بعض وجري ماوكل منها بغذاء الإنسان اجتذابا وانتحالا وطبخا وتقسيما وتجزئة على الأعضاء وإتقان كل عضو منها وجرى بما يسر له، إلى غير ذلك مما يبسطه من تكلم في التشريع، فالعلم بهذا كله جملة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الفصل السابق

وتفصيلا مما لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع عليه بالاعتبار والتفكر من ذوي الفطن السالمة والنظر العقلي السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه التفهم والتفطن»[1].

إن هذا النص من كلام الغرناطي يوضح أن الفقه غير العلم؛ لأن الفقه في نظره يستخدم أداة العقل بصورة أدق وأعمق ليستنبط الحكم على الشيء، بينما العلم يقوم على النقل الذي أداته السمع أو البصر، وفي نظره لقد وضع في الآية لفظ العلم مع المعرفة التي يمكن التوصل إليها بالنظر المجرد كملاحظة أوضاع النجوم للأهتداء بها في ظلمات البر والبحر، بينما وضع لفظ الفقه مع ما يبين العلاقة بين نشأة الإنسان من نفس واحدة والفروق القائمة بعد ذلك بين أحواله من استقرار واستيداع، ويصل في النهاية إلى النتيجةليقرر أن الفقه غير العلم لأنه «لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع عليه بالاعتبار والتفكر من ذوي الفطن السالمة والنظر العقلي السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه التفهم والتفطن».

فمن أوتي القدرة على التحكم في آليات منهج من هذه المناهج ـ الدراية ، أو التجربة والحس أو النقل ـ فقد أوتي الحكمة في مجال معرفي يمكنه السيطرة عليه سيطرة نسبية، تطرد مع مستوى تلك الحكمة، وهو الذي ميز البخاري ومسلم عن غيرهم في مجال الرواية، وميز الفارابي و ابن رشد في مجال الدراية، وميز ابن سينا وابن الهيثم قديما وبعض علماء الغرب حديثا عن بعض في مجال الملاحظة والتجربة الحسية، وميز ابن خلدون وابن نبي عن غيره في مجال الاعتبار.

وعلى هذا فإن الله قد يؤْثر بعض عباده بعلم مميز فيعلمهم ما لم يعلمه غيره ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ كما آثر الخضر بالعلم اللدني، وآثر محمدا ﷺ بالقرآن الكريم .ولذلك كانت جملة ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

(١) ملاك التأويل : ١/ ٤٦٤ .

« مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا : هل يكون بعض الناس عالما بعدتهم علما غير كامل، فأجيب بأن قليلا من الناس يعلمون ذلك، ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي، وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأعلمية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك » (١).

وهكذا يتجلى لنا أن الله يريد من هذه التنبيهات المستمرة لمحدودية علم الناس أن يعلّم البشرية المنهج الصحيح في التفكير والنظر، قال قطب : « أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله »(٢).

وفي القرآن إشارات واضحة الدلالة في ضرورة مراعاة الحدود المنهجية للإنسان كقوله تعالى : ﴿ **فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [آل عمران : ٦٦] وقوله : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء : ٣٦].

ومن كل ذلك يتبين لنا أن العلم منحصر في القلة، لأسباب مختلفة منها طبيعة المناهج المختلفة التي يعد دورها ضيقا تبعا لوسائلها وأهدافها وغاياتها، ومنها اختلاف الطاقات البشرية التي أودعها الله في العقول والنفوس والأفئدة، إذ قلما نجد إنسانا أوتي جوامع المناهج .

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الإنسان في حد ذاته يميل بحكم سيطرة الشهوات عليه إلى استخدام المناهج الحسية أكثر من غيرها مما جعله يجهل أغلب الحقول المعرفية الروحية، وهذا مجرب ومعاين في حياتنا المعاصرة، إذ نجد نسبة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥ / ٢١٣

(٢) في ظلال القرآن ٢٥ / ٢٢٥٧

الجامعات التي تعنى بالدين لا تكاد تظهر بالنسبة إلى الجامعات التي تعمق العلم بالمحسوس .

● **المبحث الثاني : طبيعة الفقه عند الأقلية**

والآية التي تحصر الفقه في الأقلية هي قوله تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الفتح : ١٥] وتكشف عن جانب آخر من المحدودية في العلم البشري وهو الفقه، والفرق بين العلم بمعناه الواسع والفقه، فرق بين النظري والعملي، ولذلك ذهب الغزالي إلى أن الفقه مرتبط بسياسة الملك فقال : « فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا »(١) . ولذلك كان ابن القيم يؤكد على ضرورة معرفة « مكر الناس وخداعهم وحيلهم »(٢) .

ولكن كون الفقه يُعنى بالجانب التطبيقي لا يعني أن منهجه حسي تجريبي صرف، لأن طريقة تعامل الفقيه مع موضوعه تقوم على الربط بين النقل والمعاينة، فمنهجه مرهون باستخدام السمع والبصر، أما الأول فلكي يعطيه الأحكام الشرعية وأما الثاني فلكي يعرف متى ينزل على الواقعة حكما دون حكم، وعلى هذا استدرك الغزالي المسألة بقوله : « إن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة والمنجية في الآخرة، والمذموم يصدر عن المذموم ، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب »(٣) .

---

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٣٠

(٢) ابن القيم : أعلام الموقعين : ٤ / ١٩٩

(٣) نفسه ١ / ٣٤

وما دام الفقه «علما شرعيا إذ هو مستفاد من النبوة» [1] من جهة، ويتطلب المعاينة الدقيقة والفهم العميق للوقائع من جهة ثانية، فإن التوصل إليه ليس أمرا سهلا، وهذا ما جعل علماءه الحقيقيين قليلين جدا.

ومن الواضح أن آية الفتح السابقة قد كانت تعقيبا على موضوع فقهي يتمثل في التنازع حول مسائل الاستحقاق المالي الناجم عن الجهاد، ومن ثم فقد نفى النص الفقه على الأكثرية ليثبته للأقلية، فقال: ﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [الفتح: ١٥].

قال القرطبي: «يعني لا يعلمون إلا أمر الدنيا، وقيل لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلا» [2] وجاء في تفسير الجلالين: «بل كانوا لا يفقهون من الدين إلا قليلا منهم» [3]، وقال ابن كثير: «أي ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم» [4].

وقال قطب: «قد أمر الله نبيه - ﷺ - أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله وأخبر نبيه - ﷺ - أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج «بل تحسدوننا» فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة، ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره، فجزاء المخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالغنم حين يقدره الله جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد» [5].

---

(١) نفسه: ١/ ٣٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٧١.
(٣) تفسير الجلالين: ٦٧٩
(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٠.
(٥) في ظلال القرآن: ٢٦/ ٣٣٢٣.

إن آراء المفسرين – كما ترى– مختلفة بشأن المقصود بالمستثنى « قليلا » فمنهم من فسر النص على أن المقصود بالقلة هو قلة فقه المخلفين من الأعراب، فهم « لا يفهمون إلا فهما قليلا، وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ وغرض الإضراب الثاني هو العدول عن وصف المؤمنين بالحسد إلى وصف المخلفين بما هو أعظم منه وهو الجهل وقلة الفقه [١]، لأن الإضراب الأول « نسبة إلى جهل في شيء مخصوص وهو نسبتهم الحسد إلى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال »[٢].

ومنهم من فسر المستثنى « إلا قليلا » بأن الأقلية منهم فقط هي التي تدرك مقاصد الشرع وتفقه أحكامه [٣] ، ويحصرهم البغوي في « من صدق الله والرسول »[٤] وهؤلاء هم العلماء الفقهاء العقلاء لأن « حب الدنيا ليس من شيمة العالم العاقل »[٥] .

والواقع أن الأمرين متكاملين، لأن قلة الفقه من قلة الفقهاء والعكس صحيح، وعليه فإن النتيجة التي نتوصل إليها هي تنصيص الآية على أن الفقهاء حقا يمثلون الأقلية القليلة جدا، وهذا يطرح في الواقع تساؤلات عدة مثل: لماذا قل الفقهاء؟ وماذا يترتب عن ذلك؟ وهل يمكن استدراك هذا النقص؟ والقرآن نفسه يطرح هذا السؤال : ﴿ **فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً** ﴾ [النساء : ٧٨]

---

(١) الكشاف : ٣ / ٥٤٥ .

(٢) ناصر الدين بن المنير : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : على هامش الكشاف ٣ / ٥٤٦ – دار المعرفة ص : ٥٤٦ .

(٣) الجلالين: السابق ، السمرقندي : بحر العلوم ٣ / ٢٥٥، سليمان العجيلي الفتوحات الالهية ٧ / ٢١٧ .

(٤) الحسين بن مسعود البغوي : تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل ٤ / ١٧٤ .

(٥) محمد بن عمر نووي الجاوي: تفسير : الكشف عن معنى القرآن المجيد ٢ / ٤٢٧ .

النصوص التي استخدمت لفظ الفقه بصيغ مختلفة في القرآن ثمانية عشر نصا، بعضها يشير إلى دور انفتاح الذهن وحضور القلب في حصول الفقه، كما في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ انصرَفُوا صرفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٧]، وبعضها يشير لدور العقيدة كما في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** ﴾ [المنافقون: ٣]، وبعضها يشير لدور الإعراض عن العلم أصلا تكبرا وجهلا بقيمته، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ** ﴾ [الكهف: ٥٧].

فهناك إذن أسباب واضحة في مسألة حدوث الفقه أو انعدامه، يمكن حصرها في: الإرادة، والعقيدة،والاستعداد التربوي والنفسي.

وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية الأدوات التي تميز منهج الأقلية حتى يكونوا أفقه من غيرهم؟ وهذا يدعونا للحديث عن استخدام الأقلية لوسائل المعرفة.

● المبحث الثالث: طريقة استخدام الأقلية لوسائل المعرفة

وسائل المعرفة وأدواته في المنهج الإسلامي ثلاث بها يتجاوز النظرة السطحية التي لا تعرف من أمور الحياة الدنيا إلا ظاهرها، أما الباطن، وأما الآخرة فهما مما يحتاج لأدوات أقوى هي العقل والوحي، وقد رأينا كيف ينتقد القرآن الكفار بسبب تعطيل وسائل المعرفة بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٧٩].

وبمفهوم المخالفة فإن الأقلية هي التي تستخدم هذه الأدوات استخداما صحيحا لما فيه من التكامل بين الحس والعقل والنقل، وبهذا وحده يتحقق الرسوخ في العلم وهو الذي بين القرآن قيمته في الحياة البشرية لعاجلها وآجلها،

فقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢].

هكذا يقرر القرآن هذه الحقيقة: «الراسخون في العلم» أي الثابتون فيه، والمتعمقون في أدواته والمتمكنون من أصوله وفروعه، هم الذين يتوصلون إلى الحقيقة، ويُصدرون بشأنها أحكاما نافعة لأنفسهم ونافعة للبشرية من حولهم، وهذا الأمر واضح في علوم الطبيعة والحياة والتكنولوجيا وضوحا كبيرا، إذ لا يستطيع الجاهل بها أن يقدم للإنسانية شيئا ينفعها، وليس أدل على ذلك من الوضع الذي نعيشه اليوم بالنسبة إلى الغرب من هذه الناحية، كما أن ما يعيشه الغرب اليوم من ضلال في الدين بسبب غياب الراسخين في العلم الشرعي عندهم في هذا الجانب دليل واضح على أهمية العلم في وضع العقل الاجتماعي للأمة في المسار الصحيح.

إن الرسوخ في العلم ضرورة حتمية لإنقاذ البشرية من الضياع العقدي والخلقي أكثر مما هو ضروري لإنقاذها من التخلف التكنولوجي والاقتصادي، ذلك لأن «المنهج الصحيح في التلقي عن الله هو ألا يواجه العقل مقررات الدين الصحيحة بعد أن يدرك المقصود بها بمقررات له سابقة عليها كوّنها لنفسه من مقولاته المنطقية أو من ملاحظاته المحددة أو من تجاربه الناقصة، إنما المنهج الصحيح أن يتلقى النصوص الصحيحة، ويكوّن منها مقرراته هو، فهي أصح من مقرراته الذاتية، ومنهجا أقوم من منهجه الذاتي، قبل أن يضبط بموازين النظر الدينية الصحيحة، ومن ثم لا يحاكم العقل مقررات الدين متى صح عنده أنها من الله إلى أية مقررات أخرى من صنعه الخاص... إن له أن يعارض مفهوما عقليا بشريا للنص بمفهوم عقلي بشري آخر له، هذا مجاله ولا حرج عليه في هذا ولا حجر ما دام هناك من الأصول الصحيحة مجال للتأويل والأفهام المتعددة» (١).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٨٠٧

إن القرآن الكريم يضرب لنا أمثلة كثيرة عن الدور الذي يلعبه الجهل في تضليل البشرية حين يغيب عنها الراسخون في العلم ويتركون المجال للأحكام الظنية ، فعند غياب الراسخين في مجتمع اليهود والمسيحيين والعرب في الجاهلية نسب الجهلة لله ما يتنزه عنه سبحانه وتعالى علوا كبيرا إذ ﴿ **خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٠٠] والتعبير بالفعل﴿ **خَرَقُوا** ﴾ يبين نوع هذا الاختلاق الذي صنعته أفهامهم الجاهلة، حينما أدخلت نفسها في مجال يفوق مستوى المنهج العقلي وقياساته، إن دور العقل هنا هو «أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ﷺ، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين» (١)، وليس دور العقل هنا أن يقرر أو يحكم أو حتى أن يفترض، لأن المجال مجهول لديه تماما في مقدماته ومعطياته الأولية، وخارج حتى عن إطار التجربة ووضع الفرضيات، لأن الإنسان سيكون ذا عقل افتراضي فقط .

إن العقل إذا تجاوز مستواه دخل في دائرة المجاهيل ، ومن ثم يجب عليه أن يسلم زمام الأمور لآلية أخرى هي الوحي ، لأنه الأقدر على إمداد المعرفة البشرية بمعطيات صحيحة لبناء العقل ومنطقه بناء يتناسب مع هذا المجال، ولذلك نجد القرآن ينص على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ ٦] .

فالذين أوتوا العلم هم الذين يستطيعون أن يدركوا قيمة ما يتلى عليهم من حيث دلالته على الحق، ومن حيث إعجازه الجمالي الخارق للعادة.

ويقوم رسوخ العلم على خصوصيات منها التقوى واعتماد القنوات المعرفية الثلاثة من عقل وسمع وبصر، أي النظر والخبر والتجربة الحسية، ثم الابتعاد عن الظن واعتماد اليقين بقدر المستطاع

خصوصيات الراسخين في العلم : ويبدو أن القرآن الكريم حين يتحدث عن الراسخين في العلم ، إنما يتحدث عن نوع معين من العلماء توفرت فيهم خصوصيات ذات أثر كبير في تحديد مناهجهم وضبطه ، ومن ذلك يمكن أن نقف على :

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٨٠٦

(أ) التقوى: ويتجلى من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ [الأنفال: ٢٩] [١] أي إن تتقوا الله يتحقق لكم عقلا قادرا على التمييز لقدرته على الفهم للمقاصد كلها، وبذلك يجعل لكم مخرجا من الشبهات وتوفيقا وشرحا للصدور والعقول، وقوله: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢ مدنية]، قد جعل التقوى أساسا للتعلم الحق، وقد نبه ابن قيم الجوزية لهذا السبب بقوله: « لو طهُرتْ منا القلوبُ وصفت الأذهان وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجردت الهمم للتلقي عن الله تعالى ورسوله ﷺ لشاهدنا من معاني كلام الله عز وجل وأسراره وحكمه ما تعجز عنده العلوم، وتتلاشى عند معارف الحق، وبهذا يعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم رضي الله عنهم، وإن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته » [٢].

(ب) اعتماد القنوات المعرفية الثلاثة على الترتيب بحسب الأهمية؛ الوحي والتجربة والعقل طبقا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

إذ يفهم من ذلك أن المولى تبارك وتعالى قد زود الإنسان بثلاثة مناهج للمعرفة تجعل الإنسان عالما بقدر استعماله لها في الحس والعقل والوحي، والحال أن الناس قد تجاهلوا الوحي قصدا فضاعت على أكثرهم معارف كثيرة يعجز عن إدراكها بالحس والعقل، وقد نبه الرسول ﷺ على هذه الحقيقة بحديث جامع ركز فيه على الكثرة التي انتفى عليها العلم فقال: (الحلال بيِّن والحرام بيِّن

---

(١) من معانيها: « يجعل لكم مخرجا من الشبهات وتوثيقا وشرحا للصدور » الزمخشري ٢/ ١٥٤

(٢) الأمثال في القرآن الكريم ٢٣٥ - ٢٣٦

وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا إن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[١]، قال ابن حجر :« مفهوم قوله « كثير »أن معرفة حكمها ممكن لكن للقليل من الناس وهم المجتهدون، فالشبهات على هذا في حق غيرهم، وقد تقع لهم حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين » [٢] ثم أضاف « يختلف ذلك باختلاف الناس فالعالم الفطن لا يخفى عليه تمييز الحكم فلا يقع له ذلك إلا في الاستكثار من المباح أو المكروه كما تقرر قبل، ودونه تقع له الشبهة في جميع ما ذكر بحسب اختلاف الأحوال، ولا يخفى أن المستكثر من المكروه تصير فيه جرأة على ارتكاب المنهي في الجهلة أو يحمله اعتياده ارتكاب المنهي المحرم إذا كان من جنسه أو يكون ذلك لشبهة وهو أن من تعاطى ما نهي عنه يصير مظلم القلب لفقدان نور الورع فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه »[٣] ثم أضاف : « وخص القلب بذلك لأنه أمير الجوارح، وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم القلب والحق على صلاحه ...والمراد المتعلق به من الفهم الذي ركبه الله فيه ويستدل على أن العقل في القلب ومنه قوله تعالى ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ .. أي عقل، وعبر عنه بالقلب لأنه محل استقراره »[٤].

إن الحديث عن تكامل الأدوات المنهجية الثلاث يدعونا إلى ضرورة الوقوف على ما يؤول إليه ذلك التكامل من وعي حقيقي يجعله الحديث النبوي فرقا جوهريا بين الوعي الحقيقي الذي هو الفقه وبين الوعي المزيف، ويمثل له بزمانين،

---

(١) صحيح البخاري : باب فضل من استبرأ لدينه الحديث رقم ٥٢

(٢) فتح الباري ١ /١٢٧

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١ /١٢٧ – ١٢٨

(٤) نفسه ١٢٩ – ١٣٠

زمان أنتج أبابكر وعمر وعثمان وعليا وابن مسعود وابن عباس وزمان يكثر فيه طلاب العلم بدون حصول وعي ولعله ينطبق على زماننا بشكل واضح.

● **الفرق بين زمان طلب العلم وزمان طلب الفقه:**

قد يتبين لنا الفرق واضحا بين الزمانين في حديث للرسول ﷺ جاء فيه «إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه ... يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم ... وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده ... يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم» (١) ويعززه حديث آخر فرق بين الزمانين باعتبار الخطابة والفقه هوحديث الرسول ﷺ: «إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى، أو قال هلك، وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا»(٢).

ففي الحديثين إشارة هامة جدا بخصوص زمان قلة الفقهاء وزمان كثرة الفقهاء، وعلاقة ذلك بزمان كثرة القراءة والتفوه الخطابي وزمان قلتهما، بحيث نرى النموذج الأول الذي يكثر فيه الفقهاء يحدث في زمن الرسول ﷺ، ومعنى ذلك أن الفقه يحدث نتيجة التلقي المباشر عن المعلم الأول للبشرية، هذا المعلم الذي يتلقى بدوره مباشرة عن جبريل عن الحق تبارك وتعالى، فحالة تعليميَّة كهذه تعتبر حالة علم الفقه والفهم الذي يتجاوز مجرد القراءة السطحية إلى طلب العلم من مصادره، مما يورث المعرفة اليقينية بشؤون الحياة الدنيا والآخرة، وهذا حدث فقط في زمن الرسول ﷺ، لذلك كثر فقهاؤه وقل قراؤه، «إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه». كما كثر فقهاؤه وقل خطباؤه «إنكم في زمان علماؤه كثير، خطباؤه قليل».

---

(١) الموطأ: وانظر الموافقات ٢/١٧٣

(٢) مسند الإمام أحمد: ج ٥ ص ١٥٥.

وهكذا يتجاوز المجتمع النبوي مرحلة الوعي المزيف إلى مرحلة الوعي الحقيقي الذي أطلق عليه مصطلح الفقه، وقد أشرنا في أكثر من موضع إلى آثار الوعي الفقهي في مقابل الوعي المزيف [1] .

والنموذج الثاني الذي يتضمنه الحديث هو الزمن الذي يكثر فيه طلاب المعرفة لكنها معرفة بدون فقه في الغالب، فقال بشأنه: « وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده »، وهو أيضا زمان الخطابة الجوفاء « وسيأتي على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا »

هذا النموذج يشكل نسبة كبيرة من القراء الذين لا يطلبون العلم من أجل الفقه، ولكن يطلبونه من أجل أمور أخرى ذات طابع مظهري في الغالب، كما يشكل نسبة كبيرة من الخطباء المتفيهقين، ولذلك لا يهمهم حصول الفقه بقدر ما يهمهم حصول المظهر.

والفرق الجوهري بين النمطين يكمن في الهدف الذي يتم من أجله طلب العلم، وإلقاء الخطب،فحين يكون العلم للتطبيق، والخطابة للإصلاح، فإنه لايتم إلا بحصول الفقه لذلك يكون أكثر إفادة حين يكون من مصادره التي تطبقه قبل أن تعلمه، لأنه القدوة في التطبيق، لذلك يتم التعلم مرتبطا بالتفقه.وهو المشار إليه في الحديث السابق بقوله ﷺ« تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه، يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم » وقوله: « من ترك فيه عشر ما يعلم هوى، أو قال هلك »

أما حين يكون العلم للمظهر فإن طالبه لا يهمه المصدر والمعلم إنما يهمه المظهر وهذا صفته هي: « كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده، يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » ، وفي هذه الحال يصبح « من تمسك بعشر ما يعلم نجا »

---

(١) انظر البحث: باب٣ : ص: ١٧٧

فالمشكلة الأساسية هي تدخل الأهواء والأنانية وحب الذات هنا بشكل سافر لتملي نفسها في الواقع على حساب الحقيقة العلمية مما يؤدي إلى آثار سلبية، تتمثل في التطبيق غير السليم الذي يعد غيابه أحيانا أفضل منه لأنه يشوه الحقيقة ، لذلك كان الشيخ الغزالي رحمه الله يقول: نحن الآن شوهنا الإسلام فلا نحن أحسنَّا تطبيقه ليكون مثلا للقدوة، ولا نحن تركناه ليكون موضع بحث الجادين من الخلق ليكتشفوا من جديد قوة تأثيره في الحياة فيأخذوا به.

(ج) اعتماد اليقين والابتعاد عن الظن :لقول الله تعالى :﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾[يونس : ٣٦] فالفقه لا يستقيم معه الظن لأن الفقه يتطلب الدقة في الفهم(١) وهذا لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة إلا على اليقين، ولهذا كثرت الأحاديث التي تؤكد ضرورة تجنب الظن في ما يجب أن يبنى على اليقين، كقوله ﷺ « إن أفرى الفري أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا »(٢)، وقوله : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » (٣) وقوله: « بئس مطية الرجل زعموا » (٤).

● **خلاصة القول :**

إن النصوص التي تحدثت عن الأقلية في المجال المعرفي قدمت صورة مكتملة، تكشف عن جانبين من جوانب المعرفة عند هذه الفئة هما : العلم والفقه أما العلم فقد بينت آيات الكهف أنه سمة الأقلية، ممن أنعم الله عليهم بسبب ما قدموه من مجاهدة للنفس وتقوى الضمير، فصار إدراكهم للأشياء والحياة وأمور الآخرة إدراكا ناضجا.

---

(١) خليفة بابكر الحسن دراسات في أصول الفقه : ص ١٠

(٢) صحيح البخاري : رقم: ٧٠٤٣-٣٥٠٩

(٣)صحيح البخاري:٣/ ١٥٥٩ ، ٥/ ١٩٧٦صحيح مسلم: ٤/ ١٩٨٥

(٤) سنن أبي داود: ٤/ ٢٩٤

وأما الفقه فقد تميز به خلاصة الخلاصة من المؤمنين الذين وصلوا درجة عالية من الفهم للعلاقة بين الوقائع والأحداث والتشريعات، لم يكن في مستطاع غيرهم من الأكثرية بلوغها مما أدى إلى بون شاسع بين تفسيرات هؤلاء المؤمنين الفقهاء وتفسيرات أولئك الذين عطلوا مداركهم بسبب إقبالهم على عَرَض الحياة الدنيا، فلم يفهموها إلا في زاوية ضيقة عبر عنها القرآن بقوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾[الروم : ٧]. وعلى حد تعبير سيد قطب : فإن «لذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود، و لا يتصل حسه بالنواميس والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى، ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكنه لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها».

واكثر الناس كذلك، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة بأسرار الوجود، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك أسرار الوجود. والمؤمنون هذا الإيمان قلة في مجموع الناس ومن ثم تظل الأكثرية محجوبة عن المعرفة الحقيقية(١).

تلك المعرفة التي عليها ينبغي أن تبني نظرية المعرفة في الحقل الإسلامي كله، لأن نظرية المعرفة الحقة إنما هي تلك التي تنطلق من الوحي الصحيح وتعتمده المرجعية في كل ما تبدعه البشرية عن طريق بقية القنوات المعرفية من تجربة مادية وتجربة اعتبارية وتأمل عقلي استنباطي، فإن جنح العقل البشري إلي داذرة البحث التي تتنكر للوحي فقد جنح إلى طرق الضلال فضل عن السبيل التي لا يمكن السير فيها إلا بنور الوحي، وهذا هو الذي نبه عليه القرآن في أول سورة نزلت فقال تعالي: ﴿ **قْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[العلق : ١-٥] فالوحي هو القناة الوحيدة التي تزود الإنسان بالمعرفة التي يستحيل الوقوف عليها

---

(١) في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٥٨

بالعقل والتجربة وحدهما، والوحي هو الذي يزود الإنسان بالمبادئ الأساسية التي تحكم نظرية المعرفة البشرية، ولهذا كانت نظرية المعرفة الإسلامية ملكا للأقلية، بينما حرمت الأكثرية نفسها من النور استكبارا في الأرض وغرورا بالنفس، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥١-٥٢] .

* * *

الباب الثالث

الأكثرية والأقلية على مستوى الموقف من الحق

● **توطئة :**

العلاقة بين المعرفة والمواقف علاقة وطيدة، إذ تعد مواقف الناس من الأشياء والأحداث والأشخاص والأفكار تابعة لمستوى معرفتهم بملابساتها، وذلك لأن موقف الإنسان من الشيء إنما هو ترجمة حقيقية لحبه له أو كرهه إياه، وهو يحب ويكره تبعا لما يعرفه عن الشيء من الأسباب المحببة أو المنفرة والمكرهة ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾[الحجرات : ٧] .

ولعل هذا الترابط بين المعرفة والموقف هو الذي جعل النصوص القرآنية تعبر عن العقل في الغالب بالقلب، إذ ليس لذلك من تفسير سوى أن القلب هو مستقر ردود الأفعال العقدية والسلوكية، والعقل هو الآلة المدركة للحقائق، ومن ثم كان التداخل بينهما كبيراً جداً، فعبر القرآن عن العقل بما يؤول إليه أمر المعقول في مستقره وهو القلب، ويمكن تشكيل حركة عملية الإدراك كما يلي :

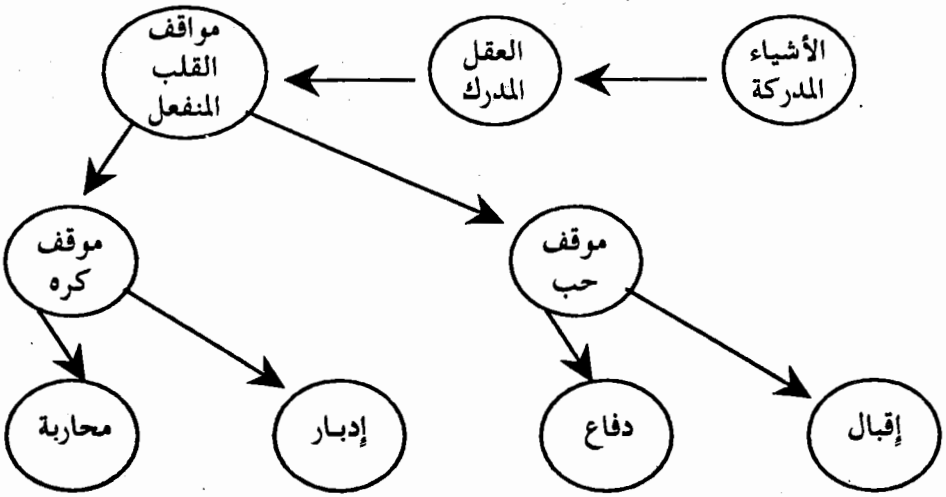

فالأشياء المدركة موجودة خارج الذات الإنسانية ثم يدركها العقل ويتعرف عليها، ثم يحدد القلب موقفه منها حبا أو كرها ليمهد الطريق للسلوك إقبالا أو إدبارا، دفاعا أو محاربة، ومعناه أن الموقف العاطفي هو الحلقة ماقبل الأخيرة في السلوك البشري، وأنه أساسي، وأنه مبني على طبيعة الإدراك ومستواه من العمق والسطحية والخطإ والصواب، ولكن القلب أو النفس لا يمكنها أن تصدر حكما سليما إلا إذا كانت سوية: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .

ويمكن أن نتساءل بادئ ذي بدء عن طبيعة المواقف التي تصدر عن الأقلية والأكثرية بخصوص الحق، ويمكن أن نسبق الأحداث هنا بناء على الاستقراء الأولي للنصوص لنقول إن التحليل العلمي للآيات سيفضي بنا من خلال المباحث المقبلة ومطالبها إلى أن كلمة الحق وردت بالصيغة المعرفة وحدها ١٠٩ مرات، فضلا عن الاشتقاقات، وإلى أن مواقف الأكثرية من الحق سلبية، بينما كانت مواقف الأقلية إيجابية، فهي مختلفة عن مواقف الأكثرية اختلافا جذريًا، مما يدعم التفسير الذي فسرنا به كون الأغلبية من أهل الكفر، والأقلية من أهل الإيمان وما إلى ذلك، ولكن البحث سيتناول بشيء من العمق الأسباب التي تدفع الأغلبية من الناس إلى هذه المواقف السلبية التي تقفها من الحق، مع ما يهيئها لها من أسباب الراحة والطمأنينة على جميع الأصعدة، العقدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية إذا التزمته، وتمسكت به.

* * *

الفصل الأول
موقف الأكثرية من الحق

إن الآيات القرآنية التي تكشف عن موقف الأكثرية من الحق سبع آيات، موزعة على سبع سور مكية كلها إلا واحدة فمدنية ، والآيات هي :

١ - ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨] .

٢- ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون ٦٨ : ٧١] .

٣ - ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥] .

٤ - ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

٥ - ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[يونس: ٣٥ - ٣٦ مكية] .

٦ ـ ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣ مكية] .

٧ ـ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ [الكهف : ٥٤ مكية] .

عند تأمل هذه الآيات السبع نجدها تتحدث عن موقف الأكثرية من الحق، لكن ليست كلها سواء، فبعضها يتناول الموقف العاطفي الذي هو الكره للحق، كما في آية (الزخرف) وآية (المؤمنون)، وبعضها يكشف عن السلوك الذي تسلكه الأكثرية بخصوص إخفاء الحقيقية، كما في آية (المائدة) وآية (الأنعام)، والنوع الثالث يترجم السلوك العقلي الذي تستخدمه الأكثرية بخصوص دراسة مشكلة الحقيقة، بحيث نجد الأغلبية لا تعتمد الظن فقط كأسلوب لوضع الاحتمالات ولكن تتبع الظن كقاعدة في البناء الفكري حينا، وتعتمد الكذب أخرى، وتكثر من الجدل ثالثة .

وعلى هذا فإن هذا الفصل ينبغي أن يقسم إلى ثلاثة مباحث :

١ ـ المبحث الأول : الموقف العاطفي من مشكلة الحق :

لقد قلنا إن الموقف العاطفي هو الحلقة ما قبل الأخيرة بالنسبة للمراحل التي يتخذها الناس في جميع المدركات، فهي حلقة تأتي بعد الفهم الذي ينهض به العقل المدرك وقبل السلوك الذي ينبثق عن الإنسان تبعا للموقف العاطفي فيكون عند الحب إقبالا أو دفاعا، ويكون عند الكره إدبارا أو محاربة.

والآيتان اللتان تعبران باللفظ الصريح عن موقف الأكثرية من الحق هما :

(أ) ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[الزخرف : ٧٤ ـ ٧٨] .

فهذه الآية محورية بالنسبة للفصل، وهي وصف دقيق لوضع المجرمين يوم القيامة، تبين خلودهم في عذاب جهنم بسبب كفرهم وما ينبثق عنه من فساد وإجرام، لأن المراد بالمجرمين هم الكفار بدليل مقابلتهم بالمؤمنين في الآية السابقة من سورة الزخرف [1]، وتصور يأسهم من الخروج من النار فهم في العذاب مبلسون، أي يائسون من كل خير عندما اكتشفوا نتائج أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم، واستنتجوا من ذلك أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم، ولم يعد أمامهم من سبيل سوى أن يتمنوا الموت ليتخلصوا من العذاب المهين ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ [الزخرف:٧٧] ، وكان الجواب عن ذلك التمني والنداء مشيرا لأمرين:

أحدهما : أن المجرمين سيمكثون في ذلك العذاب ويخلدون فيه، ﴿ **قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾[الزخرف:٧٧].

وثانيهما : بيان موقفهم الغريب من الحق ﴿ **لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾[الزخرف:٧٨] .

وهو موقف يترجم طبيعة عاطفتهم إزاء الحق، فهم كارهون له، والتعبير بالاسم عن الفعل العاطفي للدلالة على ثبات ذلك الموقف، يقول الرازي : هذا كالعلة لما ذكر والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن، وشدة بغضهم لقبول الدين الحق[2] ، وقال الزمخشري : « كارهون قبوله وتنفرون منه وتشمئزون منه لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب » [3] .

وبهذا يتبين أن الآية تبين موقف الأكثرية من الحق، فهو موقف كره واشمئزاز يستتبع بالضرورة النفور من الحق والوقوف إلى جانب الباطل اعتقادا وسلوكا، مما يفسر تسمية هؤلاء بالمجرمين .

---

(١) الصاوي : حاشية الصاوي ٤ / ٥٤ وانظر صفوة التفاسير ٣ / ١٦٤

(٢) الرازي : التفسير الكبير ٢٧ / ٢٢٧

(٣) الكشاف : ٣ / ٤٩٩

فالسبب في النفور من الحق كفعل غريب عن المنطق السليم هو الموقف العاطفي، أي أن «كراهية الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه، لا عدم إدراك أنه الحق، ولا الشك في صدق الرسول الكريم، فما عهدوا عليه كذبا قط على الناس، فكيف يكذب على الله ويدعي عليه ما يدعيه؟.

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه حق، ولكنهم يكرهونه، لأنه يصادم أهواءهم، ويقف في طريق شهواتهم، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم، ولكنهم أجرأ على الحق وعلى دعاته، فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق، والاجتراء على الدعاة»(١) .

وعلى الجملة فإن آية الزخرف كانت تقدم وصفا للمجرمين في جهنم، ثم تعقب عليه بتعليل تمثل في بيان موقف الأكثرية من أهل النار من الحق، حيث كان موقفا سلبيا أدى إلى كراهة الحق، فماذا تحمل الآية الثانية ؟

(ب) ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون ٦٨ : ٧١] .

آيات سورة (المؤمنون) هذه تتوجه بالحديث إلى الناس بدءا من قريش التي كانت أعرف الناس بطبيعة القرآن لنزوله بلغتها إلى الناس كافة، لأنهم بحكم الفطرة يعرفون طبيعة خطاب هذا الكتاب وأنه ليس من وضع البشر ولا يمكن أن يكون كذلك، وتطرح عدة تساؤلات من شأنها أن تخلخل جمود منطق البشرية للتأمل، ثم يأتي الإضراب كجواب على تلك الأسئلة ليحدد موضع المرض ﴿ **بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾[المؤمنون : ٧٠]، وهكذا يتبين لقارئ

---

(١) قطب : في ظلال القرآن ٢٥ / ٣٢٠٢

هذه الآيات أن موقف أغلب الإنسانية من الحق هو موقف كراهة، تماما كما رأينا في الآية السابقة، يقول الشيخ بيوض : «والله تعالى بقوله : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٠] يريد أن يبين لنا طبيعة من طباع البشر إذ هو خالقهم، وهو الذي ركز فيهم الطباع والغرائز، بأن هنالك أناسا وهم الكثيرون يفهمون الحق ولكنهم يكرهونه ولا يتبعونه، لأنه لايوافق الأهواء والشهوات والغرائز، وهنا يكمن السر، وهذا الذي ينبغي أن نتوقف فيه كثيرا لندرك هذه الحقيقة .

إذن لا بد من البحث عن سبب هذه الكراهية، لأن المنطق يقتضي على من فهم الحق أن يتبعه، وإذا اتبع الحق وجب عليه أن يترك ما كان عليه من باطل، وما كان يأتيه من شر وظلم وفساد إذ يجب عليه أن يكلف نفسه حسب مقتضى الحق»(١) .

ومن هنا وجب أن نتساءل :

١ـ لماذا لا يتبع الناس الحق ؟ أ لأنه صعب ؟ أم لأنهم يكرهونه ؟

٢ـ إن كان صعبا فما صعوبته ؟ وإن كانوا يكرهونه فما سبب كراهيتهم له؟

٣ ـ هل يمكن أن يكون سبب الكره للحق هو الجهل بآثاره ؟

٤ ـ أ لا يمكن أن يكون الحق مكروها لأنه يكشف للناس حقيقتهم ويعريهم أمام الملأ؟

٥ ـ وقبل ذلك كله ما المقصود بالحق ؟ وهل يمكن حصره بمنهج واحد ؟

الإجابة عن هذه التساؤلات تقتضي بيان معنى الحق والفرق بين الحقيقة والواقع إذ أن المناهج المختلفة كما رأينا سابقا تفرض علينا تحديد ذلك حتى نعرف طبيعة المنهج الذي يمكن استخدامه للوقوف عليها، وقد نبه الألوسي على أن مفهوم الحق هنا قد يكون موضع خلاف، قال مبينا الفرق بين معنى كلمة الحق في

---

(١) الشيخ بيوض : في رحاب القرآن ٥ / ١٩٩ـ٢٠٠

الموضعين الآتيين من قوله تعالى :﴿ **بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾[المؤمنون : ٧٠] «اللام في الأول للعهد وفي الثاني للاستغراق أو للجنس أي وأكثرهم للحق ـ أي حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبئ عنه الإظهار ـ كارهون، وتخصيص أكثرهم بهذا الوصف لا يقتضي الإعدام كراهة بعضهم لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحق، وفيه بحث إذ لا يكاد يسلم أن أكثرهم كارهون لكل حق»[1] وقال ابن عاشور : «كل ما جاء به الرسول ﷺ يومئذ هو الموافق لمقتضى نظام العمران الذي خلق الله عليه العالم فهو الحق »[2] كما قال : ﴿ **مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ [الدخان : ٣٩] .

إن الحقيقة على المستوى المادي تكمن في وجود الشيء والإحساس بوجوده وجودا عينيا أو سمعيا أو حسيا، وقد استخدم الإنسان المنهج الحسي لإدراك حقائق الأشياء من زمان، وصارت الحقائق المادية اليوم محل إجماع كثير من العلماء الأكفاء كالتأكد من كروية الأرض وكون اليابسة أقل من البحر بكثير . . ، بل لقد تمكن العلم التجريبي من أن يضع كثيرا من القوانين التي تفرض نفسها على جميع الناس من الناحية العملية، وبذلك استولى المنهج التجريبي على قسط وافر من مجال الحقيقة المادية التي يمكن التعبير عنها في صيغة إحصائية ورياضية والتي يمكن التحقق منها عن طريق التجربة .

ولكن في الوقت نفسه اعترف المنهج التجريبي أنه لا يملك الإجابة عن الحقيقة غير الحسية فذكر (كانت) أن معرفة الإنسان الحسية لا تتجاوز الظواهر، والعقل لا يعطينا أي حدس قبلي، بل دوره يقتصر على تنظيم معطيات التجربة الحسية التي يقدمها له الحدس الحسي حتى إذا حاول القيام بالتنظيم خارج نطاق التجربة الحسية راح يعمل في الفراغ، وهذا الأمر تؤكده في الحقيقة آيات قرآنية كثيرة كقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم : ٧] وقد بينا ذلك في الفصل المتعلق بالمعرفة .

---

(١) الألوسي : روح المعاني : ١٨ / ٥٢

(٢) التحرير والتنوير ١٨ / ٩٠

ولما كانت الحقيقة تتجاوز الماديات إلى المجردات، وكان المنهج التجريبي عاجزا عن ذلك، فإن الإنسان بحاجة إلى معرفة الحقيقة بوسائل أخرى، لذلك لا بد من استخدام مناهج أصلح للحقيقة، ومنها العقل، ولكن العقل يستمد مادته الخام من المعطيات الحسية أو الأفكار المسبقة التي كثيرا ما تكون بعيدة عن الحقيقة، لذلك ركز أصحاب هذا المنهج على أن الحقيقة تتمثل في عدم تناقض الفكر مع نفسه، ولما كان ذلك صعبا فقد ذهب الشكاك من أصحاب هذا المنهج إلى أن العقل لا يستطيع أن يبلغ أي حقيقة بصفة يقينية، وبالتالي يتعين عليه أن يعلق الحكم سواء كان إثباتا أم نفيا، وهكذا تبقى الحقيقة في التيه، ولعل الغزالي حين شك في قيمة المعرفة الحسية ثم تدرج إلى الشك في قيمة المعرفة العقلية؛ لأنها محدودة وعاجزة عن بلوغ حقيقة الحقائق كان محقا، إذا ما نظرنا إلى وجهة النظر التي تريد أن تعرف الحقائق كلها بمنهج واحد، لا سيما حينما نرى الفلاسفة بعده يشكون في شهادة الحواس كما فعل (ديكارت) مثلا أو كما فعل اليونانيون من قبل حينما أصروا على ضرورة الشك في العقل لاعتبارات خمس منها تناقض الفلاسفة فيما بينهم، والتراجع إلى غير نهاية في البرهان العقلي، وضرورة التسليم بالمصادرات أي اتخاذ بعض المبادئ مسلمات للانطلاق، والبرهان الدوري الذي تقوم فيه النتيجة على المقدمات والمقدمات على النتائج وكذا نسبية الأحكام، إذ الشيء الواحد يبدو مختلفا لأناس كثيرين .

وهكذا يتبين لنا أن العقل لا يملك القدرة على معرفة الحقيقة إلا في حدود ما تزوده به بقية المناهج من خبرات حسية أو نقلية، ومن ثم فإن المنهج العقلي محدود في تحصيل الحقائق لأنه يقوم على غيره.

ويبقى أن نعرف أن الحقيقة المطلقة لا يعلمها إلا الله، ومن ثم يبقى الطريق إليها هو المنهج النقلي أو المنهج الاعتباري كما سبق القول في أكثر من موضع.

ومعنى ذلك أن الوحي هو الطريق الأمثل لمعرفة الحقائق التي يعجز الإنسان عن الوصول إليها بواسطة التجربة والاستنباط العقلي، بما في ذلك الحقائق الحسية التي لم يسيطر الإنسان بعد على الوسائل التي تمكنه من إجراء التجربة عليها لمعرفتها.

ومن هنا لا بد أن نتساءل من جديد، لماذا تكره الأكثرية الحق ؟

إن المفسرين حينما توقفوا عند الآية ﴿ **بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾[المؤمنون: ٧٠] ذكروا أسبابا مختلفة، فالقرطبي مثلا يرى أن ذلك كان بسبب الحسد والبغي والتقليد [١]، والزمخشري يرى أن الحق يُكره لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب[٢] ، والصابوني يرى أنهم يكرهونه لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف، وقطب يرى في موضع أن سبب الكره هو مصادمة الحق لأهوائهم ووقوفه في طريق شهواتهم، ويضيف في موضع آخر أن كرههم للحق يعود لسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون [٣]، وابن عاشور يرى أن « طباعهم تأنف الحق الذي يخالف هواهم لما تخلقوا به من الشرك وإتيان الفواحش والظلم والكبر والغضب وأفانين الفساد بله ما هم عليه من فساد الاعتقاد بالإشراك وما يتبعه من الأعمال ...، فلا جرم كانوا بذلك يكرهون الحق لأن جنس الحق يجافي هذه الطباع »[٤]. والزحيلي يرى أن « أكثرهم كارهون لهذا الحق لتأصل الشرك في قلوبهم وتمسكهم بتقليد الآباء والأجداد وحفاظهم على المناصب ومراكز الزعامة والرياسة وإنما قال (أكثرهم) لأن بعضا منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء وتخوفا من توبيخ القوم وتعييرهم، لا كراهة للحق كما حكي عن أبي طالب »[٥]، وأبو بكر جابر الجزائري يرى أن كراهية الأكثرية للحق تعود إلى « طول ما ألفوا الباطل وعاشوا عليه، وهذه سنة البشر في كل زمان ومكان »[٦] ، والبقاعي يرى أنهم للحق كارهون متابعة للأهواء الرديئة والشهوات البهيمية عنادا، وبعضهم يتركونه جهلا وتقليدا أو خوفا من أن يقال صبأ، وبعضهم يتبعه توفيقا ... من الله وتأييدا، فلو تركوا الكره لأحبوه، ولو أحبوه لاتبعوه ولو اتبعوه

---

(١) القرطبي : ١٢ / ١٤٠ .
(٢) الكشاف ٣ / ٤٩٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٥ / ٢ / ٣٢٠٢ .
(٤) التحرير والتنوير ١٨ / ٩١ .
(٥) وهبة الزحيلي : التفسير المنير .
(٦) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٣ / ٨٢٥ .

لانصلحوا وأصلحوا [1]، والشيخ بيوض يرجع كره الأكثرية للحق إلى أسباب عدة منها حرمانهم مما هم فيه من بطش وسلطان، وخوفهم على شهواتهم وأهوائهم وتقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم البالية، ومنها الطباع التي تطبع الناس عليها، ومنها مخالفته معتقداتهم الباطلة، ومصادمته لميولهم لا سيما الكبار منهم لفساد فطرتهم واستيلاء الران على قلوبهم [2]، والألوسي في روح المعاني يرجع السبب إلى فساد العقول [3] .

إن هذه الآراء المختلفة حينا، والمتفقة أخرى في بيان سبب كره الأكثرية للحق تدعونا إلى أن ننظم الأسباب لنبرزها بشكل أوضح كي نصل في النهاية إلى نتائج واضحة، فنحن إذا تأملنا تلك الآراء انكشفت لنا عدة أسباب وليس سببا واحدا، ويمكن جمع تلك الأسباب في مايلي :

(أ) الجهل والوعي المزيف : لا شك أن العلم بالشيء كثيرا ما يحدد طبيعة الحكم عليه حبا أو كرها وإذا كان العلماء أكثر الناس خشية لله وحبًّا له كما نصت الآيات على ذلك ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨]، ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾[آل عمران: ٧]، فإن ذلك دليل قطعي على دور العلم في حب الحق، قال الزمخشري: «إنما يخشاه .. من عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه» [4]. وإذا كان العلماء أكثر خشية وإيمانا وحبًّا لله، فإن الجهل بالتأكيد يؤدي إلى النقيض من ذلك، حتى قيل: « من جهل شيئا عاداه » .

وعليه فإن الجهل بالحق أحد أهم أسباب معاداته، وأحسب أن العرب ما سموا فترتهم التاريخية قبل الإسلام بالجاهلية إلا بسبب انتفاء العلم بالحق قبل نزول القرآن .

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ٥ / ٢١٣

(٢) بيوض : في رحاب القرآن ٥ /١٩٧-٢٠٠-٢٠١-٢٠٢-٢٠٣

(٣) الألوسي : روح المعاني ١٨-٥٣

(٤) الكشاف : ٣ / ٣٠٨

ومن الغريب أن نجد المفسرين في آرائهم السابقة لا يركزون على الجهل كسبب، فلم نجد من علمائنا من يرجع سبب كره الحق إلى الجهل سوى البقاعي الذي ذكر أن « بعضهم يتركونه جهلا »[1] والألوسي الذي رده إلى فساد عقولهم[2].

بل إن من المفسرين من رفض فكرة الجهل تماما، كالشيخ بيوض الذي قال: « وما ذكرت هذا إلا لنتصور شدة كراهية هؤلاء وأمثالهم للحق إذ جاءهم، فهم قد أدركوا الحق وفهموه، وأثر عليهم القرآن ببيانه، ولكنهم يكفرون بما فيه جحودا، لأنه يبطل كل عاداتهم الجاهلية، وبين جهل الحق وكراهية الحق فرق كبير، يقول الله تعالى فيهم ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ [النمل: ١٤] »[3]، ويقول بيوض في موضع آخر « ولهذا فإن الذين يكرهون الحق لم يكرهوه لأنهم لم يفهموه، بل فهموه وكرهوه »[4]، ولكن الشيخ بيوض يقول بعد ذلك: « إن الإنسان إذا أدرك الحق وفهمه فإنه لا بد أن يعمل به، لأنه إذا أدركه ولم يعمل به يعاب عند الناس، ويعيش معذب الضمير، وعليه فمن أول مرة لا يسمع الحق ولا يفهمه »[5].

وهذا الكلام يكشف عن أمر هام وهو أن نفي الجهل ليس صحيحا، وإنما هناك أمر وسبب آخر أقوى من العلم في دفع الإنسان عن اتباع الحق وهو العناد والحرص على المكاسب الدنيوية.

ومعنى ذلك أن ذلك الفهم ليس فهما صحيحا للحياة، ينم عن وعي سليم بأصولها، وإنما هو وعي مزيف لا يقوى على دفع الأهواء ليتمكن العقل من الحكم الصحيح، والقلبُ من الميل المبني على الأحكام السليمة، فالمشكلة إذن مشكلة فساد العقل كما قال الألوسي، فإذا ساد الوعي المزيف أو الجهل كانت النتيجة في

---

(١) نظم الدرر: ٥/٢١٣
(٢) روح المعاني ١٨/٥٣
(٣) في رحاب القرآن ٥/١٩٩
(٤) نفسه ٥/٢٠١
(٥) في رحاب القرآن ٥/٢٠٦

الغالب شيئا واحدا، بل يمكن القول أن داء الجهل أهون من الوعي والفهم المزيفين، أما إذا تشكل الوعي الصحيح للحقائق فإن الناس سيتَّبعون بدون شك الحق؛ لأنهم سيحبونه عندئذ وسيتفانون من أجله .

وقد عبرت الثقافة الإسلامية عن هذا الوعي الصحيح بمصطلح « الفقه »، فجاء في حديث الرسول ﷺ كما مر بنا قوله « إنك في زمان كثير فقهاؤه، قليل قراؤه تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه ... يبدءون أعمالهم قبل أهوائهم ... وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده ... يبدءون فيه أهواءهم قبل أعمالهم » (١) .

فالفرق بين الزمانين فرق بين الوعي الصحيح الذي حصل زمن الرسول ﷺ يوم كان معظم الناس يستعينون على حفظ القرآن بالعمل به وفهمه، لقد كان ذلك الزمان « كثير فقهاؤه »، أولئك الفقهاء الذين يتجاوزون الفهم الصحيح إلى العمل الصادق السليم، مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وخديجة وعائشة وفاطمة بنت محمد ﷺ، هذا الزمان كان زمن الفقه والوعي بحدود القرآن فكانوا يحفظونها حق الحفظ بالأعمال والأقوال حتى أن القرآن كان ينزل أحيانا موافقا لرأيهم .

أما الوعي المتأخر فهو في الغالب وعي مزيف « قليل فقهاؤه »، وعلى الرغم من أن القراء كثيرون إلا أن قراءتهم لم تتعد حفظ الحروف، لكنها كثيرا ما تضيع الحدود والأحكام باتباع الأهواء. وهكذا يتجلى لنا أن العلم الحق من شأنه أن يصل إلى الوضوح والصدق وهما معياران أساسيان لاتباع الحق وحبه .

(ب) الأهواء :

معظم المفسرين يرد سبب كره الأكثرية للحق إلى الضغوط النفسية التي تمارسها الأهواء والميول والرغبات والأغراض والمصالح على العقول والقلوب، بل إن بعض العلماء مثل الشاطبي يجعل الأهواء ضد الحق في قوله :« وأصل ذلك ـ أي

---

(١) الموطأ : وانظر الموافقات ٢ / ١٧٣

مخالفة أمر الله والإعراض عنه ـ اتباع الهوى والانقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة، فقد جعل الله اتباع الهوى مضادا للحق، وعده قسيما له كما في قوله تعالى : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص :٢٦] وقوله ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[النجم:٣ ـ ٤] ... فقد حصر الأمر في شيئين الوحي وهو العقيدة و الشريعة والهوى فلا ثالث لهما، وإذا كانا كذلك فهما متضادان، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده فاتباع الهوى مضاد للحق »[١] .

بل إن الشاطبي يجعل « المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا »[٢] ، ويجعل « المصالح المجتلبة شرعا والمفاسد المستدفعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية والدليل على ذلك أمور :

أحدها أن الشريعة إنما جاءت لتخرج المكلفين عن دواعي أهوائهم حتى يكونوا عبادا لله وهذا المعنى إذا ثبت لا يجتمع مع فرض أن يكون وضع الشريعة على وفق أهواء النفوس وطلب منافعها العاجلة كيف كانت وقد قال ربنا سبحانه ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١] »[٣] ، وأكد في موضع آخر أن « المعتبر إنما هو الأمر الأعظم، وهو جهة المصلحة التي هي عماد الدين والدنيا لا من حيث أهواء النفوس »[٤]، وبين أن « اتباع الهوى طريق إلى المذموم وإن جاء في ضمن المحمود لأنه ... سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي لأنه مضاد لها وأنه (الهوى) إذا اتبع واعتيد ربما

---

(١) الموافقات ٢/١٦٩ دار المعرفة بيروت
(٢) نفسه ٢ / ١٦٨
(٣) نفسه ٢ / ٣٧-٣٨
(٤) نفسه ٢ / ٣٩

أحدث للنفس ضراوة وأنسا به حتى يسري معها في أعمالها ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج »[1] ويبين في الأخير سبب نفرة النفس من الشرع فيقول :«إن وضع الشريعة إذا سلم أنها لمصالح العباد فهي عائدة عليهم بحسب أمر الشارع، وعلى الحد الذي حده، لا على مقتضى أهوائهم وشهواتهم ولذا كانت التكاليف الشرعية ثقيلة على النفوس، والحس والعادة والتجربة شاهدة بذلك، فالأوامر والنواهي مخرجة له عن دواعي طبعه واسترسال أغراضه حتى يأخذها من تحت الحد المشروع وهذا هو المراد، وهو عين مخالفة الأهواء والأغراض »[2] .

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن الشاطبي يخلص إلى أن الحق مضاد للشهوات لأنه شرع ينظم الحياة وفق المصالح العليا للمجتمعات،وهذا يتطلب الإرادة والعزيمة القادرتين على مقاومة ضغط الهوى، بينما الأهواء غرائز ودوافع فردية من شأنها تحريك الإنسان نحو الأغراض والمقاصد الفردية بعيدا عن الأمر الأعظم، وعلى هذا كانت التكاليف الشرعية ثقيلة على النفوس لا سيما تلك النفوس التي اعتادت السير على الأهواء فأحدث لها ذلك ضراوة وأنسا فضلا عن كون الأهواء تابعة للغرائز وهي مخلوقة معها ملصقة بها في الأمشاج .

ولعل المفسرين الذين يردون سبب كره الحق إلى الهوى لا يخرجون عن هذا التعليل الذي وضعه الشاطبي، فنحن نجد ابن عاشور يؤكد أن جنس الحق يجافي الطباع التي نشأ عليها المجتمع الجاهلي، طباعهم تأنف الحق الذي يخالف هواهم لما تخلقوا به من الشرك والفواحش والظلم والكبر والغضب وأفانين الفساد[3] ، فالمسألة عند ابن عاشور مسألة تطبع الأكثرية على متابعة أهوائهم في المعاملات والعبادات فإذا جاء الشرع لينظم هذه الحياة كرهته النفس لمخالفة تلك الطبائع، ويؤكد هذا الرأي الشيخ جابر الجزائري الذي يرد سبب كراهية الحق لدى الأغلبية

---

(١) نفسه ٢ / ١٧٥ (٢) الموافقات ٢ / ١٧٢

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ١٨ / ٩١

إلى «طول ما ألفوا الباطل وعاشوا عليه، وهذه سنة البشر في كل زمان ومكان»[1] ، وكذا الزمخشري الذي يرى أن « مع الباطل الدعة ومع الحق التعب »[2] وسيد قطب يعلل كره الأغلبية للحق بمصادمته لأهوائهم ووقوفه في طريق شهواتهم [3] والبقاعي يعلله بالانقياد للأهواء والشهوات البهيمية[4]، ولعل الشيخ بيوض كان أكثر المفسرين تركيزا على هذا السبب ، على أن الأهواء عنده متعددة منها :

١ ـ حب السلطة : فهم يرون في الحق الذي جاءهم به الشرع حرمانهم فيه من بطش وسلطان، إذ أن المجتمعات مبنية على طبقات يذل بعضها بعضا، طبقة الملوك والرؤساء يستعبدون تحتهم بشرا يتخذونهم إماء وعبيدا حتى إنهم يكرهون فتياتهم على البغاء .

٢ ـ حب الشهوات : فهو يحرمهم من التلذذ بشهوات البطن والفرج ... ، ففي الإنسان نزوات وأهواء وشهوات حركية وأغلب تلك الشهوات مخالفة للحق، ولا يجد هؤلاء الذين تمكنت فيهم العقائد الزائغة والشهوات النفسية إلا كراهية للحق، لذلك يودون ألا يسمعوا الوعظ والإرشاد لأنه ينغص عليهم حياتهم [5] بينما الأساس أن "الحق لم يأت ليوافق طباع الناس ويحاربهم في أهوائهم وشهواتهم، والإنسان مطبوع على حب الخير وحب الشهوات المختلفة من حلال أو حرام ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾[آل عمران: ١٤] »[6].

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٣ / ٥٢٨

(٢) الكشاف ٣ / ٤٩٩

(٣) في ظلال القرآن الكريم ٢٥ / ٣٢٠٢

(٤) نظم الدرر ٥ / ٢١٣

(٥) بيوض : في رحاب القرآن ٥ / ١٩٧ـ٢٠٠

(٦) في رحاب القرآن ٥ / ٢٠٠

٣ ـ استفحال الران في النفوس : يفرق الشيخ بيوض بين نوعين من النفوس، نفوس ران عليها الدنس وألفت الضلال، وهي نفوس كبراء الأمة من مجرميها، ونفوس لا تزال متصلة بالفطرة السليمة كالأطفال، والأولى هي التي استفحل الران عليها فجعلها تكره الحق، وتمنع أهل الفطرة من سماعه خوفا من اتباع أهله، ويستدل على ذلك بظاهرة جاهلية تترجم التناقض القائم بين معرفة الحق وكرهه، هي عمل كبار قريش مع القرآن فقال :« ومن أظهر الأدلة أن أولئك قد فهموا الحق وكرهوه أن صناديد قريش وكبراءها الذين يعدون العقلاء فيهم، كانوا يتسللون خفية للاستماع إلى قراءة القرآن من النبي ﷺ، أو من غيره ليتلذذوا بجلاوة بيانه، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يمنعون النساء والصبيان والعبيد من الاستماع إليه، لأنهم يعلمون حقا أن له تأثيرا قويا على القلوب التي لم تدنس كما تدنست قلوبهم بالشرك، وكأنه قد صار لهؤلاء الكبار حصانة من الوقوع في الإيمان، وقد فسدت قلوبهم وتمكنت فيهم عبادتهم الضالة وشهواتهم، حتى إنهم وإن استلذوا ببلاغة القرآن فإنهم لم يميلوا إليه أبدا ، وأما النساء والأولاد والذين هم في مقتبل العمر ـ وإن كانوا مرضى القلوب ببعض الأشياء ـ فإنهم لم يصلوا إلى درجة الفساد الأكبر، بحيث لو سمعوا هذا القرآن لجذبهم إليه، وهذا الذي حدث فعلا، ولذلك كان الشباب هم أتباع الأنبياء والرسل في كل زمان ... وبعد فلنحذر أنفسنا من أن تتمكن المعاصي في القلوب حتى ترين عليها، لأنها إذا رانت على القلب وتكاثفت فإنها تحجب عنه النور فلا يبصر الحق ويصعب إزالتها عنه والتوبة منها ... وإذا أراد الله تعالى بأحد شرا تمكن في قلبه حب المعاصي على اختلاف أنواعها أو تتمكن فيه واحدة منها فتجعل صاحبه يكره الحق ويبتعد عن أهله وعن كل ما يكره بخطئه ومعصيته محافظة على كمال شروره واغتباطه بمعاصيه ، لنحذر من هذه العاقبة والوصول إلى درجة كره الحق »[1].

---

(١) في رحاب القرآن : ٥/٢٠٣-٢٠٤

والشيخ بيوض يرى فوق ذلك كله أن الذين ألفوا المعاصي واستولى الران على قلوبهم لا يتوقفون عند مجرد كره الحق نتيجة ذلك المرض المستفحل في قلوبهم، وإنما يتجاوزونه إلى البحث عن الوسائل التي تغيب وعيهم لكي لا يدركوا الحق حين يقدمون على المعاصي تمكينا للنفس من اللذات الفانية والشهوات المفرطة، فهو يرى أن « من المعلوم من طبع الإنسان أنه يتخذ بنفسه الأسباب التي تمكنه من عدم رؤية الحق إذا كان إدراكه والوقوف عليه ينقصه، وهذا الذي يظهر لنا في التجاء كثير من الناس إلى الخمر، لأنه إذا كان عقل أحدهم صاحيا يدرك الأمور ويفهمها ولا يجرؤ على فعل بعض المعاصي ... ولعل هذه الظاهرة تخص العصاة فقط، ولكني أريد أن أزيد المسألة توضيحا لحقيقة إنكار الحق عن بينة » (١) .

تلك هي الأفكار الأساسية التي تدور حول اعتبار سبب كره الحق هو اتباع الأهواء ، ولكن التركيز على الأهواء بهذا الشكل كما رأينا عند الشاطبي والشيخ بيوض وغيرهما لا يعني أن الأهواء ليس لها في الحياة دور إيجابي، وأنها شر كلها، إذ تعد الأهواء بمثابة طاقة فعالة لتحريك الإنسان نحو النشاط، ولذلك أعطاها الله من القوة ما أعطاها حتى تتمكن من قوة الدفع، وقد انتبه الشاطبي لهذا الجانب الإيجابي في الأهواء فقال :

« المقاصد التابعة هي التي روعي فيها حظ المكلف، فمن جهتها يحصل له مقتضى ما جبل عليه من نيل الشهوات والاستمتاع بالمباحات، وسد الحاجات، وذلك أن حكمة الحكيم الخبير حكمت أن قيام الدين إنما يصلح ويستمر بدواع من قبل الإنسان تحمله على اكتساب ما يحتاج إليه هو وغيره، فخلق له شهوة الطعام والشراب، إذا مسه الجوع والعطش ليحركه ذلك الباعث إلى التسبب في سد هذه الخلة بما أمكنه، وكذلك خلق له الشهوة إلى النساء لتحركه إلى اكتساب الأسباب الموصلة إليها، وكذلك خلق له الاستضرار بالحر والبرد

---

(١) في رحاب القرآن ٥ / ٢٠٥-٢٠٦

والطوارق العارضة، فكان ذلك داعية إلى اكتساب اللباس والمسكن، ثم خلق الجنة والنار وأرسل الرسل مبينة أن الاستقرار ليس هاهنا، وإنما هذه الدار مزرعة لدار أخرى، وأن السعادة الأبدية والشقاوة الأبدية هنالك، لكنها تكتسب أسبابها هنا بالرجوع إلى ما حده الشارع أو بالخروج عنه، فأخذ المكلف في استعمال الأمور الموصلة إلى تلك الأغراض، ولم يجعل له قدرة على القيام بذلك وحده، لضعفه عن مقاومة هذه الأمور، فطلب التعاون بغيره، فصار يسعى في نفع نفسه واستقامة حاله بنفع غيره، فحصل الانتفاع للمجموع بالمجموع، وإن كان كل أحد إنما يسعى في نفع نفسه » (١) .

ولكن هناك فرقا أساسيا بين اتباع الهوى وتوظيف الهوى، فالهوى ينبغي أن يكون أداة توجهها الإرادة الإنسانية وفق مقتضيات الشريعة الحقة، ولذلك قال تعالى مبينا دور العلم في تحصين الأهواء للتحكم فيها : ﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة:١٤٥] :﴿ **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ** ﴾

[البقرة : ١٢٠]

(ج) الاستعلاء والتكبر : من أكبر العوامل التي تقف حاجزا دون إقرار الحق والاعتراف به والدفاع عنه استعلاء الإنسان وتكبره، لا سيما إذا كان مصدر الدعوة إلى الحق لا ينتمي إلى الملأ من القوم كرؤساء العشائر قديما وكبار الطبقات البرجوازية حديثا، وسور القرآن الكريم التي تعالج مسألة الدعوة مملوءة بهذه النماذج، ففي سورة الأعراف وحدها تتكرر العبارات الدالة على التكبر والاستعلاء على ألسنة الملأ سبع مرات تصف الأنبياء بما لا يليق بهم أبدا، كقولهم في نوح وهود ما عبرت عنه الآيتان :

١ ـ ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾[الأعراف : ٦٠] .

---

(١) الشاطبي : الموافقات ٢/١٧٨-١٧٩

٢ـ ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾

[الأعراف: ٦٦]

فالاستعلاء والتكبر من شأنهما أن يمنعا الإنسان من الإنصات للحق واتباع أهله من الأنبياء والمرسلين والمصلحين والوعاظ والمرشدين، على أن بعض المفسرين يرون أن هذا النمط لا يترك الإيمان بالحق كرها له وإنما يتركونه أنفة واستنكافا من توبيخ قومه لئلا يقولون صبأ وترك دين آبائه (١).

(د) الخوف من الجبروت: وهذا السبب يلحق بالسبب السابق في تبرير عدم الإقدام على الحق مع الإيمان به، وبهذا علل ابن عاشور التعبير بالأكثرية بدلا من الجميع في صيغة الآية «بل أكثرهم للحق كارهون»، إذ يرى أن من الناس أهل أحلام راجحة يعرفون بطلان الشرك وكانوا يجنحون إلى الحق ولكنهم يشايعون طغاة قومهم حفاظا على أنفسهم من أذى طغاتهم (٢).

(هـ) التقليد: وحقيقته قبول فكرة وقول بلا حجة، وهو مذموم في الباطل وأصل من أصول الدين في الحق (٣) ويعد التقليد من أقوى الأسباب التي تدفع الناس لكره الحق، لا سيما في مجال العقيدة والشريعة، وبذلك قال القرطبي والزحيلي والبقاعي والشيخ بيوض، وهذا ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٧٠]، فالآية صريحة في تصوير حال المقلدين جهلا وتعنتا، فهم قد دُعوا إلى الحق الذي أنزل الله، ففضلوا ما وجدوا عليه آباءهم، والاستفهام في التعليق على هذه الصورة العجيبة والظاهرة البشرية الغريبة جاء لبيان تمكن التقليد من عقول الناس وقلوبهم، بحيث لا ينفع معهم

---

(١) الكشاف ٣/٣٧، البقاعي: نظم الدرر ٥/٢١٣ ـ النفس: ٢/١٤٠

(٢) التحرير والتنوير ١٨/٩١

(٣) القرطبي: الجامع ٢/٢١١

حتى كون آبائهم على غير هدى أو عقل، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للآباء.

وقد أنكر بعض العلماء أن يكون التقليد طريقا إلى معرفة الحق فقال: «التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا في الأصول ولا في الفروع وهو قول جمهور العقلاء والعلماء خلافا لما يحكى عن جهال الحشوية والثعلبية من أنه طريق إلى معرفة الحق»[1]، على أن القرطبي تسامح في التقليد للعالم في نازلة خفيت فيها أوجه الأدلة، والنظر على عالم آخر أراد أن يجدد الفكر فيها، والنظر حتى يقف على المطلوب[2].

● المبحث الثاني: إخفاء الحقيقة عند الأكثرية:

لقد تبين لنا موقف الأكثرية من الحق من جهة العاطفة، ورأينا أنهم يكرهون الحق، وعرفنا أن الأسباب المؤدية إلى ذلك متعددة، منها الحسد ومنها البغي والظلم ومنها اتباع الهوى والتقليد والجهل والخوف من الضغوط الاجتماعية الزائفة، والآن سنتناول جانبا آخر هو موقف الأكثرية من الحقيقة من جهة الإظهار والإخفاء.

والآيات التي تبين ذلك متنوعة مكية ومدنية، وهي:

١ - ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

٢ - ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة: ١٥].

---

(١) صفوة التفاسير ١/١١٩

(٢) القرطبي: الجامع في أحكام القرآن ٢/٢١٢

هاتان الآيتان جاءتا في سياق الحديث عن موقف بني إسرائيل من الحق، ولكن معناهما شامل لسلوك البشرية في كل حين .

وسياق آية المائدة وهي مدنية يتحدث عن أهل الكتاب بصفة عامة يهود ونصارى ويبين أنهم كانوا يحرفون الوحي باستمرار، وذلك هو موقف الأكثرية منهم إلا قليل، قال تعالى : ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾ [المائدة : ١٣] .

وهذه القلة القليلة منهم التي كان موقفها من الكتاب هو إظهار الحق هي تلك التي أسلمت عهد الرسول ﷺ، وقد نجد في العصر الحديث بعض المستشرقين الذين يتحرون الموضوعية في بحوثهم مثل موريس بوكاي الذي اعتمد على منهج مقارنة الأديان من أجل « معرفة أي كتب هذه الديانات تنقل الوحي الإلهي حقيقة »[١] أما الأغلبية فقد كانت تخفي الآيات الكثيرة قديما وحديثا، ففي القديم يذكر القرطبي أن اليهود كانوا يخفون آية الرجم والآيات التي تكشف ما آل إليه أمر أصحاب السبت من مسخهم قردة[٢] ، ويرى قطب أن دور النبي ﷺ بخصوص هذا الأمر كما تبينه الآية، هو أن يوضح ويكشف ما تواطأ على إخفائه ـ من حقائق كتاب الله الذي مع أهل الكتاب ـ الذين أخفوا الأساس الأول للدين وهو التوحيد، وأخفوا كثيرا من أحكام الشريعة كرجم الزاني وتحريم الربا كافة وإخبار بعثة النبي محمد ﷺ، ويعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه مما لم يرد به شرعه [٣]، ويبين أنهم قد جعلوا التوراة في صحائف يتلاعبون بها فيبينون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع والتلاعب بالأحكام والفرائض ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة [٤] .

---

(١) شايب لخضر : نبوة محمد ﷺ في الفكر الغربي المعاصر ص ٤١٠ ـ (مخطوط ـ أطروحة دكتوراه جامعة الجزائر ـ كلية أصول الدين سنة ١٩٩٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٦/١١٨

(٣) في ظلال القرآن : ٦/٨٦١ـ٨٦٢

(٤) نفسه : ٧/١١٤٦

والآيات السابقة من سورة الأنعام تبين حجم المبالغة في إخفاء الحقيقة فهم قد قالوا : ﴿ **مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾[الأنعام: ٩١] هكذا ينفون نزول الكتب أصلا على أي بشر، وهذا منتهى التبجح في إخفاء الحقيقة الدينية، إنه إخفاء لمصادر التشريع كلها، وإنكار لوجودها، والزمخشري يروي أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم هو من قال أمام الملأ مخاطبا الرسول ﷺ « ما أنزل الله على بشر من شيء » فقال له قومه ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك فقال إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف (١) .

وبغض النظر عن كون الذي قال ذلك واحد منهم، أي من الأقلية كما يبدو، أو من الكثرة كما يشير ضمن الجماعة، فإن إخفاء الحقيقة بهذه المبالغة هدفها إنكار النبوة وإنكار إنزال القرآن(٢) ، والآية نفسها تكشف حجم ما صنعوه من إخفاء الآيات والتشريعات ﴿ **تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً** ﴾[الأنعام: ٩١] ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [المائدة: ٥١] ولا شك أن تكرار لفظ "كثير" في آية الأنعام وآية المائدة يبين مبالغتهم في إخفاء الحقيقة وكتمان الحق .

والسؤال المطروح الآن : ما سبب ميل الأكثرية لإخفاء الحقيقة ؟ أهو نفس الأسباب التي سبقت في الحديث عن كره الحقيقة، من جهل، واتباع الهوى، وتقليد أعمى، وخوف ضياع المصالح الخاصة، واستبداد السلطان، أم هناك أسباب أخرى؟ .

لماذا يخفي كثير من الناس الحقيقة ؟ ولكي نجيب عن هذا ينبغي أن نتساءل : ما هي الحقائق التي كان اليهود يخفونها ؟

لقد تبين لنا قبل أنهم كانوا يخفون حقيقتين ؛ النبوة ، وبعض الأحكام ، ولكن الآيات التي تتناول موضع كتمان الحق تتعلق كلها بأهل الكتاب وهي :

---

(١) الكشاف : ٢/٣٤ (٢) نفسه

١ـ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١]

٢ـ ﴿ وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :٤٢].

٣ـ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :١٤٦]

٤ ـ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

[آل عمران : ١٨٧]

٥ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴾[البقرة :١٥٩] .

وهذه الآيات الخمس تتعلق الثلاث الأولى منها بكتمان الحق عموما، وتتعلق الرابعة والخامسة منها بكتمان البينات التي نزلت في الكتب السماوية من جهة ومن جهة ثانية نجد الآية الثالثة تبين أن فريقا منهم هو من يكتم الحق عن علم بينما نجد بقية الآيات تجعل الصفة مقترنة بأهل الكتاب جميعا.

ومن جهة ثالثة نجد الآيات الثلاثة الأولى تؤكد مسألة الترابط بين الكتمان والعلم بالمكتوم ﴿ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: ٧١] . فلماذا الإصرار على كتمان الحق مع العلم به ؟ وما هو الحق المكتوم هنا ؟ قال ابن عاشور :« تلبيس الحق بالباطل تلبيس دينهم بما أدخلوا فيه من الأكاذيب والخرافات والتأويلات الباطلة حتى ارتفعت الثقة بجميعه، وكتمان الحق يحتمل أن يراد به كتمانهم تصديق محمد ﷺ، ويحتمل أن يراد به كتمانهم ما في التوراة من الأحكام التي أماتوها وعوضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها »[١] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٢٧٩

والحق أن نظرة شاملة للآيات السابقة كلها تبين أن المراد الأمرين معًا، فهم يكتمون ما يتعلق بنبوة محمد ﷺ، كما يكتمون التشريع الذي لا يساير أهواءهم، فقد أخذوا على أنفسهم موثقا بأن يبينوا للناس كل ما يتعلق بما أنزل الله في الكتاب بدون استثناء كما يبين قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾[آل عمران:١٨٧] ولكنهم خالفوا ذلك: ﴿ **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾[آل عمران:١٨٧]، ولذلك استحقوا اللعنة كما تبين آية البقرة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾[البقرة:١٥٩]، فهم يكتمون ما أنزل من البينات ويكتمون الهدى الذي واثقوا على أن يبينوه للناس، ولذلك لعنوا، يقول القرطبي: «أخبر تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون، واختلفوا من المراد بذلك؛ فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد كتم اليهود أمر الرجم، وقيل المراد كل من كتم الحق، فهي عامة في كل من كتم علما من دين الله يحتاج إلى بثه، وذلك مفسر في قوله ﷺ: « من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار »[١].

ووجهة نظر القرطبي هذه قريبة جدا من الحقيقة، ذلك لأن الكتمان للحق كان ولا يزال، ولئن كان اليهود قد كتموا الأمرين معا؛ أمر النبوة، وبعض مضامين الرسالة، فإن الكتمان اليوم صار أوسع في الخلق جميعا وإن اختلفت الأساليب، ولذلك نميل إلى القول بأن « المراد كل من كتم الحق فهي عامة في كل من كتم علما » وقد يعضد هذا الرأي ما ذهب إليه الشيخ المكي الناصري من أن الآية «وجهها الحق سبحانه وتعالى إلى كل من علم علما فكتمه، أو استغل علمه في سبيل منفعة شخصية تعود على مقتضى علمه بالنقص وإبطال أوجه علمه وجهة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٨٤

الشر والأذى، أو خان بعلمه الأمانة، أو غش بعلمه الأمة، بحيث يندرج تحت هذه الآيات كل استعمال للعلم في غير وجهه، وكل كتمان له حتى لا يستعمل في وجهه »[1] .

ونستنتج من ذلك أن :

١ ـ الحق المكتوم يشمل دلائل النبوة ومضامين بعض الأحكام، وكل تغطية للآيات الربانية .

٢ ـ الذين عملوا على الكتمان قديما هم أحبار اليهود ورهبان النصارى، وحديثا دخل في زمرتهم كل من عمل على كتمان الحق، بأي وجه من الوجوه بما في ذلك مواقف كثير من المستشرقين والمستغربين، وتكفي الإشارة إلى أن « جولدزيهر مثلا كان يقف بالمرصاد ليرد كل مسيحي أراد دخول الإسلام، وفي هذا دليل كاف على حقده وعدم رضاه بدخول الباحثين عن الحق فيه، ونستطيع أن نضع في هذه الطائفة أكثر المستشرقين المعاصرين اشتهارا بالموضوعية مثل موتغمري وات أو هاملتن جب ، لأنهم جميعا يشتركون في الدس للإسلام والكذب على نبيه وعقيدته وفقهه وتاريخه »[2] .

٣ ـ والنتيجة الثالثة تتطلب بحثا خاصا لذلك علينا أن نتساءل لماذا تعمل الأكثرية على إخفاء الحق وكتمه ؟

إن الآيات القرآنية ـ في منهجنا ـ هي التي تملك الإجابة التي تُعتمد لتفسير هذه الظاهرة، ونحن لا نعدم ذلك، ففي القرآن آيات تشير إلى الظاهرة بدقة منها :

١ ـ قول الله تعالى : ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾[البقرة:١٠٩]، فالآية هنا تبين سببا رئيسيا في تفسير هذا السلوك وهو « الحسد » .

---

(١) المكي الناصري : التيسير في أحاديث التفسير ١ / ١٠٢

(٢) شايب لخضر : نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في الفكر الغربي المعاصر ٢ / ٤٤٠

٢ ـ قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٧٤] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧] . فالآيتان هنا تبينان سببا آخر يعين على تفسير جانب من الظاهرة وهو « حب المال » ، فهم يقبضون مقابل كتمان الحق مطلقا « ثمنا » والقرآن يعده « ثمنا قليلا » لأنه لا يعد شيئا مهما كان كثيرا أمام قيمة الحق، إذ أن قيمة الحق لا تعلوها أي قيمة كانت مهما غالى الناس في رفعها، لأنه لا شيء في النهاية أحق بالاتباع من الحق، فمن كتمه مقابل عرض الحياة الدنيا فقد خسر خسرانا مبينا، ولذلك عقب على الظاهرة في الآية الأولى بما يفيد خسران الآخرة فقال : ﴿ أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾[البقرة:١٧٤] وعقب على الظاهرة في الآية الثانية بقوله : ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران:١٨٧] .

والنتيجة التي يفضي إليها تحليل الآيتين هو أن الدوافع إلى كتمان الحق دافعان :الحسد ،وحب المال والحرص عليه،وهما دافعان قويان جدا،لهما من التأثير على العقل قدرة كبيرة، بحيث تمنعه من رؤية الحقيقة كما هي، بل تدفعه لأن يرى الخير في عرض الحياة الدنيا، فيقبل على كتمان الحق بكل ما أوتي من قوة .

وقد حلل ابن خلدون دوافع النفس إلى الكذب وأثر ذلك على العقل في إصدار الأحكام فقال :« إن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله »[٢] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٥٧ (٢) الغزالي أبو حامد : القسطاس المستقيم ص٩٠

فالنفس من حيث هي محضن الدوافع الضاغطة على العقل لها حالان؛ إما أن تكون معتدلة فتسمح للعقل بأن يتحرك وفق المنطق ليمحص الخبر والموضوع، ثم يصدر حكمه مستقيما، وفي هذه الحال سيرى الحق حقا والباطل باطلا، وإما أن تكون قد خامرها تشيع لرأي أو نحلة أو غرض من الأغراض بدافع الحسد أو الطمع أو التعصب، فإنها عندئذ ستضغط على العقل لتفسد عليه ميزان الحكم، على الرغم من توفر الأدلة والبراهين، وعندئذ سيكون الميل لما فيه المصلحة الخاصة، لأن ذلك الميل والتشيع يكون غطاء على عين وبصيرة العقل فيمنعها من الانتقاد والتمحيص فتقع في كتمان الحق وقبول الكذب ونقله .

وهذه الأسباب التي تمنع العقل من الاعتراف بالحق وتدفعه نحو كتمانه أمراض خبيثة تعد في نظر أبي حامد الغزالي أقوى من الخلل العقلي نفسه فالذين « في باطنهم خبث وعناد وتعصب وتقليد فذلك يمنعهم عن إدراك الحق وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفهموا، ولم تهلكهم إلا كياستهم الناقصة فإن الفطرة البتراء والكياسة الناقصة شر من البله بكثير » (١) .

وبهذا تجتمع لدينا ثلاثة أسباب تدفع النفس لإخفاء الحقيقة والتكتم عليها هي :

١ ـ الحسد

٢ ـ الطمع ويتجسد خاصة في (حب المال) .

٣ـ الكياسة الناقصة نتيجة مرض نفسي ما، مما يدفع على التعصب الأعمى .

وبهذا ينكشف لنا أن العقل آلة طيعة لميول النفس الخفية، وربما كانت هذه الميول موروثة أصلا، وهي عندئذ مما يصعب الاستشفاء منه، وقد بين الغزالي صعوبة ذلك فقال : « إن المقلد لا يصغي، والبليد وإن أصغى فلا يفهم »(٢) ولذلك يشترط لعلاجهم « خلو باطنهم عن التقليد والتعصب لمذهب موروث ومسموع »(٢) .

---

(١) أبو حامد الغزالي : القسطاس المستقيم ص ٨٥ ـ دار المشرق ـ بيروت ١٩٨٣

(٢) نفسه

ولعل نقص الكياسة والفطنة هو ما جعل كثيرا من الناس يتبعون الشيطان الذي تعد مكائده سببا رئيسيا في دفع القلب لكتمان الحق والتستر عليه، وذلك لأن الشيطان يأتي الإنسان من جهة أقوى إقناعا وهي جهة الأدلة الحسية التي يسميها الغزالي الأدلة المعكوسة في قوله :« لا يستولي الشيطان بحيله على الضعفاء أشد وأكثر من إيهام العكس العام حتى ينتهي إلى المحسوسات »(١) .

وهذه الحقائق العلمية التي تكشف عن الأسباب الباطنية التي تدفع الأكثرية لإخفاء الحقيقة على مر التاريخ كيفما كانت سواء أكانت تتعلق بنبوة محمد ﷺ أو بالتشريعات الربانية تعد مما تؤكده الدراسات المعاصرة بشكل من الأشكال، فقد بين عبد الله العروي أن الماركسية ترى أن الإيديولوجية تخفي مصلحة طبقية، وأن نيتشه يرى أن القيم الثقافية أوهام ابتدعها المستضعفون لتغطية غلهم ضد الأسياد، وأن فرويد يرى أن انتاجات العقل تبريرات اختلقها الإنسان المتمدن لمعارضة دافع الرغبة الجارف، وانتهى إلى أن هذه الآراء تحتوي على عامل مشترك وهو أن الأفكار رموز لا تحمل حقيقتها فيها، بل تستر حقيقة باطنية، وفي هذا الستر تومئ إليها، وبتأويل ذلك الإيماء نكشف عن الحقيقة المستورة (٢) .

وعلى الجملة فإن كل البحوث الجادة التي تتصف بالموضوعية لا بد أن تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي أن الأكثرية تميل لإخفاء الحقيقة مطلقا بدافع نفسي خفي أو جلي، وأن هذا الدافع له من القوة ما يجعله قادرا على التلبيس على العقل فيفقد بذلك قدرته على التمييز بين الحق والباطل، مما يدفعه إلى البحث عن التبريرات على مستوى السلوك الفردي بصور مختلفة، وعلى مستوى السلوك الجماعي المنظم تحت مضلة الإيديولوجيا، وهي في جميع الأحوال أمراض، بعضها يستهدف الحظوظ الذاتية الفردية، وبعضها يستهدف حظوظا

---

(١) نفسه ٧٥

(٢) عبد الله العروي : مفهوم الإيديولوجيا ص ٤٣ الجزائر الثقافي العربي الدار البيضاء ط ٦/١٩٩٩ (المغرب - بيروت)

سياسية، عبر عنها ابن خلدون بقوله : « الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها - النفس - عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله » ووصفها الغزالي بأنها عوارض تعمي عليهم طرق الصواب وتقضي عليهم بالانخداع ولاحقيقة مع السراب، ومنها الحقد والطموح وحب التميز والميل إلى العيش الرغد وبعض النقائص العقلية والتقليد .

● المبحث الثالث : الكذب واتباع الظن

لقد سبقت الإشارة في المبحث السابق إلى أن إخفاء الحقيقة والتكتم عليها مهما كانت دوافعه هو نوع من الكذب كما بين ابن خلدون، ولكننا هنا سنخص الكذب كسلوك إزاء الحقيقة كما تنص عليه الآيات القرآنية بهذا الحديث .

والحق أن التكتم على الحقيقة،واتباع الظن تشترك كلها في شيء واحد وهو أنها سلوك عقلي يصدر عن دوافع نفسية مرضية مختلفة، فهو إذن مختلف عن الموقف العاطفي من الحق كما بينته الآيات التي تناولناها في بيان موقف القلوب .

● المطلب الأول الكذب :

والآية التي تعرض بصورة صريحة مشكلة الكذب كسلوك للأكثرية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣] .

الظاهرة التي تشير إليها الآية هنا تتعلق بالفرق بين الوحي القائم على طريق الحق، والوحي القائم على طريق الكذب، وهو طريق الشياطين، فهي تتنزل بوحيها على الأفكة الآثمين الذين يلقون السمع لها وأكثرهم كاذبون، والأكثرية هنا، تنصرف على نوع من الإنس ونوع من الجن والشياطين، فهم جميعا متصفون بالكذب، قال القرطبي « وأكثرهم يرجع إلى الكهنة وقيل الشياطين »[1] ، قال ابن كثير: « يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١٤٥

ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رأي من الجن، فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله - ﷺ - عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** ﴾ أي أخبركم ﴿ **عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾[الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿ **أَثِيمٍ** ﴾ وهو الفاجر في أفعاله فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة » (١) .

وهكذا تتبين لنا أمور منها :

١ - الكذب على الله شر أنواع الكذب وأخطره، لما يؤدي إليه من ضرر عقدي، قد ينتقل إلى الأجيال بعد الأجيال فيسري الضلال بسبب ذلك في المجتمعات، وما الكهانة إلا صورة من صور هذا الكذب، لم تستطع البشرية أن تتخلص منها حتى في العصر الحديث الذي شهدت فيه تقدما علميا معتبراً وتقدما تكنولوجيا هائلا، بحيث نرى معظم مرشحي الرئاسيات في الغرب يزورون الكهان ليقرؤوا لهم الكف استطلاعا للغيب بزعمهم، تماما كما كان العربي في الجاهلية يصنع، مما يبين عمق تأثير الكذب على الله على عقائد البشرية .

٢ - الكذب عامل مشترك بين شياطين الإنس وشياطين الجن، لأنه قائم على المشاكلة، إذ لا تنزل شياطين الجن إلا على كل أفاك كذوب، شديد الفجور، كثير الفسق، وبمفهوم المخالفة، فإن الشياطين لا تنزل على الصادق الأمين فهي« لا تنزل على مثل محمد ﷺ في أمانته وصدقه وصلاح منهجه، إنما تنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل . .وأكثرهم كاذبون، والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب »(٢) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٥٢-٣٥٣ (٢) في ظلال القرآن : ٥ / ٢٦٢٠

٣ ـ الكذبة أصحاب أغراض ومصالح دنيوية، ومن ثم فهم لا يدعون إلى هدى ولا يأمرون بتقوى ولا يقودون إلى إيمان أو صلاح[١] ، وإنما يبنون كلامهم على أوهام يختلقونها اختلاقا لتضليل الناس، ومن هنا كانوا يتصفون بالإثم والفسق والفجور.

٤ ـ المقصود بقوله تعالى : ﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[الشعراء:٢٢٢] هم الكهنة والمتنبئة كالعنسي وسطيح ومسيلمة وطليحة وسجاح وغيرهم [٢] ممن ادعى النبوة أو ما يشبه النبوة كحال بعض دعاة الإلحاد في العصر الحديث، إذ «الإفك هو الكذب الصراح المضر المهلك والأفاك المبالغ في الإفك، هذا الذي لا يتورع عن الإفك ولو أضر به قوما أو قبيلة، ولا يتورع عن الكسب الحرام، وليس عملا يسترزق به هذه الطريقة الحرام، فمثل هؤلاء لا يتصلون إلا بالخبيثين والخبيثات، بل أكبر الكهنة والكاهنات فسقة وعواهر»[٣] .

٥ ـ الضمير في قوله تعالى : ﴿ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٣] يعود على الشياطين، وعلى كل أفاك كثير الإثم، ومنه ينتج أن أكثر أهل الإفك والإثم كاذبون، وربما كان ذلك علامة انتفاء الإيمان على قلوبهم، إذ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ﴾[النحل : ١٠٥] .

لماذا كان أغلب هؤلاء كاذبين ؟ وبمعنى آخر، مالدافع إلى الكذب ؟

إننا حين نتأمل حياة البشرية نجد الكذب منتشراً فيها كثيراً، فقد كذب الناس على الله، فادعوا النبوة، وكذبوا على رسول الله ﷺ فوضعوا الحديث، وكذبوا على عظماء البشرية وقادتها فوضعوا الأخبار، وكذب السياسيون على شعوبهم في صور مختلفة أكبرها كذْبة الاشتراكية التي أفسدوا بها عقائد الناس

---

(١) نفسه
(٢) الكشاف ٣ / ١٣٢، الجامع للقرطبي:١ / ٣٩ـ تفسير ابن كثير:٣ / ٥٧٠
(٣) في رحاب القرآن : ٧ / ٤٧٨ـ٤٧٩

وعاداتهم في الأعمال والمعاملات، وكذا الفتاوى التي يصدرها العلماء بما لا يعلمون، وكل ذلك يتطلب وقفة جدية تكشف عن الأسرار التي جعلت نسبة الكذبة في كل مجال من تلك المجالات تشكل الأغلبية .

ويمكن حصر دوافع الكذب في : حب الرياسة، وجمع المال، والزيادة في الجاه، قال أبو حامد الغزالي :« وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذورا، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به، وتكذب لأجل مراغمة الضرات وذلك حرام »[١] .

١ـ حب الرياسة : وهو دافع قوي على الكذب، أدى لوضع الحديث، وربما كانت معظم الأحاديث الموضوعة ذات البعد السياسي قد وضعت بدافع حب الرياسة ، « وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم »[٢] .

ولخطورة الكذب في مستوى الرياسة رأينا رسول الله ﷺ يتشدد في الترهيب منه إذ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب... »[٣] ، فالملك الكذاب أو الرئيس الكذاب خطره كخطر العالم الوضاع في شمول ضرره، إذ يضرون بمجتمعات وأمم كاملة، وربما أدى ذلك لسقوط دولة أو زوال مملكة .

٢ ـ البحث عن الجاه : وهذا كثيرا ما يؤدي إلى الكذب، لا سيما الطعن في الرجال لانتقاص قيمتهم في الأوساط الاجتماعية والسياسية والعلمية، وقد عم هذا المرض الإنسانية كلها حتى العلماء منهم، حتى قال الذهبي (٧٤٨ هـ) متعجبا من ذلك : « كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح

---

(١) الإحياء م/٣ /ج/ ٩ ص ١٥٩٧

(٢) نفسه ١٦٩٤

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ١١٤ وانظر :ابن تيمية : الفتاوى: ١٣ /١٣٣

لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصمه الله، وما علمت أن عصرا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس»[١] ويرى الغزالي أن بعض من لا يتثبت في رواية الحديث إنما كان «غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدري»[٢] .

٣ ـ التشيع للآراء والمذاهب، إذ غالبا ما يؤدي الميل والتشيع ـ كما يقول ابن خلدون ـ إلى أن يرين على عقل العالم ما يمنعه من الانتقاء والتمحيص فيقع في قبول الكذب ونقله[٣] .

٤ ـ التقرب من أصحاب الجاه والسلطان إذ أن تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك كثيرا ما يستفيض به الأخبار على غير حقيقتها، وقد يقبل ذلك منهم لأن النفوس مولعة بحب الثناء[٤] .

٥ ـ الطمع: إذ الناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها[٥] .

٦ ـ الكذب لظن المصلحة : وهذا قد انسحب حتى على بعض وضاعي الحديث على رسول الله ﷺ ، قال الغزالي :«وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في مقابل الأعمال وفي التسديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض»[٦] ، وقال ابن الصلاح :«الواضعون للحديث أصناف، وأعظمهم ضررا قوم من المنسوبين إلى الزهد وضعوا الحديث احتسابا فيما زعموا فتقبل الناس موضوعاتهم ثقة منهم بهم وركونا إليهم ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها ومحو عارها»[٧] .

---

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ، وانظر المنهج الحديث في علوم الحديث قسم الرواة ص ٩٣ لمحمد أحمد السامي المكتبة العصرية ـ بيروت

(٢) الإحياء : ٣/٩/١٥٩٧

(٣) المقدمة : ١/٥٧ـ٥٨

(٤) نفسه : ١/٥٨

(٥) نفسه : ١/٥٨

(٦) الإحياء : ٣/٩/١٥٩٨

(٧) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ٥٩ دار الهدى عين مليلة ت الجزائر.

قال القاشاني : «لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل، لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية المستمدة من الشياطين بالمناسبة المستدعية لإلقائهم وتنزلهم لحب الجنسية» (١) .

● **المطلب الثاني : اتباع الظن :**

قلنا سابقا إن مواقف الناس من الحق متباينة، وقليل منهم فقط من يلمس له موقف إيجابي . كما سيتبين من بعد، أما أكثرهم فلهم من الحق مواقف سلبية وهذه المواقف السلبية متباينة كذلك، فمنها مواقف عاطفية، ومنها مواقف سلوكية كإخفاء الحقيقة وكتمان الحق، ومنها مواقف عقلية كالكذب واتباع الظن ، وقد بينا دور الكذب وأسبابه ، والآن ننتقل إلى الحديث في مشكلة العمل بالظن.

وسنبين الآن بحول الله حركة العقل في اتباع الظن لإصدار أحكام غير سليمة بخصوص الحق، على مستوى الأفكار المصيرية في الحياة البشرية ، كقضايا العقيدة والسياسة والعمران وما إلى ذلك.

وسيكون منطلقنا هنا من نص صريح الدلالة في ذلك هو قول الله تعالى من سورة يونس، وهي سورة مكية : ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [يونس : ٣٥-٣٦] .

الآيتان تكشفان عن موقف الأكثرية من الحق، في مجال استخدام العقل كآلة للوصول إليه، وتبينان أن الأغلبية من الخلق تبني أحكامها في قضية كبرى

---

(١) القاسمي : تفسير القاسمي محمد ٧ ص ٤٧٨ ـ دار الكتب العلمية بيروت.

هي قضية العقيدة على مجرد الظن ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا ﴾[يونس :٣٦] وتبين الآيتان في الوقت نفسه ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[يونس :٣٦].

ومعنى ذلك أن مثل هذه المسائل عقدية في الأساس، لا يصلح فيها منهج الشك، فهي مسائل تقوم عليها حياة البشرية في دنياها وأخراها، مما يستوجب اليقين، فاليقين وحده هو المخرج من هذه الأزمة، ومجال اليقين هنا في المنهج النقلي، وإذا اعتُمد الشك منهجا فإنه لا يزيد عن كونه مرحلة في التفكير للوصول إلى الحقيقة، ثم نعتمدها باعتبارها كذلك لننطلق في دراسة الموضوع المراد دراسته، ولذلك جاء السؤال مستفهما ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

[يونس : ٣٥]

والظن المشار إليه هنا هو « ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب »[١] ، وهو أمر منهي عنه في المعاملات الحسية فضلا عن حركة القلب في الأمور العقدية ومواقفها من الحق، قال القرطبي : « وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكتفى بالظن في العقائد »[٢] .

ولأجل قصور العقل في إدراك الحق كان أبو حامد الغزالي يتساءل :« فبأي ميزان تدرك حقيقة المعرفة ؟ أبميزان الرأي والقياس، وذلك في غاية التعارض والالتباس ولأجله ثار الخلاف بين الناس... أما ميزان الرأي والقياس فحاش لله أن اعتصم به فذلك ميزان الشيطان، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة فأسأل الله تعالى أن يكفي شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل وهو شر من عدو عاقل »[٣] ، ويمضي الغزالي في حديثه ليبين أن الميزان المعتد به في معرفة الحقائق الغيبية هو الوحي : « فمن تعلم من رسول الله ﷺ ووزن بميزان الله فقد

---

(١) الغزالي : إحياء م٣ ج ٩ /١٦١٧٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨ /٣٤٣

(٣) الغزالي : القسطاس المستقيم ص ٤١

اهتدى، ومن عدل عنها إلى الرأي والقياس فقد ضل وتردى ... واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا هم من ملائكته، فالله تعالى هو المعلم الأول والثاني جبريل، والثالث الرسول ﷺ، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل مالهم طريق في المعرفة سواه »[١] .

ويؤكد الغزالي أن ميزان العقيدة روحاني صرف، « وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة، إذ به توزن الأعمال وعقائد العباد ومعارفهم، والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام، فلذلك كان ميزانه روحانيا صرفا »[٢] .

لكن هذا لا يعني مطلقا أن الغزالي يستبعد المنهج الحسي والتجريبي والعقلي في جميع المسائل، إنما هو يؤكد ضرورة استبعادها في الحكم على الغيبيات، أما غيرها فيرى ضرورة استعمال كل منهج في موضعه إذ قال :« المادة الصحيحة التي تستعمل في النظر كل أصل معلوم قطعا؛ إما بالحس أو بالتجربة، أو بالتواتر الكامل أو بأول العقل أو بالاستنتاج من هذه الجملة »[٣] ، غير أن استخدام المحسوس في البحث للتأكد من الحقائق يتطلب الحذر لأن « التعارض في عالم الحس والشهادة كثير جدا »[٤] .

فالذي ينبغي التعويل عليه هنا هو « كل أصل معلوم قطعا » بغض النظر عن المنهج الموصل إليه، وعليه فإن الرأي والظن يمكن اعتمادهما في المسائل الفقهية إذا كانت أدلتها قطعية، فهنا يصبح الرأي والقياس معياراً منهجياً للإقناع لا سيما العامة إذ « يصلح للأقيسة الفقهية الظنية ولإمالة قلوب العوام إلى صوب الصواب والحق، فإنه لا يمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة »[٥] .

---

(١) نفسه ٤٣
(٢) نفسه : ٤٧-٤٨
(٣) نفسه ٧٧
(٤) نفسه ٨١
(٥) نفسه ٩٩

وحينما يصر الغزالي على اعتماد «كل أصل معلوم قطعا» في مجال المعرفة فإن ذلك يكون مطابقا تماما لما تبينه الآيات المتعددة بخصوص الظن، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢]، هذه الآية التي يعلق عليها الغزالي بقوله: «ما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق»(١).

ويؤيد هذه الفكرة ابن خلدون إذ يرى أن «صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس، فإنها نظر في المعقولات الثواني، ولعل المراد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني، وأما النظر في المعقولات الأول، وهي التي تجريدها قريب، فليس كذلك لأنها خيالية، وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه»(٢).

ويضرب لذلك مثالا في المجال الحسي ليبين وقوع الخطأ في القياس الذي لا يبني على «أصل معلوم قطعا» فيقول: «ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم»(٣).

ويلتقي ابن خلدون مع الغزالي في كون منهج العامة ـ حين يصدر عن الفطرة السليمة في الوصول إلى الحقائق ـ أوثق من منهج أهل القياس؛ لأن «العامي السليم الطبع المتوسط الكيس، لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه»(٤).

---

(١) الإحياء ٣/٩/١٦١٧
(٢) ابن خلدون: المقدمة: ٢/١٠٤٧
(٣) نفسه ١٠٤٦
(٤) نفسه

والقرآن الكريم يضرب لنا مثالاً حيًا بعبد عوَّل على الظن في منهجه فانتهى إلى نتيجة سيئة للغاية، فقال: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾[الكهف : ٣٥-٣٦] فهذا المخدوع بنى وهمه على الظن في أمر خطير لا يفيد معه إلا اليقين كما يبين صريح الآية، فخسر خسرانًا مبينًا.

ومن كل ذلك يتبين أنه لم يبق لمنهج الظن سوى طريق واحد هو امتحان الافتراضات التي يضعها العقل ليتبين موضوع بحثه فيميز الحق من الباطل، وهذا الذي ترشد إليه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾[الحجرات ٦] .

الآن وقد تبين لنا أن منهج الظن لا يغني في إثبات الحقيقة يمكن أن نتساءل: لماذا كان ذلك هو طريق الأغلبية ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا** ﴾ [يونس:٣٦]

إن الآية بهذه الصيغة تحصر الاتباعية في مجال الظن والشك، حتى قال بعضهم لفظ الأكثر هنا يفيد الكل، والحق أن ذلك من المبالغة، إذ الذين يتبعون الظن هم الأكثر، وهذه الأكثرية تتجلى في عبادة العرب قبل الإسلام، كما تتجلى في عقيدة النصارى واليهود، ومن لف لفهم من أهل التثليث، كما تتجلى في عبادات أهل الشرك في الهند وغيرها من عبدة الأوثان والبقر، فكل هؤلاء لا برهان لهم على ما يعبدون، في حين أن العبادة الحقة تقوم على البرهان: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ومع ذلك فهم متمسكون بهذه العقائد المختلفة تمسكا غريبا، يحسبهم الجاهل لذلك أنهم على حق، ولكن عند النظر في الأدلة والبراهين التي يقدمونها على عبادتهم يتجلى السراب الذي يبنون عليه كل عباداتهم.

ولا شك أن لهذا الضلال الذي وقعت فيه البشرية، بسبب اتباع الظن،

أسبابًا كثيرة، منها فساد المنطق الذي يعتمدون، ومنها التقليد الذي من شأن صاحبه ألا يعمل النظر، إذ المقلد لا يصغي كما يقول الغزالي، ومنها اتباع الهدى والحرص على السيادة والرياسة كما رأينا في العمل بالكذب، ومنها الجهل، ومنها عدم امتحان أنفسهم للتحقيق مما يصنعون، وقد ذكر المفسرون كل هذه الأسباب لكنها جاءت متفرقة.

١ ـ فساد منطقهم: وهو أمر ينشأ عن فساد الدوافع، إذ المنطق آلة عقلية حيادية في الأساس، لكن حركته الفكرية في الموضوعات تتبع تلك الدوافع الخفية التي لها من القوة مالها، مع تدعيم الشيطان لها تدعيما مستمرا، لا يخفت إلا بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[افصلت: ٣٦] .

وقد أشار لهذا السبب غير واحد من المفسرين، ولعل أوضحهم ابن عطية إذ قال: «قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا** ﴾[يونس: ٣٦] إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأنه ظن، ثم بين منزلة الظن من المعارف وبعده عن الحق، والظن في هذه الآية على بابه في أنه معتقد أحد جائزين، لكن ثم ميل إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر»(١) .

فالظن بهذا المعنى ميل إلى أحد شيئين دون حجة تبطل طرفا وتثبت آخر، فهو إذن اتباع للدوافع النفسية التي توجه العقل ليحكِّم تبعا لذلك الهوى الذي أملته تلك الدوافع، كفساد منطق أهل التثليث، وفساد منطق أهل الشرك قديما وحديثًا، وفساد منطق الملحدين.

ولكي يستقيم منطقهم لا بد من صفاء نفوسهم إذ أن صفاءها مما يورث الذكاء ويعمقه كما يقول ابن نبي.

٢ ـ الجهل: وهو كثيرا ما يؤدي إلى الأحكام الظنية، التي ليس للإنسان

---

(١) ابن عطية المحرر الوجيز ج٧ ص ١٤٨

عليها أي برهان، لافتقاره إلى المعرفة الكافية لإصدار الأحكام الصحيحة على قضية معينة، وقد أصاب النيسابوري عندما علل مسألة اتباع الظن عند الأكثرية بقوله : « يتبعون ظنا لأنهم لم يأتهم بذلك كتاب ولا رسول »[1] ، بمعنى أنهم يجهلون الحقائق المتعلقة بموضوع غيبي كالألوهية والربوبية والنبوة والبعث فيبنون أحكامهم على الظن، وهو لا يغني من الحق شيئا في مثل هذه المسائل، وإنما مجاله الاحتمالات الحسية والتاريخية التي يمكن التحقق منها بالدراسة والتمحيص والتجريب والامتحان، فهم كما يقول المهايمي : قد أصيبوا بشك « حصل لهم من رؤية آثار ظنوا أنها منسوبة إلى شركائهم مع أنها لله »[2] ، أي أن هذا الظن توهُّمٌ نشأ عن قلة علم بربط العلاقات بين الأسباب والمسببات والقوة القادرة على فعل ذلك، وبهذا « يكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم العلم »[3] .

٣ ـ قلة التحقيق : ميزة الظن الأساسية عند أصحاب المناهج هي الدعوة إلى الحرص على تحقيق الأشياء والأفكار قبل إصدار الأحكام عليها، إذ الحكم على الشيء منبثق عن تصوره وفهمه؛ لأن اتباع الظن بغير برهان ولا دليل يتسبب في ميل العقل والقلب إلى الشيء نتيجة لتأثير من التأثيرات المختلفة، وذلك هو المذموم من الظنون .

وعلى هذه القاعدة بالضبط بنى قطب تفسيره للآية ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا﴾ [يونس:٣٦] فقال « لا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملاً ولا عقلاً، وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة، ولا يمتحنون هم هذه الخرافة، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظني، وهم يظنون أن الله لا يوحي إلى رجل منهم، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا

---

(١) النيسا بوري : الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢ / ١٤٧

(٢) المها يمي : تفسير تيسير المنان ج١ / ٣٢٧ علم الكتب ـ بيروت ـ

(٣) رشيد رضا : تفسير المنار ج ١١ / ٣٦٤

على الله، وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ﷺ ولا يحققون إن كان محمد – وهو بشر – قادرا على تأليف هذا القرآن بينما هم لا يقدرون وهم بشر مثله »[1].

٤ ـ التقليد : وهو مرض عضال لم ينج منه إلا الذين تمردوا عليه تمرداً إيجابيا، وذلك لأن المقلد يلغي عقله حتى في القضايا المصيرية الكبرى الأخروية والدنيوية، قال ابن الجوزي : « وإني رأيت كثيرا من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتفق، وربما كان دليلهم العادات وهذا أقبح شيء يكون ثم رأيت خلقا كثيرا لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى فإنهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا، وكذلك يثبتون الإله ولا يعرفون ما يجوز عليه وما لا يجوز، فينسبون إليه الولد ويمنعون جواز تغييره ما شرع، وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في إثبات الصانع وما يجوز عليه، ولا في الدليل على صحة النبوات فتقع أعمالهم ضائعة »[2] .

ولقد صدق الغزالي حين قال:« إن المقلد لا يصغي، والبليد وإن أصغى فلا يفهم »[3]، إذ كيف يصغي وقد رسم لقلبه ونفسه رسما لا يبرحانه أبداً حتى ﴿ **يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾[الأعراف : ٤٠] على حد التعبير القرآني،إن التقليد جمود على الإرث الثقافي باعتباره مسلمة يقينية، وهو غالبًا ما لا يكون كذلك .

فمن أصيب به من أمة أو فرد فَقَدَ القدرةَ على إعمال العقل مما يؤدي إلى الاعتقاد القائم على الظن، قال البقاعي : « (إلا ظنا) تنبيه على أنهم هم مقلدون وتابعون للأهواء »[4]،ويرى رشيد رضا أنهم يفعلون ذلك : « تقليداً لآبائهم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ١١ / ١٧٨٤

(٢) عبد الرحمن ابن الجوزي : صيد الخاطر ـ مكتبة رحاب الجزائر ـ

(٣) القسطاس المستقيم :٨٥ (٤) نظم الدرر : ٣ / ٤٤٢

وتعظيما لشأنهم أن يكونوا على باطل في اعتقادهم وضلال في أعمالهم»[1]. وهكذا يتبين لنا أن التقليد سببه بناء الفكر على مجرد الظن بعيدا عن البرهان والدليل.

وخلاصة القول: إن اتباع الظن مذموم في المنهج الإسلامي، ما لم يبن على تحر وامتحان على شاكلة ما رأينا في منهج الشك العلمي الذي يبنى على الفرضيات ثم يعمل على التجريب والاختبار حتى يصل إلى الحق فيتبعه عندئذ ليصدر حكما علميًا، وهذا مجاله الحسيات، أما اتباع الظن تقليداً للآباء تعظيمًا لشأنهم، أو جهلاً بالمعطيات العلمية المؤدية إلى الحكم العلمي الصحيح، أو لقلة الخبرة بأساليب الامتحان والاختبار للفرضيات، أو لفساد في المنطق لسبب من الأسباب فكل ذلك لا يغني من الحق شيئا في مجال المحسوسات فضلا عن مجال الغيبيات التي ليس للإنسان طريق لإدراكها غير الهداية الربانية عن طريق الوحي.

وإنما تسامح المنهج الإسلامي في استخدام الظن بعض التسامح في الشريعة لأنها أحكام تتعلق بالحس الذي يمكن للعقل أن ينشط فيه متى كان صاحبه سوي النفس زكي القلب مأمونا من اتباع الهوى، قال البقاعي: «ولما كان الظن لا ينكر استعماله في الشرائع نبه على أن محله إنما هو حيث لا يوجد نص على المقصود فيقاس حينئذ على النصوص بطريقه»[2]، وقال ابن عطية «وأما في طريق الأحكام التي تعبد الناس بظواهرها فيغني الظن عن تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق»[3].

وعلى أن الظن طريق في بحث المحسوسات للوصول إلى الحقيقة عن طريق وضع الفروض فإننا نرى قول الله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[فصلت ٥٣] مما يعزز هذه الفكرة، لأن رؤية الآيات

---

(١) تفسير المنار: ١١/٣٦٤

(٢) نظم الدرر: ٣/٤٤٢

(٣) المحرر الوجيز: ٧/١٤٨

بهذا الشكل يتطلب البحث والتجريب الحسي، قال ابن كثير بصدد تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[الكهف: ٣٥ - ٣٦] «لما رأى فيها من الزرع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾[الكهف: ٣٦] أي كائنة »[١].

ولما كان الظن لا يغني من الحق شيئا وكان السبيل إلى طمأنة النفس إزاء تلك المعارف هو التحقيق والتمحيص والامتحان فقد نشأ لهذا الهدف علم التجريح والتعديل فكان «التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط»[٢].

● المبحث الرابع : الجدل ومشكلة الحق :

الجدل أسلوب من أساليب كشف الحقيقة متى استعمل في موضعه، وهو بدون شك يختلف عن الحوار، لأن الحوار يقترن بالاتزان النفسي وحب كشف الحقيقة لاتباعها، بينما الجدال في الغالب يتميز بالتعصب والغلظة وفي لسان العرب الجدل الشدة ومنه شدة الخصومة وفي الحديث «ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا»، والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لا إظهار الحق[٣] لأن المجادل يبني كلامه على حكم مسبق، يريد أن يفرضه على الخصم، ولهذا

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٨٣

(٢) ابن خلدون المقدمة :١/ ٦١

(٣) لسان العرب : مادة جدل: ١١/ ١٠٤-١٠٥

السبب نجد المجادلين يميلون لكثرة الأدلة والحجج والبراهين كي يقنعوا أو يقتنعوا، وقيل :« لا تعتبر فيه الحقيقة وعدمها بل عموم الاعتراف والتسلية »[1]، قال القرطبي :« والمجادلة : دفع القول عن طريق الحجة بالقوة، مأخوذ من الأجدل، طائر قوي، وقيل : هو مأخوذ من الجدلة، وهي الأرض، فكأنه يغلبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض، وقيل هو مأخوذ من الجدل وهو شدة الفتل، فكأن كل واحد منهما يفتل حجة صاحبه حتى يقطعها، وتكون حقًا في نظرة الحق وباطلاً في نظرة الباطل »[2]، قال القرطبي :« لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والفهم والإنصاف وإلا فهو مراء ومكابرة »[3] .

وقد بين المولى تبارك وتعالى هذه الصفة التي تلتصق بالطبع الإنساني فقال :﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾[الكهف ٥٤] ثم قال بعدها :﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[الكهف ٥٦]، فبين أن الإنسان أكثر المخلوقات جدلاً، ثم بين أن الهدف من ذلك الجدال في الغالب ليس هو كشف الحقيقة لاتباعها، ولكن في الغالب هو جهد عقلي يبذل لستر الحقيقة والتعمية عليها بالباطل، على الرغم من صرف الأدلة والبراهين المختلفة والمتنوعة ،وإن كان هذا النوع من الكفار لايجدي معه شيء، إلا أن يشاء الله، قال الزجاج في معنى الآية « الكافر أكثر شيء جدلاً »[4]، قال ابن كثير :« يقول تعالى ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق

---

(١) منجد اللغة والأعلام : مادة جدل (٢) الجامع لأحكام القرآن : ٧ / ٧٧
(٣) نفسه ٣ / ٢٨٧
(٤) القرطبي : الجامع في أحكام القرآن ١١ / ٥

بالباطل إلا من هدى الله وبصَّره لطريق النجاة[1]، وقال الزمخشري: «وانتصاب (جدلا) على التمييز، يعني أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء ونحوه ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[النحل: ٤] [2].

والشيخ بيوض يفسر الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾[يس: ٧٧-٧٨] لينتهي إلى أن «هذا المثال يبين لنا ويوضح معنى قوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف ٥٤] حقيقة أنها مجادلة غريبة من الإنسان لربه، صورها الله تعالى في هذه الصورة البديعة حقا لمن تذوقها»[3] وهو يرى أن في الآية إشارة إلى أن «يجادل معناه يكابر حتى في الحقائق الملموسة والأمور المرئية المحسوسة، ينكر الحق على شدة ظهوره، وينكر الشمس في وضح النهار، وينكر الشيء وهو يلمسه، وينكر الشيء وهو فيه، ... هذه الآية تصور وتبين بجلاء كيف أن الإنسان يجادل في الأمور الواضحة والحقائق الظاهرة حتى وهي في نفسه وذاته وشخصه، ينكرها أو ينكر أثرها وما تدل عليه»[4].

وهكذا يثبت أن الإنسان مع ما صرف الله له من الآيات والأدلة والبراهين الحسية التي تجعل الحقائق الغيبية محسوسة لديه وكأنها مرئية بالعين وملموسة باليد، «مع هذا فإن الإنسان عنود لا أشد مخاصمة ولا أشد جدلا منه»[5].

وحين تكون هذه هي صفة الإنسان في مجال الحديث عن الحقائق، فهذا يعني أن هذا هو منهج الأكثرية في المناقشات التي تدور حول الحقائق المعرفية الكبرى، بحيث تجعل هدفها من كل ذلك هو الغلبة والقهر ليستسلم الخصم بغض النظر عن الحقيقة، إذ لم تكن مقصودة أبداً، بل الهدف هو طمسها وتغييبها ليظهر الباطل ويشتد عوده.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٩٠
(٢) الكشاف ٢/٤٨٩
(٣) في رحاب القرآن ج سورة الكهف ص ٢٤٠
(٤) في رحاب القرآن: تفسير سورة الكهف ص ٢٣٩
(٥) نفسه ٢٣٨-٢٣٩

ولئن كان ابن خلدون قد عرف الجدل بقوله :«إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»[1] فإن تعبيره بلفظ «الهدم» يوحي بأسلوب الجدل وغايته، وربما لذلك أعقب التعريف بقوله «وهو من المناحي الحسنة، والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة، وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي والسوفسطائي، إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرف الاستدلال كما ينبغي»[2] .

وإذ قد تبين أن الجدل صورة من صور المحادثات مذمومة في الغالب، وأنها هي الصفة الغالبة على الحوار بين أبناء البشر، فإن علينا أن نبحث عن الأسباب التي جعلت الإنسان يتطبع بهذا الطبع، ويعدل عن الحوار إلى الجدل بكثرة.

لقد سبق الحديث عن الأسباب التي تدفع المرء إلى كره الحق وكتمانه واستخدام الحيل العقلية في تغطيته وتحريفه من كذب واعتماد الظن، وقد انكشفت لنا أسباب مختلفة كانت من الدوافع إلى كل ذلك كالعناد والمكابرة والجهل والبلادة والتقليد وغير ذلك،والآن نسأل :ما هي دوافع الإنسان للإكثار من الجدل حتى صار ميزته في الخصومات فوصفه الله كما رأينا بقوله : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ [الكهف ٥٤] وقوله : ﴿ **فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ [النحل:٤]

إن المفسرين يذكرون أسبابا مختلفة من شأنها أن تطبع الإنسان بهذا الطابع ومنها :

(أ) الكبر على الحق : وهو ما تكشف عنه الآية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** ﴾[غافر :٥٦]، أي ليس في قلوبهم إلا التكبر والتعاظم، وبه فسر سيد قطب الجدل الحاد الذي

---

(١) المقدمة ١ / ٨٢١ (٢) نفسه

كان بين سيدنا إبراهيم الخليل وأحد عناصر البشرية المكابرين الذين بلغ بهم التبجح إدعاء صفات الربوبية، حتى قال :﴿ **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾[البقرة: ٢٥٨]، قال قطب :« الكبر عن الرجوع إلى الحق يملك بالذي كفر فيبهت ويبلس ويتحير ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يلتمس الهداية ولم يرغب في الحق ولم يلتزم القصد والعدل »(١) .

والحق أن الكبر هو الدافع إلى المجادلة التي ليس من ورائها سوى إبطال الحق تمامًا كما صورها قول الله تعالى :﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾[الكهف ٥٦]، فغرض الجدال هنا ليس هو الوصول إلى الحجة، التي يثبت بها الحق، بل هو دحض الحق وهدمه لإقامة صرح للباطل، ولذلك تجدهم يجادلون حتى بعد البيان وإقامة الحجة :﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** ﴾ [الأنفال :٦] .

يقول قطب رحمه الله بصدد تفسير قول الله تعالى﴿ **إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ** ﴾[غافر :٥٦] : « إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ... يتشامخ ويتعالى يحيك في صدره الكبر يستمده من الشيطان الذي هلك بالكبر ثم سُلط على الإنسان فأتاه من قبله، وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر، وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة، وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع، ويجادل لأنه غير مستيقن، والله العليم بعباده، السميع البصير المطلع على السرائر، يقرر أنه الكبر، والكبر وحده هو الذي يحيك في الصدر وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدال فيما لا جدال فيه »(٢) .

ونظرا إلى أن الكبر هو سبب ذلك الجدال الباطل المضل، وأن محل الكبر هو القلب فإن الله سبحانه وتعالى أنزله به عقابًا، فقال :﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر ٣٥] بعد أن قال : ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** ﴾ [غافر ٣٥] .

---

(١) الظلال : ٣/٢٩٨ (٢) الظلال : ٢٤/٣٠٨٩

(ب) الجهل : وهو السبب الثاني الذي تكشف عنه الآية : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** ﴾[الحج ٣] ، ومعنى ذلك أن كثيرا من المجادلين إنما يدفعهم لذلك الجهلُ وقلة العلم، أو العلمُ المزيف الذي غالبا ما ينوب منابه، وهما عاملان مساعدان لتمكين الشيطان من النفس البشرية والتغلب عليها، مما يجعل الناس ينقادون له بسهولة ويتبعونه، سواء أكان شيطان الإنس أو شيطان الجن.

ويبدو أن الشيطان الذي يستحضره المجادلون له خصائص مميزة لذلك وصفه الله هنا بأنه ﴿ **شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** ﴾[الحج ٣] ، إذ المَريد هو العاتي المتجرد من كل خير، المتمحض لكل شر، أي أن هذه صفة تطلق على من جاوز حد أمثاله وبلغ غاية يخرج فيها من جملتهم. يقول الزمخشري: « ويتبع في ذلك خطوات كل شيطان عات، علم من حاله وظهر وتبين أنه من جعله وليًا لم تثمر له ولايته إلا الإضلال عن طريق الجنة والهداية إلى النار، وما أرى رؤساء أهل الأهواء والبدع والحشوية المتلقبين بالإمامة في دين الله إلا داخلين تحت كل هذا دخولاً أوليًا، بل هم أشد الشياطين إضلالاً وأقطعهم لطريق الحق حيث دونوا الضلال تدوينًا ولقنوا أشياعهم تلقينًا » (١) .

(ج) وحي الشيطان : وهذا السبب الثالث من الأسباب المشجعة على الجدل دفاعا عن الباطل و دحضًا للحق من أدق الأسباب وأخفاها وأشهدها على البشرية لخفائه وإصراره على التضليل، قال تعالى :﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾[الأنعام: ١٢١] . قال القرطبي: « أي يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدال بالباطل »(٢) .

وهذه الآية تكشف عن أمرين عظيمين؛ أما أولهما فإن مصدر الجدال هو وحي الشيطان إلى أوليائه من الإنس، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن

---

(١) الكشاف ٣/٥ (٢) الجامع لأحكام القرآن : ٧/٧٧

كان وحيه من الشيطان لا يمكن إلا أن يجادل في الحق كيفما كان ليظل الناس، والسياق الذي جاءت فيه الآية يبين أن الجدال هنا كان في حقيقة تشريعية تتعلق بالذبائح وأكل الميتة، قال ابن كثير : «قوله ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾[الأنعام:١٢١]... خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله فأنزل الله:﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[الأنعام:١٢١] [١] .

وروى أن السدي قال: « إن المشركين قالوا للمسلمين كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه، فقال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ [الأنعام : ١٢١] في أكل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١] أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك »[٢] .

وأما ثانيهما فإن طاعة الشياطين بما توحي به في مواضيع الجدل من شأنه أن يسوق إلى الكفر والشرك، وذلك لأن المجادل من شأنه أن يستخدم الحجج الملفقة التي تنطوي على الغافلين من الجهلة حتى يصلوا بهم إلى الكفر أو الشرك وهم لا يعلمون.

ومن يمعن النظر في ما آل إليه أمر العالم العربي في القرن العشرين من اتباع ملة الاتحاد السوفيات يجد الوسيلة المعتمدة في الإقناع هي الجدل الذي ابتدأه هيجل ثم عمقه ماركس ليفصل الناس عن دينهم بدعوى أن الدين أفيون الشعوب، بينما القصد هو «أن ليس تحمس المدرسة الماركسية لإخضاع الحقيقة لقانون الحركة والتطور إلا لأجل القضاء على الحقائق المطلقة التي تؤمن بها الفلسفة الميتافيزيقية » [٣] .

(د) الكفر : وهو الحال التي يعقد عليها القلب القاسي فيصبح مستعداً لاتخاذ كل الأسباب التي تدافع عن معتقده، ومنها الجدل الذي قال الله تعالى

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ١٧١ (٢) نفسه

(٣) محمد باقر الصدر : فلسفتنا ص ١٦٩ ـ دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٢

فيه :﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[غافر:٤] أي «ما يدفع الحق ويجادل في هذا القرآن بعد وضوح آياته وظهور إعجازه إلا الجاحدون لآيات الله المعاندون لرسله»[١]، قال الزمخشري : « سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر، والمراد الجدال بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله ... أما الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقاومة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها، فأعظم جهاد في سبيل الله »[٢]، وعلى هذا فإن المعنى «مايجادل في آيات الله أنها ليست من عند الله،فإن القرآن الكريم تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وإنما هو تلفيق وتستر عن عجزهم عن ذلك واعتصام بالمكابرة، فمجادلتهم بعد ما تقدم من التحدي دالة على تمكن الكفر منهم وأنهم معاندون »[٣].

فالكفار المكابرون الذين تمكن الكفر من قلوبهم وجعلها قاسية لا تعرف الحق ولا تقبل الالتفات إليه، مهما كانت الحجج والبراهين هم الطائفة التي تجادل في آيات الله وفي تشريعاته، أما المؤمنون فإنهم يتحاورون في مسائل لم يفهموها بغرض الفهم والإفهام، لا المغالطة والمغالبة.

* * *

(١) صفوة التفاسير ٣ / ٩٤
(٢) الكشاف : ٣ / ٤١٤ والقرطبي ١٥ / ٢٩٢
(٣) التحرير والتنوير ٢٤ / ٨٣

الفصل الثاني
موقف الأقلية من الحق

● توطئة:

لقد مر بنا الحديث عن موقف الأكثرية من الحق، ورأينا أن الأكثرية لها موقف عاطفي سلبي تمثل في كره الحق، وموقف عملي تمثل في إخفاء الحقيقة، وموقف عقلي تمثل في الكذب والظن وكثرة الجدل، وهذا يعني أن الأقلية ستكون في الطرف المقابل تحب الحق، وتكشف الحقيقة، وتصدق في الدعوة إليها، وتتحرى اليقين في مسائلها، وتتجنب الجدل في ما هو واضح، وتكره الباطل، وتصدق في التنفيير منه، وتتحرى الدقة في معرفة أهله كي تتجنبه.

وقد ورد في القرآن الكريم من النصوص الكثير مما يشير إلى هذا الموقف كقوله تعالى: ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[الأعراف: ١٨١]، وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[الحجرات: ٦-٨].

وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[الزمر: ١٧-١٨].

وقوله: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾[الزمر: ٢٣].

وقوله: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:٣٣]

ففي هذه الآيات نجد صفات الأقلية وموقفها من الحق، فهم مؤمنون قبل كل شيء، ومن ثم يتبينون ليتجاوزوا الظن ويحبون الإيمان الحق ويكرهون الكفر الباطل والفسوق والعصيان، ويتجنبون عبادة الطاغوت وينوبون إلى الله، ويستمعون إلى القول بدل اللجاج وكثرة الجدل، ويتبعون أحسن ما يسمعون بدل التعنت والتكبر والصدود، وإذا سمعوا الحق اقشعرت أبدانهم خشية، ولانت جلودهم وقلوبهم لذكر الحق، بل ودمعت عيونهم لما عرفوا من الحق تماما كما قال في حقهم المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾[المائدة:٨٣-٨٤]، فانظر إلى موقف هذه الأقلية النصرانية من الحق، إن عيونهم لتدمع، بل تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، وإن قلوبهم لتخشع فتنفجر حناجرهم بالدعاء ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[المائدة:٨٣]، ثم هي تلوم نفسها إذا تأخرت في الاستجابة للحق، وتتساءل: ﴿ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾[المائدة:٨٤]، ثم إنها أخيرا تعقد العزم أن تنتمي إلى صف أهل الحق: ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾[المائدة:٨٤].

إن هذه الآيات تعبر بدقة وشمولية عن موقف الأقلية من الحق، وهناك آيات أخرى تكشف عن موقفها بصريح اللفظ الذي ينص على موقف الأقلية متجليا في الذكر والرجوع والتذكر والنهي عن الفساد، والدفاع عن الحق، ولذلك سنتناول هذه العناصر في مبحثين:

- **المبحث الأول: الهداية بالحق والعدل به:**

الآية التي ستأتي من سورة الأعراف وهي سورة مكية تعالج بصورة أساسية مسألة العلاقة بين الناس والحق، وتعبر عن الأقلية بلفظ مغاير هو لفظ

«أمـة» ، إذ قـال تعـالى :﴿ وَمِـمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّـةٌ يَهْـدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْـدِلُونَ ﴾ [الأعـراف :١٨١] ، وهذه الآية وقعت في سياق كان يقيِّم الأكثرية بقوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف :١٧٩] ففهم من ذلك أن هذه الأمة تمثل الوجه المقابل وهو الأقلية، ذلك لأن آية أخرى من السورة نفسها قد عبرت بلفظ الأمة للدلالة على الأقلية من قوم موسى عليه السلام هي قوله تعالى :﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْـدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] ، وقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال في تفسير هذه الآية :«هم هذه الأمة» وروي أنه قال : « هذه لكم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها » ، وقرأ هذه الآية ثم قال : « إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم »(١) .

وإذا ثبت هذا فمعناه أن أول صفة للأقلية هي أنهم :﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[الأعراف :١٥٩] ، ومعنى كونهم يهدون بالحق أنهم يحبونه ويدافعون عنه ويعتنقون مبادئه ويعملون بتشريعاته، ويتجاوزون ذلك لأنه فرض عين ، إلى هداية الناس به قولاً وعملاً واعتقاداً، بل ويتجاوزون ذلك إلى إقامة العدل بين الخلق بواسطته فهم ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾[الأعراف :١٥٩] . قال ابن كثير: في معنى الآية : من بعض الأمم أمة قائمة بالحق قولاً وعملاً يقولونه ويدعون إليه ويعملون ويقضون به قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة »(٢) .

ولا شك أن إشارة الحديث للطائفة يثبت تلك الصفة للأقلية، فهي التي تحرص على الدين وتسهر على إقامة العدل به حتى قيام الساعة، فالأمة بالمصطلح الإسلامي للأمة ويعني : « الجماعة التي تدين بعقيدة واحدة وتتجمع على

---

(١) القرطبي : الجامع ٧/٣٢٩ ، وانظر الجلالين ص ٢٣٠

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/٢٦٩

آصرتها، وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة، فهذه الأمة الثابتة على الحق، العاملة به في كل حين، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض، الشاهدة بعهده على الناس، التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل»[1] ، فهذه الجماعة القليلة تتصف بصفتين كما يقول قطب :

(أ) ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾[الأعراف:١٥٩] : إن صفة هذه الأمة التي لا ينقطع وجودها من الأرض أيا كان عددها أنهم (يهدون بالحق) فهم دعاة الحق ، لا يسكتون من الدعوة به وإليه، ولا يتقوقعون على أنفسهم، ولا ينزوون بالحق الذي يعرفونه، ولكنهم يهدون به غيرهم، فلهم قياده فيمن حولهم من الضالين عن هذا الحق المتنكرين لذلك العهد، ولهم عمل إيجابي لا يقتصر على معرفة الحق، إنما يتجاوزه إلى الهداية به والدعوة إليه والقيادة باسمه.

(ب) ﴿بِهِ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف:١٥٩] فيتجاوزون معرفة الحق والهداية إلى تحقيق هذا الحق في حياة الناس والحكم به بينهم تحقيقا للعدل الذي لا يقوم إلا بالحكم بهذا الحق، فما جاء هذا الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس ، ولا مجرد وعظ يهدي به ويعرف إنما جاء هذا الحق ليحكم أمر الناس كله، يحكم تصوراتهم الاعتقادية فيصححها ويقومها على وفقه، ويحكم شعائرهم التعبدية فيجعلها ترجمة عنه في صلة العبد بربه، ويحكم حياتهم الواقعية فيقيم نظامها وأوضاعها وفق منهجه ومبادئه ويقضي بشريعته وقوانينه المستمدة من هذه الشريعة، ويحكم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيمها كلها على التصورات الصحيحة المستمدة منه ، ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافتهم كلها فيضبطها بموازينه، وبهذا كله يوجد هذا الحق في حياة الناس ويقوم العدل الذي لا يقوم إلا بهذا الحق ، وهذا ما تزاوله تلك الأمة بعد التعريف بالحق والهداية به[2] .

---

(١) في ظلال القرآن ٩ / ١٤٠٢

(٢) في ظلال القرآن ٩ / ١٤٠٢-١٤٠٣

إن الآية المحورية التي هي قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨١] ، حين نفسرها في ضوء الحديث: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة »[١] تسمح لنا باستنتاج ما يلي:

١- الأمة الهادية إلى الحق باقية إلى يوم الدين.

٢- هذه الأمة تمثل الأقلية.

٣- لا تتضرر الأقلية الصالحة بمن خذلها ولا بمن خالفها.

● **المبحث الثاني: تذكر الحق**

قال ابن باديس رحمه الله: « الذكر حضور الشيء في القلب الحضور الثاني بعد زواله منه، المسبوق بحضور متقدم، هذه حقيقته، وقد يطلق على الحضور الأول توسعًا، وزواله بعد حضور هو النسيان، فهما ضدان »[٢] وهو أصل من أصول الدين العظيمة وتعبر عنه الآيات التالية:

١- ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ٣] ، أي قليلا ماتتذكرون أن الحق يقتضي اتباع ما أنزل إليكم من ربكم.

٢- ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، أي قليلا ماتتذكرون أن الحق يستوجب التوحيد.

٣- ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٦٩

(٢) ابن باديس: مجالس التذكير: ٣٨

٤ ـ ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٢]

إن ثلاث آيات من هذه الآيات الأربع استعملت صيغة ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وواحدة استعملت صيغة ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فكانت الصيغتان متقاربتين وكان اللفظ الدال على القلة صريحا، وإن كان الذهن سينصرف إلى أن المقصود هو قلة التذكر للحق في كل ماذكر تبعا للمفعول المحذوف في كل آية، وليس قلة أهل الذكر، والحق أن الأمر لا يختلف كثيرا، إذ أن قلة التذكر يؤول أمرها في النهاية إلى قلة الذاكرين، واحتواء جميع صيغ هذه الآيات على الحرف (ما) لتقليل القليل[1] ، وبذلك سيتبين موقف الأقلية من الحق في مقابل موقف الأكثرية منه كما رأينا .

وعند تأمل الصيغ الأربع نجد المفعول به محذوفا فيها جميعا، ومعناه أن المحذوف يفهم من الآية كلها .

وهكذا يصبح ما يتذكره الأقلية من الناس يتجدد مع كل آية، ففي الآية الأولى يكون التقدير، قليلا ما تتذكرون ضرورة اتباعكم الوحي الذي أنزل على نبيكم والحكمة التي أعطيها، أي قليلا ما تتذكر البشرية أن موقفهم من الحق يقتضي اتباع ما أنزل إليهم من ربهم، واتباع سنة نبيهم والعمل بهما .

والتقدير في الآية الثالثة : قليلا ما تتذكرون أن التسوية بين الأعمى والبصير وبين المؤمنين العاملين للصالحات من جهة، والمسيء من جهة أخرى غير قائم، وأنه عين الضلال .

وفي الآية الثانية يكون التقدير : قليلا ما تتذكرون أن الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فيكشف ما نزل به من علة، ويستخلفه في الأرض إذا استحق ذلك إنما هو الله الواحد الذي لا شريك له .

---

(١) الجلالين ٥٠٧

وفي الآية الرابعة يكون التقدير : قليلا ما تتذكرون أن القرآن حق أنزل من عند الله فما هو بقول شاعر ولا كاهن.

وهكذا يصبح موقف الأقلية من الحق موقفًا إيجابيًا يتميز بالتذكر للحق في مستويات مختلفة، مستوى الاتباع للحق وأهل الحق، ومستوى التوحيد في التوكل على الله، ومستوى التمييز بين طريق الحق وطريق الباطل، ومستوى التعرف على الحق المنزل على رسول الله ﷺ.

١ ـ مستوى الاتباع للحق وأهله: وهو ما تجسده الآية :﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[الأعراف:٣] ، فالآية هنا تنص على أن تذكر قضية اتباع الحق قليلاً ما تشغل عقل البشرية، فهي عملية عقلية لا تقوم بها إلا الأقلية من الخلق، وأما الأغلبية العظمى فتهجره، وتتخذ صاحبه عدواً، ولا شك أن «هذه هي قضية هذا الدين الأساسية، إنه إما اتباع لما أنزل الله فهو الإسلام لله والاعتراف له بالربوبية وإفراده بالحاكمية التي تأمر فتطاع ويتبع أمرها ونهيها دون سواه وإما اتباع للأولياء من دونه فهو الشرك، وهو رفض الاعتراف لله بالربوبية الخالصة ... أما الرسول ﷺ فالكتاب منزل إليه ليؤمن به ولينذر ويذكر، وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ولا يتبعوا أمر أحد غيره، والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم، والتخصيص والاستجاشة، فالذي ينزل له ربه كتابًا ويختاره لهذا الأمر، ويتفضل عليه بهذا الخير جدير بأن يتذكر وأن يشكر وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر» (١) .

وإذا كان الاتباع هنا قد اقتضى التكريم والاختصاص، فإن ذلك كان صفة الأقلية التي تميزت بتذكر ضرورة الاتباع للوحي والعمل به ومساندة أهله والوقوف في صفهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٨ / ١٢٥٩

٢ ـ مستوى التوحيد لله في التوكل : وتعبر عنه الآية :﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[النمل:٦٢] .

فالآية تشير إلى أن الذين يتذكرون حق التذكر ـ أن الذي يستحق التوكل لكونه هو من يجيب المضطر مطلقا إذا دعاه فيزيل ما به من هم معنوي أو مادي، وهو من يقدر على أن يستخلفهم في الأرض هو الله الواحد ـ إنما هم الأقلية القليلة، إذ أن « ما » في قوله ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ « زائدة لتقليل القليل »(١) .

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى :﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[النمل:٦١] ، أي لا يعلمون الحق، لتكون مناظرة لها، أي لتبين موقف الأقلية من الحق، وهو التوحيد والتوكل الحق .

قال القرطبي :« ضمَّن تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه، والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص، وقطع القلب عما سواه، وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة ... فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه »(٢) .

وقد مر بنا الحديث في أن المخلصين يمثلون الأقلية على مستوى العقيدة، قال ابن كثير في معنى قوله تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ :« أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم »(٣) ، وهذا الذي ذكره ابن كثير هو ما قررته الآية ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[الأنفال:٤٥] لأن الفلاح متوقف على كثرة الذكر لله واستحضار عظمته والتوكل عليه، وذلك كله يستوجب الإيمان بوجوده، قال الطبيب دي نوي :« كثيرا من الأذكياء وذوي

---

(١) الجلالين ٥٠٧

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٢٣

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٧١

البنية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله؛ لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرباء .. فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل، وليس الكهرب قابلا للتصور في كيانه المادي وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب »[1] .

٣ ـ مستوى التمييز بين الحق والباطل : وتبينه الآية : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ** ﴾[غافر:٥٨] ، وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى :﴿ **خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[غافر:٥٧] وقوله تعالى ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[غافر:٥٩] ، لبيان التناظر بين موقف الأكثرية وموقف الأقلية، فالأكثرية لا يعلمون الحق ولا يؤمنون به والأقلية يؤمنون به ويعلمونه[2] ، بل ويجيدون التمييز بينه وبين الباطل، فالأقلية القليلة هي التي تدرك أن هناك فرقا بين الأعمى والبصير وبين المحسن والمسيء، أما الأغلبية فإنها لا تعلم من ذلك شيئا لدرجة أنها لا تدرك حتى أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس على وضوحه وبيانه لكل ذي بصيرة، قال ابن عاشور « إطلاق الأعمى والبصيرة استعار للفريقين اللذين تضمنهما قوله :﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[غافر:٥٧] و(قليلا) حال من قوله : (أكثر الناس) ... وهذا مؤكد لمعنى قوله :﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[غافر:٥٧] لأن قلة التذكر تؤول إلى عدم العلم، والقلة هنا كناية عن العدم وهو استعمال كثير، كقوله تعال : ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾[البقرة:٨٨][3] . وقيل إن الخطاب لجميع الأمة من مؤمنين ومشركين وأن التذكر القليل هو تذكر المؤمنين فهو قليل بالنسبة لعدم تذكر المشركين[4] .

---

(١) في ظلال القرآن ٢٩ / ٣٦٨٥
(٢) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٧٧
(٣) ابن عاشور التحرير والتنوير ٢٤ / ١٧٩
(٤) نفسه

وعلى العموم فإن النص جاء هنا لبيان فضيلة الأقلية التي تجيد إدراك الفروق القائمة بين الكافر الضال والمؤمن البصير، وبين الذين يحسنون العمل والذين يسيئون، على رذيلة الأكثرية الذين لا يعلمون شيئا من ذلك ومن ثم فهم لا يؤمنون.

تأمل موضع هذا النص الذي يعبر عن مكانة الأقلية بين الأكثريتين تدرك ذلك ببساطة: ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾[غافر:٥٧-٥٩].

والحق أن الآيات الثلاث جاءت لبيان الفرق بين موقفين متعارضين، يمثل الأول الأكثرية، ويمثل الثاني الأقلية، ولكل منهما منهج خاص في الإدراك، بحيث يؤدي الأول إلى الضلال، ويؤدي الثاني إلى الهدى، وإنما نقول ذلك لأن سياق هذه الآيات بمثابة تحليل لمسألة الجدال التي مر الحديث عنها في مطلب الجدل باعتباره آلية من آليات البحث في مشكلة الحقيقة، عند دراسة الآية: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[غافر:٥٦]، حين بينا أن المجادلة في آيات الله عناد وجحود ومكابرة لا تصدر إلا من جهول، لأن «المجادلة في آيات الله لا تكون بغير سلطان لأن آيات الله لا تكون مخالفة للواقع»(١) ومن ثم كان المنطق يفرض الاقتناع بها بمجرد سماعها لقوة حجتها.

وعلى هذا فإن الآيات السابقة مرتبطة كلها مع أنها تعبر عن موقفين متعارضين، هذه الآية، ومناسبة اتصالها بآية الجدال، تبين أن أهم ما جادلوا فيه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٧٣

من آيات الله هي الآيات المثبتة للبعث، وجدالهم فيه شبهة كبيرة ضللتهم وضللوا بها عامتهم إذ من الواضح أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلقهم[1] ولكن لم يكونوا قادرين على الإدراك المميز كالأقلية.

والسبب في أن كانت هذه الأقلية قادرة على إدراك الحق والتمييز بين الضلال والهدى على المستوى النظري، والإحسان والإساءة على المستوى العملي هو أن التقوى والإيمان من شأنهما أن يزيدا الإنسان هدى وإدراكا قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾[محمد: ١٧] وقال ﴿ **إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا** ﴾[الانفال: ٢٩]، فلكي يكتسب المرء القدرة على التمييز بين الحق والباطل ينبغي أن يكون طاهر القلب نقي الفؤاد، إما بسبب الفطرة، وإما بتزكية النفس بالعبادات الموصلة إلى التقوى، قال ابن خلدون: « العلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف، وليس الاتصاف بحاصل من مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة، فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة، فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع وهذا علم أكثر النظار، والمطلوب إنما هو العلم الحالي الناشئ عن العادة »[2].

٤- مستوى التعرف على الحق المنزل على أنبياء الله: وهو الذي توضحه الآية: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[الحاقة: ٣٨-٤٢]، معظم المفسرين يجعلون الخطاب موجها لكفار قريش، ولذلك يفسرون « قليلا » بالعدم، قال الزمخشري: « والقلة في معنى العدم أي لا تؤمنون ولا تذكرون البتة »[3]، والحق أن الخطاب للبشرية كلها، ومن ثم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤ / ١٧٥

(٢) المقدمة ٢ / ٨٢٦-٨٢٧

(٣) الكشاف ٤ / ١٥٤

يكون معنى القلة هنا قلة عددية، أي أن الذين يؤمنون حق الإيمان أنك رسول وأن القرآن رسالة الله إلى خلقه، ويعملون عقولهم فيتفكرون للوصول إلى ذلك قليل عددهم، قليل تفكيرهم في ذلك، فمفعول تذكرون هو ما سبق كله، أي قليلا ما تتذكرون أنه ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، ولو تفكرتم فيه حق التفكر لتعرفتم عليه، وأيقنتم أنه الحق المنزل على نبي الله محمد ﷺ من عند الله، لأنه مباين لأقوال الشعراء والكهان شكلا ومضمونا، إذ الجانب البشري واضح في كلام هؤلاء، والجانب الرباني واضح في القرآن الكريم، لأن الكلام مرتبط بالمتكلم قوة وضعفا، وجمالا ورداءة، وقد سئل أبو بكر الصديق عن قول المتنبئين فقال: «ويلكم أين ذهبت عقولكم والله إن هذا الكلام لايخرج من إلٍّ»(١)، أي لا يصدر عن أصل عظيم كالذي يصدر عنه القرآن. قال قطب: «ولقد كان مما تقوَّل به المشركون على القرآن وعلى رسول الله - ﷺ - إنه شاعر وإنه كاهن، متأثرين في هذا بشبهة سطحية منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على الكلام، وأن الشاعر في وهمهم له رأيٌّ من الجن يأتيه بالقول الفائق، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن، فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع وهي شبهة تسقط عند أول تدبر لطبيعة القرآن والرسالة وطبيعة الشعر أو الكهانة فالشعر قد يكون موسيقي الإيقاع، رائع الأخلية جميل الصور والظلال، ولكنه لا يختلط أبدا ولا يشتبه بهذا القرآن، إن هناك فارقا أساسيا فاصلا بينهما، إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت ونظرة موحدة ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت وللكون والحياة كذلك، والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب...فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور لم يسبق لهم هذا ولم يلحق، وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقوة المنشئة له المدبرة لنظامه، هذا هو معروضا مسجلا في الفلسفة وفي

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٧٠

الشعر وفي غيرها من المذاهب الفكرية، فإذا قرن إلى التصور القرآني وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة أو أنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر...فالشبهة واهية سطحية حتى حين كان القرآن لم يكتمل ولم تتنزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهي الخاص، وفيها ذلك القبس الموحي بمصدرها الفريد »[1] .

وعلى هذا فإن القلة القليلة من البشر هي التي تتذكر وتعمل فكرها في القرآن لتتأكد من هذا المصدر الفريد الذي يمكن أن يصدر عنه مثل هذا القول العظيم الذي حارت البشرية كلها فيه مضمونًا وجمالاً، ولا شك أن الذين يتذكرون لا يصلون في النهاية إلا إلى الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع، والعصر الحديث يكشف لنا عن هذه الحقيقة التي سجلت أسماء لامعة لعلماء من الغرب دخلوا الإسلام بتفكرهم في القرآن الكريم.

وخلاصة القول: إن موقف الأقلية من الحق كان دائما يتحرك في الاتجاه الإيجابي الذي يحقق للبشرية كلها كامل الخيرات ويعمل بتوفيق من الله على حفظ قيم الحق والخير من الضياع والزوال من المجتمعات؛ لأن الحرص على الحق هو الحرص على صلاح البشرية.

وقد تمثل موقف الأقلية من الحق في نقاط أساسية منها على الخصوص:

١ - الموقف العاطفي متمثلا في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ**﴾ [الحجرات: ٧] ، ومن الواضح أن حب الإيمان وكره الكفر يستتبع الصلاح الشامل، لذلك عقب على الآية بقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[الحجرات: ٧-٨] .

---

(١) في ظلال القرآن: ٢٩ / ٣٦٨٦-٣٦٨٧

٢ – الموقف التعبدي متمثلا في خُلُق التذكر وما يستوجبه من ا لالتزام بسبب حضور القلب، في العبادات والمعاملات، وانشغاله بالله قبل انشغاله بالدنيا.

٣ – الهداية بالحق وتحقيق العدل بواسطة التشبث به وتوظيفه في الحياة البشرية

٤ – وقد استنتجنا من الأحاديث الشارحة لبض جوانب موقف الأقلية من الحق أن هذه الأقلية يحميها الله دائما لأنها تحمي الحق ،فهي ضمان بقائه واستمراره، ويعزز هذا الاستنتاج قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [الحج: ٣٨]

* * *

الباب الرابع
الأكثرية والأقلية على مستوى السلوك

● **توطئة الباب:**

حديث الرسول صلى الله عليه و سلم الذي يقول فيه «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر،وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي،والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[1] يبين العلاقة القائمة بين الجانب النظري والعملي في أعمال الخلق، إذ التصديق لكل الأماني يكون بالأفعال، ومعنى ذلك أن السلوك البشري ، يملك أهمية كبيرة لكونه الأداة المنفذة لكل التصورات والأفكار الحسنة أو السيئة .

ونحن هنا إذ نعالج مشكلة الأكثرية والأقلية على مستوى السلوك البشري ينبغي أن نعرف أنها ستكون مكملة للمشكلة نفسها على المستويات التي رأيناها في الأبواب الثلاثة السابقة، التي تناولت معا مشكلة الأكثرية والأقلية على مستويالعقيدة ومستوى المعرفة، ثم مستوى الموقف من الحق.

على أننا ينبغي أن نتساءل الآن بخصوص السلوك ، هل يكون ـ باعتباره جانبا عمليا للعقيدة والمعرفة، وموقف الناس من الحق ـ مطابقا لها في النتائج، بمعنى أن السلوك السلبي سيكون طابع الأكثرية، والسلوك الإيجابي طابع الأقلية؟ أم أن الإنسان سيكون بطبعه نظريا، ومن ثم سيكون السلوك الذي يصدر عنه مختلفا بعض الاختلاف الكمي عن المعرفة والعقيدة والموقف من الحق ؟.

النص الشهير في علاقة النظري بالعملي هو قول الله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾[الرعد: ١١] وفحواه يوحي بأن العلاقة

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/١٠٧ـ تفسير ابن كثير: ٣/٢٦٩ شرح النووي على الصحيح : ١٦/٢٠٥

بينهما علاقة ترابطية، تشبه علاقة مقدمات الأشياء بنتائجها، ومعناه أننا نتصور أننا سننتهي في مشكلة السلوك إلى نفس النتائج التي انتهينا فيها في مشكلتي المعرفة والعقيدة.

ولكي نتبين الأمر عن كثب ينبغي معالجة النصوص التي تناولت مشكلة الأكثرية والأقلية على مستوى السلوك، ولهذا سنخصص فصلا للأكثرية، وآخر للأقلية، ثم نصل في النهاية إلى صياغة النتائج التي يحققها البحث بخصوص هذه المشكلة الخطيرة في حياة البشرية، لاسيما بعد أن ظهرت النزعة الانتخابية التي تقيم أساسها على ضرورة خضوع الأقلية للأغلبية، بدلا من العمل بمبدأ الشورى الذي يقوم على علاقة تسيير شؤون الأمة بأهل الحل والعقد من ذوي الألباب خاصة، على اعتبار «أن المشاورة هي الاجتماع على الأمر، ليستشير كل واحد منهم صاحبه ويستخرج ما عنده»[1].

* * *

(١) أبو بكر ابن العربي: أحكام القرآن: ١/ ٢٩٧ـ ط: الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٧ـ وانظر: الشورى في ضوء القرآن والسنة: ص: ٣١ لحسن ضياء محمد عتر، دار البحوث والدراسات الإسلامية وإحياء التراث: دبي – الإمارات العربية المتحدة

الفصل الأول
الأكثرية على مستوى السلوك

● **توطئة :**

إن الجوانب السلوكية التي عرضت لها النصوص القرآنية بخصوص الأكثرية كثيرة، منها الفسق، وسوء الأفعال، وإيذاء الخلق، والمسارعة في العدوان والإثم، والإسراف والتقتير، وكثرة القتل وسفك الدماء.

ولما كانت هذه الموضوعات مختلفة بعض الاختلاف، فإن البحث في التفسير الموضوعي التجميعي باعتباره منهجا في التفسير يستهدف سبر أغوار الموضوعات القرآنية للخروج بنظرية فيها أو بتصور سليم حولها يقتضي توزيعها على مباحث تتناول النصوص حسب تناسبها في المعنى، بحيث يفسر بعضها بعضا أو يكمل جزؤها الجزء الآخر، فالإسراف مثلا يعالج مع التقتير لكونهما يتعلقان بالمالية، فالإيذاء مثلا يعالج مع القتل، وإساءة الأعمال مع المسارعة في الإثم والعدوان.

ولما كان الفسق قد تكرر كثيراً، وكان لفظه شاملا فسنخصص له مبحثًا نحلل فيه الآيات لنبرز الظاهرة ونبحث عن أسبابها ونتائجها، وعلى هذا فإن هذا الفصل سيتضمن المباحث التالية :

١ ـ المبحث الأول : الفسق كسلوك للأكثرية

٢ ـ المبحث الثاني : إساءة العمل والمسارعة في الإثم والعدوان.

٣ ـ المبحث الثالث : الإيذاء والقتل.

* * *

● **المبحث الأول : الفسق كسلوك للأكثرية :**

النصوص القرآنية التي تناولت الفسق كمظهر وسلوك من سلوك الأكثرية من جنس البشر تسعة، وهو عدد كبير، شمل الطبيعة البشرية كلها أحيانا كما

في الآية التاسعة والأربعين من سورة المائدة التي جاء فيها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٤٩] وخصص أخرى بأهل الكتاب، كما في قوله تعالى :﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران:١١٠] وخصص المشركين ثالثة كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[التوبة:٨] كما خصص المسيحيين رابعة في قوله تعالى :﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

ولتعدد النصوص التي تعالج ظاهرة الفسق كمظهر من مظاهر سلوك أغلبية البشرية فإننا سنتناولها بحسب التصنيف السابق بعد أن نبين معنى الفسق لغة واصطلاحا كي يستقيم الشرح والتفسير لهذا الموضوع.

● **معنى الفسق لغة واصطلاحا :**

الفسق أصله في اللغة العربية الخروج عن الشيء ، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها، قال الفراء، الفسق مأخوذ من قولهم فسقت الرطبة أي خرجت من قشرها[١] وقال الأخفش فسق الرجل أي فجر[٢] .

ولا شك أن هذه الدلالة المادية هي أصل للدلالة المعنوية التي استخدمها الإسلام بعد ذلك فقيل : الفاسقون هم الخارجون عن طاعة الله[٣] ، والفسق:

---

(١) لسان العرب مادة فسق .
(٢) تفسير القرطبي : ١ / ٢٤٥ .
(٣) تفسير الجلالين : ص ٧ .

الخروج عن الاهتداء[1] ، قال القرطبي «الفسق في عرف الاستعمال الشرعي: الخروج من طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان»[2] .

وبالنظر إلى تلك المعاني نجد أن الفسق لفظ يوظف للدلالة على المعاني التالية : الفجور، الخروج عن طاعة الله، العصيان، الكفر، وسنلاحظ بناء على ذلك أن المفسرين سيستخدمون هذه الدلالات تبعا للسياق الذي ترد فيه الكلمة لتفسيرها بما يلائم السياق، ذلك لأن الفسق مراتب كثيرة يبلغ بعضها إلى الكفر، وقد أطلق الفسق في الكتاب والسنة على جميعها، لكن الذي يستخلص من الجمع بين الأدلة هو ما اصطلح عليه أهل السنة من المتكلمين والفقهاء وهو أن «الفسق غير الكفر وأن المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان وهو الحق وقد لقب الله اليهود في مواضع كثيرة من القرآن بالفاسقين وأحسب أنه المراد هنا»[3] .

* * *

● **المطلب الأول الفسق كسلوك لأكثرية الناس بالجملة :**

يدل صريح النصوص الآتية على أن أكثر الناس فاسقون، قال تعالى:

١ ـ ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة:٤٩] .

٢ ـ وقال : ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ *وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾

[الأعراف:١٠١-١٠٢]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧ / ٤١٩

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٤٦

(٣) التحرير والتنوير ١ / ٣٦٦

٣ ـ وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد :٢٦] .

هذه النصوص الثلاث تدل بصريح لفظها على أن أغلبية الناس فاسقون، ولعل النص الأول أكثر وضوحا من جهتين، من جهة العامل الزماني إذ وجه الخطاب ـ بغرض الإخبار ـ إلى النبي محمد ﷺ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، مما جعل النص أكثر شمولاً لتاريخ البشرية من عهد آدم إلى موعد الفناء. ومن جهة سياق المقال إذ كانت دلالة النص صريحة في استخدام لفظ الناس في قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾[المائدة :٤٩] للشمول، وليس دالا على اليهود وحدهم كما ذكر القرطبي (١).

أما النص الثاني والنص الثالث، فيختلفان بعض الشيء، وإن دلا على الناس جميعا، لأنهما يتحدثان عن تاريخ البشرية من عهد نوح إلى عهد سيدنا موسى عليه السلام، فشرح النص الثاني مشكلة الفسق في تاريخ البشرية عن طريق عرض تاريخ القرى لينتهي إلى النتيجة التالية ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾[الأعراف :١٠٢] بينما يشرح النص الثالث مواقف البشرية من مسألة الهداية من عهد نوح وإبراهيم والنبيين من ذريتهما ليقف على النتيجة التالية :﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد :٢٦] .

فالنتيجة في الآيات الثلاث واحدة من حيث أن الأغلبية فاسقة، على الرغم من اختلاف الأزمنة التي تتحدث عنها الآيات، مما يدل على أن الطبيعة البشرية لا تختلف من جهة السلوك والأخلاق، قال قطب :«إنها طبيعة البشر: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾[المائدة :٤٩] فهم يخرجون وينحرفون، لأنهم هكذا ولا حيلة لك في هذا الأمر، ولا ذنب للشريعة ولا سبيل لاستقامتهم على الطريق»(٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٢١٤

(٢) قطب : في ظلال القرآن ٢ / ٩٠٣

والفسق في الآية الأولى العصيان والخروج عن الطاعة، إذ يفهم من الآية ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٩] أن الفسق هنا شارح للذنوب، قال الصابوني: «أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق منهمكون في المعاصي»(١) بينما ينصرف المعنى في قوله تعالى ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٢] إلى الدلالة على مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الإيمان، قال ابن كثير: «أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ... وفي الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أوينصرانه أويمجسانه»(٢،٣).

ويتجاوز قطب هذه الدلالة للعهد إلى احتمال آخر فيقول «والعهد الذي يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر الذي ورد ذكره في أواخر السورة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾[الأعراف: ١٧٣]، وقد يكون هو عهد الإيمان الذي أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل، ثم انحرفت الخلائق كما يقع في كل جاهلية، إذ تظل الأجيال تنحرف شيئا فشيئا حتى تخرج من عهد الإيمان وترتد إلى الجاهلية .. وأيا كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به، ويثبتون عليه، إنما هو الهدى المنقلب، والطبيعة التي لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم»(٤).

---

(١) صفوة التفاسير ١ / ٣٤٧
(٢) الحديث أخرجه الشيخان
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٣٥
(٤) في ظلال القرآن ٣ / ١٣٤٢

وبناء عليه فقد فسر الفسق هنا على أنه انحراف في العقيدة، قال قطب «﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[الأعراف:١٠٢] منحرفين عن دين الله وعهده القديم، وهذه ثمرة التقلب ونقض العهد واتباع الهوى، ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله مستقيما على طريقته، مسترشدا بهداه، فلا بد أن تتفرق به السبل، ولا بد أن ينحرف، ولا بد أن يفسق... وكذلك كان أهل تلك القرى وكذلك انتهى بهم المطاف»(١).

والفسق في الآية الثالثة ـ أي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:٢٦] ـ وظف في مقابل الهداية، كما وظف في الآية السابقة في مقابل العهد، ليدل على ضدهما ومن ثم انصرفت دلالته هنا إلى الجانب العقدي بحيث يمكن القول أن المعنى: فمنهم قليل اهتدى وكثير منهم ضل عن الطريق المستقيم، قال ابن عاشور: «والفسق: الخروج عن الاهتداء، ومن الفاسقين: المشركون من عاد وثمود وقوم لوط من اليمن والأوس والخزرج وهم من ذرية نوح، ومن مدين والحجاز وتهامة وهم من ذرية إبراهيم، والمراد من أشركوا قبل مجيء الإسلام لقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[الحديد:٢٧]»(٢).

وعلى الجملة فإن الآيات الثلاث تدل على أن الأكثرية فاسقة، وأن هذا هو دين البشرية، وإليه أشار الزمخشري بقوله: «فمنهم مهتد ومنهم فاسق والغلبة للفساق»(٣)، وقد دل الفسق في الآيات الثلاث على دلالات مختلفة هي الخروج عن الطاعة ومخالفة العهد والضلال، وهي كلها سلوك مخالف لرسالات الأنبياء والمرسلين لذلك أطلق عليها هنا مصطلح الفسق على الرغم من دلالتها أحيانا على العقيدة وأخرى شاملة للعصيان كله.

---

(١) نفسه
(٢) التحرير والتنوير ٢٦/٤١٩
(٣) الكشاف ٤/٦٧

والآن يمكن أن نتساءل ما الذي دفع البشرية إلى هذا النزوع الغريب بحيث يصبح الفسق هو طابع الأغلبية والامتثال لأمر الله هو طابع الأقلية ﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[الحديد :٢٦] ؟

● **دوافع الفسق:**

الظاهر أن الفسق باعتباره عصيانا وخروجا عن الطاعة بدايته نزغات الشياطين لقوله تعالى إخبارا عن إبليس عليه اللعنة : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] .

فالآية صريحة في أن الشيطان قد أضل خلقا كثيرا بسبب غياب العقل الفاعل والوعي السليم الذي يدرك عمق التهديد والوعيد الذي توعد به الشيطان بني آدم جميعا، بأن يغويهم ويضلهم ضلالا كبيرا بالإجماع، فلم يستثن منهم سوى المخلصين، وهم يمثلون خلاصة أهل الإخلاص كما بينا سابقا، قال تعالى: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[ص:٨٢-٨٣] وقال على لسانه: ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[سورة الاسراء:٦٢]. فالشيطان توعد أبناء آدم بالاحتناك، وهو الاستئصال بالإغواء[١] إلا القلة التي أخلصت دينها لله واستمسكت بحبله المتين، قال قطب «إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين، لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان، لا تطوعًا منه ولكن عجزًا عن بلوغ غايته فيهم، ولهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه، إنه عبادة الله التي تخلصهم لله، هذا هو طوق النجاة وحبل الحياة»[٢] .

---

(١) الجلالين : ٢٧٩

(٢) في ظلال القرآن ٢٥ / ٣٠٢٨

ولكن نزغات الشيطان لم تكن لتبلغ هذا التأثير الكبير في البشرية بحيث تجعل الأكثرية من الفاسقين إلا لوجود استعداد في طبيعة أبناء آدم، اكتسبوه من التهاون في تجاوز حدود الله، فصار خلُقا وطبعا، يساقون منه كالأنعام بمجرد الغواية التي يقوم بها الشيطان عن طريق تزيين القبائح والمحرمات، وربما كان على رأس هذه الاستعدادات حب الشهوات، وقد بين القرآن ذلك، فقال تعالى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ** ﴾[آل عمران: ١٤] ثم حب المال قال تعالى: ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[الفجر: ٢٠]، وحب الخير مطلقا: ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾[العاديات: ٨] فهذه العوامل النفسية والاقتصادية قوية جدا في دفع الإنسان نحو العصيان والفسق، بحيث لو تأملنا الحياة لوجدنا سلوك البشرية تتحكم فيه هذه العوامل تحكما قويا، سواء على مستوى الأفراد ـ إلا قليلا من المتقين ـ أو على مستوى الأمم والدول والشعوب، بحيث نلاحظ أن معظم صور التناحر والتقاتل لا تخرج عن هذه الأسباب؛ إما الشهوات وإما حب الخير، إن على مستوى الأفراد أو على مستوى الدول والشعوب، حتى بالغ بعضهم في التركيز على ذلك ففسر سلوك البشر بالحاجة وفسره أخرى بالغريزة الجنسية.

وقد وجد الشيطان في هذا الاستعداد أداة فعالة ليحتنك ذرية آدم ويغويها، ليجعل منها هذه الكثرة الفاسقة، ومنه نستنتج أن الدافع إلى هذا النزوع الغريب مركب من عنصرين؛ عنصر خارجي هو الشيطان وعنصر ذاتي هو حب الشهوات والتهالك على جمع الخيرات، ولهذا السبب كانت بعض الآيات تنسب العصيان إلى الشهوات مباشرة كما في قوله تعالى: ﴿ **وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً** ﴾[النساء: ٢٧] وقوله: ﴿ **فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** ﴾ [مريم: ٥٩]، وقوله: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾[القصص: ٥٠]، فالاتباع في الآيات كان للشهوات وليس للشيطان، بينما نجد آيات أخرى تنسب الاتباع للشيطان كما في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾[النور:٢١] وقوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة : ٢٠٨]، وقوله ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣].

وهكذا يتجلى لنا أن النزوع إلى الفسق سببه مركب من العنصرين معا، وليس من عنصر واحد، مما يفرض على الإنسان أن يحرص على مراقبة نفسه من جهتين، فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ويستعين به للتغلب على الشهوات وضراوتها لا سيما حب النساء وحب المال والخير.

ثم إن الفسق في حد ذاته يعد من أكبر العوامل المساعدة على تجذيره في النفس، مما يقوي أصحابه ويدفعهم إلى نشر دعوة الفسق، كما تبين الآية: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾[النساء:٢٧] فالذين يتبعون الشهوات من الفساق والفجار والعصاة من شأنهم أن يزينوا للناس الميل نحو منهجهم وطريقتهم لتنعدم المعارضة التي تحول دون رغباتهم وشهواتهم، وبذلك يكثر حزب الفساق يقول قطب: «وأما ما يريده الذين يتبعون الشهوات فهو أن يطلقوا الغرائز من كل عقال؛ ديني، أو أخلاقي، أو اجتماعي، يريدون أن ينطلق السعار الجنسي المحموم بلا حاجز ولا كابح من أي لو كان السعار المحموم الذي لا يقر معه قلب، ولا يسكن معه عصب ولا يطمئن معه بيت، ولا يسلم معه عرض، ولا تقوم معه أسرة، يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ... قد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم إلى الجاهلية في هذا المجال الأخلاقي»(١).

وقد بين ابن عاشور بيانا شافيا العلاقة بين زيادة الفسق وزيادة الضلال حين قال بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦]: «إن

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٥/٦٣١-٦٣٢

للفسق تأثيراً في زيادة الضلال لأن الفسق يرين على القلوب، ويكسب النفوس ظلمة فتتساقط في الضلال المرة بعد الأخرى على التعاقب، حتى يصير لها دربة، وهذا الذي يؤذن به التعليق على الوصف المشتق إن كان المراد به هنا المعنى الاشتقاقي، فكأنه قيل: هؤلاء فاسقون، وما من فاسق إلا وهو ضال فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق »[1].

ولا شك أن الطبيعة الإنسانية مجبولة على حب الانتقام تماما كما فعل الشيطان حينما قرر احتناك ذرية آدم انتقاما منه، مما يجعل الفساق يرغبون رغبة شديدة في الانتقام من المصلحين والتقاة، فيعمدون إلى الكيد لهم ليميلوا عن الحق ميلا عظيما، حتى يصيروا على حالهم فيتشاكلون جميعا، وبذلك يكثر الفساق ويتزايد عددهم.

وقد بين سيد قطب دور الفسق كدافع على الانتقام، يضاف لدافعين آخرين هما: الحسد الذي يكنه الفجار للمؤمنين بسبب إيمانهم، والغيرة التي تلهب قلوبهم بسبب ما نزل من القرآن وهو الحق، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨]: «فهذا الفسق هو شطر الباعث؛ فالفسق يحمل صاحبه على النقمة من المستقيم.. وهي قاعدة نفسية واقعية، تثبتها هذه اللفتة القرآنية العجيبة إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم.. إن وجوده يشغره دائما بفسقه وانحرافه، ومن ثم يكرهه وينقم عليه، يكره استقامته وينقم منه التزامه، ويسعى جاهداً لجره إلى طريقه، أوللقضاء عليه إذا استعصى قياده؛ إنها قاعدة مطردة، تتجاوز موقف أهل الكتاب من الجماعة المسلمة...إلى موقف كل فاسق منحرف من كل عصبية ملتزمة مستقيمة، والحرب المشبوبة دائما على الخيرين في مجتمع الأشرار، وعلى المستقيمين في مجتمع الفاسقين، وعلى الملتزمين في مجتمع المنحرفين، هذه الحرب أمر طبيعي تستند إلى هذه القاعدة التي يصورها النص القرآني العجيب»[2].

---

(١) التحرير والتنوير ١ / ٣٦٦

(٢) في ظلال القرآن ٢ /٦/ ٩٢٦

وخلاصة هذا المطلب أن الفسق يعد خلقًا يطبع سلوك أكثرية الناس، وقد بينت الآيات ذلك، مما يجعل ذلك قاعدة وقانونا يحكم تاريخ البشرية ويفسر حقيقة القرون والأمم الكثيرة التي استأصلها الله سبحانه وتعالى عدلاً وتطهيراً للأرض من المفسدين، وقد صيغ هذا القانون في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾[المائدة:٤٩] ، وقد تبين من التحليل وتفسير الآيات أن من أسباب هذه الزيادة المفرطة من أهل الفسق عامة تنافس الناس على العصيان وتشجيع بعضهم بعضًا عليه أستكثاراً لأهل الشر، حماية لأنفسهم ومنهجهم، وتدعيماً لسلطانهم في الأرض فضلا عن الدور الذي يقوم به الشيطان في احتناك ذرية آدم انتقاماً لنفسه.

ولكن هذه القاعدة العامة التي استنتجناها من آية المائدة وآية الحديد وآية الأعراف، والتي تكشف لنا عن قانون شامل لتفسير تاريخ البشرية من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا لا تكفي لتفسير الظواهر الجزئية في الأكثرية النسبية في دائرة الطوائف المختلفة من أهل الكتاب عامة [1] والمشركين خاصة ، وهو ما سنتناوله في المطالب الموالية .

* * *

● المطلب الثاني الفسق كسلوك لأكثرية أهل الكتاب خاصة:

تضمن القرآن الكريم أربعة نصوص صريحة الدلالة على أن الفسق يعد مظهرا سلوكيا لأكثرية أهل الكتاب بصفة عامة؛ اليهود والمسيحيون، وهذه النصوص هي:

١ ـ قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [آل عمران :١١٠] .

٢ ـ وقال : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٩] .

---

(١) التحرير والتنوير ٣ / ٥٢

٣ ـ وقال :﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١] .

٤ ـ وقال :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد : ١٦] .

كل هذه النصوص تعبر عن ظاهرة الفسق كمظهر يعم أغلبية أهل الكتاب، وهي ظاهرة مشاهدة عيانا في العصر الحديث، بحيث يغني الحال عن السؤال، سواء أكان الفسق بمعناه الاعتقادي أو بمعناه الفعلي والعملي.

ولفظ الفسق في النصوص الأربعة يغطي هذه الدلالات المختلفة، بحيث نجده قد وظف في الآية الأولى والثانية في مقابل الإيمان ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: ١١٠] ليدل على أن أكثر أهل الكتاب قد فسقوا عقديًا، إذ الفسق في هذه الآية كما جاء في تفسير الجلالين معناه عدم قبول الإيمان، وقد عبر عن الكفر بالفسق لأنه لازم عنه(١) ، وقال قطب :« وآية فسقهم وانحرافهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة وهي مصدقة لما بين أيديهم لا ما ابتدعوه وحرفوه، ولا يؤمنون بالرسول الأخير وهو مصدق لما بين يديه معظم رسل الله أجمعين »(٢) .

أما في الآية الثالثة فقد وظف لفظ الفسق تفسيراً للولاء مما يدل على أنه بمعنى العصيان المتمثل في الانتماء لدائرة أهل الكفر من المشركين والملحدين، ويبين ذلك سياق الآية من قوله تعالى : ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨٠ – ٨١] ، فالآيتان هنا تحددان المجال الأساسي لولاء أهل

---

(١) تفسير الجلالين : ١٥٤

(٢) في ظلال القرآن : ٢/٦/٩٢٤

الكتاب، وتحصرانه في هؤلاء الكثير الذين كفروا ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[المائدة: ٨٠] ثم تجيء بتعليل ذلك فتبين أنهم يتولون الكفار بهذه الكثرة، لأنهم أساسا لم يؤمنوا بالله والنبي والقرآن المنزل عليه، إذ لو كانوا يؤمنون ما اتخذوهم أولياء، ثم تأتي خاتمة التعليل ﴿ لَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١] معتمدة على لفظ الاستدراك « ولكن » ولفظ «الفسق»، الذي يطلق على السلوك العملي أساسا ويأتي مجازا للدلالة على العقيدة؛ لأنه يلازمها كما تبين ذلك آية الأعراف التي تنص على الترابط القائم بين تغيير النفس وتغيير السلوك والأحوال ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[الرعد: ١١]، وبهذا يكون التعليل النهائي﴿ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٨١] قد بين أن علة الولاء تكمن في الفسق، بمعناه الشامل للعقيدة والسلوك العملي ، فبسبب أنهم فاسقون كان ولاءهم للذين كفروا أمرا طبيعيا لانسجامهم مع بعضهم أصلا. قال قطب « هذه هي العلة إنهم لم يؤمنوا بالله والنبي، وإن كثرتهم فاسقة، إنهم يتجانسون ـ إذن ـ مع الذين كفروا في الشعور والوجهة، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين »(١).

وقد وظف لفظ الفسق في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد: ١٦] للدلالة على كثرة الأعمال الفاسدة التي نجمت عن قساوة القلب نتيجة طول ابتعاد أهل الكتاب عن وسائل الذكر من قراءة الكتاب ومجالسة العلماء والاستماع إلى الوعاظ والمرشدين وأهل التقوى والورع، قال ابن كثير « كثير منهم فاسقون أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة »(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٦ / ٩٥٢

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٣١٠

ومن مجمل الدلالات في الآيات الأربعة يتبين أن لفظ الفسق ورد هنا ليدل على ما صدر من أغلبية أهل الكتاب من فسق في العقيدة وفي الأعمال، وقد بينا الترابط القائم بينهما وكيف يحل لفظ الفسق الذي هو دال على السلوك العملي أساسا محل لفظ الكفر ملازما له، كما أن الاستقامة ملازمة للإيمان، قال قطب «ليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[1] .

والآن ما السبب في أن يكثر الفسق في أهل الكتاب، وقد كان الأجدر بهم أن يكونوا أهل استقامة وصلاح؟

● **علة كثرة الفساق من أهل الكتاب:**

ذكر القرطبي وابن كثير رأيًا نسبوه لابن مسعود في تفسير آية الحديد السابقة يرجع فيه سبب كثرة الفسق في أهل الكتاب إلى الابتعاد عن كتاب الله وأصول الذكر، فقال القرطبي: «كان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون»[2] وقال ابن كثير: «نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ونبذوه وراء ظهورهم وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فعند ذاك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد، وكثير منهم فاسقون، أي في الأعمال، فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة»[3] .

وقال الزمخشري: «قيل كانوا ـ أي المسلمين ـ مجْدَبين بمكة فلما هاجروا أصابوا الرزق والنعمة ففتروا عما كانوا عليه فنزلت، وعن ابن مسعود ما كان بين إيلاجنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين» ويجوز أن يكون نهيًا لهم عن

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٢٧ / ٣٤٨٩

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٥٠

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤ / ٣١٠

مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وبخوا، ذلك أن بني إسرائيل كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم فلما طال عليهم الزمان غلبهم الجفاء والقسوة واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره[1] .

كل هذه الآراء تتفق على أن غلبة الفسق على بني إسرائيل سببها هجرة الكتاب ووسائل التذكير لمدة طويلة، فالحق والذكر هو السبيل الذي يحول بين الإنسان وبين اتباع الشهوات فإذا هجروه لزمن كاف لإحداث النسيان تحررت النفوس من الضوابط الشرعية وأقبلت على الفسق بنهم شديد مما يجعل أهله كثيرين.

وقد رأيت بنفسي وعشت تجربة المجتمع الجزائري المريرة في فتنة التسعينات من هذا القرن، إذ كان الشباب يقبل على الإسلام والصلاح بكثرة ملفتة للانتباه، وذلك حين قيض الله للشعب الجزائري رئيسا صالحا سمح للدعاة بالذكر والدعوة إلى الحق في السر والعلانية، فكثر الدعاة وتنافس أهل العلم والخير على تشجيع الناس على ذلك، فكثر الإقبال على المساجد فامتلأت، ثم فتح لهم ذلك الرئيس الصالح مجال المشاركة في الانتخابات ففازت أحزابهم فوزاً عظيماً، فلما رأى المسيحيون في الغرب ذلك الأمر أفزعهم حتى عقدوا له جلسات مناقشة في التلفزة الفرنسية على الخصوص، وقد سمعت خبيراً لهم يقول بعد أن سئل في خاتمة الجلسة الحوارية التي حضرها معظم رؤساء الأحزاب الجزائرية المتنافسة : «إن ما يحدث في الجزائر أمر خطير، ومرض كبير ستنتشر عدواه لتعم دول البحر الأبيض المتوسط».

ومنذ ذلك الحين شرعت دول الغرب المسيحي واليهودي معًا بجد للقضاء على تلك الصحوة، واختلفت أسباب الفتنة وأُبعد الرئيس المؤمن عن رئاسة

---

(١) الكشاف ٤ / ٦٤

الدولة الجزائرية وجيء بمن خلفه للقضاء على وسائل الدعوة فسُجن السياسيون، وقُتل خلق كثير يتجاوز مائة ألف شاب، ومنع الشعب من زيادة بناء المساجد، وكممت الأفواه وصودرت الصحف الإسلامية، وحرمت حلقات الذكر ومنابر الدعوة فأخذت المساجد تخلوا من المصلين، وبدأ الزي الإسلامي يقل، حتى صار عدد المتحجبات من الطالبات والتلميذات قليلا جداً، إذا ما قورن بما كان عليه في الثمانينات من عهد الرئيس المؤمن، وبدأت ألوان الفسق تبرز على السطح جهاراً نهاراً، حتى شرع بعض المفلسين في إعادة فتح بيوت الفسق التي أغلقت، وحانات الخمر التي أقفلت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وعلى هذا فإني أحسب أن طول الأمد يعد عاملا أساسيا في تغيير النفوس، ومن ثم تغيير السلوك، مما يؤدي إلى كثرة الفساق، على أن السؤال المطروح الآن هو : كم تكون هذه المدة الكافية لحصول هذا التغيير؟.

● **مقدار المدة الكافية لتحول المجتمعات :**

لقد لاحظنا في نص سابق أن الزمخشري يذكر أن المسلمين عوتبوا على بداية ظهور بوادر ضعف الخشوع، ولم يمض على إسلامهم سوى أربع سنين أو ثلاث عشرة سنة قال :«عن ابن مسعود ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية ـ يعني﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ** . . . ﴾[الحديد :١٦] أربع سنين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن » فالمدة التي يذكرها الزمخشري هنا تتراوح بين أربع سنين وثلاث عشرة، وإذ نظرنا إلى تجربتنا في الجزائر نجد أن العشرية الحمراء ١٩٩٠–٢٠٠٠، كانت كافية لإحداث تغيير كبير في السلوك، حتى ظهرت بوادر الفسق حتى في أبناء كثير من البيوت التي كان لها شأنها في الدعوة، وذلك لأن السنوات العشر قد حالت دون توجيه جيل بأكمله من الشباب إلى المساجد، فكان كل الأطفال الذين مرت فترة مراهقتهم في هذه العشرية الحمراء محرومين من الوعظ والإرشاد بسبب منع حلقات الذكر،

مما جعلهم يبلغون العشرين وأكثر من ذلك أو أقل، وهم بعيدون عن التربية الإسلامية، فكان الانحراف نتيجة طبيعية لذلك الأمد الطويل الذي حيل فيه بينهم وبين وسائل الذكر، ذلك لأن «القلب البشري سريع التقلب سريع النسيان وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرق كالشعاع فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد وقسا، وانطمست إشراقته وأظلم وأعتم ؛ فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف، ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة ... وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج» (١) .

وقد وردت الإشارة إلى دور طول المدة في الابتعاد عن أسباب التذكر في القرآن مرات عديدة منها قوله تعالى :

١ ـ ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾[طه :٨٦-٨٧] .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء : ٤٢-٤٤] .

٣ ـ وقال : ﴿ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[القصص :٤٣-٤٤] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٢٧ / ٣٤٨٩

فالجمل: ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾[طه:٨٦] ﴿ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء: ٤٤] ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[القصص: ٤٤] ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد: ١٦] كلها تصب في دلالة واحدة، وهي أنهم قد طالت هجرتهم للكتاب أوطالت مفارقتهم للمصلحين، فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي[١]، إما بطول الزمان وحده وإما يطول الزمان مع متعة الرخاء والرفاه والازدهار في غياب الذكر مما يرسم علامات الغرور بتلك المتعة[٢]، بقصد منهم أو بغير قصد، كما يتبين من آيتي سورة طه وسورة الانبياء السابقة.

ومن البين الواضح أن كل الآيات باستثناء آية سورة الأنبياء تتحدث عن بني إسرائيل كنموذج لمن يؤثر فيه طول الزمن بالنسيان للعهود والمواثيق؛ مما يؤدي إلى انتشار الفسق والفجور، ولكن كون الآيات الثلاث الأخرى تتناول بني إسرائيل وآية واحدة تتحدث عن العرب في الجزيرة العربية لا يعني أن هذه صفة تخص هؤلاء، وإنما الأرجح أن النسيان أوضح فيهم من غيرهم، وإلا فهو مرض من أمراض البشرية كلها ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩]

والمفسرون الذين توقفوا عند هذه الآيات يتفقون على أن طول العمر أو طول العهد أو طول الأمد كلها عبارات ذكرت في القرآن لبيان أثر ابتعاد الإنسان عن وسائل التذكير في حصول النسيان، قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ [القصص: ٤٤] «معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول على آخرهم وهو القرن الذي أنت فيهم ـ العمر، أي أمد انقطاع الوحي، واندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم فأرسلناك وكسيناك العلم بقصص الأنبياء»[٣].

---

(١) الجلالين: ٤٨١-٥١٧

(٢) نفسه: ٤٣١

(٣) الكشاف ٣/١٨٢

وقال القرطبي :« أنشأنا قرونا من بعد موسى فتطاول عليهم حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره، نظيره ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد :١٦] وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبينا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت، وأن الله سيبعثه، ولكن طالت المدة وغلبت القسوة فنسي القوم، وقيل آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود، ثم تطاول العهد فكفروا فأرسلنا محمداً مجددا للدين وداعيا الخلق إليه »(١) .

إن المفسرين يتفقون على أن تطاول المدة بمنأى الأفراد والمجتمعات عن شتى وسائل التذكير بالحق والدين والخير والخلق الحسن من شأنه أن يؤدي إلى النسيان وقساوة القلوب وتبلد الإحساس بكل أسباب الذكر، وغير ذلك مما يفسد حتى الفطرة السليمة والمنطق الصحيح، والعقل الراجح وبذلك تعم البلوى المجتمعات ويكثر الفسق بكثرة الشياطين، تماما كما قال ابن حزم : « بلا شك أن أهل الباطل كلما كثروا فإن الشيطان أقوى فيهم منه مع المنفرد »(٢) .

ثم إن طول الأمد في الابتعاد عن وسائل التذكير لا ينهض وحده كعامل فعال في إحداث قساوة القلب والنسيان للعهود والمواثيق، بل يستصحب معه عاملا آخر فعالاً في عملية الإفساد هذه، وهو « الترف »،ولذلك جاءت الآية ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء:٤٤] مبينة للعلاقة بين العاملين عامل طول الأمد وعامل المتعة والترف بمعزل عن وسائل إحياء القلوب، فالآية بصيغتها هذه جاءت بمثابة تعليل للإعراض عن ذكر الله من قوله تعالى :﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ * بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾[الأنبياء: ٤٢-٤٤] فالمتعة والترف كما عبرت عنه الآية استغرق

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٩١

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ١ / ٥٤٩

مدة طويلة غطت أجيالا من الأبناء والآباء، مما أنسى الناس في الحق ودفعهم إلى الإعراض عن الذكر، قال القرطبي :«أي بسطنا لهم ولآبائهم في نعيمها، وطال عليهم العمر في النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل »[1] ، وقال قطب : « فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسد فطرتهم والمتاع ترف، والترف يفسد القلب ويبلد الحس، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله وانطماس البصيرة دون تأمل آياته، وهذا هو الابتلاء بالنعمة حتى لا يستيقظ الإنسان لنفسه ويراقبها ويصلها دائما بالله فلا ننساه »[2] ويؤكد ذلك قوله تعالى :﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** ﴾[الشورى : ٢٧] .

وبهذا يجتمع لدينا في الواقع عاملان كبيران لهما أثرهما القوي في إفساد المجتمعات طول أمد سكوت الأئمة والمصلحين عن كلمة الحق ونشر الوعي والاجتهاد في الدعوة إلى دين الله ، وتذكير الخلق بمدلول الرسالات السماوية وأهدافها، وطول أمد عيش المجتمعات والأفراد في الترف والنعيم، فهذان العاملان إذا وجدا معا في مجتمع واحد مجتمعين أو منفردين من شأنهما أن يؤثرا سلبًا على القلوب فتكل جراء ذلك وتعمى عن الحق و « القلوب إذا كلت عميت »[3] .

وخلاصة القول أن السبب المباشر في كثرة الفسق والفجور إنما هو النسيان الناشئ عن تطاول عهد الناس في بعدهم عن الذكر ووسائله مما يؤدي إلى قساوة القلوب، والقلوب إذا بلغت ذلك ليس من ورائها سوى الفسق والفجور .

ولما كان سكوت الأئمة عن الدعوة لأسباب طبيعية كالترف ﴿ **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ** ﴾[فصلت : ٥١] أو لأسباب سياسية كالسلطان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٩٢
(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٨٠
(٣) الأثر

الجائر، أو لأسباب ثقافية كالنزعات السياسية الغربية متمثلة في فكرة فصل الدين عن الدولة ـ أقول لما كان سكوت الأئمة لهذه الأسباب الموضوعية شاملا وفعالا في هجر القرآن وأسباب الذكر فإن كل ذلك من شأنه أن يترجم بطول العهد أو طول الأمد أو طول العمر، ويكشف عن دوره في النسيان، مما يؤدي إلى تفشي ظاهرة الفسق ومن ثم كثرة الفاسقين، ولهذا كانت الآيات التي تحدثت عن الأكثرية في مجال السلوك قد نصت على كثرة الفاسقين، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾[الأعراف: ١٠٢].

وعندئذ يمكن القول بأن سبب كثرة الفسق في أهل الكتاب – وإن كان الأجدر بهم ألا يكونوا كذلك ـ هو طول زمن بعدهم عن الكتاب، حتى صاروا متساوين مع من لم يكونوا أهل كتاب، فهم سواء في انتشار الفساد والفسق في أوساطهم الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية، ومن هنا جاء تنبيه القرآن الكريم للمسلمين على خطورة هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦]، ثم جاء تنبيه هام لدور الكتاب في التذكير فقال: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾[القصص: ٥١]، وعلى أن المسيحيين من أهل الكتاب، فإن النصوص السابقة تشملهم، ولكن مع ذلك هناك نص يخصصهم هو قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ٢٧]

هذه الآية من سورة الحديد تلي الآية السابقة التي شملت قرونًا كثيرة بدءًا من سيدنا نوح وإبراهيم عليهما السلام إلى ذريتهما، وتنتهي بالإشارة إلى أن

ظاهرة الفسق متفشية في الإنسانية كلها، وبذلك ضمت أهل الكتاب، والآية هي: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ٢٦] .

ومعنى ذلك أن آيتي الحديد الآية ٢٦ والآية ٢٧، تتحدثان عن ظاهرة واحدة متفشية في وسطين من الأوساط ما كان ينبغي أن تتفشى فيهما لوجود أسباب المناعة وهي الكتب التي أنزلها الله لإصلاح حال البشرية، فإن لم تنتفع تلك الشعوب بهذه الكتب فثمة سر هو الذي أرجعته الآيات السابقة لطول العهد وانتشار الترف،أي أنه لا يرجع في جميع الأحوال إلى الجهل بالحدود الشرعية، لأن هؤلاء جميعا هم من أهل الكتاب.

وإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ٢٧] يعود لأتباع سيدنا عيسى عليه السلام خاصة، فمعنى ذلك أن الآية هنا حددت الأكثرية الفاسقة في دائرة معينة هي دائرة المسيحيين.

وهكذا يتبين التناغم القائم بين جميع النصوص التي تعرضت لهذه الظاهرة سواء بالنسبة للناس كافة، أو بالنسبة لأهل الكتاب عامة أو المسيحيين منهم خاصة، إذ النتيجة واحدة وهي ﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ٢٦]

* * *

● المبحث الثاني: إساءة العمل والمسارعة في الإثم والعدوان:

لاشك أن لفظ الفسق يشمل السلوك البشري كله ما يتعلق بالفكر وما يتعلق بالعمل، ولكن مع ذلك فإن هناك نصوصًا تتحدث عن إساءة العمل كسلوك للأكثرية، وأخرى تتحدث عما هو أدهى وأمر وهو المسارعة في الإثم والعدوان والتنافس في ذلك عند الأغلبية.

وسنتوقف هنا عند آيتين من سورة المائدة هما:

١ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٦٦] .

٢ـ قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة ٦٢ والمائدة٤١] .

الآيتان وردتا في سياق واحد من سورة المائدة وهو الحديث عن أهل الكتاب وسلوكهم مع المؤمنين من اتباع محمد ﷺ بدءا من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٧ـ٥٩]

فهذه الآيات تبين سلوك أهل الكتاب مع المؤمنين في مطلع بزوغ ضحى الإسلام في المدينة المنورة، إذ سورة المائدة مدنية، نزلت في فترة عز الإسلام، ومع ذلك فإن أهل الكتاب لا يزالون يكيدون للمسلمين ، فيتخذون الدين الإسلامي والصلاة هزؤا ولعبًا، وينقمون من المسلمين لإيمانهم وتوحيدهم وتصديقهم بما أنزل إليهم من القرآن الكريم، وما أنزل من قبل على أنبياء الله ورسله، والسبب في ذلك كله عاملان ؛ أولهما ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾[المائدة:٥٨] وثانيهما ﴿ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٩] ، فخفة العقل وكثرة الفسق هما العاملان المحركان لسلوك بني إسرائيل خاصة وأهل الكتاب عامة ضد المسلمين، فيكثر العدوان الذي يمثل اليوم الوضع في فلسطين الجريحة صورة حية له.

وهذا السياق الذي وردت فيه الآيتان المقصودتان بالدراسة هنا يفرض علينا اتخاذ مجال أهل الكتاب فضاء لتحليل الظاهرتين ؛ ظاهرة إساءة العمل عند الأكثرية، وظاهرة المسارعة في الإثم والعدوان .

ولكن كون السياق يوجه الدلالة لتحصر في أهل الكتاب لا يتناقض مع المحور الذي نحن بصدد دراسته بصفة عامة وهو الأكثرية والأقلية في حياة البشرية .

● **المطلب الأول : إساءة العمل كسلوك للأكثرية :**

النص المراد دراسته هنا هو قول الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٥ -٦٦] .

الآية تتحدث عن أهل الكتاب، وتبين أن الأقلية منهم مقتصدة في عملها وأن الأغلبية تسيء العمل، ولكن كون الآية تتحدث عن أهل الكتاب في ذلك الوقت العصيب من حياة المسلمين لا يعني أنها مقصورة على ذلك الزمان ولا على أهل التوراة والإنجيل، بل هي الآن موجهة للبشرية بما في ذلك أهل القرآن، قال قطب رحمه الله :« ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول :إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة ـ فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن، أولى بالشرط الذين يقولون : إنهم مسلمون، فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل، والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد... فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده

لهم... إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي » (١) .

وعلى هذا فإن قول الله تعالى : ﴿ **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٦٦] يشير إلى موقف الإنسانية كلها من مشكلة العمل، فمن جهة كانت رسالة الإنسانية الأساسية في الدنيا هي العمران والعمل الصالح في ضوء الإيمان، ومن جهة أخرى نرى الأقلية فقط هي التي تحسن العمل ﴿ ﴿ **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ** ﴾[المائدة:٦٦] أي معتدلة في سلوكها وأعمالها، مستقيمة في كل تصرفاتها، أما الأغلبية فإنها متجاوزة للحدود الشرعية في كل أعمالها. ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٦٦]، هكذا بتعبير يتضمن « معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما أسوأ عملهم » (٢) .

فالأكثرية غلب عليها منهج الشيطان فتوطنت على أسوأ الأعمال نفوسها، واطمأنت للفساد وسوء السلوك قلوبها، وبهذا ابتعدت عن الإيمان ومقتضياته الأساسية، وهي الأعمال الصالحة التي بها وحدها تعمر الأرض بالعمران الحقيقي الذي يريح البشرية من العناء كله البدني والنفسي، ومتى ظل الإنسان بعيداً عن الإيمان كان جديراً بأن يعيش في ضنك، وهو ما وصفت به الآيات السابقة أكثرية الخلق، قال قطب : « إن الله سبحانه وتعالى ـ يقول لأهل الكتاب ـ ويصدق القول وينطبق على أهل الكتاب ـ إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم ـ وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم ـ كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل ـ لصلحت حياتهم الدنيا، وتمت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون

---

(١) في ظلال القرآن ٢ / ٦ / ٩٣٥-٩٣٦

(٢) الكشاف ١ / ٦٣٠

منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦] (١) .

إن الواقع العملي الذي تعيشه البشرية اليوم يبرهن على أن الأكثرية تسئ العمل، بل وتقف في طريق المصلحين لتصدهم عن إحسان العمل، والأمثلة على ذلك كثيرة، في الغرب وفي الشرق، وأقرب دليل إلينا من الناحية السياسية ما صنعته أمريكا بمساعدة أوروبا بدول الخليج بعد ظهور الثورة الإسلامية في إيران والتطور الاقتصادي في السعودية والكويت والإمارات إذ أشعلت بينهم فتيل القتال وحولت الإخوة في الله إلى أعداء متناحرين، ثم تدخلت بدعوى حماية المستضعفين لتحطم القوة الإيرانية والقوة العراقية بالإمكانيات السعودية والكويتية خاصة.

وكل هذا لا يفسر إلا بتفسير واحد وهو سوء العمل الذي تقبل عليه البشرية جمعاء على المستوى السياسي، وقل مثل ذلك في ما صنعته فرنسا بالجزائر في التسعينات الحمراء التي بلغ عدد القتلى من جراء التناحر بين الجزائريين بتحريش الأعداء ما يربو على مائة ألف قتيل، وقد بلغت قيمة المؤسسات المهدمة ما يربو على ثلاثين مليار دولار، فضلا عن التأخر الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي بلغته الدولة، وأقرب دليل من الناحية الثقافية هذه الكثرة الكثيرة من الأفلام الفاسدة والقنوات الغربية المروجة للفساد، حتى صارت الفضيلة في الغرب وفي الشرق وصمة عار ودليل تخلف، والرذيلة عنوان التقدم والازدهار، وصار المغنّي الفاسق قدوة للشباب، والعالم الفذ نكرة مجهولة لا يعرف له عنوان.

وبالجملة فإن العالم كله يصدق عليه ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٦]، ولذلك وجب علينا أن نتساءل عن أسباب تفشي

---

(١) في ظلال القرآن، ٢ / ٦ / ٩٣٠-٩٣١

الفساد، وميل النفوس إلى الإساءة في العمل، وإن ظل بريق التكنولوجيا يوحي ببعض صور صلاح الأعمال التي وإن حققت للإنسان أسباب الراحة البدنية بما وفرته له من ألوان الترف، فإن هذا الترف قد جر إلى البغي والظلم بشتى صوره فأتعب النفوس والعقول ويسر للإنسان كل ألوان الإجرام؟

● **أسباب ميل النفوس إلى الفساد وإساءة العمل:**

المنطق يقضي أن يميل الجهد البشري نحو الإحسان في الأعمال، وإذا كان من الطبيعي أن يكون في المجتمعات مفسدون فإن عددهم ينبغي أن يمثل الأقلية القليلة التي يمكن التحكم فيها من قبل السلطات الحاكمة، ولكن ما هو حادث عكس ذلك تماما، إذ نسبة المفسدين في الأرض مرتفعة جدا مما يبعث على التساؤل عن الأسباب النفسية التي تدفع البشرية إلى أن يكون ﴿ **كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٦].

إن القرآن الكريم يبين العلاقة الجدلية بين صلاح الأعمال أو فسادها وبين الأحوال النفسية بيانًا شافيًا بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** ﴾[محمد: ١-٣] فمعنى ﴿ **أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾[محمد: ١] أبطلها، وقيل « أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق »[١] ومعنى « أصلح بالهم » أي شأنهم وأصلح نياتهم وقلوبهم[٢] وذلك بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم[٣]، وقيل « المعنى أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم،

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٤

(٢) نفسه

(٣) الكشاف ٣ / ٥٣٠ـ وانظر: تفسير النسفي ٤ / ١٤٤

وأرشدهم إلى أعمال الخير»[1] ، ومدار الصلاح والفساد كله هو المرجعية، فالسبب في إبطال الأعمال اتباع خطوات الشيطان، والسبب في صلاحها اتباع الحق وهو القرآن [2]، وعلى حد تعبير ابن تيمية« من أمَّرَ السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة »[3] ومعناه أن للأعمال علاقة وطيدة بالعقائد والأفكار، وهذه مردها إلى المرجعية.

وقد تبدو بعض أعمال الكفار مزخرفة فيبدو على ظاهرها الصلاح، ومن ثم نتساءل كيف يصدر العمل الصالح عن الكافر، والحقيقة أنه « لا قيمة لعمل صالح من غير إيمان فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه، والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل، وقد يكون الباعث طيبا ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون ملة عارضة أو نزوة طارئة، لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير متصل بخط سير الحياة العريض، ولا بناموس الوجود الأصيل، فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها وتتأثر به في كل انفعالاتها وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس، ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرا في كيان هذا الوجود وفي قيامه بدوره وانتهائه إلى غايته... وإصلاح البال ـ في قوله تعالى ـ ﴿ **وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾[محمد :٢] ـ نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر... ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير واطمأن القلب والضمير وارتاحت المشاعر والأعصاب ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام »[4] .

والآيات السابقة وإن ربطت الأعمال في طبيعتها بالعقيدة التي تصدر عنها فجعلت الأعمال الضالة صادرة عن أهل الكفر، وصلاح البال صادر عن أهل

---

(١) فتح القدير:٥ / ٣٠

(٢) تفسير النسفي٤ / ١٤٥

(٣) ابن تيمية: التفسير ٤ / ٢٤١

(٤) في ظلال القرآن / ٥ / ٢٦ / ٣٢٨٠

الإيمان فإنها عللت ذلك بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[محمد :٣]، فالمسألة مسألة المنهج العملي الذي يتتبعه كل صنف من البشر، فالذي يتتبع الباطل من الطبيعي أن يصل إلى نتيجة منسجمة مع ذلك المنهج، لأن ما بني على باطل فهو باطل، والذي يتتبع الحق، سيجد عمله منسجما مع القاعدة التي صدر عنها ومن ثم يثبت عمله ويكون نافعا في الآجل والعاجل، ويتأكد ذلك التعليل في السورة نفسها بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[محمد : ٤-٥] وقوله :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[محمد :٨-٩] ، فإحباط الأعمال ناجم عن كراهيتهم للقرآن، أي اعتماد مرجعية أخرى غيره يمليها عليهم هواهم وشيطانهم.

وإذا ثبت أن طبيعة العمل مرتبطة في حسنها وسوئها بالعقيدة كفرًا وإيمانًا وكان قد ثبت لدينا في نصوص سابقة أن الأكثرية كافرة فاسقة كارهة للحق، فإنه من الطبيعي أن يكون عدد المسيئين أكثر من عدد المحسنين. وبهذا يتبين لنا أن سر قوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦] . يكمن في فهم أسرار قوله تعالى :﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٠] ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف:١٨٧] .

ولو رجعنا إلى الآية التي انطلقنا منها في دراسة الظاهرة (إساءة العمل عند الأكثرية) وهي قوله تعالى :﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٦٦] لوجدناها تتضمن تعليلاً كافيًا للمشكلة إذ يمكن أن نفهم الآية كما يلي : كثير منهم يسيئون العمل لأنهم لم يتبعوا الحق لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن، ولما كان صلاح الأعمال متوقفًا على حب

الحق كما أنزله الله، وكانت الأكثرية على غير هدى، فإن كثيراً من الناس ساء ما يعملون، أي أن إساءة العمل لهذه الأكثرية ناجم عن كون الأكثرية كارهة للحق، جاهلة للحقائق ميالة إلى الفسق، وكل ذلك يؤدي إلى إساءة العمل وإحباطه، وهذا الإحباط قد يكون سنة فكرية اجتماعية، كفساد الرأي وغياب الحكمة ، مما يؤدي إلى الفساد السياسي والاجتماعي، وقد يكون بأمر استئصالي من الله، ولذلك عقب الله على آية سورة محمد السابقة بقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [محمد: ١٠]

● **المطلب الثاني : المسارعة في الإثم والعدوان عند الأكثرية :**

يقول الله عز وجل ﴿ **وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة: ٦٢] .

هذه الآية تتحدث عن الظاهرة السابقة نفسها ـ إساءة العمل ـ بدليل قوله تعالى: ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٢] وإنما أفردناها بمطلب لأنها جسدت ثلاثة أفعال سيئة يسارع إليها الكفار من أهل الكتاب، وهي الإثم والعدوان و أكل السحت، فهذه الأعمال الثلاثة لا يمارسها الأكثرية فقط بل يسارعون إلى ممارستها، فالمسألة إذن تتطلب أن نقف عند وجهين لهذه الظاهرة، وهما : طبيعة هذه الأفعال السيئة الثلاثة، وسبب المسارعة لفعلها، إذ يبدو أن الدافع إليها قوي بحيث شحن النفس لتنطلق نحو الإثم والعدوان وأكل السحت بسرعة، ومعنى الآية: ترى أكثر أهل الكتاب يبادرون بسرعة إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل فبئس العمل الذي يعملون[١]، والإثم ما كان مختصا بالشخص ذاته، أما العدوان فهو ما تعدى الشخص لغيره [٢] .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٧٤ (٢) الكشاف : ١ / ٦٢٦

ويبدو أن هذا الفرق بين الإثم والعدوان هو السر في سكوت الآية الموالية عن العدوان في قوله تعالى :﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[المائدة : ٦٣] فالمسألة مسألة تغيير المنكر والنهي عنه، وهو أمر يتطلب إرادة وقدرة « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »(١) ، والقدرة في النهي عن العمل الشخصي كالإثم وأكل السحت متوفرة لدى الربانيين وهم علماء النصارى، والأحبار وهم علماء اليهود، كما هي متوفرة عند الفقهاء والأئمة من علماء المسلمين، أما في النهي عن العدوان فيندر أن تتحقق القدرة لدى العلماء، وإنما تتحقق القدرة المكافئة لذلك عند السلطان أو عند الجماعة، قال القرطبي « قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء يعني العوام »(٢) وفي صحيح الترمذي : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »(٣) . فتحدثت نصوص الحديث عن العدوان والظلم ولم تتحدث هنا عن الإثم وأكل السحت، لأنه داخل في رسالة الفقهاء بينما العدوان يدخل النهي عنه في رسالة الجماعة، والله أعلم .

والآيتان تضمنتا توبيخين، الأول لمن يسارع في الإثم والعدوان وأكل السحت : ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة : ٦٢] والثاني لمن يرى المنكر ويسكت عليه ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ والصنع بمعنى العمل إلا أنه يقتضي الجودة (٤) .

---

(١) صحيح مسلم وانظر القرطبي : الجامع : ٤ / ٤٩ـ تفسير ابن كثير : ١ / ٢، ٣٩١ / ٨٤.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٤٩

(٣) سنن الترمذي الجزء الخاص بالتفسير / ١ / ٢٥٦ ـ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٦١٧ / ٢٣٧ـ تفسير ابن تيمية : ١٤ / ٤٧٦

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٦ / ٢٣٧

والأكثرية التي تشير إليها الآية تدور حول السرعة التي تعني هنا تسابق الناس على فعل الإثم والعدوان وأكل السحت، وفعل المضارع ﴿ **يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة:٦٢] يفيد تكرار العمل والسرعة فيه وتجديدهما، مما يدل على سر الكثرة الفاعلة لكل تلك النقائص، فالآية تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان وأكل الحرام، وهي صورة ترسم بهدف تبشيع الفعل والتشنيع به، ولكنها تصور كذلك حالات النفوس و أحوال الجماعات حين يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ويسيطر الشر، وإن الإنسان ينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر؛ إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء، فالإثم والعدوان، في المجتمعات الهابطة الفاسدة لا يقتصر على الأقوياء، بل يرتكبها كذلك الضعفاء، فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم، وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء، إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا، ولكن يعتدي بعضهم على بعض، ويعتدون على حرمات الله؛ لأنها هي التي تكوّن في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام .. وكذلك أكلهم للحرام.. فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة:٦٢] (١).

فالآية وصف لحقيقة نفسية تمثل تسابق الناس وتنافسهم في الإثم والعدوان وأكل السحت على الخصوص، والآية (٦٣)من سورة المائدة نفسها تؤكد أن علماء اليهود والمسيحيين لم يكونوا ينهضون بواجبهم نحو البشرية ليوقفوا هذه النفوس المتنافسة على فعل الشر، وكل ذلك يعني أن أكثرية بني آدم يسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، أقوياء كانوا أو ضعفاء، فقراء أو أغنياء، سادة أو عبيداً، ومن هنا وجب علينا أن نتساءل عن الأسباب النفسية التي تدفع البشرية للإقبال على هذه الأفعال الثلاثة بسرعة تعبر عن التنافس السافل؟.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦/٩٢٨

هل يكون السبب نابعًا من طبيعة الأفعال الثلاثة نفسها؟

هل يكون السبب نابعًا من نزغات الشيطان؟

● **أسباب التسارع في الإثم والعدوان:**

إن إقبال الأكثرية على الإثم بسرعة قد يكون سببه غياب الزواجر، وقلة العلماء الذين يبصِّرون الناس بعواقب الأمور، إذ أن الترهيب من العواقب من شأنه أن ينشئ في النفوس كوابح، تجعلها تتردد كثيرا عند الإقبال على الآثام التي تمثل في جوهرها أفعال الإنسان الصادرة بدافع الرغبات النفسية المتعلقة بالغرائز، فلكي يلبي الإنسان غرائزه تجده يصارع ضميره الخلقي،فإما أن ينتصر فعلُ التقوى، وإما أن تنتصر الدوافع الغريزية فيقع الإنسان في الآثام، فإن غاب أسلوب الترهيب تحولت النفس من مستوى النفس المطمئنة إلى مستوى النفس اللوامة، ثم إلى مستوى النفس الأمارة بالسوء ، وهذا الأخير هو الذي يحدث فيه التنافس على الآثام.

وهذا المستوى من التسارع في الإثم يعبر عن حالة بلغها المجتمع بسبب غياب الدعاة، حتى صار التباهي بفعل الآثام عنوانًا للحضارة والتقدم، فأدى إلى التنافس فيه، والحال مشاهد اليوم في الغرب الأمريكي والأوروبي حيث التوقف التام الذي يشبه الشلل الذي أصيب به علماء أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين بشكل واضح، وقد بدأت شعوب المشرق تأخذه تقليداً، كما تعكسه الأغنية والأفلام السينمائية وسلوك الطلبة في الجامعات وما إلى ذلك.

ولا شك أن غياب صوت الدعاة أمر أساسي كما بينت الآية ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ** ﴾[المائدة:٦٣] ولكن للشيطان أيضا دوره الكبير في توجيه الناس نحو فعل الإثم، ولعل الأمرين غاية في التكامل، كما يبين الأثر الذي ينص على أن فناء قرية أهون على الله من موت عالم واحد يتعبد، وقد جاء في الأثر: « لموت عالم أحب على إبليس من موت سبعين عابدا »(١) .

---

(١) شرطي التعريف في فضل حملة العلم الشريف: ١/ ٣٩ الحديث

وقد يكون للتسارع في العدوان سبب آخر، وهو غياب السلطان الذي يقيم الحدود أو غياب القضاة العدول الذين يحكمون في الناس بالقسط، أو انتشار الرشوة في الوسط القضائي وشرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قد يكون للتسارع في أكل السحت أسبابه المختلفة عن الأسباب المذكورة كلها، فتكون غريزة حب التملك قد بلغت ذروتها، بسبب غياب الوعظ والإرشاد، وانتشار دواعي التنافس على المال، والنفس أصلاً مجبولة على ذلك ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[الفجر: ٢٠] فقد يكون لكل مرض من الأمراض الثلاثة (الإثم والعدوان وأكل السحت)أسبابه الخاصة، ولكن العامل المشترك بينها جميعا هو غياب العلماء ونشاط الشيطان، ولذلك أكد القرآن على أهمية الاستعاذة بالله منه، فقال: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

* * *

● **المبحث الثالث : القتل والإيذاء:**

قتل النفس إسراف شديد في تجاوز حدود الله، وإسراف في التعدي على حرمة البشرية، ولذلك شددت الآيات في بيان حجم ذلك الجرم بقوله تعالى ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[المائدة: ٣٢] ثم عقب على الآية ليبين إسراف الإنسان في التعدي فقال: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾[المائدة: ٣٢] ، والمفعول به في الآية محذوف، وأحسب أنه يعود على ما سبق وهو قتل النفس، وإذا كان كذلك فمعناه أن تقدير الآية « ثم إن كثيرا من الناس بعد أن نزلت الآيات البينات لشريعة الله في تحريم قتل النفس أسرفوا في القتل بغير حق ».

ونحن حينما نقرأ بعض النصوص القرآنية الأخرى نتبين ذلك بصورة واضحة، إذ تبين بعضها أن الإنسان زينت له جريمة قتل النفس كما زينت له

الشهوات، مع بشاعتها ومن تلك النصوص قوله تعالى :﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام:١٣٧] فعلى بشاعة جريمة القتل عامة يكون التزيين لكثير من المشركين قتل أولادهم، وهذا يبين تعطش الإنسان حين يخرج من الحدود الشرعية للجريمة إذ أن إقدام المرء على قتل ابنه أمر أفضع مما يتصور، إنه منتهى الوحشية والظلم والجبروت وقساوة القلب وطيش العقل.

والتعبير باللفظ « كثير » للدلالة على شيوع هذا السلوك في الطبائع البشرية والتعبير باللفظ « زين» للدلالة على تمكن شهوة القتل من النفس، نتيجة غياب الشريعة التي تربي النفس على الفضيلة، وغياب الوعاظ والمرشدين الذين يمكنون للفضيلة بمحاربة الرذيلة .

والعلماء يذكرون العلل التي كان الجاهلي يتعلل بها ليبرر جريمته النكراء، يقول القرطبي :« قال مجاهد زينت لهم قتل البنات مخافة العيلة »(١) ، وهذا فيه إشارة لظاهرة وأد البنات التي كانت منتشرة في الجاهلية كما يبينها قول الله تعالى :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ – ٥٩] .

ولكن هناك نصًا صريحًا في النهي عن هذه الجريمة بصفة عامة، مما يدل على أن جريمة القتل كانت تشمل الذكور والإناث، إذ العلة ليست في الشعور بالعار عند ولادة الأنثى فحسب ولكن الخوف من الفقر أيضا كان سببا مهما في رأيهم ليدفع بهم نحو هذه الجريمة البشعة، التي عدها المولى تبارك وتعالى ﴿ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء :٣١] فقال :﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء :٣١] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧/٩١ .

ويبدو أن الدافع الحقيقي والأكبر على هذه الجريمة هو الشيطان، إذ في الآية ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾[الأنعام:١٣٧] تحدد الفاعل للتزيين وهو « **شُرَكَاؤُهُمْ** »، ولما كان الشركاء على الحقيقة ليسوا سوى أصنام لا تأمر ولا تنهى ولا تقدر على التزيين، فقد تبين أن المزين لذلك هو الشيطان (سمي الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم) [1].

ولا شك أن التزيين يقع في هذه الحدود الاقتصادية التي تحددها الآيات التي تناولت موضوع القتل للأولاد عامة، والحدود الأخلاقية التي تحددها آية وأد البنات خاصة، وهو ما تنص عليه الآية من أنهم يقتلونهم خوف العار ﴿ **أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ** ﴾ [النحل:٥٩] .

ولما كان الدافع الحقيقي هو الشيطان، فقد أضحى أن السبب في وقوع الإنسان فريسة للشيطان هو الجهل الذي يصل بالعقل البشري درجة السذاجة في التفكير، وهو ما عبر عنه النص القرآني بقوله تعالى :﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[الانعام:١٤٠] فالذين فعلوا جرم القتل قد فعلوه ﴿ **سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[الأنعام:١٤٠]، ولذلك انقطع فعل القتل والوأد عندما جاء الإسلام إذ قضى على الجهل والسفه بنشر العلم والفضيلة، وذلك بأن انتقد المبررات التي يقدمها الإنسان لنفسه كي يدفعها على فعل ما تفعل، فأنتقد مبرر الفقر، ومبرر العار، وكشف عن الحقيقة وهي الشيطان والجهل بأصول الحياة، وما تقتضيه من التزامات وتضحيات يقوم بها الآباء إزاء الأبناء، وبذلك استقام الإنسان وأقلع عن تلك الجريمة وندم على ما فعل ندما شديداً، فقد روي أن « رجلا من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: مالك تكون محزونا؟ فقال يارسول الله إني أذنبت ذنبا في الجاهلية فأخاف

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٩١

ألا يغفره الله لي وإن أسلمت، فقال له: أخبرني عن ذنبك، فقال: يا رسول الله إني كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لي بنت فشفعت لي امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركَتْ وصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلتني الحمية ولم يستطع قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج فقلت للمرأة إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي فسُرَّت بذلك وزينتها بالثياب والحلي وأخذت علي المواثيق بألا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر فالتزمتني ، وجعلت تقول يا أبت لا تضيع أمانة أمي فجعلت مرة انظر إلى البئر ومرة انظر إليها فارحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة، وهي تنادي في البئر ياأبت قتلتني فمكثت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: لو أمرت أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك» (١) .

وعلى الجملة فإن جريمة القتل متفشية في الناس كالهشيم وقد تتطور بفعل الممارسة المبررة كالسياسة وحماية السلطة بمفهومها البسيط قديمًا وبمفهومها المعقد حديثًا متمثلا في محاربة الدول الساعية لامتلاك الأسلحة النووية، والحال أن الجميع يعمل على امتلاك أسلحة الدمار الشامل ليكون أكثر جرمًا من غيره في حق النفس البشرية.

وخلاصة القول:

إن الفصل جمع الحديث عن ثلاث قضايا تتعلق بالسلوك هي : كثرة الفساق وانتشار الفسق بسبب طول عهد بعد الخليقة عن أساليب التذكير وهجرهم القرآن وإغلاقهم بيوت الله من صوامع وكنائس وبيع ومساجد، ﴿ **فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ ولاشك أن المدة الكافية لبلوغ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٩٧

ذلك هي هجران التذكير مدة تتراوح بين أربع سنوات وثلاث عشرة سنة، وقد ترتب على الفسق إساءة العمل؛ لأن الكفر من شأنه أن يؤدي إلى ذلك ﴿ **وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ بل إنهم قد يتنافسون في الإثم والعدوان والظلم والجبروت ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾، وقد يصل ضلال الأعمال لقتل الرجل أبناءه ﴿ **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ** ﴾.

* * *

الفصل الثاني
الأقلية على مستوى السلوك

● **توطئـة :**

يعد السلوك هو المعيار الظاهري الذي يمكّن الإنسان من أن يصدر بواسطته حكمًا على أخيه الإنسان ويعرف درجة قربه من الحق أو بعده عنه. و السلوك إما أن يكون قوليًا، و إما أن يكون فعليًا، وعدد الآيات القرآنية التي عبرت عن سلوك الأقلية باللفظ الصريح قليلة، ولكنها كافية لتقديم صورة واضحة عن الأقلية على مستوى السلوك، وبيان فاعلية الأقلية الصالحة في تغيير المجتمعات؛ لأن القاعدة تقول: «القليل في الكثير كثير»[1] ، بمعنى أن النسبة المئوية لها خطرها في الحياة من جهة التأثير سلبًا وإيجابًا، وسنعرض لدور الأقلية من جهة نهيها عن المنكر، و القيام بفعل الطاعات، والثبات أمام المحن ، والحرص على الصدق وحفظ الأمانات، والنصوص المعتمدة في ذلك هي:

١ - **النهي** : ومن هذه الآيات قول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود :١١٦-١١٧] وقوله تعالى :﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾[الأعراف :١٦٤-١٦٥] .

٢ - **الطاعة** : ومن الآيات المبينة لها قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾[النساء :٦٤-٦٨] .

---

(١) ابن خلدون المقدمة ٢ / ٧٠٤

وقوله: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٣ - الثبات والصبر: ويكشف عنه قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٤- الأمانة و الصدق: وقوله: ﴿ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [المائدة: ١٣] وعند تأمل هذه النصوص السبعة ستجتمع عندنا أربعة موضوعات أساسية تترجم سلوك الأقلية و سنتناولها في مباحث هي:

١ - النهي عن الفساد.

٢ - الإذعان لأوامر الله وطاعة رسوله ﷺ.

٣ - الثبات و الصبر عند الشدائد.

٤ - الأمانة والصدق وتجنب الخيانة.

* * *

● المبحث الأول: النهي عن الفساد:

النهي عن الفساد ضرورة لاستمرار الحياة وبقاء العمران و أسبابهما، إذ ما يلحق الحياة من فناء أو استئصال إنما سببه ما يشيع فيها من الفساد، ولذلك جعل الله تعالى الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر قاعدة أساسية من قواعد المحافظة على البقاء و النظام.

وللأسف الشديد فإن النهي عن الفساد كان ولا يزال عملاً لا ينهض به إلا القليل من الناس، وهو ما سنراه في النص الآتي : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود :١١٦-١١٧] معنى الآية: «هلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور و المنكرات و الفساد في الأرض، وقوله ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجاة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ... وقوله﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ [هود :١١٦] أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي و المنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فاجأهم العذاب ... ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط»(١).

هذه الآية موضوعها الأساس هو الإخبار عن خلو الأمم السابقة التي أهلكها الله من النابهين الذين ينهون عن الفساد إلا قليلاً، وقد جاءت هذه الآية بعد عرض سورة هود لقصص الأقوام و الأنبياء معهم، وكيف تم إهلاكهم وختمت رحلة القصص بقوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾[هود: ١٠٠]، ولاشك أن القرى التي ظلت قائمة هي التي كانت تنهى عن الفساد، أما التي صارت حصيداً فإنها كانت مستخفة بأوامر الله ونواهيه فشملها الفساد في العقيدة و العمل فاستحقت الاستئصال فحُصدت حصدا فصارت إلى العدم ثم الجحيم.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٤٦٤ .

و الآية تبين أن الذين كانوا ينهون عن الفساد كانوا قلة قليلة هم الذين أنجاهم الله من العذاب الدنيوي قبل النجاة من العذاب الأخروي ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ [هود :١١٦] .

فالذين أنجاهم الله هم الصفوة القليلة التي كانت تنهى عن الفساد، إذ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أما الأكثرية فكانت على العكس من ذلك، تتبع هواها وتشجع على الفساد ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ [هود :١١٦] فالأكثرية اتبعت أسباب الترف فنسيت رسالة النهي عن المنكر، ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾[المائدة:٧٩]، لذلك استحقوا ما استحقوا من الاستئصال، ذلك حال قوم هود، وقوم لوط وقوم شعيب وقوم فرعون الذين وردت قصصهم في السورة نفسها وختمت بهذه الآية التي قدمت التعليل.

وعند تتبع هذه القصص في سورة هود تتبين لنا حقيقة هذه القاعدة السلوكية التي تنص عليها الآية بحيث لا ينهى عن الفساد في الأرض إلا قليل، ولهذا ذهب سيد قطب في تفسيره للآية إلى أنها « تكملة وتعليق على مصارع القرى و القرون، فيشير – السياق– إلى أنه لو كان في هذه القرون أولوا بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله فينهون عن الفساد في الأرض ويصدون الظالمين عن الظلم لما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذي حل بهم، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين، أي إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم و الفساد، إنما كان في هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة فأنجاهم الله، وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم و الخانعين لهم، فأهلك القرى بأهلها الظالمين ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ [هود:١١٧] .

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، وهي أن الأمة التي

يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صوره فيظهر في وسطها من ينهض لدفعه هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب و التدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض فيها من يدفع الظلم والفساد، أو يبرز فيها من يستنكر المنكر، ولكن لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد ليغيره فإن سنة الله تحقق عليها؛ إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال، ومن هنا تتبين لنا قيمة الأقلية في الحفاظ على الوجود البشري، « فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره هم صمام الأمان لاستمرار وجود الأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لا قرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله و استحقاق النكال والضياع »[1] .

وهذه اللفتة اللطيفة التي يشير إليها قطب غاية في الأهمية إذا يحدد بها سر عدم نجاح رسالة الذين ينهون عن المنكر فهم « قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة » في مقابل « كثرة من المترفين و أتباعهم والخانعين لهم » فالمؤمنون فوق أنهم قلة فهم مهمَّشون في المجتمع، بحيث لا سلطان لهم على الأغلبية، لافتقارهم لأسباب قوة السلطان، وعلى رأسها المال لأن نفوس العامة في الغالب مريضة تتبع أهل القوة المالية طمعا في أن تنال منها، وقد بين هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿**قَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾[يونس:٨٨] ، فالأموال هي التي جرَّت القوم إلى الضلال عن سبيل الله، لذلك دعا عليها أصلا موسى عليه السلام بأن تطمس، لئلا ينشأ عنها ضلال الناس عن الطريق « المستقيم: إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنحها المال لأصحابه

---

(١) في ظلال القرآن ٤ /١٢/ ١٩٣٢-١٩٣٣ .

فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين لاشك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ... وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود في عامة الناس ويطلب لوقف هذا الإخلال والتجريد القوة الباغية المقلة من وسائل البغي و الإغراء أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها بحيث لا ينتفع بها أصحابها » (١) .

وربما يبين ذلك أكثر قول الله تعالى قبل ذلك ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾[يونس :٨٤] .

فالذين آمنوا قلة قليلة من الذرية الذين لم يتحكم حب المال بعد في قلوبهم، ولم يستول عليهم بشكل كلي الخوف من غطرسة وجبروت فرعون، وهؤلاء بالتأكيد لا نفوذ لهم ولا قوة، بل « إن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب السلطان والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة » (٢) .

ويرى المراغي أن « العقول السليمة كافية لفهم ما في دعوة الرسل من الخير والصلاح، . . .لو لم يخش هداتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه . . .، لقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان و الظلم والإجرام، ويظهر ذلك بديئا في الرؤساء والسادة ومنهم تنتقل إلى الدهماء و العامة فيكون ذلك سببا في الهلاك والاستئصال أو في فقد العزة والاستغلال وتلك هي سنة الله في خلقه »(٣) .

وعلى العموم فإن قول الله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا**

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١١ / ١٨١٧

(٢) في ظلال القرآن ٣ / ١١ / ١٨١٥

(٣) تفسير المراغي : ١٢ / ٩٨

بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود :١١٦-١١٧] .

يحدد المسائل التالية :

١ – القلة القليلة فقط هي التي تنهى عن الفساد في الأرض وهي صمام الأمان للأمم والشعوب.

٢ – سبب كون الأكثرية لا تنهى عن الفساد هو اتباع الظالمين و الكفار الترف و أسبابه.

٣ – إهلاك الأمم و الشعوب يتم بسبب الفساد في الأرض استئصالا أو إذلالاً و اختلالاً.

والقرآن الكريم يقدم لنا صورة عن العلاقة القائمة بين ثلاثة أطراف، مفسدون، وناهون عن الفساد، و مثبطون لمن ينهى عن الفساد ولكنهم لا يفسدون، بل يبقون على شبه الحياد فيقول تعالى :﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الأعراف :١٦٤-١٦٦]

ففي الآيات ثلاث فرق؛ فرقة مثبطة لأهل الدعوة والنهي عن المنكر ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف :١٦٤] وهذه الفئة سيسكت القرآن بشأنها عند الاستئصال، فلا يذكر كيف كانت نهايتها لأن السياق العام يبين أنها وحدها الفرقة الناجية، وفرقة مفسدة وأكثر من ذلك لا تنتهي عن الفساد إذا وُعظت، وإنما تستمر في الفسق

والفجور، وهي التي يصرح القرآن باستئصالها، إذ مسخها مسخًا: ﴿ **وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ﴾[الأعراف:١٦٦]، والفرقة الثالثة هي الفرقة التي تمثل الأقلية التي تنهى عن الفساد في الأرض وتقدم لمن يلومها عن النهي الأسباب الداعية لذلك، متمثلة في سببين: أن يكون ذلك لهم عذراً عند الله في قيامهم بواجب النهي عن المنكر، ورجاء أن يكون في المفسدين من له قلب لا يزال فيه نبض حياة فيسمع نهيهم ويتعظ، ﴿ **قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾[الأعراف:١٦٤] وهذه الفئة الثالثة التي قامت بواجب النصح وواجب تقديم الأسباب لمن يثبط عزائمهم، هي التي يصرح القرآن بنجاتها ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾[الأعراف:١٦٥]، وهذه الفرقة الثالثة تمثل الأقلية التي سيمدحها القرآن بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ** ﴾[الأعراف: ١٦٨] ، وقوله: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[الأعراف:١٥٩]، وهذه سنة الله في الخلق يوجد فيهم دائما ﴿ **أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ** ﴾[هود:١١٦] لكنهم دائما قليلون .

* * *

● المبحث الثاني : الإذعان لأوامر الله وطاعة رسوله:

طاعة الله ورسوله، والإذعان لأوامر المولى تبارك وتعالى صفة الأتقياء من عباد الله، وهي صفة تتدرج مع العباد لتبلغ الذروة عند الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن لا يخلو السلوك البشري من بعض النماذج من الصالحين والصديقين الذين يمثلون الأقلية التي تمتثل لأوامر الله و نواهيه كل الامتثال، وربما بلغوا ما يشبه درجة الملائكة التي قال الله فيها ﴿ **لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ**

مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم: ٦]، ومثل هذه الأقلية هي التي تعبر عن أحوالها الآيات التالية :

١ – قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء : ٦٦–٦٨]

٢ – وقال : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾[البقرة : ٢٤٩].

فالآية الأولى تبين أن الأقلية من البشرية فقط هي التي تذعن لأوامر الله، على الرغم من أن الخير العظيم في فعل ما يوعظون به، والشر كل الشر في عصيان الله ومخالفة أوامره؛ لأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير ولا ينهى إلا على ما فيه الشر والضرر، ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾[الأعراف:١٥٧] ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾[البقرة : ٢٦٨] .

والآية الثانية تبين أن الابتلاء الذي مر به بنو إسرائيل - على الرغم من بساطته – إذ يتمثل في المرور بالنهر دون الشرب منه ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾[البقرة:٢٤٩] لم ينجحوا فيه بل وقعوا في العصيان و مخالفة أمر الله إلا الأقلية القليلة جدا ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾[البقرة : ٢٤٩] .

وعلى هذا فالنصان يعبران عن قضية سلوكية واحدة هي أن الإذعان الحق لأوامر الله، والطاعة الواعية لرسله، لا ينهض بها من البشرية إلا الأقلية القليلة، فالأقلية هي التي امتثلت لأمر الخروج من الديار من جملة بني إسرائيل، وامتثلت للنهي عن الشرب من النهر عند العبور، أما الأكثرية فقد عصت أمر الله ونهيه.

والسؤال الأساسي المطروح هو: ما الفوائد العلمية والعملية التي تجنيها الأقلية من الامتثال لأوامر الله ونواهيه، فضلا عن مبدأ الطاعة في حد ذاته ؟

من الجدير بالذكر في هذا المقام الإشارة إلى أن هذه الآيات كلها سواء الآيات ٦٦-٧٠ من سورة النساء أو الآية (٢٤٩) من سورة البقرة - تتضمن الإجابة الصريحة عن هذا التساؤل، إذ أن آيات سورة النساء جاء في سياقها قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾[النساء:٦٦-٧٠] ، وهذا كله تعليل وبيان لنتائج الطاعة و الامتثال لأوامر الله ونواهيه، يمكن حصرها في ما يلي :

(أ) تحقيق الخير المطلق، لأن قوله ﴿ **لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ** ﴾[النساء : ٦٦] يعني تحقيق الخير في الدنيا والآخرة (١) .

ولهذا السبب كان القرآن يجمع طاعة الله و الرسول مع طاعة ولي الأمر في قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾[النساء:٥٩]، فالنص « يجعل طاعة الله أصلاً وطاعة الرسول أصلاً بما أنه مرسل منه، ويجعل طاعة أولي الأمر منكم تبعا لطاعة الله وطاعة رسوله فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم، كما كررها عند ذكر الرسول ﷺ ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله، بعد أن قرر أنهم (منكم) بقيد الإيمان

---

(١) القرطبي : الجامع ٥ / ٢٧٠

وشرطه... وأخرج مسلم من حديث أم الحصين: « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له و أطيعوا »[1].

إن هذا التقرير الذي يحدد مجالات الطاعة بصراحة حادة إنما هدفه بيان الخير المطلق الذي يتحقق للمؤمنين إذا امتثلوا و أطاعوا، لأن الامتثال بالصفة السابقة تنظم للإنسان شؤونه كلها، وقد أفادت تجارب الحياة أن التمرد على أوامر الله ورسوله وأوامر القادة المصلحين لا يؤدي إلا إلى الشر الكبير، وأن الطاعة الواعية للقادة المصلحين تحقق التطور و الازدهار والنعيم، وليس أدل على ذلك من طاعة أهل سبأ لملكتهم حين استنصحتهم في أمر دعوة سيدنا سليمان.

وسيأتي بيان، بعض تفاصيل هذا الخير المطلق الناجم عن الطاعة الواعية لأوامر الله و رسوله وأولي الأمر من عباد الله الصاحين.

(ب) التثبيت على الحق.

لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾[النساء:٦٦] فقد عطف التثبيت المحكم ﴿ **وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾[النساء:٦٦] على الخير المطلق، والتثبيت المشار إليه هنا هو الثبات على الحق[2] والابتعاد عن الاضطراب فيه[3] وهذا يحصل نتيجة طبيعية لمقدمته التي هي الامتثال لوعظ الوحي، وكأن الآية تكشف عن العلاقة بين الطاعات والثبات على الحق كما كشف قول الله تعالى ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[المطففين:١٤] عن العلاقة بين العصيان وجمود القلب على حب المعاصي، وقد بينا ذلك بالتفصيل في كتاب: « التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً ».

وقد يكون التثبيت هنا شاملاً، قال ابن عاشور: ﴿ **وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ﴾[النساء:٦٦] يحتمل أنه التثبيت على الإيمان، وبذلك فسروه، ويحتمل

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/٥/٦٩١، ٦/٤٠٢

(٢) القرطبي الجامع: ٥/٢٧٠.

(٣) الكشاف: ١/٥٣٩.

عندي أنه أشد تثبيتا لهم، أي لبقائهم بين أعدائهم و لعزتهم و حياتهم الحقيقية، فإنهم إنما يكرهون القتال استبقاء لأنفسهم، و يكرهون المهاجرة حبًّا لأوطانهم، فعلمهم الله أن الجهاد و التغريب فيه أو في غيره أشد تثبيتا لهم ومما دل على أن المراد بالخير خير الدنيا و بالتثبيت التثبيت فيها قوله عاطفا عليه : ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٦٧] [١] .

(جـ) الأجر العظيم :

وهو ما توحي به الآية المعطوفة على الخير المطلق والتثبيت الشديد على الحق، ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء:٦٧-٦٨] إذ أن الحرف «إذن» جاء هنا ليبين النتيجة المترتبة على نتيجة سابقة، وهي الثبات على الحق الناجم عن فعل ما يوعظ به المرء، وكأن المعنى: لو فعلوا ما يوعظون لتحقق لهم الخير و الثبات على الحق فاستحقوا بذلك أن يأتيهم الأجر العظيم وأن نهديهم الصراط المستقيم، قال قطب: «فمجرد البدء يتبعه العون من الله ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق، ويتبعه الأجر العظيم و تتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم»[٢] ، وقد فسر الأجر العظيم بأنه الثواب في الآخرة[٣] ، ولعله شامل لكونه جاء قبل الهداية إلى الطريق المستقيم وهي تحدث في الدنيا قطعًا.

(د) الاهتداء إلى الصراط المستقيم:

الاهتداء إلى الاستقامة يتحكم فيه عاملان أساسيان، وهما: الهدي الرباني لقوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[القصص:٥٦] ثم الأخذ بأسباب الهداية وعلى رأسها الاحتكاك بأهل الصلاح من المؤمنين العلماء.

---

(١) التحرير والتنوير: ٥ / ١١٤-١١٥ .
(٢) في ظلال القرآن: ٢ / ٥ / ٦٩٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٥ / ٢٧٠ .

وقد جعلت الآية ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[النساء:٦٧-٦٨] الاهتداء إلى الطريق المستقيم إحدى نتائج الإقدام على فعل ما يوعظ به الله والإحجام عما ينهى عنه، وإذا كان الامتثال لأمر الله ونهيه هو الاهتداء نفسه فإن المعنى يصبح شبيها بقوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد: ١٧]، فالاهتداء ينمي الاهتداء ويرشد إلى التقوى، كما أن الطاعة من حيث هي الامتثال لأوامر الله و نواهيه تؤدي إلى أن الاهتداء إلى الصراط المستقيم ينمو ويزداد، ومعنى الاهتداء إلى الصراط المستقيم اكتساب ذهنية سليمة في التصور والتفكير في الكون والحياة وفق قواعد علمية ناجمة عن التعرف الحقيقي على الوحي .

والسبب في ذلك بلغة العصر هو تعميق الأثر في النفس حتى يصبح شبيها بالطبع الذي يصدر عنه الإنسان في سلوكه كله طواعية وبغير تكلف أو تفكير، وهذا يحدث نتيجة الملازمة لفعل الخيرات و التفكير فيها و الابتعاد عن المنكرات وكرهها مع النهي المستمر عنها. قال ابن عاشور: « ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء:٦٨] أي لفتحنا لهم طرق العلم و الهداية، لأن تصديهم لامتثال ما أمروا به هو مبدأ تخلية النفوس عن التعلق بأوهامها و عوائدها الحاجبة لها عن درك الحقائق، فإذا ابتدءوا يرفضون هذه المواقع فقد استعدوا لتلقي الحكمة و الكمالات النفسانية ففاضت عليهم المعارف فترى بدلالة بعضها على بعض وتيسير الله صعبها بأنوار الهداية و التوفيق، ولا شك أن الطاعة مفتاح المعارف بعد تعاطي أسبابه »[1] .

(هـ) المعية السامية:

وهذه الفائدة ميزها السياق بأن خصص لها آية أعيد فيها ذكر الطاعة من جديد، فقال تعالى:﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم

---

(١) التحرير والتنوير: ٥ /١١٨

مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾[النساء : ٦٩-٧٠] .

فالآية معطوفة على الآية السابقة، ومعناها يشبه التأكيد لأهمية الطاعة الواعية، إذ المعنى : من يعمل ما أمره الله به، ويجتنب ما نهى الله ورسوله عنه فإن الله يسكنه دار كرامته في دار الخلد مع الذين أنعم عليهم بأعلى الدرجات وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

ومن كل ما سبق تتبين لنا الفوائد الجمة الخمسة التي تترتب عن الطاعة الواعية والامتثال الصادق لأوامر الله ونواهيه، كما جاءت في الوحي كله كتابا وسنة، وهذه الفوائد هي : تحقيق الخير المطلق، والثبات على الحق، والحصول على الأجر العظيم والعون الكبير من الله، والاهتداء إلى الطريق المستقيم، والمعية السامية مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وكأن الآية قالت : لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكانت لهم هذه النتائج العليا، والدرجات الرفيعة، في بنائهم العقلي والنفسي، مما يجعل سلوكهم مستقيمًا سويًا، وفي نجاتهم في الآخرة بالفوز بالأجر العظيم والرفقة الحسنة، وهو ما تلخصه الآية في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[النساء : ٦٦] .

* * *

● **المبحث الثالث : الثبات والصبر عند الشدائد صفة الأقلية :**

يعد الثبات عند الشدائد و الصبر على البلاء سلوك حضاري إسلامي رفيع، يجعله القرآن الكريم ضمن ما يجب أن يتواصى به المؤمنون فيما بينهم، قال تعالى :﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر:٣] . وجعله صفة مميزة لأولي العزم خاصة فقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[الشورى:٤٣] ، وقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]،وجعله سببا للخير فقال : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ﴾[النحل:١٢٦] ولا شك أن الثبات، أمام المحن والصبر عليها قوة أخلاقية لا يقدر عليها إلا الأقلية القليلة من المؤمنين الذين إذا أخذوا بميثاق الله صبروا مهما كانت المحن. والآيتان اللتان تبينان ذلك من القرآن هما:

١- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة:٨٣].

٢- وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦].

الآيتان من سورة البقرة وهي سورة مدنية، تعنى أساسا بالأحكام الفقهية والسياسة الشرعية، والأخلاق بصفة شاملة، وموضوع الآيتين بالتدقيق هو بيان سلوك التولي وعدم الثبات والصبر إلا عند الأقلية القليلة التي تثبت عند الشدائد وتصبر على الابتلاء، والشخصية المشار إليها هنا هي شخصية بني إسرائيل، هذه الشخصية التي لم يثبت منها على الأخذ بالميثاق المتضمن للتوحيد والإحسان إلى الوالدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا الأقلية القليلة، أما الأغلبية فقد أعرضت عن الحق وانتكست بعد الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة:٨٣] وهذه الشخصية التي اضطربت أحوالها عند مسألة المواثيق في الغالب إلا عند الأقلية، هي نفسها التي تولت ولم تثبت عند الابتلاء بالقتال من أجل استرجاع حقوقهم الشرعية المتمثلة في الوطن والأهل، بصفة عامة إلا عند الأقلية.

وهكذا يتبين لنا أن الثبات عند الشدائد والصبر على المحن والابتلاءات صفة الأقلية من البشرية بصفة عامة، لأن النص وإن كان وصفا لشخصية محددة هي شخصية بني إسرائيل فإن هذا – في نظري – ليس سوى نموذج سيئ للجنس البشري، إذ نلاحظ عدم الثبات و الصبر عند الشدائد هو السلوك العام الذي يسود النشاط البشري، قال الزمخشري :في معنى الآية : « ﴿ **وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[البقرة :٨٣]، أنتم قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق »[١]،أي لا تصبرون عليها، ولعله لذلك كانت الآيات القرآنية تكرر بكثرة الحث على خلق «الصبر»، ﴿ **وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ** ﴾[العصر :٣] ، ﴿ **وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾[البلد : ١٧]، قال ابن عاشور : « جاء في الذكر من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ... لأن ذلك أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر »[٢] .

وقال قطب : « الصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ولاقتحام العقبة بصفة خاصة، و التواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته، درجة تماسك الجماعة المؤمنة... فيوصي بعضها بعضًا بالصبر على العبء المشترك ويثبت بعضها بعضا فلا تتخاذل، ويقوي بعضها بعضًا فلا تنهزم، وهذا أمر غير الصبر الفردي و إن يكن قائما على الصبر الفردي، وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة وهو ألا يكون عنصر تخذل بل عنصر تثبيت، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام »[٣] .

إن الآيتين موضوعهما بيان صفة الأقلية بالنسبة إلى الأغلبية في المواقف الصعبة التي تتطلب مجاهدة النفس و التغلب عليها و قهرها، لتثبت على المبادئ الأساسية التي بها وحدها يصلح حال المجتمعات، وتنهض الأمم، ويستقيم حالها سياسيا واجتماعيا وأخلاقيا، وفوق ذلك كله ينالون الرضوان .

---

(١) الكشاف : ١ / ٢٩٣ (٢) التحرير والتنوير : ٣٠ / ٣٦١ .

(٣) في ظلال القرآن : ٦ / ٣٠ / ٣٩١٣ .

والثبات و الصبر على المكاره هو الحل الأسمى لبلوغ المكارم ولتحقيق الأهداف العليا، أما التولي والنكوص على الأعقاب فإنه مجلبة للمذلة والخسران.

وهذه الصفة على أهميتها القصوى صعبة لا ينهض بها إلا الأقلية، قال ابن عاشورفي معنى قوله تعالى السابق: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[البقرة:٨٣] «المعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا اتبعتموه، والتولي الإعراض و إبطال ما التزموه وحذف متعلقه لدلالة ما تقدم عليه، أي توليهم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى و اليتامى و المساكين، وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة... وقوله: «إلا قليلا منكم» إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد »(١) .

والقرآن يكرر الثناء على هذه الأقلية المستثناة هنا في موضع آخر من سورة آل عمران عند قوله تعالى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٤] ، ولفظ «أمة» في الآية للدلالة على الأقلية، ولعل القصد هو من أسلم منهم(٢) .

إن قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة:٨٣] ، في معرض الحديث عن الأخذ بالمواثيق والعهود والالتزامات،

---

(١) التحرير والتنوير: ١/٥٨٤ .

(٢) الكشاف: ١/٤٥٦ ، ٢٩٣ .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، في معرض الحديث عن مواقف بني إسرائيل من الجهاد ومستلزماته من طاعة وصبر والتزام، أقول: إن كل ذلك يبين خُلق الأقلية في مجال الشدائد، سواء ما تعلق منها بجهاد النفس وهو الجهاد الأكبر متمثلاً في المواثيق التشريعية عامة، أو ما اتصل منها بمقابلة العدو دفاعا عن الحقوق الوطنية وهو الجهاد الأصغر، متمثلا في التشريعات الخاصة بظروف الحرب والقتال.

ففي الآية الأولى نلاحظ ثبات الأقلية على المواثيق في مقابل إعراض الأكثرية عنها، وفي الثانية، نلمس صبر الفئة القليلة لمَّا فرض القتال وظهر نكوص أكثرهم عن الجهاد.

هذه حقيقة موضوعية ثابتة في سلوك البشرية، لا يمكن نكرانها، ولكن ما السبب في إعراض الأكثرية وتوليها يوم الزحف، والنكوص أمام الالتزامات؟ وما سر ثبات الأقلية في الموقفين؟

● **الأسباب والعلل:**

إن الآيات القرآنية التي تبين الأسباب والعلل كثيرة منها:

١- **السبب الأول**: الشيطان، ففي سورة آل عمران يبين المولى تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، قال الزمخشري: «إن الذين انهزموا يوم أحد كان السبب في توليهم أنهم كانوا أطاعوا الشيطان فاقترفوا ذنوبا فذلك منعهم التأييد وتقوية القلوب حتى تولوا»(١)، فهذا هو السبب الأول والرئيسي في التولي يوم الزحف

---

(١) الكشاف: ١/٤٧٣

والضعف والنكوص أمام الالتزامات التعبدية والعلمية والخلقية، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ورعاية اليتيم والمساكين والأقارب وتجنب الفاحشة من الفعل و القول، إنه الشيطان «الذين تولوا... إنما استزلهم الشيطان» ولكن الشيطان يستزل الخلق عن طريق ما كسبوه من الآثام، لأن الآثام يشجع بعضها على بعض، ويغري ارتكاب بعض الفواحش الصغيرة بالكبيرة، قال ابن حجر: «من استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام، والمباح عقبة بينه وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه»[1] . والذي فعله المؤمنون في غزوة أحد فاستزلهم الشيطان إنما هو تنافسهم في الغنائم حتى عصوا أمر رسول الله ﷺ في الثبات في المراقب التي أمروا بمراقبة العدو منها، قال الزمخشري: «قيل بعض ما كسبوا هو تركهم المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه»[2] .

٢- **السبب الثاني**: هو اتباع الكفار وطاعتهم، وهو ما يبينه قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ** ﴾[آل عمران: ١٤٩] .

فالآية تتضمن تحذير المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين؛ لأن طاعتهم تورث الردى والخسران في الدنيا والآخرة[3] ، والردى الذي تورثه بشكل أساسي هو التهاون في القيم الإسلامية شيئا فشيئا، حتى يتم التولي على الأعقاب، قال ابن عاشور: «إذا مالوا إليهم استدرجوهم رويداً رويدا، بإظهار عدم كراهية دينهم المخالف لهم، حتى يردوهم عن دينهم؛ لأنهم لن يرضوا عنهم حتى يعودوا إلى ملتهم، فالرد على الأعقاب على هذا يحصل بالإخارة والمال، وقد وقعت هذه العبرة في طاعة مسلمي الأندلس لطاغية الجلالقة»[4] .

---

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١/١٢٧
(٢) الكشاف: ١/٤٧٣
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٤١١
(٤) التحرير والتنوير: ٤/١٢٢

وأحسبها هي التي أخذ اليهود – في عصرنا هذا – يستعملونها مع العرب تحت شعار « التطبيع » إذ ليس التطبيع على مستوى العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلا استدراجًا لقبول اليهودي على ما هو عليه من كفر وجحود للحق على نصاعته .

٣- **السبب الثالث** : هو الترف وقد تحدثنا فيه كثيرا، وإنما نتحدث عنه هنا كسبب للتولي و النكوص، قال القرطبي في تفسير قوله تعالى :﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾[البقرة :٢٤٦] : « أخبر تعالى أنه لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب وأن نفوسهم ربما قد تذهب « تولوا » أي اضطربت نيتهم وفترت عزائمهم وهذا شأن الأمم المتنعمة المائلة إلى الدعة تتمنى الحرب أوقات الأنفة فإذا حضرت الحرب قعدت وانقادت لطبعها، وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله : « لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا » ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله »[١] .

وخلاصة القول ـ في هذا المبحث ـ أن الأقلية هي التي تتصف بخلق الثبات و الصبر على المكاره والشدائد والبلايا، وبذلك يتحقق لها النصر على الأعداء والانتصار على النفس والشيطان، أما الأغلبية، فعلى العكس من ذلك، والسبب في تولي الأغلبية وانتكاسها اتباع خطوات الشيطان واستدراج الكفار والتأثر بسلبيات الترف .

* * *

● المبحث الرابع : الأمانة والصدق صفة للأقلية :

حفظ الأمانة خلق إسلامي وإنساني رفيع، عليه تقوم الحياة السوية في وجوهها السياسية والاجتماعية، وبغياب الأمانة تحل الخيانة التي تخرب البلدان

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٢٤٥

والمؤسسات الدولية، بل تخرب البيوت، وتهدم الأسر، والخيانة صفة تعم الذنوب الصغيرة والكبيرة، اللازمة والمتعدية، كما أن الأمانة كذلك.

وقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الجانب السلوكي السامي عناية كبيرة، فنبه على ضرورة الأمانة لإقامة المجتمع السوي، وحذر من عواقب الخيانة في هدم المجتمعات فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[الأنفال:٢٧]، فالخيانة محرمة مطلقا سواء لكتاب الله أو لسنة رسوله ﷺأو الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد[١] . ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال:٥٨] .

والخيانة التي تشير إليها الآية السابقة، يذكر المفسرون لها سببًا، يبين أنها تدخل في المجال السياسي والحركات الدبلوماسية، التي كانت تجري في المدينة المنورة عندما كان اليهود يكيدون كيدهم للرسالة الجديدة، حفاظا على كيانهم، ولو كان مبنيًا على الباطل، أخرج ابن كثير عن الزهري أن رسول الله ﷺ لما حاصر يهود بني قريظة طلبوا الصلح فأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا أرسل لنا أبا لبابة فبعثه رسول الله ﷺ إليهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى ؟ أننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه يعني أنه الذبح، قال أبو لبابة: والله مازلت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فقال: لا والله لا أذوق طعاما ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب الله علي، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحله، فقال يا رسول الله إني كنت نذرت أن انخلع من مالي صدقة فقال يجزيك الثلث أن تتصدق به[٢] .

---

(١) الصابوني: صفوة التفاسير ١ / ٥٠١

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٠٠

هذا المثال يبين كم كان المؤمنون زمن رسول الله ﷺ يقدرون الأمانة ونقلها والخيانة وآثارها على المجتمعات .

ولاشك أن الأمانة سلوك قليل من يحافظ عليه، وأن الخيانة سلوك كثير من يقوم به كثرة الدوافع السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية وغيرها .

والنص الذي بين أيدينا يبين ذلك، قال تعالى :﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾[المائدة:١٣]، هذه الآية وردت في سياق يتحدث عن بني إسرائيل، ويبين مواقفهم من العهود والمواثيق، ليصل إلى أنهم نقضوها وحرفوها وتناسوها، وبذلك ثبتت خيانتهم العظمى، واستثني الأقلية منهم فقط .

وتعبير القرآن ﴿ **وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾ [المائدة: ١٣] يبين صفة الديمومة و الاستمرار على الخيانات المتكررة من طرف بني إسرائيل خاصة، والكفار عامة، إذ العامل المشترك بينهم هو الكفر، مما يجعل الخيانة سلوكًا طبيعيًا يتماشى مع نيتهم واستعدادهم الاجتماعي والتربوي، قال ابن كثير: تركوا العمل بكتاب الله فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فكر مستقيمة ولا أعمال قويمة (١) .

لقد توطنت نفوسهم على الخيانة لكتاب الله وأعمال الرسل، و الصالحين من عباد الله، فلم ينج من هذا الخلق الرديء إلا القليل منهم .

وهكذا يتضح لنا أن الأقلية فقط هي التي تحافظ على الأمانة فتؤدي ما أوجب الله عليها من مواثيق وعهود، وتطيع الرسل في كل ما وعظوا به من خير وما نهوا عنه من شر، وتقتدي بكل الصالحين في الأعمال التي ترضي الله لما فيها من خير للإنسانية .

---

(١) تفسير القرآن العظيم :٢/٣٣

و المفسرون يرون أن هذه الأقلية هي من أسلم منهم[1] ، والواقع أن الوصف شامل لليهود وغير اليهود في كل زمان، إذا التجربة البشرية تفيد أن الأمم كلها تحتوي على أقلية من مجتمعاتها تحافظ على الأمانات، وبذلك يصلح حالها الاقتصادي و الاجتماعي و العمراني على الأقل، ودول الغرب الآن خير دليل على ذلك .

إن حفظ الأمانة العامة التي هي مهمة الإمام الأكبر، و رئيس الأمة بالمصطلح الحديث، من شأنه أن يحمل الرعية ـ كلا على حسب مسؤولياته ـ على احترام الأمانة التي أنيطت بعنقه، إما طواعية إن كان صاحب ضمير حي وتقوى، وإما خوفا وكرها ليحافظ على منصبه في المسؤولية التي أوكل إليه أمرها .

و الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله و مسؤول عن رعيته، و المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها و الخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته »[2] ، فيه دلالة قطيعة على تحمل الأمانة و السهر عليها أمر عظيم في الإسلام، ولعل الحديث الذي بوب له البخاري في صحيحه تحت عنوان « هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء »[3]، يدل على أهمية الأمانة الكبرى وضرورة تجنب وضعها بين أيدي السفهاء، لأن تسيير شؤون الدولة ليس أمراً سهلاً، إنما هو مسؤولية عظيمة تتطلب رجالاً أكفاء يتمتعون بتجربة في التسيير ورجاحة في العقل، وروية في القضاء أمراً ونهياً ومنعا وإباحة، فإذا أسند الأمر لغير أهله فلا بد أن ننتظر هولاً يشبه قيام الساعة، وبمعنى آخر هلاكا مقترنا بضياع الأمانة، و لذلك كانت الأحاديث التي تنبه المجتمعات على خطورة إسناد الإمارة لمن لا يستحقها كثيرة : قال رسول الله ﷺ

---

(١) صفوة التفاسير : ٣٣٣

(٢) حديث كلكم راع / صحيح البخاري : / ١ / ٣١٣

(٣) صحيح البخاري : ج٤ـص٣٥٧

فيما رواه البخاري: «ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة»[1]، وقال: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة»[2]، وقال: إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء وذكر منها: إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأُكرِم الرجلُ مخافة شرِّه[3].

وإسناد الأمر للسفيه لا يختلف عن إسناده للمرأة إذا لم تحنكها التجربة ولم يرفعها لذلك أسباب موضوعية، كالتي رفعت بلقيس إلى العرش، ولعل ذلك هو مغزى حديث رسول الله: ﷺ لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة[4]، فهذا الحديث ليس قدحًا في المرأة ولا انتقاصًا من قيمتها، لأن موازين التقدير في الإسلام قائمة على التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: ١٣].

وإنما الحديث بيان للقدرة على تحمل الأمانة، ولذلك عبر بالفعل: (يفلح)، مسندا إلى القوم، فالقوم هنا بمعنى المجتمع، وهو مسؤولية كبرى يعجز عنها كبار الرجال الذين حنكتهم التجربة وصقلتهم الحياة فضلا عن المرأة التي لا تسمح لها طبيعتها بأن تعيش تطورات الأحداث المختلفة في الحياة المعقدة، مما يجعلها غير مهيأة لتسيير شؤون الدولة أو الإمارة، ومن ثم كان قول الرسول ﷺ دالا على نفي الفلاح على المجتمع الذي يضع مقاليد الأمور بيد المرأة و السفيه على حد سواء.

فهلاك الأمة وخسرانها مرتبطان بضياع الأمانة العظمى، حتى لكأنك تستطيع التنبؤ بسقوط دولة متى رأيت الأمانة قد وضعت في غير موضعها، والرجال في ذلك كالنساء قيمتهم بحنكتهم وقدرتهم وبما يعرفون.

وقد ذكر ابن خلدون أن شروط الإمامة أربعة: العلم والعدالة والكفاية

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٣٧٦-٣٧٧

(٢) صحيح البخاري: ٤/ ٣٧٦-٣٧٧

(٣) الترمذي: الجامع الصحيح: ٤/ ٤٢٨

(٤) صحيح البخاري: ٤/ ٣٦٧

وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل[1]، لنتبين من هذه الشروط الأسباب التي تؤدي إلى حفظ الأمانة والقيام بها على الوجه الذي يليق بها .

والقرآن الكريم يحدد لنا الصفة التي استحق بها نبي الله يوسف عليه السلام الإمامة، يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [يوسف: ٥٤-٥٥] ، فالملك لم يستخلص يوسف للمسؤولية التي أولاه إياها إلا بعد أن عرف أنه أمين، فبالأمانة استحقّ صفة « التمكين » في خزائن الأرض، فهو مؤتمن على كل شيء »، لأنه « حفيظ »، قبل كل شيء ثم « عليم » بعد ذلك، ومعنى كونه « حفيظا »، أنه لا يضيع الأمانة العظمى التي استودعها عنده السلطان، ومعنى كونه « عليما » أنه مدرك لوجوه التصرف في ما ائتمن عليه من شؤون الأمة، وقد مر بنا أن العلم من شروط الإمامة والولاية، قال ابن عاشور : « المكانة تقتضي العلم والقدرة إذ بالعلم يتمكن من معرفة الخير والقصد إليه، وبالقدرة يستطيع فعل ما يبدو له من الخير، والأمانة تستدعي الحكمة والعدالة، إذ بالحكمة يوثر الأعمال الصالحة ويترك الشهوات الباطلة، وبالعدالة يوصل الحقوق إلى أهلها »[2] .

إن القرآن الكريم حين يكرر صفتي الإمامة الصالحة أو الولاية السرية بقول الله : ﴿ **مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾[يوسف: ٥٤] وقوله ﴿ **حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾[يوسف: ٥٥] إنما ليبين قيمة الأمانة كصفة جوهرية في اختيار المسؤول حينما تدعم بقيمة (العلم)، وهما صفتان يقل في الناس من تتوفر فيهما، فالآية تبين أن يوسف عليه السلام « اتصف بصفتين يعسر حصول إحداهما في الناس بله كلتيهما، وهما الحفيظ لما يليه والعليم بتدبير ما يتولاه ... صفة الحفظ المحقق للائتمان، وصفة العلم المحقق للمكانة[3] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ١ / ٣٤٢ (٢) التحرير والتنوير: ١٣ / ٨

(٣) المصدر نفسه: ١٣ / ٩

من كل ما سبق يتبين لنا أن الأمانة قوة خلقية عظيمة في حياة الأمم والشعوب وأنها فطرة وعلم لقول رسول الله ﷺ: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة»[1]، وأن الذين ينهضون بها حق النهوض هم الأقلية من الناس، وهذا ما يفسر تحذير الرسول ﷺ من خيانة الأمانة الصغرى أو الكبرى حين قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»[2]، وقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام نومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل - كجمرة دحرجت على رجله فنفضت فتراه منتبراً، وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله، قال فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أمينا»[3].

● **وخلاصة القول:**

إن النصوص القرآنية التي تناولت سلوك الأقلية قد بينت أن السلوك الرفيع لا ينهض به من البشر إلا قليل، ويبدو ذلك جليا في النهي عن المنكر، وهو أقوى - بلا شك - من الأمر بالمعروف، ثم الطاعة لله ورسوله والصالحين من أولي الأمر القائمين على شرع الله، والثبات على الحق والصبر على المكاره والمحن، ثم في النهاية رعاية من استرعته الأمة للأمانة الكبرى والصغرى بوجه حق وإخلاص للدين والأمة التي استرعته في شؤونها كلها، وأن ذلك لا يتم إلا بوضع الأمين المناسب في المكان المناسب.

* * *

---

(١) صحيح البخاري: ٤ / ٣٦٣

(٢) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، انظر البخاري: ٤ / ٣٧٦

(٣) الترمذي: الجامع الصحيح ج٤ ص ٤١٢

الباب الخامس

الأكثرية والأقلية فى المعاملات

● **توطئة:**

المعاملات هى المعيار والمحك الذى تظهر فيه البشرية على حقيقتها، حتى قيل: «الدين المعاملة»، وذلك لأنها تترجم المصالح الفردية والجماعية بين البشرية كلها، والمصالح تقوم أساسًا على التنازع المستمر على الملكيات المختلفة، ملك المال، والحرث، والنساء، وما إلى ذلك مما فطر الإنسان على حبه كما تعبر عن ذلك الآية: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبسبب الحب الكبير لكل هذه الأشياء يقع التنازع بين الناس فتسوء المعاملات بين الخلق فى الغالب الأعم، ويقل من الناس من يحسن التعامل مع الشريك، والجار، والأمة كلها.

وفى هذا الباب سنقف عند الآيات التى تبين طبيعة المعاملات عند الأكثرية والأقلية، وسنعمل على كشف الأسباب التى تؤدى إلى أى طبيعة من تلك الطبائع المختلفة، على مستوى المعاهدات، والأموال، وغير ذلك.

والآيات التى سنقف عندها لبيان ذلك باعتبارها آيات محورية فى هذا الباب هى:

١- ﴿ **أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾

[البقرة: ١٠٠]

٢- ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾

[الأعراف: ١٠٢]

٣- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

٤- ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

٥- ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾

[النساء: ١١٤]

إن أى نظرة متفحصة تتأمل هذه النصوص بعمق تصل إلى أن هناك فرقا كبيراً بين المعاملات عند الأكثرية، وبينها عند الأقلية، سواء على مستوى العهود والمواثيق السياسية المبرمة بين بنى البشر، كدول أو أفراد، أو على مستوى التعامل المالى بين الشركات والأفراد، أو حتى على مستوى النجوى والحوار السياسى الجماعى أو المعاملات الفردية، فكل ذلك تضمر فيه الأكثرية الحركة السلبية التى تلحق بالبشرية الضرر، بينما تحاول الأقلية التقليل من هذه المبالغة العجيبة فى السوء لتنهض بالمعاملات إلى المستوى اللائق بالإنسان الرسالى فى هذه الحياة.

وسنفصل الحديث فى هذه الإشكاليات فى فصلين، يتناول الأول منهما معاملات الأكثرية ويتناول الثانى معاملات الأقلية.

* * *

الفصل الأول
معاملات الأكثرية

سنصب الحديث فى هذا الفصل بناء على الآيات السابقة على أسلوب الأكثرية فى المعاملات وسنتساءل بادىء ذى بدء عن طبيعة معاملات الأكثرية التى تمثل بالنسبة للمعاملات بين بنى البشر عامة مشكلة كبرى؛ لأن الإنسان، أى إنسان كان، مضطراً بحكم كونه عنصراً فى المجتمع أن يتعامل معها حب أو كره، ونحن حينما نقف عند نص كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٠٢] فإننا نتعجب كثيرا من طبيعة البشر، مما يطرح تساؤلات كبيرة على الأسلوب الذى يمكن أن يتعامل به الأقلية مع الناس حينما يكونون بهذه الصفة.

وعلى هذا فسنتوقف عند أهم المجالات التى تتم فيها التعاملات، وخاصة تلك التى تحدث فيها القرآن الكريم، ومنها العهود والمواثيق السياسية والفردية، ثم أساليب التعامل المالى بين الشركاء والخلطاء، ثم دراسة مناهج الأكثرية فى الخطاب السياسى وغير السياسى، وسيوزع ذلك فى مباحث هى:

المبحث الأول: المعاملات المتعلقة بالعهود والمواثيق السياسية والفردية.

المبحث الثانى: التعامل المالى بين الخلطاء والشركاء عند الأكثرية.

المبحث الثالث: طبيعة الخطاب لدى الأكثرية فى مجال المعاملات.

* * *

● المبحث الأول: المعاملات المتعلقة بالعهود والمواثيق السياسية والفردية:

النصان المحوريان اللذان يشكلان التعبير عن طبيعة هذه المعاملات هما:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

٢- قوله عز وجل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

والنصان ينفيان عن الأكثرية الوفاء بالعهود المبرمة بين الأطراف السياسية والفردية، ويقدمان فى الوقت نفسه العلل والأسباب التى تمنعهم من الوفاء، ونلخصها فى سببين أحدهما عقدى وهو انتفاء الإيمان، وثانيهما سلوكى وهو الفسوق والعصيان، ومع ذلك فهناك بعض الفروق الجزئية بين ما تهدف إليه الصياغة فى الآية الأولى، وما تهدف إليه فى الآية الثانية.

أما الآية الأولى - وقد جاءت فى سياق تثمين طبيعة المعاملات التى يقوم بها بنو إسرائيل إزاء الأنبياء والرسل والملائكة - فإن الصيغة التى جاءت عليها تبين أن أسلوب المعاملات مع المواثيق يتميز بتكرار النقض للعهود، ونبذ بعضهم لها، إذ تفيد صيغة اللفظ (كلما) التكرار، وهذا يفضى بأن يكون هذا هو ديدنهم وطريقتهم فى الحياة مع الأنبياء والرسل، ومع الناس، وما دام الذين ينقضونها قد عبر عنهم بالفريق، فإن هذه المعاملات كثرت فشملت السلوك الفردى الذي يهدف إلى المصالح الفردية، والسلوك الجماعى الذى يأخذ الطابع السياسى بين المجتمعات والأمم والشعوب.

والآية التى تتلو هذه الآية مباشرة تبين نمطًا من أنماط نقض العهود، قال تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠-١٠١]، ومعنى

الآية: كلما أبرم اليهود عهدا مع المسلمين رفضه فريق منهم، وهذا يعنى أن العهد قد نقض، إذا لم نقل هو فى حكم ما لم يبرم أصلا، لخلوه من النية الخالصة، والسبب فى ذلك أن أكثرهم لا يؤمنون بالله ورسله، ولذلك لما جاءهم محمد ﷺ مصدقا بالقرآن ما عندهم من التوراة والإنجيل نبذوا ما كانوا يعلمونه من كتاب الله وراء ظهورهم، وتغافلوه متجاهلين وجوده بين أيديهم حتى صاروا فى حكم من لا يعلم شيئا من ذلك.

فالآيات البينات تلقى هنا «بعض الأضواء الخاصةعلى خصلة من خصال بنى إسرائيل، ومن سار فى طريقهم ألا وهى خصلة الالتواء والتذبذب والرح الانتهازية الصرفة، وهكذا إذا أعطت جماعتهم للمسلمين عهدا لم تلتزمه كلها، وفى مجموعها التزاما تامًا، بل إن فريقا منها ينبذه فى الحين وينتمى فى السر إلى الجانب المعارض، بينما يحافظ الفريق الآخر على العهد ظاهرا فيبقى مع الجانب الذى عاهده، وذلك ليضمنوا مصالحهم مع كلا الجانبين، الجانب المتغلب اليوم، والجانب الذى يمكن أن يتغلب غدا، وهذا ما تشير إلى فحواه الآية الكريمة ﴿ **كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾ كما يذكر الناصرى[1].

وأما الآية الثانية فتفيد صياغتها نفى وقوع الوفاء بالعهد على الأكثرية فقال ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ** ﴾، وهذه الآية جاءت فى سياق يتحدث عن القرى والأمم، يقول الله تعالى ﴿ **تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٠١ – ١٠٣]. ومعنى الآيات: هذه القرى التى أهلكناها وهى قرى نوح وعاد وثمود ولوط وهود وشعيب المتقدمة الذكر نتلوا عليك من إخبارها – لغرض التسلية – فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا بعد

---

(١) المكى الناصرى: التيسير فى أحاديث التفسير ١ / ٦٤.

هلاكهم لو أحييناهم... لأنه قد طبع على قلوبهم، ومثل طبعه على قلوب هؤلاء المذكورين، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ، فالجميع كفار، والأكثرون منهم لا أمانة لهم ولا وفاء، ثم بعثنا من بعد أولئك الأقوام موسى بن عمران بمعجزات فكفروا بها فانظر كيف كانت نهايتهم[1].

فقد تبين من تجارب هذه الأمم كلها أن هذه هى الطبيعة الغالبة عليهم، وأيا كان العهد المقصود فإن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يتمسكون به، ويثبتون عليه، إنما هو الهوى المتقلب والطبيعة التى لا تصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم، وقد كانت ثمرة التقلب ونقض العهد واتباع الهوى هى أن أكثرهم فاسقون[2]، وكانت عاقبة الفسق والفساد الاستئصال ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ الذين ظلموا وتجبروا وعتوا فى الأرض، وكان بداية كل ذلك نقض العهد والدوام على ذلك السلوك حتى صار طبعًا، ومن شأن الطبع الفاسد إذا عم أن يسقط الدول والحضارات، وهذا ما تفيده الصياغة التالية ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾ فالأمة التى لا ترعى عهد الله والبشرية لا يمكن إلا أن تكون فاسقة وأن يكون أهلها من المفسدين.

وهكذا يتبين أن صياغة الآية الأولى ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾ وصياغة الآية الثانية ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ** ﴾ تفيدان أمرا واحدًا وهو أن الطابع العام فى معاملات الأكثرية على مستوى العهود والمواثيق الجماعية ذات الطابع السياسى، أو الفردية ذات الطابع الأخلاقى يتسم بالغدر والخيانة للمواثيق والعهود ينقضها حينا ونبذها أخرى.

والآن يمكن التساؤل عن الأسباب التى تدفع بالأكثرية إلى هذا السلوك، على الرغم من وضوح ما يترتب عليه من فساد شامل للحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، إذ أن نقض العهود المبرمة بين الدول غالبا ما يؤدى إلى

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٧/٢٥٥.

(٢) فى ظلال القرآن: ٣/٩/١٣٤٢.

التناحر والتقاتل بين الدول والشعوب بصورة لا تعرف التوقف، بسبب انعدام الثقة الناجمة عن نقض العهود والمواثيق، والتاريخ يحدثنا عن حرب داحس والغبراء التى استمرت فى الجزيرة العربية أربعين سنة، ويحدثنا عن بنى إسرائيل وما فعلته بهم الشعوب المجاورة لهم، إذ شردهم البابليون فى القرن السادس قبل الميلاد ومكثوا أربعين سنة فى أسرهم، ثم قيض الله لهم الفرس فردوا لهم عزهم، فطغوا فسلط عليهم ثانية الرومان حين تمردوا عليهم حوالى منتصف القرن الثانى الميلادى وبذلك انتهوا وانقرضوا وتفرقوا فلم تخرج أو رشليم من حكم الرومان إلا حين فتحها المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب فى السنة السادسة عشرة للهجرة[1] ثم قيض الله لهم بريطانيا فكونت لهم مجدا على أرض فلسطين سنة ١٩١٧ وجمعتهم من كل أصقاع الأرض حتى ليظن المرء أن هذه هى المشار إليها فى كتاب أرميا الإصحاح التاسع والعشرين بما يلى: « تطلبوننى فتجدوننى بكل قلبكم، فأوجد لكم يقول الرب، وأرد سبيكم وأجمعكم من كل الأمم ومن كل المواضع التى طردتكم إليها»[2].

ولكن السلوك الإسرائيلى حسب ما تبين كل أحداث التاريخ يؤسس بصورة مضطردة على الخيانة ونبذ المواثيق والعهود، لذلك نتصور أن يسلط الله عليهم من جديد قوة أخرى تقهرهم وتذلهم جزاء ما يفعلون من عدوان وظلم، ولعل ذلك هو ما تنص عليه آيات مقدمة سورة الإسراء، لاسيما وقد طغوا وتجبروا وأفسدوا فى الأرض كثيرا جدا.

تلك حقيقة تاريخية تفرض علينا أن نتساءل عن الدوافع المختلفة التى تدفع الأكثرية إلى نقض العهود والمواثيق؟

● **دوافع الأكثرية لنقض العهود:**

إن النصين السابقين يتضمنان الإشارة لسببين هما؛ انتفاء الإيمان، وكثرة الفسق.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥ / ٢٩-٣٨

(٢) إرميا ٢٩ / ص ١١٣٠ من الكتاب المقدس

١- أما الأول فهو ما تعبر عنه الآية: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠ - ١٠١]، إذ أن قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بمثابة تعليل لسبب تكرار نقض العهود ونبذه من بعضهم بصورة مضطردة، ويبين ذلك ما جاء بعده من تمثيل بزمن الرسالة الخاتمة، إذ جاء الرسول مصدقا لما فى التوراة والإنجيل فنبذ فريق من أهل الكتاب القرآن كما لو أنهم لم يعرفوا عن هذه الرسالة ونبيها شيئا فى ما بين أيديهم من كتب سماوية يدرسونها، قال الحسن البصرى فى قوله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ «نعم ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غدا»(١)، وقال الصابونى: «بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق لذلك ينقضون العهود والمواثيق»(٢).

نعم إن الآية جاءت فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل، ولكن الظاهر أن الآية شاملة لكل من لا يؤمن يهوديا كان أو غيره، فكل من لا يؤمن - فى الغالب - لا يرعى موثقا سياسيا ولا أخلاقيا ولا اقتصاديا، فالذى يهمه هو المصلحة العاجلة ليس غير. وليس أدل على ذلك من بيع المواثيق والعهود بثمن قليل كما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ويتكرر الحديث عن دور فساد العقيدة فى نقض العهود فى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٧ - ٩].

---

(١) الكشاف: ١/ ١٣٤.

(٢) صفوة التفاسير: ١/ ٨٣.

فالاستفهام الإنكارى يتكرر فى هذا الموضع مرتين لبيان استبعاد حدوث العهد ممن لا يملأ قلبه الإيمانُ، ففى الأولى ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ؟؟** ﴾. أى أن المشركين لا يمكن أن يكون لهم عهد مبنى على العقيدة، لأنهم أساسًا مشركون فإيمانهم بالله الواحد غير قائم، مما ينفى أن يصدر منهم عهد يوثق به، فالسؤال الاستنكارى هنا يشير « تنصب على مبدأ التعاهد ذاته، لا على حالة معينة من حالاته »[1] وفى الثانية ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً؟** ﴾ أى أن المشركين لا يمكن أن يصدر عنهم عهد لأنهم فى الأساس « لا يعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينكم وبينهم وفى غير ذمة يرعونها لكم... فهم لشدة ما يكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد فى التنكيل بكم لو أنهم قدروا عليكم فى التنكيل بكم »[2]، قال أبو حيان وهذا كله تقرير واستبعاد لثبات قلوبهم على العهد[3]، وهكذا يتبين السبب الأول فى عدم مراعاة العهود عند الأكثرية، وهو متناسب تماما مع ارتفاع نسبة الكفار والمشركين كما رأينا فى الباب الأول.

٢- أما السبب الثانى فى كون الأكثرية لا ترعى عهدًا ولا موثقًا فهو الفسوق، وهو الذى تعبر عنه الآية: ﴿ **وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٠٢] وكأن الصياغة تفيد أنه إذا لم نجد لأكثرهم صفة الوفاء بالعهد فإن ذلك طبيعى مادام أكثرهم فاسقين، أى أن نقض العهود من مستلزمات المجتمع الفاسق، وعليه فإن هذه الظاهرة تكثر فى المجتمع بكثرة الفسق، يقول قطب: « هذا - أى الفسق - هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم، والانطلاق فى التنكيل بكم لو قدروا.. إنه الفسوق عن دين الله والخروج عن هداه، فلقد آثروا على آيات الله التى جاءتهم

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣/١٠/١٦٠٤. (٢) نفسه: ١٦٠٥.
(٣) صفوة التفاسير: ١/٥٢٣.

ثمنا قليلاً من عرض هذه الحياة يستمسكون به ويخافون فوته، وقد يخافون أن يضيِّع عليهم الإسلام شيئًا من مصالحهم، أو أن يكلفهم شيئًا من أموالهم، فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله»[1] فالعلاقة بين نقض العهود وبين التلبس بالفسق والفجور قائمة، لترتب هذا على ذاك وتعلقه به وارتباطه به ارتباط العلة بالمعلول، ولذلك وجدنا القرآن فى موضع آخر يجعل نقضِ العهود صفة لازمة للفاسقين، كما يبين ذلك قوله تعالى: ﴿ .. **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٦- ٢٧] قال ابن عاشور «وجملة الذين ينقضون - إلى آخره - صفة للفاسقين لتقرير اتصافهم بالفسق لأن هاته الخلال من أكبر أنواع الفسوق بمعنى الخروج عن أمر الله تعالى»[2].

وخلاصة القول: إن الأكثرية ظلت بلا عهد لسببين اثنين أحدهما الشرك وانتفاء الإيمان، وثانيهما استيلاء الفسوق على حياتهم، والأول يمنعهم من الوفاء بالعهد من جهة عدم انسجامه مع عقائدهم، والثانى يمنعهم من جهة تعارض الوفاء مع قضاء شهواتهم.

* * *

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣/ ١٠/ ١٦٠٦.

(٢) التحرير والتنوير: ١/ ٣٦٧.

● **المبحث الثانى : التعامل المالى بين الخلطاء والشركاء عند الأكثرية :**

النص المحورى الذى يبين ذلك هو قول الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص : ٢٤] ومعنى الآية إن أغلبية الشركاء يتعدى بعضهم على بعض ويظلمه، قال الزمخشرى : « الخلطاء الشركاء الذين خلطوا أموالهم فإن قلت ماذا أراد يذكر حال الخلطاء فى ذلك المقام؟ قلت قصد به الموعظة الحسنة والترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكره لهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له فى أكثر الخلطاء أسوة »(١) .

هذا هو حال أغلبية الشركاء، البغى والظلم والاعتداء، يأكل بعضهم أموال بعض بالحيل المختلفة، ثم يسارعون بها إلى الحكام، ثم يستخدمون كل الأساليب المجانبة للخير للحصول على الحق، فيكثر بذلك تعاطى الرشوة، لما جبل عليه الإنسان من ضعف أمام المال إلا الأقلية القليلة، ولهذا كان « أكثر الخلطاء أسوة » لمن شعر بالظلم ليعرف أن هذا هو أسلوب الناس فى الحياة ليتجنبه إن كان من أهل الخير، قال ابن عاشور : « وذكر غالب أحوال الخلطاء أراد به الموعظة لهما بعد القضاء بينهما على عادة أهل الخير من انتهاز فرص الهداية، فأراد داود عليه السلام أن يرغبهما فى إيثار عادة الخلطاء الصالحين وأن يكره إليهما الظلم والاعتداء »(٢) .

ومن الواضح أن الآية قد استثنت من الأغلبية من توفر فيه الإيمان والعمل الصالح، فدل بمهوم المخالفة على أن الداعى إلى هذا الخلق السيىء فى المعاملات إنما هو عكس ذلك وهو الكفر والعمل السيء، وقد مر بنا ذلك فى المبحث السابق.

وقد ترتب على ذلك عدة تساؤلات يأتى على رأسها :

---

(١) الكشاف : : ٣ / ٣٧١ .

(٢) التحرير والتنوير : ٢٣ / ٢٣٦ .

(أ) ماهى الأسباب التى أدت إلى أن يكون أكثر الخلطاء ظالمين.

(ب) هل يمكن للقضاء أن يعيد التوازن الاجتماعى، أم أن الإيمان هو الضمان الوحيد لإعادة هذا التوازن، لأنه علاج للنفس الإنسانية التى هى منبع كل السلوكات، وهو الذى سيتضح من بعد حين نعالج المعاملات فى الأقليات.

وقد توقف ابن عاشور عند الأسباب الداعية إلى أن تكون الأكثرية على هذا السلوك فى المشاركة المالية والمخالطة بصفة عامة فقال: «والسبب فى ذلك من جانب الحكمة أن الدواعى إلى لذات الدنيا كثيرة والمشى مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات».

فهذه الأسباب الثلاثة تعد دوافع نفسية قوية لتكثير أهل البغى والظلم فى مجال المعاملات؛ لأنه إذا كانت اللذات الدنيوية المادية قوية بحيث تملك من السلطة ما يجعل الإنسان ضعيفا أمام تلك اللذات، فإن ذلك كاف بأن يضعف وازع الضمير عند الأغلبية، ويذهب بالتقوى، لاسيما فى غياب الإيمان، وقد بينا فى الباب الأول أن الأكثرية لا يؤمنون، مما يبين أن الأغلبية قد فرغت من المحتوى الداخلى ليخلو المجال للشيطان واللذات، فتلعب دورها لترسخ حالة الظلم فى السلوك البشرى، وتوسع بذلك من دائرة البغى بين الخلطاء بشتى صورها، وقد يلاحظ الإنسان أن حياة البشر مليئة بالظلم فى كل معاملاتها، فتلاحظ الغش فى السلع، والسرقة فى الميزان، والتحايل فى الجهد المبذول، عند أداء العمل المشترك، وغالبا ما تنتهى الشركات بين الناس إلى المحاكم حيث تتناقض المعطيات أمام القاضى النزيه، فيغتنمها غير النزيه ليزيد المعاملات سوءا فيكثر البغى، لأنه ينتقل من واقع المخالطات إلى واقع القضاء، فيشقى القضاة والمحامون الذين لا يقبلون الرشوة لكثرة ما يخسرون فى مداولات المحاكم التى ينتشر فيها مرض الرشوة.

وما قلته فى الدافع الأول هذا وهو «كثرة لذات الدنيا» يمكن تعميمه فى الداعيين الآخرين وهما:

١- المشى مع الهوى محبوب لدى النفس البشرية.

٢- كون مجاهدة النفس عزيزة الوقوع لضعف الوازع الدينى حينا وانعدامه أخرى.

ولأن دور المحاكم فى هذا المجال قوى، فإن الآية التى انتهت إلى هذا الحكم العام الذى أفاد أن «كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم علي بعض» كانت قد بدأت الطرح بمسألة القضاء فقال تعالى: ﴿ .. **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

فهذان المتخاصمان يتوقعان مسبقًا - بسبب تجارب الحياة - وقوع الظلم من القاضى، فطلبا أن يكون الحكم بينهما بالحق، وأن يكون بعيداً عن الشطط وهو الجور ومجاوزة الحد والقدر المتعارف عليه بين الناس فى المعاملات، وأن يكون أخيراً الحاكم ممن يهدى المتخاصمين إلى الطريق السوى فى المعاملات، بحيث تخلو من الالتواء والتشعب[١] وزيادة فى بيان صور البغى بين الأكثرية فقد سابق القرآن هذه القصة الواقعة بين أخوين، إذ ما دام الاخوة يكونون بهذه الحال من البغى فكيف لا يكون ذلك أنكى وأظهر فى المعاملات الاقتصادية بين الشركاء على المستويات الفردية والدولية.

والظاهر أن سيدنا داود عليه السلام قد حكم فى القضية المعروضة والتى تفيد أن أحد الأخوين استعمل قوته للسطو على الضعيف ليستولى على نعجته الوحيدة دون أن يسمع إلى الطرف الثاني في الخصومة فوقع فى الخطأ، فعوتب على ذلك التسرع فأدرك خطأه ﴿ **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ** ﴾ [ص: ٢٥].

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٢٣٤.

ويبدو أن ما خاض المفسرون فيه من تأويلات إنما وقعوا فيه بسبب ما جاء فى سفر صمويل فى الإصحاح الحادى عشر من قصص هى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، قال قطب رحمة الله: «وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضًا كبيراً تتنزه عنه طبيعة النبوة ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها... وهى لا تصلح للنظر من الأساس، ولا تتفق مع قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ والتعقب القرآنى الذى جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذى ولاه القضاء والحكم بين الناس: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهى الخلافة فى الأرض والحكم بين الناس بالحق وعدم اتباع الهوى، واتباع الهوى – فيما يختص بنبى – هو السير مع الانفعال الأول وعدم التريث والتثبت والتبين[1].

وفى حديث الرسول ﷺ ما يزيل الغموض عن ذلك حين قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»[2].

هذه هى الحال التى تتحدث عنها قصة فتنة داود عليه السلام، وهذا هو المراد من عرضها والتعقيب عليها بحكم يقدم قانونا اجتماعيًا يعبر عن النموذج البشرى بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم التعقيب بدور القاضى فى إعادة التوازن الاجتماعى للمجتمع البشرى فى مجال الخصومات.

ومن كل ذلك يتبين أن هذا النص القرآنى الكبير يعبر عن ثلاث مشكلات محورها الأكثرية فى المعاملات:

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ / ٢٣ / ٣٠١٨.

(٢) صحيح البخارى: ٤ / ٢٨٢ – كتاب الأحكام. باب موعظة الإمام للخصوم حديث رقم ٧١٦٩.

١- مشكلة الأكثرية فى مجال المعاملات بين الشركاء.

٢- مشكلة القضاء ودوره فى إعادة التوازن بين الأطراف المتخاصمة فى مجال المعاملات.

٣- القاضي العادل هو خليفة الله فى الأرض لأنه هو المنفذ لحكم الله فى عباده ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص: ٢٦].

أما الآن فإننا سنقف عند قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٤]، لنبين من خلاله الفرق بين القاضى العادل متمثلاً فى الصفات السابقة التى تجعله خليفة الله فى الأرض، والقاضى المنحرف الذى سيبيع بدنياه آخرته، متمثلا فى هذه الصورة التى يرسمها القرآن لأغلبية الأحبار والرهبان، فقد ذكر الزمخشرى أن: «معنى أكلهم بالباطل أنهم كانوا يأخذون الرشا فى الأحكام والتخفيف والمساهمة فى الشرائع»(١)، وقال القرطبى «كانوا يرتشون فى الأحكام كما يفعله اليوم كثير من الولاة والحكام»(٢).

هذه هى صورة القضاة الذين يتسببون فى انتشار الظلم والبغى والجور بما يقومون به من تشجيع لمن لا ضمير لهم على أكل أموال الناس بالباطل ثم يدلون بها إلى الحكام والقضاء فتنتشر بذلك الأمراض الاجتماعية ويفسد المجتمع وتسقط الدول، فإذا عادوا إلى شرع الله فإنه يحكم الأمة بضوابط العدل فيقل الجور وتنتشر الأنشطة البناءة فيستقيم حال البشرية فتقوى الدولة وترقى الحضارات وتزدهر الشعوب.

* * *

---

(١) الكشاف: ٢/١٨٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/١٢٢.

● **المبحث الثالث : طبيعة الخطاب لدى الأكثرية فى مجال المعاملات**

النص المحورى الذى يعالج هذه المشكلة هو قول الله تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء : ١١٤]، ومعنى الآية : لا يتحقق الخير فى أغلب صور النجوى التى تحدث بين أغلبية الخلق، إلا فى تلك النجوى التى يأمر فيها أصحابها بإحدى ثلاث؛ بالصدقة وأعمال البر والمعروف، والإصلاح بين المتخصمين، ومن يفعل هذه الأفعال الثلاثة طلبا لرضى الله بعيدا عن الرياء فقد استحق أجراً عظيماً عند الله .

والنص من سورة النساء وهى مدنية موضوعاتها الأساسية تعالج الشئون التشريعية التى تنظم الحياة المدنية للناس، فقد « اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم . . ثم أحكام المعاملات بين جماعة المسلمين فى الأموال والدماء وأحكام القتل عمدا وخطأ، وتأصيل الحكم الشرعى بين المسلمين فى الحقوق، والدفاع عن المعتدى عليه . . »(١) .

ومقصود النص هنا يصب فى هذا السياق العام، الذى يشمل تنظيم المعاملات الفردية والجماعية، ويعالج بصفة أساسية موضوع « الخطاب السرى » ويسميه القرآن فى آيات كثيرة « النجوى » وهو خطاب منهى عنه فى الغالب، لحديث صحيح رواه الإمام مالك فى الموطأ هو : « إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون واحد »(٢) .

وقد وجه القدماء تفسيرهم للنص المحورى وجهة اجتماعية فردية فى الغالب، ووجهه معظم المعاصرين وجهة سياسية، والصواب العموم، لتناسيه مع السياق العام لأغراض السورة وهى تنظيم المعاملات الفردية والجماعية .

القرطبى يذكر أن المقصود من الآية « ما تفاوض به قوم بنى أبيرق من التدبير »(٣)، عندما سرق طعمة بن أبيرق وحكم عليه الرسول ﷺ بالقطع وهرب

---

(١) التحرير والتنوير ٤ / ٢١٣ . (٢) الموطأ : ٢ / ٩٨٩ صحيح مسلم : ٤ / ١٧١٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٣٨٢ .

إلى مكة وارتد[1]، فإذا صح هذا فإن النجوى هنا ستأخذ حجمها كمصطلح سياسى أكثر منه سلوكى وهو الأقرب إلى منطق السياق الذى جاءت فيه الآية، إذ سبقت بما يشير إلى أن طائفة قد همت أن تضل الرسول ﷺ لتلحق به الضرر، لولا أن تداركه الله برحمته وفضله، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ** ﴾ [النساء: ١١٣]، وألحقت بما يدل على أن هناك من يشاقق الرسول، ومنهم ابن أبيرق فيما يذكر المفسرون، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥]

فالسياق سياق تشريع لبيان الخير والشر، إذ «لم تخل الحوادث التى أشارت إليها الآية السابقة، ولا الأحوال التى حذرت منها، من نتاج وتحاور سراً وجهراً لتدبير الخيانات وإخفائها وتبييتها، لذلك كان المقام حقيقا بتعقيب جميع ذلك، بذكر النجوى وما تشتمل عليه، لأن فى ذلك تعليماً وتربية وتشريعاً، إذ النجوى من أشهر الأحوال العارضة للناس فى مجتمعاتهم، لا سيما فى وقت ظهور المسلمين بالمدينة، فقد كان فيها المنافقون واليهود وضعفاء المؤمنين، وكان التناجى فاشياً لمقاصد مختلفة. فلذلك تكرر النهى عن النجوى فى القرآن»[2].

وعلى هذا فإن «الخطاب السرى» الذى يصدر عن الأكثرية فى مجال المعاملات لا ينتظر منه الخير، ومعنى أنه لا خير فيه أنه شرٌّ فى معظمه، بناء على المتعارف عليه فى نفى الشىء أن يراد به إثبات نقيضه لعدم الاعتداد بالواسطة فيما لا واسطة فيه[3].

فالخطاب السرى يغلب عليه طابع الفساد سواء أكان إيديولوجيا أو سياسيا، فرديًا أو جماعيًا، وهذا هو علة النهى عن معظم صوره فى القرآن

---

(١) نفسه ٥/٣٨٥.
(٢) التحرير والتنوير: ٥/١٩٨.
(٣) نفسه ٥/١٩٩.

الكريم، ومنها النهى الصريح عن بعض صور التناجى المفضية إلى الفساد الكبير كما يبينه قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ [المجادلة: ٨].

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم وينظرون للمؤمنون ويتغامزون عليهم فيقول المؤمنون لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، وكان ذلك يحزنهم ويسوءهم، فكثرت شكواهم إلى النبى ﷺ فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت(١).

والحق أن «النجوى» أى الخطاب السرى لم ينه الله عنه المنافقين واليهود فحسب، بل نهى عنه المؤمنين أيضا، لما له من ضرر يؤدى إلى الفرقة والتحزب، ثم لما يترتب عليه من خصومات وتقاتل كان المسلمون طوال التاريخ الإسلامى يعانون منه، بدءا بالفتن التى أدت لمقتل عثمان بن عفان وعلى رضى الله عنهما إلى الفتن بين أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى، وما إلى ذلك مما سمى بعد ذلك جهلاً حينا وتعصباً أخرى بالفرق الإسلامية والأحزاب الإسلامية، حتى انتهى الأمر بنا فى العصر الحديث إلى التقاتل بين الشعوب الإسلامية لغير سبب معقول.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فنهى عن صور التناجى التى تتضمن خصالاً سيئة ثلاثا:

(أ) الإثم: وهو ما يتعلق بالخطاب السرى الموجب للكفر أو الإساءة للمجتمعات الإسلامية أو لأعراض المسلمين، فهو النهى عما يستهدف الجانب المعنوى من الشخصية الإسلامية فردية كانت أو جماعية.

(ب) العدوان: وهو ما يدبره الكائدون من مؤامرات ضد أفراد المسلمين

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٧ / ٢٩١.

وجماعاتهم ودولهم، فهو خطاب سرى يستهدف التخطيط لإلحاق الضرر المادى بعد ذلك.

(ج) معصية الرسول ﷺ، وعصيان من يخلفه فى قيادة الأمة الإسلامية عن حق، بمخالفة أمره أو التخاذل فى تنفيذ أوامره ونواهيه بما فى ذلك النهى عن النجوى، وهذا خطاب سرى يستهدف نشر أساليب التمرد والعصيان على القيادة النبوية والصالحين ممن يخلفه من قيادات هذه الأمة.

وإذا كانت الآية التى تعلقت بنهى اليهود والمنافقين، والآية التى تعلقت بنهى المؤمنين قد تضمنتا معًا نفس الموضوعات التى شكلت صور التناجى المنهى عنه، فمعناه أن «الخطاب السياسى السرى» صار أوضح فى المقصد، وأكثر أهمية لعظم ضرره، وتأثيره على الأفراد والأسر والدول.

ولما كانت ذلك خطيراً لهذه الدرجة فقد وجهت الآية المؤمنين لخطاب سرى مقبول، وهو المتضمن صورا شرعية، فقال: ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المجادلة: ٩] فالآية هنا تبين للمؤمنين – بعد أن نهتهم على الموضوعات السابقة – «ما يليق بهم من الموضوعات التى يتناجى بها المؤمنين (وتناجوا بالبر والتقوى) لتدبير وسائلها وتحقيق مدلولها، والبر الخير عامة، والتقوى: اليقظة والرقابة لله سبحانه وتعالى وهى لا توحى إلا بالخير»[1].

ومنه نستنتج أن «التناجى» المنهى عنه إنما هو الخطاب السرى الضار بالخلق جملة، لأنه من وحى الشيطان الذى لا يدل الإنسان إلا على أساليب الفساد وطرقه، والآية بعد ذلك تبين دور الشيطان فى هذه المشكلة فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، الشيطان هو مصدر الوحى بالخطاب السرى فى صوره الثلاثة السابقة، وهدفه إلحاق الحزن والأسى وإشاعة البلبلة فى الصفوف الإسلامية بواسطة المرتدين والمنافقين واليهود والكفار

---

(١) فى ظلال القرآن: ٢٨ / ٣٥١٠.

أجمعين، فهؤلاء أدواته الأساسية، فإذا لحق بهم ضعاف النفوس من المؤمنين، فقد اكتمل للشيطان مراده ليلحق بالمؤمنين الأضرار المادية والمعنوية، مثل تلك التى كانت تتعلق بالسرايا التى أصيب فيها المسلمون أو اجتماعات اليهود والمنافقين على الكيد بالمسلمين قديمًا[1]، واجتماعات الكفار والمنافقين على الكيد بالمسلمين وبث التفرقة بين شعوبهم وقياداتهم حديثًا.

وعليه فإن حصر مصدر النجوى فى الشيطان تعميم لضررها، مما يسوق إلى القول بأن الآية «قد تكون تعليلا لتأكيد النهى عن النجوى»[2]، والحصر المستفاد من «إنما» لحصر النجوى فى مصدر واحد هو الشيطان، أى أن الخطاب السري أسامه الشيطان، لأن «الأغراض التى يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان لأهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلة ليست قيدا فى الحصر، فإن للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين فى الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية»[3].

وإذا تبينت لنا أغراض الشياطين كلها - شياطين الإنس والجن - من الخطاب السرى فما هى الأغراض الأساسية من النهى عن (النجوى) وكل الخطابات السرية المفسدة، لاسيما ما يتعلق بالموضوعات الكبرى الثلاثة وهى، الإثم والعدوان ومعصية الرسول؟

مادامت طبيعة هذه الموضوعات تتسع لتشمل الأفراد والأمم، فإنه من الطبيعى أن يكون الغرض من النهى عن الخطاب السرى الضار هو التربية الشاملة للفرد المسلم، فيشمل التربية الخلقية لتعلقها بحياة الأفراد فى المجتمع، والتربية السياسية لتعلقها بصلاح أمر الدول والشعوب والأمم، فى حياتها السياسية

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/ ٢٩٥.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٤.
(٣) نفسه.

والاقتصادية وغيرهما، لأن «شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة، لأن الصراحة من أفضل الأخلاق، لدلالتها على ثقة المتكلم برأيه، وعلي شجاعته فى إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلا فى أحوال شاذة يناسبها إخفاء الحديث، فمن يناجى فى غير تلك الأحوال رمى بأن شأنه ذميم، وحديثه فيما يستحيى من إظهاره، وقد ظهر من نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن يتناجى اثنان دون ثالث أن النجوى تبعث الريبة فى مقاصد المتناجين، فعلمنا من ذلك أنها لا تغلب إلا على أهل الريب والشبهات، بحيث لا تصير دأبا إلا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى الله الخير عن أكثر النجوى»[1].

ومن الطبيعى والحال كما رأينا – فى معظم المواقف فى الفصول السابقة، وكما سنرى فى الفصول اللاحقة – أن يكون أغلبية البشر لا يتناجون إلا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، لأن هذا هو ما يناسب الأغلبية لكونها كافرة، أو كارهة للحق أو فاسقة، أو منافقة، ولذلك نفت الآية «الخير عن كثير من نجواهم أو متناجيهم فعلم من مفهوم الصفة أن قليلا من نجواهم فيه خير، إذ لا يخلو حديث الناس من تناج فيما فيه نفع.. فأخرج [القليل] من كثير من نجواهم بطريق الاستثناء فبقى ماعدا ذلك من نجواهم وهو الكثير، موصوفا بأن الخير فيه»[2]. فالنجوى إذن نوعان نجوى خير، تضم فيما تضم الخطاب السياسى والاجتماعى الذى من شأنه معالجة مشكلات اجتماعية كأمر الصدقات، أو الإصلاح بين الزوجين أو مشكلات سياسية كالإصلاح بين المتقاتلين من الشعوب والأمم وما إلى ذلك، وهذه النجوى فيها خير لذلك أباحها الفقهاء، فقال ابن العربى: «إذا ثبت أن نهى النبى ﷺ معلل بتحزين الواحد فإذا استأذن فأذن له جاز ولم يحرم»[3].

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/١٩٩. (٢) نفسه ٥/ ٢٠٠.
(٣) ابن العربى: أحكام القرآن ١/ ٥٠٠.

أما النوع الثانى فهو نجوى الشر، وتضم فيما تضم الخطاب الاقتصادى والسياسى والاجتماعى، وكل ما من شأنه الكيد للأمة أو المؤسسة الاقتصادية أو الدولة، وهذه النجوى فيها ضرر كبير، ولذلك حرمها العلماء، قال ابن العربى «إن علة النهى تحزين الواحد وهو موجود فى كل موضع، وكلما كثر العدد كان التحزين أكثر فيكون المنع آكد»[1]، وذكر ابن عاشور أن تناجى الجماعة دون جماعة فإنه أيضا مكروه أو محرم[2].

وقد بين سيد قطب كثيراً من أسرار النهى عن التناجى، فرفعه إلى المستوى الجماعى السياسى فضلاً عن جانب المستوى الأخلاقى الفردى، لذلك يحسن بنا عرضه هنا كاملاً، إذ قال: «لقد تكرر فى القرآن النهى عن النجوى، وهى أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة، لتبيت أمراً، وكان اتجاه التربية الإسلامية واتجاه التنظيم الإسلامى كذلك أن يأتى كل إنسان بمشكلته أو بموضوعه، فيعرضه على النبى ﷺ مسارة إن كان أمراً شخصياً لا يريد أن يشيع عنه شيء فى الناس، أو مساءلة علنية إن كان من الموضوعات ذات الصبغة العامة التى ليست من خصوصيات هذا الشخص.

والحكمة فى هذه الخطة هو ألا تتكون (جيوب) فى الجماعة المسلمة، وألا تنعزل مجموعات منها بتصوراتها ومشكلاتها أو بأفكارها واتجاهاتها، وألا تبيت مجموعة من الجماعة الإسلامية أمراً بليل، وتواجه به الجماعة أمراً مقرراً من قبل أو تخفيه عن الجماعة وتستخفى به عن أعينها، وإن كانت لا تختفى به عن الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

وهذا الموضع هو أحد المواضع التى ورد فيها هذا النهى عن التناجى والتبييت بمعزل عن الجماعة المسلمة وقيادتها.. كان المجتمع المسلم كله مجتمعاً مفتوحاً، تعرض مشكلاته - التى ليست بأسرار للقيادة فى المعارك وغيرها، والتى ليست بمسائل شخصية بحتة لا يحب أصحابها أن تلوكها الألسنة - عرضاً عاماً،

---

(١) نفسه.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٨ / ص٢٩.

وكان هذا المجتمع المفتوح من ثم مجتمعًا نظيفًا طلق الهواء، لا يتجنبه ليبيت من وراء ظهره إلا الذين يتآمرون عليه أو على مبدأ من مبادئه – من المنافقين غالبًا – ولذلك اقترنت النجوى بالمنافقين فى معظم المواضع.

وهذه الحقيقة تدفعنا، فالمجتمع المسلم يجب أن يكون بريئا من هذه الظاهرة وأن يرجع أفراده إليه وإلى قيادتهم العامة بما يخطر لهم من الخواطر، أو بما يعرض لهم من خطط واتجاهات أو مشكلات، والنص القرآنى، هنا يستثنى نوعًا من النجوى هو فى الحقيقة ليس منها وإن كان له شكلها ﴿**إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ .. (١).

* * *

(١) قطب: فى ظلال القرآن: ٥ /٧٥٨.

● **خاتمة الحديث فى معاملات الأكثرية:**

لقد توقفنا عند خمس آيات صريحة فى الدلالة على طبيعة المعاملات بين الأكثرية فى مجالات حساسة فى الحياة البشرية، وتبين لنا بعد تفحص عميق وتحليل مسهب للآيات بحثا عن الأسباب والعلل التى تفسر كثيرا من الظواهر الاقتصادية والسياسية السيئة التى تطبع معاملات الأكثرية.

وقد تبين بعد تفسير موضوعى لتلك الآيات على مستوى العهود والمواثيق والعقود أن المعاملات فى هذا المجال الحيوى والحساس جدا فى حياة البشرية تتسم بالخيانة للعهود ونقض المواثيق والعقود، وكانت علة فشو هذا السلوك الهمجى هو انتشار الفسوق والعصيان نتيجة انتشار ثقافة الكفر.

وقد كان من الطبيعى والحال كذلك على مستوى العقود أن تتدهور المعاملات المالية والاقتصادية والتجارية أيضا، لأنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بعامل العهود والمواثيق والعقود، لذلك سادت المعاملات المطبوعة بالنهب والسلب والسرقة والبغى بين الخلطاء والشركاء بصفة عامة إلى أن وصل الأمر بأن تطبع حتى معاملات أكثر الأحبار والرهبان، وهم الذين يفترض أن يمثلوا العقل الفاعل للأمة، بطابع التحايل على الناس لأكل أموالهم بالباطل.

ومن الطبيعى كذلك أن ينسحب الوصف نفسه على طبيعة المعاملات السياسية التى يعد الخطاب أهم أدواته على الاطلاق، إذ قد تبين بعد التحليل والتفسير أن خطاب الأكثرية لا خير فيه ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ** ﴾.

وبهذا يخيب ظننا فى معاملات الأكثرية، كما خاب ظن عبد الرحمن بن الجوزى، إذ كتب تحت عنوان: «الشر الطافح والخير القليل» يقول «تأملت الأرض ومن عليها بعين فكرى، فرأيت خرابها أكثر من عمرانها، ثم نظرت فى المعمور منها فوجدت الكفار مستولين على أكثره، ووجدت أهل الإسلام فى الأرض قليلا بالإضافة إلى الكفار ثم تأملت المسلمين فرأيت طرق الاكتساب قد شغلت جمهورهم عن الرازق وأعرضت بهم عن العلم الدال عليه، ثم نظرت فى التجار

فرأيتهم قد غلب عليهم الحرص حتى لا يرون سوى وجوه الكسب كيف كانت، وصار الربا فى معاملاتهم فاشيا... ثم نظرت فى أرباب المعاش فوجدت الغش فى معاملاتهم عاما والتطفيف والبخس.. فقلت: واعجبا فمن بقى لخدمة الله عز وجل ومعرفته؟»(١).

وقد ضرب الله فى القرآن الكريم بقوم شعيب مثالا فى المعاملات التى تطبع أسباب الأكثرية فقال على لسان شعيب عليه السلام ﴿ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ [هود: ٨٥ – ٨٧].

إن العقلية السائدة فى قوم شعيب تشجع على المعاملات السيئة وعلى الفساد فى الأرض، لأنها عقلية تبحث عن الانفلات من كل الضوابط الشرعية التى عليها تقوم كل الالتزامات فى المعاملات التجارية والاقتصادية، ويأتى على رأس الذين يرفضون النظام ويريدون الفوضى باسم التحرر أولئك الذين يعدون صلوات النبى شعيب عليه السلام مما يمنعهم من أن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون، وهم فى الغالب علية القوم وكبار أغنيائهم، إذ يسعون إلى إبعاد المصلحين ليخلو لهم أمر الاستغلال البشع: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ [الأعراف: ٨٨].

ومن الطبيعى ألا يفهم من طبَعَ حبُّ المال قلبه بطابع الاستكبار خطاب النبوة الذى يستهدف الإصلاح الشامل لجميع المعاملات لذلك قالوا: ﴿ **يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ [هود: ٩١].

---

(١) عبدالرحمن الجوزى: صيد الخاطر ص٥٤: تحقيق محمد الغزالى مكتبة – رحاب الجزائر.

وعليه فقد هموا بإخراجه من وطنه، كما هددوا برجمه لضعف سنده، لأنه يمثل الأقلية فى مجتمع مدين، بل لم يكتفوا بالتخطيط لذلك، وإنما عملوا على الجهر بالخطاب المعارض لكل أفكار الإصلاح ومبادئه: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ٩٠]. فالملأ بعد أن تأكدوا من ثبات شعيب على مبادئه المتعلقة بإصلاح المعاملات بين الناس وأيقنوا من خسرانهم توجهوا للعامة ليوهموهم بالخسران مرة ويهددوهم أخرى لقد «تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد.. إنهم لا يملكون حجة على باطلهم، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم»(١).

* * *

(١) فى ظلال القرآن: ٣/٧/١٣٢٢.

الفصل الثانى
طبيعة معاملات الأقلية

● **توطئة:**

يجب بادىء ذى بدء أن نشير إلى حقيقة أسلوبية فى التعبير القرآنى نراها هامة فى دراسة معاملات الأقلية، ذلك أن القرآن الكريم يوظف بكثرة أسلوب الاستثناء للتعبير عن الفروق بين معاملات الأكثرية والأقلية، وكقاعدة عامة يمكن القول: إن كل عنصر وجدنا فيه الأكثرية فى المعاملات لها صورة من الصور، أو موقف من المواقف ثابتا فى الاتجاه السلبى بالنسبة للمصلحة العامة وما ينفع البشرية، كالخيانة والاعتداء والبغى والتحايل فى أكل الأموال ونبذ العهود فإننا نجد للأقلية موقفا عكسيا لتلك الصورة، من الوفاء واحترام العهود، وتحرى العدل، وتجنب الظلم، والصدق فى المعاملات المالية، إلى غير ذلك من مسائل المعاملات، ولذلك كانت معظم الآيات التى تتحدث عن الأكثرية تتضمن الاستثناء للأقلية.

والنصوص التى بين أيدينا تعبر عن هذه الحقيقة بلفظ صريح كما فى قوله تعالى:

١- قال تعالى: ﴿ **وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [المائدة: ١٣].

٢- وقال عز وجل: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص: ٢٤].

٣- وقال: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ [النساء: ٧١].

هذه الآيات، وهى فى معظمها من سور مدنية تعنى أساسا بالتشريع، تتضمن الإشارة لثلاثة مواقف أساسية فى المعاملات، تعبر الأولى عن الوفاء بالعهود عند الأقلية فى مقابل خيانتها عند الأكثرية، والثانية عن الاعتدال فى المعاملات المالية مع الشركاء فى مقابل البغى والظلم عند الأغلبية، وتعبر الثالثة عن «الخطاب السرى» النزيه (النجوى) عند الأقلية فى مقابل خطاب التجنى عند الأكثرية.

وسنعرض بالتحليل لهذه الأحوال الثلاث فى مباحث ثلاثة، مستعينين مع هذه النصوص المحورية بالنصوص المكملة من الكتاب والسنة المطهرة الصحيحة للوقوف على الظاهرة بكل جوانبها، ليس وصفًا وتحليلا فحسب، ولكن بحثًا عن التفسير والتعليل لكل ظاهرة تبعا للمباحث التالية:

- معاملات الأقلية فى العهود.
- الاعتدال فى المعاملات.
- طبيعة الخطاب السرى المشروع.

* * *

● **المبحث الأول: معاملات الأقلية فى العهود:**

النص المحورى الذى يعالج موضوع العهود فى معاملات الأقلية هو قول الله تعالى: ﴿**وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ١٣]. معنى الآية، ولا تزال يا محمد - ﷺ - تطلع وتظهر على خيانات اليهود المتكررة، وتقف على مناقضاتهم لما بينهم وبين الناس من العهود والعقود والمواثيق، بصورة مطردة إلا عند الأقلية وهم المخلصون منهم، ممن أسلم وجهه لله وآمن وعمل صالحا، فهؤلاء ستقف عندهم على صورة مشرقة من صور الوفاء بالعهد بينهم وبين الله، ومن ثم بينهم وبين الناس كلازمة من لوازم الإيمان.

وهذه الآية جاءت فى سورة المائدة التى افتتحت بالأمر بالوفاء بالعقود المبرمة من الأطراف المختلفة، سواء ما هو عهد بين الله والناس أو ما هو من العقود التى يتفق الناس عليها كمجتمعات ودول وأمم، أو كأفراد وعشائر، فقال تعالى فى مفتتح السورة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة: ١].

قال ابن عباس: العقود هى العهود وهى ما أحل الله وما حرم وما فرض فى القرآن كله من التكاليف والأحكام، وقال ابن كثير عن زيد بن أسلم: العقود ستة؛ عهد الله وعقد الحلف وعقد الشركة وعقد البيع وعقد النكاح وعقد اليمين[١]، وقال القرطبى: «عقود الدين هى ما عقده المرء على نفسه من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق وتدبير وغير ذلك من الأمور ما كان ذلك غير خارج عند الشريعة، وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام»[٢] ثم أضاف: «قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله وبعقدكم بعضكم على بعض، وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح فى الباب قال ﷺ: المؤمنون عند شروطهم، وقال: كل شرط ليس فى

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/٣.

(٢) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٣٢.

كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط، فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله أى دين الله »[1].

النص المحورى يفيد أن الوفاء بالعهد صفة للأقلية، والسياق يفيد أن هذه صفة من بني إسرائيل، ولكن السورة بأكملها كما رأينا كانت مفتتحة بآية الأمر بالوفاء بالعقود، مما يمكن اعتماده كصورة عامة للبشرية إذ أن الذين يوفون بالعهود المبرمة قليلون.

ولما كانت الخيانة المتحدث عنها تعنى كذب اليهود وفجورهم، وكانت خيانتهم هى نقضهم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومظاهرتهم المشركين على حرب رسول الله ﷺ كيوم الأحزاب وغير ذلك من هَمهم بقتله وسبه[2] ومحاولة النيل منه حتى فى أسلوب إلقاء التحية، فإن العهود المقصودة فى هذا النص هى العهود السياسية بالدرجة الأولى.

ومعناه أن اليهود من طبعهم خيانة العهود السياسية إلا عند الأقلية، ولعل اليهود يبالغون فى ذلك أكثر من غيرهم، لاسيما إذا حللنا ذلك فى ضوء الواقع السياسى لهم، ولكن فى الحقيقة هذا يكاد يكون طبع البشرية فى الغالب لاسيما ما يتعلق بالعقود المتعلقة بالمصالح المالية كالشركات وغيرها.

ولاشك أن الوفاء بالعهود له أهميته الكبرى فى حياة البشرية جمعاء، ومن ثم يبدو الدور الذى تقوم به الأقلية فى المجتمعات الإنسانية، من تشجيع الناس على التعامل المالى فى الشركات والبنوك والتحالفات السياسية مما يقضى على الفتن والظلم الاقتصادى والغش والسرقات.

وهذا هو سبب التأكيد القرآني على ضرورة مراعاة العهود والوفاء بها، فقال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ** ﴾ [النحل: ٩١] وقال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٤]، أى يسألهم الله عن العهد الذى قطعوه على أنفسهم.

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس فى تفسير هذه الآية: «الوفاء بالعهد

---

(١) نفسه ٦/٣٣. (٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/١١٦.

شرط ضرورى لحصول السعادتين؛ عهد الله تعالي لعباده هو ما شرعه لهم من دينه فوفاؤهم بعهده قيام بأعباء ذلك الدين الكريم، وانتظام شؤونهم فى الحياة أفراداً وجماعات وأمما متوقف على الوفاء من بعضهم لبعض بما بينهم من عهود، فالوفاء - بالعهد - ضرورى لنجاة العباد مع خالقهم ولسلامتهم من الشرور والفوضى والفتن، فهو ضرورى إذا لتحصيل سعادة الدنيا وسعادة الآخرة»[1].

فليس الوفاء بالعهد خلقا بسيطا كما يظن البعض، بل هو خلق عظيم من أخلاق المجتمعات المتحضرة، ولهذا كان «هذا التشريع من حرمة الأمة فى نظر الأمم والثقة بها للانزواء تحت سلطانها»[2]، قال قطب: «وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد، لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة، وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن والحديث، سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة، عهد الحاكم وعهد المحكوم، وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيداً فى الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام»[3].

ومن كل ذلك يمكن أن نستنتج أن الوفاء بالعهود أصل من أصول الأخلاق السياسية العالية، يحفظ للفرد قيمته الإنسانية بحفظ جميع الحقوق التى يحتاجها لممارسة الحياة، كما يحفظ للأمة والدولة حقوقها الدولية التى توفر لها كامل السيادة والاستقرار السياسى والاقتصادى.

وهذا الأصل العظيم فى حياة البشرية لا تقوم به إلا الأقلية القليلة من البشرية، وبهذا يتبين لنا دور هذه الأقلية فى استمرار الحياة بصورة طبيعية ومقبولة، ولولاها لوقعت الإنسانية فى حروب لا تبقى ولا تذر، فبجهودهم تحققت السلامة من الشرور والفوضى والفتن لكافة الشعوب، كل حسب طبيعة المجتمع الذى يوجدون فيه.

---

(١) عبد الحميد بن باديس: مجالس التذكير: ١٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ١٥/٩٧.

(٣) فى ظلال القرآن: ٤/٢٢٢٦.

● **المبحث الثانى : الاعتدال فى المعاملات المالية :**

النص المحورى الذى يحدد دور الأقلية فى الاعتدال فى المعاملات المالية هو قول الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص : ٢٤] .

ففى الآية استثناء للذين آمنوا وعملوا الصالحات من حكم عام يكشف عن الطبيعة الغالبة على معاملات البشرية فى الأموال، والهدف منه بيان أن الذين توفر فيهم الشرطان الأساسيان للاستقامة وهما : الإيمان بالغيب، والعمل الصالح النافع للإنسانية، لا يمكن أن يصدر عنهم سلوك سيء فى المعاملات لوجود ما يمنعهم عن ذلك وهو الشرطان السابقان، ولكن الآية بعد ذلك تكشف عن نسبة هذه الطائفة التى تتميز بهذه الخصوصيات بقوله تعالي : ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ ومنه ينتج أن الذين يحرصون على الاعتدال فى المعاملات المالية التى تحدث بين الخلطاء قليلون جدا، كما يفيد ذلك الحرف « ما » فى العبارة السابقة، إذ جاء « للإبهام وفيه تعجب من قلتهم »[١] وقد ذهب الزمخشرى إلى أن هذا النص المحورى قصد بذكر حال الخلطاء فى هذا المقام "الترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة"[٢] .

فلماذا يقل المعتدلون فى المعاملات المالية؟ أليس المنطق يقضى أن يكون الاعتدال هو الصفة الغالبة فى أحوال الخلطاء والشركاء حرصًا على استمرار عملهم، وحصول الخير بجملتهم، وتأكيد الثقة فيما بينهم؟

لما كان الاعتدال فى المعاملات المالية بين الشركاء يتطلب الاتزان النفسى فى علاقة الإنسان بالمال، وكانت طبيعة الإنسان ميالة إلى حب المال حبا عظيما كما صورها القرآن الكريم بقوله تعالي : ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ [الفجر : ٢٠] وقوله : ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ [العاديات : ٨] فالآيتان تبينان هذه الطبيعة الغريبة فى الإنسان، بحيث لا يكون حريصًا على طرق جمعه فحسب، بل هو

---

(١) الكشاف : ٣ / ٣٧١ . (٢) نفسه .

« حريص بخيل من محبة المال »[1]. قال الزمخشرى: « هو شديد لهذا الأمر وقوى له إذا كان مطيقا له ضابطا.. وإنه لحب المال وإيثار الدنيا قوى مطيق »[2]، وقال « حبا جما كثيرا شديدا مع الحرص والشره ومنع الحقوق »[3].

ولاشك أن التعبير باللفظ (حبا جما) أى حبا شديدا مفرطا يكشف عن شدة هذا التعلق بالمال، بحيث يملك عليه قلبه، ويعمى عندئذ بصره عن أوجه الجمع الحلال فينكب على الحرام، قال ابن عاشور: « تقديم (لحب الخير) على متعلقه للاهتمام بغرابة هذا المتعلق »[4] وقال: « الجم مستعار لمعنى القوى الشديد، أى حبا مفرطا، وذلك محل ذم حب المال »[5].

فمن الطبيعى والحال هذه أن يكون حب المال مفرطا دافعا إلى الجور والظلم والطغيان من أجل تحصيله من جهة، والحفاظ عليه من الضياع والانتقال الذى به تحصل المنفعة العامة من جهة أخرى، وقد كان من آثار هذا الحب الكبير النتائج التالية:

١- الإقبال على أكل أموال الناس بالباطل: فلم يمنعهم ضميرهم حتى من أكل أموال اليتامى ظلما بصور شتى، قال تعالى: ﴿ **وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا** ﴾ [الفجر: ١٩]. أى تأكلون « تراث اليتامى، وكذلك كان أهل الجاهلية يفعلون، يمنعون النساء والصبيان من أموال مورثيهم »[6] ولهذا السبب نهى القرآن فى موضع آخر عن هذا الفعل الشنيع بقوله: ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٢] أى أعطوا اليتامى أموالهم التى ورثوها عن آبائهم وأهليهم، ولا تستبدلوها، وقد نهوا عن ذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية - لعدم الدين الذى هو ضمام حدوث الإيمان والعمل الصالح - لا يتحرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٥٤٢.
(٢) الكشاف: ٤ / ٢٧٩.
(٣) نفسه: ٤ / ٢٥٣.
(٤) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٥٠٦.
(٥) نفسه: ٣٠ / ٣٣٤.
(٦) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٣٤.

والجيد من اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم يقولون اسم باسم ورأس برأس فنهاهم الله عن ذلك مبينا أنه (كان حوبًا كبيرًا) أى إثما عظيما، لأن العرب كانت تخلط إلى جانب ذلك نفقتها بنفقة أيتام فنهوا عن ذلك[١].

٢- عدم التبين فى وسائل تحصيل الثروة: إذ تكشف الآيات عن «حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق تورث القلوب كزازة وقساوة، وكان ضعف اليتامى مغريًا بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث، منهم فى صور شتى وبخاصة ما يتعلق بالميراث، كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهره بارزة فى المجتمع المكى قبل الإسلام، وهى سمة الجاهليات فى كان زمان ومكان حتى الآن»[٢] ذلك لأن هذا الحب الشديد للمال قد أوقع الإنسان فى الحرص على اكتسابه بوسائل غير الحق كالغب والاختلاس والسرقة وأكل الأمانات[٣].

٣- الامتناع عن فعل الخيرات: لأن حب المال والتعلق الشديد به يمنع صاحبه من فعل المعروف، لذلك قال تعالى: ﴿**كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ [الفجر: ١٨]، أى «تحبون المال حبًا كثيرًا طاغيًا، لا يستبقى فى نفوسكم أريحية ولا مكرمًا مع المحتاجين إلى الإكرام والإنعام»[٤].

٤- انتشار الشح: قال ابن عاشور: إن فى خلق الإنسان الشح لأجل حبه المال[٥]، لذلك نبه القرآن على خطورة هذا الخلق بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن: ١٦] فجعل وقاية النفس من مرض الشح طريقًا إلى حصول الفلاح.

إذا كانت هذه هى نتائج حب المال فمن الطبيعى أن يقل أصحاب الخير، ويكثر خلطاء السوء، فيحق على الإنسانية قول الله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ لأن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٩.
(٢) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٠ / ٣٩٠٦.
(٣) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٣٤.
(٤) فى ظلال القرآن، ٦ / ٣٠ / ٣٩٠٦.
(٥) التحرير والتنوير: ٣٠ / ٣٣٤.

الاستقامة فى المعاملات تتطلب التقوى والالتزام بالتشريعات التى من شأنها تنظيم الحياة، وهذه تستوجب الإيمان والعمل الصالح، وهما قليلان كما بينا فى الفصول السابقة، لذلك قل المعتدلون فى كل المعاملات المالية بين الخلطاء، مع أن المنطلق يقضى أن يحرص الإنسان على الاعتدال فى التصرف حفاظا على تبادل المصالح، ولكن حب المال يعمى العين فيقضى على المنطق لتسود الفوضى العارمة فى الحياة وما يتعلق بها من معاملات، وسيبقى الاعتدال مرهونا بالاستقامة، وهى موقوفة على الإيمان والعمل الصالح، بل إن العمل الصالح مرتبط بالتقوى «لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [الأحزاب: ٧١].

وجملة القول: إن جمع المال بمعنى التكديس مرض فاحش يبعث على الخسران فى الدارين، قال ابن الجوزى: :رأينا من كان شَرِهًا فى جمع المال فحصل له الكثير منه وهو مع ذلك حريص على الازدياد ولو فَهَمَ علم أن المراد من المال إنفاقه فى العمر، فإذا أنفق العمر فى تحصيله فات المقصودان جميعا»[١].

* * *

(١) صيد الخاطر: ١٦٧.

● **المبحث الثالث : الخطاب السرى النزيه وتجنب قول السوء :**

النص المحورى الذى يحدد طبيعة خطاب الأقلية هو نفس النص الأسبق فى بيان خطاب الأكثرية، لكن بالنظر إلى دور الاستثناء فى بيان قيمة دور الأقلية فى الخطاب السرى والنص هو قول الله تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ١١٤].

نعم إن هناك نصوصا قرآنية وحديثية تبين طبيعة الخطاب المقبول شرعا، كقوله تعالى : ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ** ﴾ [النساء: ١٤٨] وقوله : ﴿ **وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٠] وقول الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت »[١] ولكن النص الذى يبين أن هذا الخطاب النموذجى من طبيعة الأقلية ومن خلقها هو ما يفهم من النص المحورى، لا سيما وقد حدد مجالات القول وموضوعاته الثلاثة التى لا يلتزم بها إلا قليل من الناس، كما يبين أن الشرط فى قبول ذلك هو الإخلاص فى ذلك الخطاب الله وحده، بحيث يجرى على اللسان « ابتغاء مرضاة الله » لارياء ولا تظاهرا أوتسييسا أو ايديولوجيا.

فالخطاب السيساسى أو الاجتماعى أو غيرهما إذا كان الهدف منه هو استقطاب الجماهير قبل مرضاة الله لا يعد من الخطابات السرية التى تتصف بها الأقلية، حتى لو كانت موضوعاتها هى نفس الموضوعات المستثناة من خطاب الأكثرية الذى نفى عنه حصول الخير « لا خير فى كثير من نجواهم » لأن الشرط فى إدراج صاحب الخطاب ضمن هذه الأقلية هو الإخلاص لله فى ذلك الخطاب، فإن كان الخطاب إيديولوجيا انتفى أن يكون كذلك، ومن ثم صعب إدراجه ضمن الأقلية، ودخل فى خطاب الغوغاء ورعاع العامة، الذين لا يرجى من خطابهم خير يعم الآجل والعاجل.

---

(١) الحديث : صحيح البخارى : كتاب الأدب باب رقم ٦٠١٨ مج : ٤ ص ٩١ دار الكتب العلمية.

فالفقه بأصول الشرع فى الخطاب والكلام هو الذى يقوم اللسان ويوجهه نحو ما فيه الخير، لذلك قال عبد الرحمن الجوزى: «رأيت كثيرا من الناس يتحرزون من رشاش نجاسة، ولا يتحاشون من غيبة»[1]، ويجعل هذا السلوك من باب حفظ الفروع وتضييع الأصول، ويرى أن سبب ذلك علتان: «تحكُّم العادة وغلبة الهوى فى تحصيل المطلوب»[2]، وهذا مخالف لما يتطلبه الدين الصحيح وهو أن حفظهما أولي، فإن لم يكن ذلك فحفظ الأصول أولى من حفظ الفروع.

إن خطاب الأقلية هو الخطاب الملتزم الذى تحكمه مرجعية صارمة تنبع من الذات المنضبطة بالشرع، تلك التى تمنعه من النطق بالسوء من القول، لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من الكلام، وما لا يحبه الله ينبغى على المؤمن تركه، لأن حبه تابع لحب الله،وكرهه تابع لكره الله.

وعلى العكس من ذلك لا يقول إلا القول المستقيم، الذى ينسجم مع الشرع وإن فارق هواه، لأنه بذلك فقط يوافق بكلامه النص الذى يشرع لهذه الجهة من السلوك البشرى فى مجال المعاملات بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠] قال الزمخشرى: «المراد نهيهم عما خاضوا فيه.. والبعث على أن يسددوا قولهم فى كل باب، لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله، والمعنى راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم»[3]، وهذا الذى عمل الرسول ﷺ على أن يربى المجتمع المدنى عليه حين كان يقول لهم فى أحاديث كثيرة روى البخارى منها: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»[4] «كف لسانك إلا من خير»، «من صمت نجا» وذلك هو مراد الرسول ﷺ من توجيه سفيان الثقفى حين قال له: «يا رسول الله ما أكثر ما تخاف على؟ قال هذا، وأشار إلى لسانه»[5] وكذلك كان الحال فيما رواه

---

(١) صيد الخاطر: ١٦٣.
(٢) نفسه
(٣) الكشاف: ٣/٢٧٦.
(٤) البخارى: ١/١٣ مسلم الصحيح: ١/٦٥.
(٥) صحيح ابن حبان: ١٣/٥٠٩، ٢/١٣١٤.

الترمذى من حديث عقبة: «قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك»، وأوضح من ذلك كله فى بيان مرجعية الخطاب قول الرسول ﷺ فيما رواه البخارى: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[1] فهذا الحديث يضع الخطاب بين حديه الأساسيين، القول السديد الموصل للخير، المحقق للعمل الصالح أو الصمت اتقاء للشر، وبعداً عن الخوض فيما يضر الناس والنفس، قال ابن حجر فى «فتح البارى» بصدد شرح هذا الحديث: «هذا من جوامع الكلم: لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى أحدهما، فدخل فى الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها فأذنَ فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض فيه بالصمت، وقد أخرج الطبرانى والبيهقى فى الزهد من حديث أبى أمامة نحو حديث الباب بلفظ: «فليقل خيرا ليغنم أو ليسكت عن شر ليسلم»[2].

والآن: ما الهدف من تحديد طبيعة «خطاب الأقلية» بهذه الضوابط؟ فى الواقع كانت النصوص السابقة تتضمن تعليلا لذلك، كما كانت الشروح تبين بعض ذلك، أما النص السابق فيبين أن القول السديد من شأنه أن يؤدى إلى صلاح الأعمال، وغفران الذنوب قال تعالى: ﴿**وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾[3].

قال الزمخشرى فى بيان العلة: «لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله»[4] وقال ابن عاشور: «القول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر.. فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون فى التخلق بها، وبالقول السيء تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الأدب باب ٣١ رقم ٦٠١٨ مج ٤ ص ٩١.
(٢) فتح البارى: ج١٠ ص٤٤٦.
(٣) الكشاف: ٣/٢٧٦.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٢/١٢٢.

والنهى عن المنكر، ولما فى التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتى بها جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب..، فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأن أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد إلى الصلاح أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد.. ثم إن ضميرى جمع المخاطب لما كانا عائدين على الذين آمنوا كانا عامين لكل المؤمنين فى عموم الأزمان سواء كانت الأعمال أعمال القائلين قولا سديدا أو أعمال غيرهم من المؤمنين الذين يسمعون أقوالهم، إنهم لا يخلون من فريق يتأثر بذلك القول فيعملون بما يقتضيه على تفاوت بين العاملين، وبحسب ذلك التفاوت يتفاوت صلاح أعمال القائلين قولا سديداً، والعاملين به من سامعيه، وكذلك أعمال الذى قال القول السديد فى وقت سماعه قول غيره، وفى الحديث: (فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) فظهر أن إصلاح الأعمال متفاوت، وكيفما كان فإن صلاح المعمول من آثار سداد القول»[1].

من كل ذلك يتبين أن سداد القول صفة: (خطاب المؤمنين)، وأن الهدف منه هو تحقيق الخير المطلق، فهو لا يخلو من تحقيق الأعمال الصالحة التى تنبثق عن سماع التوجيهات الخيرية، أو الالتزام بأخلاقها بل قد يتجاوز السامع ذلك إلى الدعوة إلى عمل الخيرات وترك المنكرات لأن سداد القول رأس الخير كله.

وعلى هذا فإن خطاب المؤمنين، وهم الأقلية، من شأنه تحقيق الخير كله سواء على المستوى السياسى أو المستوى الاجتماعى أو الثقافى أو الدعوى، فهو دائما يؤدى إلى صلاح الأعمال والأخلاق وصفاء والضمير، مما يتسبب فى رقى المجتمع وتطوره وازدهاره.

ويمكن القول أن طبائع المجتمعات تابعة لطبيعة أقوالهم، لأن الأفعال والسلوكات وليدة التربية التى وسيلتها الأساسية الخطاب السديد «فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون فى التخلق بها».

وهذا ما يفسر الأثر العظيم الذى يحدثه الأنبياء والمصلحون فى المجتمعات

---

(١) نفسه ١٢٢ - ١٢٣.

إذ تتغير من حال الشر كله إلى حال الخير كله، وقد لمس ذلك الصحابى الجليل رضى الله عنه فوصف ذلك التغير لملك الحبشة فأدهشه بقوله: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.. قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»[1].

فانظر إلى هذا التغيير العجيب الذى أحدثه الخطاب النبوى فى المجتمع الجاهلى، سواء مجتمع العرب فى الجزيرة العربية أو المجتمع النصرانى فى كل ديار المسيحية فى عهد الإيمان، كما يفهم من قول النجاشى: «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة».

نعم إنه الخطاب الإيمانى الذى يخرج من مشكاة النبوة فيحدث المعجزات بتغيير المجتمعات، من حال الفوضى العارمة إلى حال النظام والاستقامة، وهو دائما أثر خطاب الأقلية الذى حدده النص المحورى عن طريق الاستثناء بقوله تعالى: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ١/٣٥٩ - ٣٦٠ دار إحياء العربى بيروت.

● **خاتمة الفصل فى معاملات الأقلية:**

وقفنا فى هذا الفصل الذى تناول معاملات الأقلية عند ثلاث صور أساسية جدا، تناولت الأولى مبحث الوفاء للعهود والمواثيق والعقود، وتناولت الثانية مبحث الصفاء فى التعامل المالى بين الخلطاء والشركاء، وتناولت الثالثة مبحث الخطاب السرى عند الأقلية.

وقد تبين بعد التحليل والتفسير الموضوعى للنصوص القرآنية المحورية منها والمساعدة، أن للأقلية مواقف مناقضة تماما لطبيعة المعاملات عند الأكثرية، تميزت بالوفاء فى العهود التى عاهدت بها الله سبحانه وتعالى، والتزمت على مستوى الإيمان والعمل الصالح فكانت من المحسنين، كما تميزت بالصدق فى إبرام المواثيق والعقود السياسية والمالية، فكان كل ذلك عاملا فعالا فى الحفاظ على وتيرة الحياة واستمرار الحركة فيها، بحيث يمكن القول: إنه لولا هذه المعاملات الفعالة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والعقدية لما وجدنا للمجتمع الإنسانى ما يبرر وجوده من حيث هو إنسان أوكل الله إليه أمر العمران للأرض كلها.

ذلك لأن الوفاء بالعهود مع الله تطفىء غضبه على خلقه، والوفاء بالمواثيق والعقود المختلفة بين بنى البشر تحافظ على استمرار النشاط الإنسانى فى جو تملأه الثقة والطمأنينة فتنشط المعاملات وتستمر الحياة، ويقل التناحر والتقاتل بين الناس.

ولهذا يتبين فضل هذه الأقلية على الأكثرية التى غلبت عليها الأنانية وحب الذات فنكصت على عقبيها وخانت الله ورسوله، ونبذت المواثيق كلها أو بعضها فكانت النتيجة ما رأينا من كفر وعصيان وطغيان وظلم وسفك للدماء، وهو ما تستولى الأقلية باستمرار محاولة إصلاحه، لأنها هى التى تمثل ضمير الإنسانية، وقد عبر عن ذلك سيدنا شعيب فقال: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود: ٨٨] فأجابته الأكثرية التى تمثل العقل السائد يومئذ: ﴿ **قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ** ﴾ [هود: ٩١].

فلاشك أن الوفاء بالعهود والمواثيق والعقود مبدأ أساسى جداً فى الحياة وأن

الأقلية هى التى ترعاه، وهو مبدأ أساسى جدا فى استمرار الحياة وإلا سارع الشقاء، ثم الفناء للإنسانية، بما كسبت أيدى الناس، وهكذا يتبين لنا دور هذا المبدأ العظيم فى حياة البشرية، مما يجعله أساسيا جدا فى المعاملات كلها كما رأينا فى المبحثين المواليين:

أما مبحث المعاملات المالية فقد بين أن جميع المعاملات السليمة تقوم على رعاية العقود التى تبرم بين الخلطاء وهو ما تحرص عليه الأقلية، لتقييم كل الأنشطة التجارية فى الأموال المتحركة والعقارات حتى قيل: «العقد شريعة المتعاقدين».

وأما مبحث الخطاب السياسى والنجوى، فقد تبين منه أكثر دور المواثيق السياسية المبرمة بين الشعوب والأمم فى الحفاظ على الطمأنينة والسكينة والأمن من الخوف، الذى يعد أساسا لاستمرار النشاط الاقتصادى كله، وبدونه تضطرب عجلة الحركة التجارية اضطرابا شديدا.

لذلك يعد الاستقرار السياسى عاملا فعالا فى الاستثمار لكل الموارد الطبيعية فى المجتمعات، وبدونه يعيش المجتمع فى نكد قد يجر إلى التقهقر والتخلف من جراء الحروب الخارجية والفتن الداخلية كالتى عاشتها الجزائر فى هذه السنوات التى كنت فيها منكبا على إنجاز هذا البحث، وهذا ما حددته الآية: ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء: ١١٤] حقا لقد كان خطاب التناجى على المستويات الرسمية التى يعد العمل السرى مهنتها شراً كله.

فالإصلاح بين الناس متوقف على إيجابية الخطاب والنجوى على حد سواء، وفعالية الخطاب مرهونة برعاية العقود والمواثيق، وذلك من خصوصيات الأقلية مما يبين فضلها المجتمع البشرى، إذ أنها هى التى تمثل العقل الفاعل فى الحياة بما تنهض به من رسالة أساسية تتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولذلك سماها الله «خير أمة» فقال: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

الفصل الثالث
الأكثرية والأقلية على مستوى العلاقات

● **توطئة:**

العلاقات بين الناس يتحكم فيها أساسا عاملان، عامل العقيدة وأسلوب التفكير، وعامل المصلحة. وهذان العاملان غالبا ما يتعايشان معا، ولكن تعايشهما قد يأخذ صورته الحقيقة فيكون الولاء خالصا لا نفاق فيه، وقد يأخذ صورته المزيفة، فيكون نفاقا كله.

ومهما يكن فإن العلاقات المبنية على العقيدة هى التى تعبر عن الولاء الحقيقى والانتماء الخالص، فإن كان الإنسان مؤمنا كانت علاقاته مع أهل الإيمان علاقة حب فى الله بقدر القيم التى يتمتع بها المتحابان، وكانت علاقاته مع أهل الكفر علاقة كره فى الله بقدر الاستهتار الذى يبدو عليه طرف أهل الكفر، أوعلى الأقل يشعر به أهل الإيمان إزاء أهل الكفر، قال تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أما إن كان الإنسان كافرا فإن علاقاته تتوطد مع من يشاكله فى العقيدة وما ينبثق عنها من سلوك، ولكنها علاقات يشوبها المكر والخداع، والمد والجزر تبعا للمصالح قبل كل شيء.. وهذا الصنف من الناس تجدهم: ﴿ **يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ ولكنه ودٌ يقوم على تبادل المصالح والمنافع العاجلة، كالود الذى كان بين الدول العربية والاتحاد السوفياتى، والود الذى يحدث بين الأفراد فى هذا المجال لا يعد ولا يحصى.

ولأهمية الولاء والعلاقات فى حياة الأفراد والشعوب نجد القرآن ينبه على القاعدة التى ينبغى الاعتماد عليها فى بناء العلاقات الصغرى والكبرى بقوله: ﴿ **لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ** ﴾ [التوبة: ٢٣] النص هنا يؤكد أن العلاقات حتى على المستوى الأسرى ينبغى تقييمها فى ضوء العقيدة.

والإشكال كل الإشكال فى المنافق الذى يحاول أن يعيش انفصاما فى الشخصية، بحيث تدفعه المصلحة إلى أن يعيش متوددا فى الظاهر لأحد الطرفين حفاظا على مصالحه التى يظن أنها متعلقة به، ومن ثم قد يعلن الولاء لأهل الكفر خفية عن أهل الإيمان، وهذا النوع هم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [المجادلة: ١٤]، هؤلاء يعيشون علاقات مضطربة أشد الاضطراب، لأنهم فاقدون للإرادة بسبب تحكم المصالح في قلوبهم على حساب المبادىء، يقول الله فيهم: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ** ﴾ [النساء: ١٤٣]، وهذه الذبذبة «توحي بضعف المنافقين الذاتى، هذا الضعف الذى يجعلهم غير قادرين على اتخاذ موقف حاسم للأنتماء هنا أو هناك، ولا على المصارحة برأى وعقيدة وموقف من هؤلاء أو هؤلاء»(١).

إن الحديث عن العلاقات والولاء والانتماء، يأخذ أهميته من علاقته بالتكاثر وتقوية الصفوف من جهة، ومن ضرورة تصفية الصفوف من الخونة لئلا يُعتَمَد عليهم فى اللحظات الحرجة من جهة ثابتة، لأن ذلك من شأنه أن يجعل فى وسط الصف المسلم فجوات يُؤتَى منها أهلُ الإيمان فيهلكون غدرا أو يغلبون، لتعلق الغلبة بالسنن الكونية والتاريخية، وهو ما أشار إليه القرآن منبها لخطورة ذلك، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٤٤] قال القرطبى فى معنى الآية: لاتجعلوا خاصتكم وبطانتكم منهم فتعرضون أنفسكم إلى عذابه إياكم بإقامته حجة عليكم إذ قد نهاكم(٢).

والحق أن هذه الآية وظفت السلطان «بمعنى السنن التى من طبيعتها عدم

---

(١) فى ظلال القرآن ٢ / ٥ / ٧٨٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥ / ٤٢٥.

المجادلة، لأنها صارمة بطبعها فإذا ولى المؤمنون الكفار، وأراد الله استئصال الكفار ووقع المؤمنون فى المجال نفسه بسبب الولاء فقد عرضوا أنفسهم للتهلكة، ويفسر ذلك حديث الرسول ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذابُ من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم»[1]، ويشبه هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ (النساء: ١٣٩]، فالعزة مجالها الحقيقى عند الولاء لله، أما من ولى الكفار طلبا للعزة فإنه قد أخطأ فى تقدير مجال العزة، وطلبها حيث لا تطلب، ومن ثم وقع فى الذل والتهلكة من حيث لا يدرى، فجعل لله عن طريق السنن عليه سلطانا مُبينا وحجة قطعية ليناله من العذاب ما نالهم، وكل ذلك التقدير السيء كان دافعه الطمع فى نيل بعض المصالح العارضة.

وعلى الجملة فإن العلاقات بين البشر يحكمها عاملان أساسيان هما عامل العقيدة وعامل المصالح، وهذا العاملان سيكون لهما تأثير كبير فى تحديد نسبة الذين يربطون علاقاتهم مع المؤمنين، والذين يربطونها بحزب الكفار، وهو ما سنبحثه الآن فى فصلين، يتناول الأول الأكثرية على مستوى العلاقات، ويتناول الثانى الأقلية فيها.

والنص العام الذى يحدد طبيعة العلاقات وأهميتها هو قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣]، فالعلاقات قائمة على العقيدة والمصالح، والأهمية تكمن فى دفع الفتنة والفساد، وسنحقق تفصيل ذلك فى موضعه من المباحث إن شاء الله.

---

(١) البخارى: ٤/٣٦٧.

● المبحث الأول : طبيعة العلاقات بين الأكثرية

إن النصوص المحورية التى تحدد طبيعة العلاقات بين الأغلبية من بنى البشر هى :

١ـ ﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٠ ـ ٨٣].

٢ـ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر ٣٩].

٣ـ ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ٦٣].

٤ـ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٨ ـ ١٢٩].

وهذه الآيات تبين فى مجال الأكثرية ثلاثة أنواع من العلاقات :

علاقة قائمة على الكفر، وعلاقة قائمة بين الإنسان والشيطان، وعلاقة قائمة بين الإنسان والجن، ويمكن اختصارها فى علاقتين، علاقة بشرية / بشرية، وعلاقة بشرية / جنية شيطانية، وسنبين ذلك فى مبحثين، يتناول الأول العلاقة الأولى ويتناول الثانى العلاقة الثانية.

● المطلب الأول: العلاقات بين أهل الكفر من البشر:

الولاء بين أهل الكفر تحدده آيات متعددة منها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وهذه العلاقات تبدأ بالسلوك والموالاة الفردية الناجمة عن الانسجام في الطبائع والأفكار والثقافات وتصوراتهم لشؤون الحياة وتبادل المصالح ولو على حساب القيم والمبادىء، وتنتهي بالعلاقات الدبلوماسية والسياسية والدولية، وما يترتب عليها من حروب باردة وحارة.

والنص الذي يحدد مشكلة الأكثرية على مستوى العلاقات بين أهل الكفر هو قول الله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٠ - ٨٣].

هذه الآيات تحدد ولاء الأكثرية من اليهود فالضمير «منهم» يعود على اليهود في الآية السابقة من السياق[١]، وتكشف عن مآل من يربط علاقته بهم، وتبين طبيعة العلاقة ونوع القاعدة التي تربط هذه العلاقة، وهي «الكفر» و«الفسق»، ثم تقسم الآيات أهل الكتاب من حيث علاقتهم العاطفية بالمسلمين إلى قسمين، فريق أشد عداوة لهم، وهم اليهود، وفريق أقرب مودة من هؤلاء، وهم النصارى، وهذا الفريق الثاني قد يكون منه من يدعو الله ليكتبه «مع الشاهدين» من المسلمين، نتيجة إيمانهم بما نزل على محمد ﷺ.

هذا مجمل ما تشير إليه الآيات من العلاقات بين أهل الكفر والإيمان من البشر، وسنحلل الآن الآية لدراسة الظاهرة من حيث هي مشكلة اجتماعية وسياسية تقوم على المرتكزات العقدية بالدرجة الأولى والمصلحية بالدرجة الثانية، والأسئلة الأساسية المطروحة هي:

---

(١) المائدة: ٧٩.

١- ما الذى تعنيه العبارة: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

٢- ما الذى ينجر عن طبيعة هذا الولاء؟

٣- ما الدافع لهذه العلاقة؟ أهو العقيدة أم المصالح؟

٤- ما هى درجات الولاء من جهة العاطفة؟ وما الذى ينجر عنها؟

إن العبارة: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من سورة المائدة، وهى سورة مدنية، نزلت فى سياق الحديث عن غلو أهل الكتاب واتباعهم للأهواء وعملهم على إضلال كثير من الناس عن سواء السبيل ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

والسياق الذى وردت فيه الآية - موضوع الدراسة - يُعنى كثيرا بمشكلة الأكثرية بصفة عامة، أكثرية فى الإضلال: (وأضلوا كثيرا) وأكثرية فى إعلان الولاء للكفار ﴿ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المائدة: ٨٠]، وأغلبية فى الفسق ﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨١].

لكن الذى يهمنا فى هذا الموضوع هو العلاقات، وهى علاقات قائمة على الولاء للذين كفروا، وعبارة ﴿ وترى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تبين أن ولاء الأكثرية من اليهود يكون للكفار، وهذا الولاء له أسبابه العقدية وهى المشاركة العقدية، والتقارب فى التصور للكون والحياة، واتباع الأهواء الضالة ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾.

وسياق الآيات يؤكد كون العقيدة سببا فى ولاء أكثر اليهود للكفار، إذ ينفى عليهم الإيمان بالله والنبى والكتاب المنزل عليه، ويجعل الولاء للكفار دليلا على عدم الإيمان بكل ذلك ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ قال القرطبى: «يدل بهذا على أن من اتخذ كافرا وليا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضى أفعاله»[1]. فالدافع

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ٦ / ٢٥٤.

لتولى الذين كفروا ليكثر حزبهم إنما هو هذه العلة المركبة من عقيدة الكفر وكثرة الفسق «هذه هى العلة، إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى، إن كثرتهم فاسقة، وإنهم يتجانسون إذن مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين»(١).

والولاء الذى تقيم عليه يهود سياستها ينطبق على سلوكهم فى كل وقت وحين، مما يدعو إلى التعجب من عمق أسرار القرآن الكريم وعجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل وقت، لقد كان اليهود يتولون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين، وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب، واستمر إلى اللحظة الحاضرة التى ما قامت فيها دولة إسرائيل فى أرض فلسطين الجريحة أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد الماديين، إنهم يتعاونون مع المشركين والملحدين كلما كان الأمر أمر المسلمين(٢).

إن هذا التجانس القائم بين اليهود والكفار بصفة عامة يتحكم فيه – كما بينت الآية – عامل العقيدة وعامل حب الفسوق والإقبال عليه، بدافع تلبية الغرائز البهيمية والحاجات والمصالح الاقتصادية، وهو تجانس يتجاوز العلاقة بين اليهود والكفار إلى أهل الكفر بصفة عامة، متى كان الأمر يتعلق بالمبادىء الإسلامية خاصة والصراط المستقيم عامة، ولذلك كانت الآية: ﴿ **تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ تعبر بصيغة الماضى وبدلالة الفعل «ترى» للدلالة على ثبات هذه الصفة فى الكفار وعلى وضوحها حتى صارت بادية للعين المجردة، إذ يعقدون علاقاتهم دائما تبعا لأسباب الانسجام الثقافية والمادية، وما ينجر عنهما من مصالح مشتركة.

وقد انجر على هذا الولاء مواقف عاطفية دعمت العلاقات السياسية تدعيما قويا تمثلت فى عداوة المسلمين ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ [المائدة: ٨٢]، فالآية تبين أن المتدبر للعلاقات بين الناس فى

---

(١) فى ظلال القرآن: ٢/٦/٩٥٢. (٢) فى ظلال القرآن: ٢/٦/٩٥٢ – ٩٥٣.

هذا الكون يجدها تتكاثر وتبنى على هذا الموقف العاطفى الذى أساسه اختلاف العقائد، فالذين هم أشد عداوة لأهل الإيمان هم اليهود، وتاريخ مكائدهم للإسلام يكشف عن كثرتها، بدءا من تحالفهم مع المشركين لمحاربة الرسول ﷺ، إلى الحرب النفسية والمادية والأخلاقية التى أعلنها يهود العصر مثل فرويد وماركس، مرورا بالمكائد التى قاموا بها لإسقاط دولة الخلافة فى تركيا، تلك التى بدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال الدستور بها فى عهد السلطان عبدالحميد ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدى الأحمق أتاتورك الذى اتخذ من اليهود مستشاريه(١).

ولعل النصارى الحقيقيين - غير المزيفين الذين هم فى الحقيقة ملحدون وكفار - لهم مواقف عاطفية مع المسلمين ذات بعد حضارى، يختلف عن الوحشية التى ترتسم على جبين المشركين والكفار واليهود، كالتى تلاحظ على أسلوب الصليبية والوثنية الهندوسية والصهيونية العالمية.

والقرآن ينبه على هذا الموقف الذى شكل عاطفة النصارى الحقيقيين الذين يوحدون فى كل وقت وحين، ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ﴾ [المائدة: ٨٢] فالنصارى يشكلون - بناء على هذه المودة - مع المؤمنين وحدة، ولكنها ستكون ممثلة للأقلية كما سنعرف من بعد، فما سر اختلاف النصارى الحقيقيين عن اليهود والكفار؟

الآيات تبين علة وسر الاختلاف بقوله تعالي: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٣].

هكذا تبين الآية بوضوح علة مباينة موقف النصارى الحقيقيين من موقف الكفار واليهود والنصارى المزيفين، فالعلة هى الوعى أولاً، فهم يتشكلون من (قسيسين ورهبانا) والقسيس العالم، وأصله من قس إذا تتبع الشىء فطلبه،

---

(١) فى ظلال القرآن: ٢/٦/٩٦٢.

والقس أيضا رئيس من رؤساء النصارى فى الدين والعلم[1]، والرهبان من رهب يرهب أى يخاف الله[2].

أما العلة الثانية فهى التواضع ﴿ وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، وعدم استكبارهم هو الذى ساعدهم على السماع للحق، ومن ثم الانصياع له والاتباع لأهله، والإيمان بنبى أتاهم بما يعرفون من الحق فى الإنجيل ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾، وإذا كانوا قد عرفوا موضع الحق من الباطل بسبب الوعى والتواضع فإن ذلك لا يقود إلا لشىء واحد وهو الانضمام إلى صف أهل الحق: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى أكتبنا مع أمة محمد ﷺ الذين يشهدون بالحق، ومعنى فاكتبنا فاجعلنا فى صفهم[3].

والسيرة النبوية تبين لنا نماذج من هذا النوع متمثلا فى التجانس وكثير من العلماء الذين حضروا جلسة الحوار الذى دار بينه وبين المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة خوفا من المشركين وفتنتهم، إذ «أرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم أمر جعفر بن أبى طالب أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورةمريم فقاموا تفيض أعينهم من الدمع».

وعلى الجملة فإن الدافع إلى الانضمام إلى أهل الإسلام والإيمان كان هو «الوعى» الذى تميز به القساوسة والرهبان من جهة و«التواضع للحق» من جهة ثانية، وهو ما ترشد إليه الآيات كقاعدة أساسية فى الولاء ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلم هو قائد الحق، يقود العقول إلى الخير، ويقود القلوب إلى خشية الله وطاعته أما الجهل والعناد والمكابرة فإنها لا تزيد الإنسان إلا التصاقا بمن يشاكله، ولذلك قلّ حزب الله وكُثر حزب الكفر ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ولكن نتيجة هذا الولاء على كثرته لا يحقق لأصحابه أى خير، بل يقدم لهم الشر كل الشر إنه سخط الله فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٦/٢٥٧.
(٢) نفسه: ٦/٢٥٨.
(٣) نفسه: ٦/٢٥٩.

لذلك عقب على الآية بقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

المطلب الثاني: العلاقات بين أهل الكفر من البشر والشياطين والجن.

لاحظنا فى المبحث السابق أن العلاقات بين أهل الكفر، كانت تتحكم فيها العقيدة والمصالح المشتركة والفسق، وأن هذه العلاقات سواء الدبلوماسية منها أو الفردية لا تقود إلا إلى الشر، وأعظمه سخط الله على تحزب هذه الفئة من البشر، وسنقف الآن عند العلاقات الخفية التى تقوم بين البشر والشياطين والجن، وهذه العلاقات يتطلب فهمها شيئا من الإيمان، لأنها تختلف عن العلاقات الدبلوماسية أو الفردية التى تجرى بين البشر لسهولة الدلالة عليها بأمثلة حية من التاريخ البشرى.

والنصوص التى نستدل بها على هذه الظاهرة هى:

١- ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٢٩].

٢- ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

هذان النصان ورد فيهما لفظ (الولاء) صراحة ليدل على نوع من العلاقات التى تربط أهل الكفر وتقوى شوكتهم وتكثر عددهم، أما النص الأول فيكشف عن العلاقة بين الإنس الذين استكثر منهم الجن، ويبين أن الإنس لا يخفون هذه العلاقة ولا ينكرونها، بل يعطون التعليل وهو الاستمتاع ﴿ اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾.

وأما النص الثانى فيدل لفظ (أمم) على الكثرة التى زين لها الشيطان طريق الضلال حتى صار (وليهم اليوم) وانقادوا جميعا إلى (عذاب أليم) وكان مآلهم الخسران المبين نتيجة هذا الولاء كما يبين قوله تعالي: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا

مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]، ولعل أعظم خسران هو تخلى الله عنه وتركه للشيطان عقابا له كما يبين قوله تعالى على لسان سيدنا وحبيبنا إبراهيم الخليل: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٥] وقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وبذلك يستمرون على الضلالة والعمى وهم يظنون أنهم على شيء: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

ولعل أى نظرة سريعة لطبيعة هذا الولاء تدرك أنه على علاقة كبيرة بطبيعة الولاء كما تبين فى المبحث السابق، إذ الكافرون دائما عنصر مشترك، ومن ثم كانت العقيدة مرتكزا أساسيًا فى هذه العلاقات جميعا ثم (المصالح) التى عبر عنها النص هنا بلفظ (الاستمتاع)، والعبارة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] تبين أن العلاقات ارتسمت معالمها وتوطدت بسبب الانسجام فى الأفعال والثقافات، فهم يتوالون (بما كانوا يكسبون) وربما أيضا بما يربط بينهم من علاقات ثقافية: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، هكذا يتوالى الناس مع بعضهم بأسباب ويتوالوا مع الشياطين بأسباب، ثقافية وفعلية، قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾: «إنما يولى الله الناس بأعمالهم فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان والكافر ولى الكافر أينما كان وحيث كان، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى»(١)، وقال قطب: «تجعل بعضهم أولياء بعض بحكم ما بينهم من تشابه فى الطبع والحقيقة، وبحكم ما بينهم من اتفاق فى الوجهة والهدف، وبحكم ما ينتظرهم من وحدة فى المصير، وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التى كانت حاضرة إنه يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢ / ١٧٦.

والجن عامة، فإن الظالمين وهم الذين يشركون بالله فى صورة من الصور يتجمع بعضهم إلى بعض فى مواجهة الحق والهدى ويعين بعضهم بعضاً فى عداء كل نبى والمؤمنين به، إنهم فضلا على أنهم من طينة واحدة مهما اختلفت الأشكال، هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة تقوم على (الايهام) باغتصاب حق الربوبية على الناس، كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله، ونحن نراهم فى كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضاً على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله، فبحكم ما بينهم من اتفاق فى الطينة واتفاق فى الهدف يقوم ذلك الولاء، وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم فى الآخرة على نحو ما رأينا فى المشهد المعروض، وإننا لنشهد فى هذه الفترة ومنذ قرون كثيرة تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها، ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامى فى الأرض كلها، وهو تجمع رهيب فعلا تجتمع له خبرة عشرات القرون فى حزب الإسلام مع القوى المادية والثقافية مع الأجهزة المسخرة فى المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة وهو تجمع يتجلى فيه قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[1].

* * *

(١) فى ظلال القرآن: ٣/٨/١٢٠٨.

● **المبحث الثاني : طبيعة العلاقات بين الأقلية :**

لاحظنا قبل قليل عمق دلالة قول ابن كثير: «إنما يولى الله الناس بأعمالهم فالمؤمن ولى المؤمن أين كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيث كان ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى» فهو يدل على أن العلاقات الحميمة تحكمها على جميع المستويات العقائد، وأن العقائد مقرها القلب الذي يتأثر بأفعال الجوارح سلبا وإيجابا ويؤثر فيها، فالعلاقة بين القلب والجوارح علاقة متبادلة، ولذلك نلاحظ أن الربط بين الإيمان والكسب علاقة دائمة فى القرآن والسنة، وفى الأثر عن الحسن قال: «ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل»(١).

ولما كانت العلاقات الفردية والدبلوماسية سلوكا حضاريا يطيع بطبيعة الثقافة التى يتمتع بها السالك، وكان رأس الثقافة هو العقيدة التى من شأنها أن تصبغ التصورات والأقوال والأفعال بلونها، فإن العلاقات بين المؤمنين ستسير فى نفس الفلك، والآيات التي سنعرض لها كفيلة ببيان ذلك:

١- قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾

[الأنفال: ٧٢]

٢- وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾

[مريم: ٩٧]

هذان النصان يحددان طبيعة العلاقة التى تقوم بين المؤمنين، وهم تلك الأقلية القليلة التى بادرت بالهجرة بدينها إلى المدينة مع رسول الله ﷺ الذى آمنت به فاتبعته وأحبته وسارت حيث سار، وتلك الأقلية التى تولت الرسول ﷺ وأصحابه من المهاجرين فآوتهم ونصرتهم.

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة ٦/١٦٣ - ٧/١٨٩.

فالعلاقة بينهم أساسها الإيمان والتقوى والعمل الصالح، إذ هذا هو ما جعل الود بينهم متبادلاً يصدق عليه قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

ولكن التاريخ يخبرنا أن اجتماع المهاجرين والأنصار معًا كان من حيث العدد يشكل الأقلية، بدليل أن أول غزوة كان عدد المجاهدين فيها أقل من ثلث حزب الكفار من قريش وحدها ناهيك عن اليهود والمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر بالمدينة المنورة، ويدل على ذلك ما حدث من بعد، من ظهور المنافقين الذين حذرت الآيات القرآنية من شر تواجدهم فى الصف الإسلامى، وحرضت الرسول ﷺ على إجلائهم عندما كشفت خطة تنسيقهم مع قريش وكفار مكة عامة للإيقاع بالمسلمين.

إن كل ذلك يبين أكثرية الكفار وأقلية المؤمنين، ولكن الذى سيبين عنصر القوة فى الأقلية المؤمنة مما ساعدها على الغلبة والبطش الشديد بتلك الأحزاب الكثيرة المتآمرة على هذه الثلة المؤمنة هو ما جاء فى الآيات السابقة، وفى آيات أخرى سنذكرها فى حينها، تلك الآيات التى سيتبين منها أن القوة ليست بالعدد ولكن بالعدة النفسية والروحية.

عندما نحلل آية الأنفال السابقة نجدها تحدد طبيعة العلاقة بين أعضاء الأقلية المؤمنة، فهى علاقة يشترط فى ولاء أعضائها الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله، بالنسبة لسكان مكة، كما يشترط بالنسبة لسكان المدينة الإيمان والإيواء للمهاجرين ومناصرتهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

هكذا تحدد الآية شروط الولاء السياسى والانتماء الحزبى، وهى شروط تقوم على جانبين: روحى ومادى، وهما عاملان متلازمان، سنلاحظ أن القرآن يؤكد

---

(١) مسند أبى عوانه ١ / ٤١.

تلازمهما لبيان طبيعة العلاقة السياسية بين الجماعات الإسلامية، بحيث لا يكفى الإيمان وحده على الرغم من أهميته القصوى، بل لابد من استكمال العنصر المادى متمثلا بالنسبة لسكان مكة فى الهجرة، وبالنسبة لأهل المدينة في الإيواء والمناصرة: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾. هكذا يمنع النص بعبارة صريحة أى نوع من أنواع الولاء حتى يتم شرط الهجرة ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ إنما صرامة قوية فى تحديد طبيعة العلاقات وعناصرها الأساسية، تبينها بشكل أوضح العبارة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فالهجرة شرط للولاء وتحقيق المعية السياسية، فلا يكفى أن تقول أنا معك وأنت لم تبادر إلى الهجرة والجهاد الذين بهما يتحقق معنى قولك أنا معك، ولقد ظل هذا الشرط قائما حتى فتح مكة حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته وانتظم الناس فى مجتمعه، ورفع مبدأ "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل»[1] لا ليلغى الشرط ولكن ليضبطه فى الإطار الظرفى الجديد.

ومن البين الواضح أن مبدأ الهجرة لم يرفع إلا بعد أن اتسعت دار الإسلام لتشمل مكة، مما يبين أن الهدف هو تحقيق الولاء السياسى والانتماء الحزبى البناء، الذى يمنح الجماعة الإسلامية قوية ويعطيها أسباب الفعالية، بدليل بقاء عنصر (الجهاد) وظهور عنصر جديد هو (العمل) كما يحدد ذلك مبدأ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل».

وهذا الولاء القائم على الشروط السابقة أساسى فى الفعالية، بحيث تصبح الاستهانة به سببًا من أسباب الفتنة كما تحدده الآية حين تقارن بين العلاقات السياسية بين الكفار والعلاقات السياسية بين المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٣]، فالمجتمع

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣ / ١٠ / ١٥٦ / انظر صحيح مسلم: ٣ / ١٤٨٧ صحيح البخارى: ٤ / ١٥٦٧.

الكافر يشكل تجمعا سياسيًا لا يتحرك فيه أعضاؤه كأفراد وإنما ينشطون ككائن عضوى « تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكمًا، ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى، لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفرادًا، وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده، ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى وهو أفسد الفساد »[1].

ولأهمية البعد الانتمائى نجد القرآن الكريم يجعل هذه العلاقات السياسية بين قوى المسلمين دليلا أساسيا وبرهانا قطعيا على الإيمان الحق، فإذا لم يتحقق ذلك الانتماء صراحة بكل شروطه فالإيمان فيه دخن أو ضعف كما تبين الآية ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٤].

ومن هنا يتبين لنا عمق الدلالة فى العلاقات السياسية بين الأقليات الإسلامية، بحيث يصبح الولاء للتجمع الإسلامى برهانا على الإيمان، لأن ذلك هو المفتاح الأساسى فى إعطاء الصف الإسلامى على أقليته فعاليته.

فالفعالية كل الفعالية تكمن فى تنمية هذه العلاقات السياسية وفق شروطها وضوابطها، وقد برهن التاريخ بنتائجه الباهرة على أهمية ذلك، لقد « اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق العربى والفارسى والشامى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ولم تكن يوما (قومية) إنما كانت دائما

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣ / ١٠ / ١٥٥٩.

(عقدية)، ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة.. وهذا ما لم يتجمع قط لأى مجتمع آخر على مدار التاريخ»[1].

ولاشك أن تنمية العلاقات السياسية تتحكم فيها عناصر روحية وأخرى مادية كما رأينا، ولكن يبقى الإسمنت القوى الذى يحافظ على طبيعة العلاقات فى المجتمع الإسلامى هو الإيمان، وهو ما تعبر عنه الآيات: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٣] فهذه الآية من سورة الأنفال نفسها جاءت لتبرز أهمية العقيدة فى تثبيت العلاقات السياسية بين أفراد المجتمع الإسلامى، والفعل (ألفت) بدلالته يدل على تلك الأهمية، لقد جاءت الآية لتبين أن توطيد العلاقات بين الدول الإسلامية لا يقوم على المادة - على أهميتها - مهما كان حجمها ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ....**﴾ وإنما يقوم على الطاقة الروحية ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾..

فالإسمنت الذى ألف بينهم هو حب الله الذى إذا لمس القلب ضعفت أمام قوته كل أسباب التأثير فى العلاقات بعد ذلك، المادية منها والعرقية، كما يبين ذاك حديث الرسول ﷺ فيما أخرجه أبو دود إذ قال: «إن من عباد الله لأناسًا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى: قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال: هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»[2].

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣/١٠/١٥٦٢.

(٢) أخرجه أبو داود: ٣/٢٨٨ - صحيح ابن حبان: ٢/٣٣٢.

ويؤكد هذا كل التأكيد قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم: ٩٦].

وخلاصة القول: إن العلاقات بين الأقلية المؤمنة تحكمها عناصر أساسية بعضها مادى وبعضها عقدى ولكن المادى يأتى برهانًا ودليلا على العقدى، وهذا ما يفرق بالضبط بين العلاقات بين الأكثرية والعلاقات بين الأقلية المؤمنة، فالأكثرية من جهة العقيدة كافرة ولذلك يصبح العنصر الأساسى الذى يحكم العلاقات بين أفرادها هو المصالح فإذا تعارضت المصالح تدابروا وتناحروا، أما الأقليات المؤمنة حقًا فتحكم العلاقة بين أفرادها وطوائفها ودولها محبة الله ورسوله والإيمان بالبعث وما يرتبط به قبل أن تحكمها الأهداف الزائلة وتربطها المصالح المادية المختلفة، بل إن الإيثار فى المجال المادى سيكون دليلاً على صحة مقومات تلك العلاقة: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩]، ولذلك ينفى القرآن العظيم وجود علاقة ودٍّ بين المؤمن والكافر مهما كانت الأسباب، حتى لو كانت صلة القرابة العرقية والدموية: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [الحشر: ٢٢].

* * *

الباب السادس

مآلات الأكثرية والأقلية

●توطئـــة:

الجهود بنتائجها، والمواقف والسلوكات بعواقبها، تلك هى القاعدة الأساسية التى برهن عليها تاريخ البشرية كلها، ونصت آيات كثيرة عليها، ولاحظتها تجارب الحياة بحلوها ومرها، ولهذا يعد المآل الذى ينتظر الأكثرية والأقلية فى مستقبلها الآجل والعاجل هو نقطة النهاية لنتائج هذا البحث، لذا لابد أن نتساءل: ما دام البحث قد وصل فى نهاية كل فصل إلى أن الأكثرية دائما تتحرك فى طريق الشيطان، وأنها قد حق عليها قول إبليس بالغواية: ﴿ **لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [ص: ٨٢]، ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [سبأ: ٢٠] وأن هذه التبعية للشيطان بالأغلبية قد برزت على مستوى العقيدة والعقل، والسلوك، والعلاقات، فما مآل هذه الأكثرية فى الدنيا؟ هل ستنتصر على الأقلية بحكم أكثريتها لتعيث فى الأرض فسادا؟ وما مآل الأقلية فى الدنيا؟ هل ستنهزم بسبب أقليتها لتعيش ذليلة مستضعفة؟ أم أن مسألة الغلبة والاستخلاف فى الأرض ستخضع لقانون البقاء للمصلحين على حساب قانون الغلبة للكم والعدد، بحيث تصبح القوة تابعة للسنن الخاصة، التى تتحكم فيها طبيعة الولاء، الولاء لله أو الولاء للكفار والشيطان؟. ثم ماهو مآل الأكثرية والأقلية فى الآخرة؟

إن الآيات التى بين أيدينا تفرض علينا معالجة الإشكالية فى فصلين، يتناول الأول مآل الأكثرية فى الدنيا وفى الآخرة، ويعالج الثانى مآل الأقلية فى الدارين، وسنعرف فى الفصل الأول كيف سيحيق الخسار بالأكثرية بحيث لا تنفعها كثرتها، كما سنعرف فى الفصل الثانى كيف سيصير الصالحون من الناس غرباء لقلتهم، وعندئذ سنضطر إلى التساؤل عن أسباب تلك الغربة، وسنتساءل عن قانون الغلبة؟ أهو يعتمد على مبدأ القوة؟ أم على مبدأ الكثرة؟ ومنه سنصل إلى مشكلة الغثائية لنبحث عن أسبابها المادية والروحية.

الفصل الأول

مآلات الأكثرية

لم يرد فى القرآن الكريم لفظ الأكثرية فى معرض الثناء إلا فى سورة واحدة حيث جمع بين أكثرية الساجدين وأكثرية الغافلين ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحج: ١٨]، والتعبير باللفظ هنا (كثير) لا يعنى الأغلبية، وإنما يعنى وجود عدد كبير هنا ووجوده هناك، فهو من باب القليل فى الكثير كثير، والكثير فى القليل قليل، ولذلك لم يأت بصيغة التفضيل (أكثر) وإنما جاء بصيغة المبالغة (كثير) والسبب فى عدم اعتبار السجود معيارا لبيان الأكثرية والأقلية هو عدم تعلقه دوما بالإرادة كما تبين الآية: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ [الرعد: ١٥]، فالذين يسجدون كرها هم المنافقون، والمنافقون كفار، لأنهم لم يسجدوا بإرادتهم وإنما سجدوا تظاهرا ورياء وربما تغليطا للمسلمين كما تَبيَّنَ فى أكثر من موضع من هذا البحث.

وعلى هذا فإن لفظ (الأكثرية) كان يرد دائما مقترنا بحال الكفار فى كل أفعالهم، فهل سيظل كذلك عند التعرض لمآل البشرية؟ ذلك ما ستكشف عنه النصوص القرآنية، والنصوص التى بين أيدينا هى:

١- ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يس: ٧].

٢- ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

٣- ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١-١٣].

٤- ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٥- ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

[التوبة: ٢٦]

هذه الآيات تكشف عن ثلاث مآلات للأكثرية، مآلان فى الدنيا وهما: مآل الأكثرية فى العقيدة، ومآلها فى الحكم استئصالاً أو استبدالا، ومآل فى الآخرة وهو دخولها جهنم.

* * *

• المبحث الأول : المآل العقدى للأكثرية

العقيدة هى الأفكار الأساسية التى تمثل مرجعية الإنسان فى كل سلوكه، فى تفكيره، وأسلوب معيشته، وفى حديثه وطريقة تعامله مع الخلق، فأعماله الصالحة، وأقواله الطيبة التى يرفعها الله إلى السماء (والكلم الطيب يرفعه) ناجمة عن الإيمان الحق، وفساده فى الأرض وعمله على نشر السوء من القول منبثق عن كفره وفساد تصوره.

ولما كانت الأكثرية – كما رأينا فى الباب الأول – قد غلب على عقيدتها الفساد، والكفر بنوعيه؛ كفر غيب، وكفر نعمة، وكانت العقيدة تتفاعل مع السلوك تأثرا وتأثيرا فإن هذا الأمر يطرح تساؤلا عن المآل العقدى للأكثرية، هل يمكن أن يتوبوا فتستقيم حال عقائدهم؟ أم سيمكثون ثابتين على ما كانوا عليه من كفر بالغيب أو بالنعمة، أو بهما معا، حتى يأتيهم الموت وهم غافلون؟

النص القرآنى الذى بين أيدينا ليدلنا على هذه الحقيقة هو قول المولى عز وجل: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يس: ٧]، قال قطب فى معنى الآية: «لقد قضى فى أمرهم، وحق قدر الله على أكثرهم بما علمه من حقيقتهم، وطبيعة مشاعرهم، فهم لا يؤمنون، وهذا هوالمصير الأخير للأكثرين، فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعاره»(١).

والتعريف فى القول للجنس، يبين أن هذا هو مآل الأكثرية، ثبت عليهم قول الله وسنته فى الأنفس، بأن من دام منهم على علاقته بأسباب الكفر، من مكابرة، وهجران للذّكْر، وعصيان لله ودوام على الفسق، لا يمكن أن يؤمِنَ، لابتعاده عن أسباب الإيمان، ومن ثم سيظل على ضلاله إلى أن يموت فيحق عليه العذاب.

والآيات التى تأتى بعد هذه الآية مباشرة فيها تعليل واضح لثبات الأكثرية على الضلال حتى يدركهم الموت، تمامًا كما حدث لأبى جهل الذى يذكر

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ / ٢٣ / ٢٩٥٩.

المفسرون أن هذه الآية نزلت فيه[1]، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ٧ - ١١].

فالآيات كلها بيان وتفسير وتفصيل للمجمل فى الآية الأولى، قال الزمخشرى: «مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له وكالجاهلين بين سدين لا يبصرون قدامهم وما خلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله»[2].

إن التشبيهين الموالين للآية الأولى يكشفان حقا عن معنى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، وذلك لأن التشبيه الأول يصورهم فى حالة المقمحين وهم الذين يرفعون رؤوسهم فلا يرون ما أمامهم، وفى ذلك دلالة على التكبر على أسباب الهدى، وهى الذكر والقرآن كما بينت الآية بعد ذلك ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾، أى أن الإيمان يطرق قلب من اتبع القرآن واستمع إلى الدعاة ليحصل له تغير فى التصور، ووعى فى العقل وإيمان فى القلب، وأنى يحصل ذلك لمن يتكبر عن الإنذار والتبشير؟ فهذا لا يحصل له الخير أبدا ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالإنذار لا ينفع فيهم، لأنهم ليسوا مستعدين لسماعه، أو الاستجابة لنداء أهله، وقد تكرر هذا المعنى فى سورة البقرة إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦ -٧].

---

(١) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ١٥/٧، الزمخشرى: الكشاف: ٣/٣١٦.
(٢) الكشاف: ٣/٣١٥.

فهذه الآية تأكيد للمعنى السابق وبيان لكون المآل الذى يؤول إليه الكفار من جهة العقيدة والتصور - إذا لم يتوبوا - إنما هو الثبات على الكفر، لأن قلوبهم وعقولهم صارت كالمختوم عليه بإحكام بحيث لا يتسرب إليها ما يغير حالها نحو الوعى الصحيح والفهم الراجح لأمور العقيدة وما ينبثق عنها من سلوك.

أما من عطل وسائل الإدراك كلها من عقل وسمع وبصر، فإن إبقاءه على ما كان من ضلال هو الحال الطبيعية للذات البشرية، إذ كيف يتغير وعيه وهو فاقد للسمع والبصر والعقل، لأن إرادته تمنعه من استخدامها أصلا، قال الزمخشرى: «إن الحق لا ينفذ فى قلوبهم ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، أو أسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم، أو أبصارهم لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كأنما غطى عليها وحجبت وحيل بينها وبين الإدراك»[1]، ثم قال: «وأما إسناد الختم إلى الله عز وجل ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** .. ﴾ فلينبه على أن هذه الصفة فى فرط تمكنها وثبات قدمها كالشىء الخلقى غير العارض، ألا ترى إلى قولهم فلان مجبول على كذا ومفطور عليه،ويريدون أنه بليغ فى الثبات عليه"[2].

وعلى الجملة فإن مآل الأكثرية من جهة العقيدة هو الثبات على الكفر والضلال، والسبب فى ذلك مكتسب من الأجواء النفسية والخلقية التى جعل الإنسان نفسه فيها، فكبلته العادات والتقاليد لتُشكل فى النفس سنة الجمود، إذ جعلت إرادته مفقودة فظل عبداً لأهوائه لا يلتفت إلى الحق وأسبابه الأساسية من قراءة كتاب الله وخطابه إلى خلقه، ومن وعظ المرشدين، وتدبر أحوال الناس من حوله فصار كالفاقد لآلات السمع والبصر والعقل، ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا**

---

(١) الكشاف ١/١٥٦.

(٢) الكشاف: ١/١٥٨ - ١٥٩.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فالأكثرية لا ينفع معها شيء إما لجمودها، وإما لتكبرها عن كل أسباب الهداية التى من شأنها أن تصلح العقائد والتصورات، ومن ثم ستبقى أضل من الحيوانات حتى تبلغ مآلها من جهة العذاب كما سيتضح من نص آخر فى مباحث أخرى، وهذا الجمود على الباطل يشمل الأفراد كما يشمل الجماعات كما تدل عليه الآية: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾

[الأعراف: ١٠١]

* * *

● **المبحث الثانى : مآل الأكثرية فى الحكم استئصالا أو استبدالا :**

إن الاستخلاف فى الأرض والتمكين فى الحياة الدنيا يقوم على سببين، سبب عقدى، وهو الإيمان بالله، وسبب عملى، وهو العمل الصالح، فهذان السببان هما مبررا الوجود الإنسانى وسر بقائه، فمن فَقَدَهما عرَّض نفسه إما إلى الاستئصال الربانى، وإما إلى السقوط الفردى الخلقى والاجتماعى أو السقوط الجماعى الحضارى ليستبدل بغيره ممن هو جدير بالقيادة، فالمسألة الحضارية لاعبثية فيها، إما أن تعمل الأمة وإما أن تسقط ليأخذ غيرها الدور إلى حين: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٣- ١٤].

وعليه فإن التساؤل المطروح هو: ما مآل الأكثرية من جهة الاستخلاف والتمكين فى الأرض أوالاستئصال والتدمير والهلاك؟

هل تنفع هذه الكثرة فى التمكين والتسلط على اعتبار أن الكثرة يفترض أن تمنح القوة التى هى سبب القهر والغلبة؟ أم أن للغلبة أسبابها الروحية كما أن لها أسبابها المادية؟

إن النصوص التى تكشف عن هذه الحقيقة كثيرة، بعضها يستخدم اللفظ الصريح الدال على الأكثرية، وبعضها يستخدم اللفظ الذى يوحى بذلك كاستخدام اللفظ (كم) التى من معانيها الكثرة المبالغ فيها، ومن هذه النصوص:

١- ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

فقد عبر عن الأكثرية هنا بالألفاظ: (قرون، كثير، كل) فضلا عن تكرار الأمم والشعوب والأقوام التى آل أمرها إلى الاستئصال: مثل قوم نوح، وعاد، وثمود وأصحاب الرس وما بينها من قرون.

٢- ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

فالأكثرية هنا معبر عنها باللفظ (كم) أى عدد كثير من القرى الظالمة قد قصمت.

٣- قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾ [طه: ١٢٨]، فالتعبير باللفظين «كم» «القرون» غرضه الدلالة على الكثرة.

٤- وقال عز وجل: ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: ٩٨]

فالتعبير بالاستثناء هنا لبيان قلة المنتفعين بإيمانهم قياسًا لكثرة الخاسرين بسبب كفرهم وظلمهم.

كل هذه الآيات تعبر بصور مختلفة عن ظاهرة بشرية واحدة وهى أن الأكثرية غلب عليها الشقاء فاستحقت الاستئصال؛ لأنها فقدت مبررات الوجود التى بينها قول الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... ﴾ [العصر: ١- ٣] وكان الخسران هو الأصل والاستثناء هو الفرع، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ يبين لماذا كان الأمر كذلك، إذ الأصل هوالعبادة، فإذا انعدمت أو قلّت فثمة خلل.

إن مآل البشرية فى الغالب هو الاستئصال أو السقوط الحضارى، ومن هنا كثر فى القرآن التعبير بالصيغ الدالة على ذلك مثل: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى وأمما وخلائق كثيرين كذبوا وأفسدوا فى الأرض فأهلكناهم وتبرناهم تتبيرا لما لم ينفع معهم الرسل فى الوعظ والتوجيه[١]، قال قطب: «والقرون الكثيرة بين

---

(١) صفوة التفاسير: ٢/٣٦٣.

ذلك كلهم لاقوا ذات المصير بعد أن ضربت لهم الأمثال فلم يتدبروا القول ولم يتقوا البوار والدمار، وهذه الأمثلة كلها من قوم موسى ونوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس والقرون الكثيرة بين ذلك، ومنها القرية التى أمطرت مطر السوء، وهى قرية لوط كلها تسير سيرة واحدة وتنتهى نهاية واحدة،.. وكانت عاقبة التكذيب هى التحطيم والتفتيت والدمار،والسياق يستعرض هذه الأمثلة ذلك الاستعراض السريع لعرض هذه المصارع المؤثرة وينهيها بمصرع قوم لوط وهم يمرون عليها فى سدوم فى رحلة الصيف إلى الشام، وقد أهلكها الله بمطر بركانى من الأبخرة والحجارة فدمرها تدميرا، وبقرر فى نهايته أن قلوبهم لا تعتبر ولا تتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث، ولا يرجون لقاء الله، فذلك سبب قساوة تلك القلوب وانطماسها ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم واعتراضاتهم وسخرياتهم من القرآن والرسل»[1].

والنصوص القرآنية التى عرضت لمآل الأكثرية كلها تفيد أن سبب الهلاك الذى آل إليه أمرها هو ما وقعت فيه من فساد فى العقيدة، وفى السلوك، وهو ما تعبر عنه الآية: ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً** ﴾ [الأنبياء: ١١]، قال ابن كثير: هذه صيغة تكثير[2] كما قال: ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا** ﴾ [الحج: ٤٥]، ومعنى الآية: عدد كثير من أهل القرى أهلكناها ودمرناها وقصمنا ظهرها فكسرناها كسراً شديداً، بسبب ما كانت تقترف من ظلم فى العقيدة، بأن كفرت بالله وأنعمه، وظلم فى الأرض، بأن أفسدت الحرث والنسل، فالظلم هنا مطلق وليس خاصا بالعقيدة كما ظن القرطبى[3] بدليل قوله بعد ذلك فى أسلوب استهزاء: ﴿ **ارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ** ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم[4]، قال المفسر الشيخ إبراهيم بيوض رحمه الله «كم للتكثير، أى ما أكثر القرى الظالمة التى قصمناها وقطعنا

---

(١) فى ظلال القرآن ٥ / ١٩ / ٢٥٦٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣ / ١٧٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٧٤.
(٤) نفسه: ١٥ / ٢٧٥.

دابرها واستأصلناها بأنواع من العذاب لأنها كانت ظالمة، ولأنها طغت وتجبرت وتعدت حدود الله وأعرضت عن كتاب ربها»[1].

وقد جمعت آية من سورة العنكبوت صورا متعددة للقرى التى تجاوزت حدود الله وفقدت مبررات الوجود بما بلغته من ظلم بمعناه المطلق فأنزل الله عليها عذابا فأهلكها، ولم ينج من ذلك إلا قليل، قال تعالى: ﴿ **وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٣٨ – ٤٠].

فالظلم بمعناه الواسع هو السبب فى استئصال هذه الشعوب، وهلاك هذه القرى، وزوال هذه الأمم والحضارات، ولكن الظاهر أن الظلمين معا هما السبب الأكيد الذى إذا عم أمة كان ذلك مؤشرا للزوال والهلاك، وقد يتبين ذلك بصورة واضحة من قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يونس: ٩٨] إذ دلت الآية على أنه لا توجد قرية آمنت بحيث يفيدها ذلك الإيمان فتستمر فى الوجود إلا قوم يونس عليه السلام.

ويتبين أيضا من قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ [القصص: ٥٨– ٥٩]، فدلت الآية على أن «بطر النعمة وعدم الشكر عليها هو سبب هلاك القرى»[2]، قال الألوسى: «أى وكثير من أهل قرية كانت

---

(١) الشيخ إبراهيم بيوض: فى رحاب القرآن: ٤ / ٢٩ نشر جمعية التراث – غرداية – الجزائر – مفسر جزائرى عاش فترة الاستعمار الفرنسى وفترة الاستقلال.

(٢) فى ظلال القرآن: ٢٠ / ٢٧٠٥.

حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واغتروا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرناها عليهم وخربنا ديارهم»(١).

ومن الواضح أن ما يتأمل كل النصوص التى وقفنا عندها فى مسألة مآل الأكثرية من جهة الاستئصال، يجد أن الآيات كلها تتضمن إشارة إلى أن أى استئصال يكون الهدف من التذكير به هو العبرة للأقوام الذين يأتون من بعدهم، ففى آية الفرقان نجده تعالى يختمها بقوله: ﴿ **وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ وفى سورة الأنبياء قال: ﴿ **وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ** ﴾، وفى آية طه قال: ﴿ **أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى** ﴾ وفى سورة القصص قال: ﴿ **فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** ﴾.

ولاشك أن الهدف من الاستخلاف بعد الاستئصال، والتمكين لأقوام بعد إسقاط آخرين، إنما هو الابتلاء للثانى ليعرف نفسه ما إذا كان قد حفظ الدرس وارعوى أم سيجرى عليه ما جرى للسابقين من أهل القرى، ويبين ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يونس: ١٣- ١٤]، فالهدف من الاستخلاف بعد استئصال الذين فقدوا مبررات الوجود النفسى أو الوجود الحضارى هو النظر فى أحوالهم أيؤمنون بعد كفر أولئك المستأصلين أم يتبعون خطاهم فيؤول أمرهم إلى ما آل إليه الأولون من الهلاك والقصم والتتبير، فالقاعدة الأساسية والسنة الاجتماعية هى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾.

قال الزمخشرى: «الخطاب للذين بُعث إليهم محمد ﷺ: أى استخلفناكم فى الأرض بعد القرون التى أهلكنا لننظر أتعملون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم»(٢).

---

(١) الألوسى: تفسير روح المعانى ٢٠ / ٩٨. (٢) الكشاف: ٢ / ٢٢٨.

والحق أن أى قراءة متأنية للتاريخ، تبين أن الأمم والشعوب ظلت علي عاداتها، فلم تستفد من حيث هى شعوب وأمم من التجارب التاريخية التى حملتها لهم آثار، بقيت دالة على الذين أهلكهم الله، ويأتى على رأس هؤلاء بنوا إسرائيل الذين تبين الآيات القرآنية جمود أخلاقهم وثباتها على حب الباطل والفساد على مر التاريخ مما يهدد دولتهم دائما بالاستئصال مهما قويت ماديًا لأن السنن تقضى أن يكون البقاء للأصلح لا للأقوى مهما أوتى من مدد فقال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤ -٨].

والقرآن الكريم يصرح بهذه الحقيقة ليستثنى أمة واحدة فقط، كادت أن تزيغ ثم استفاقت من غفلتها، فنجاها الله من الهلاك ما دامت مؤمنة، فقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨]، ذكر القرطبى أن يونس كان بين أظهر قومه يدعوهم إلى الإيمان تسع سنين فلم يستجيبوا فلما يئس منهم أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، وكانوا يعلمون صدقه فارتقبوه، فلما هجرهم وغادر أرضهم بنينوى أيقنوا أن العذاب قريب، فتابوا ودعوا الله مخلصين فتاب الله عليهم وكشف عنهم ذلك(١).

قال قطب: «حسْبُنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب مخز يتهددهم، فلما آمنوا فى اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب، وتُركوا يتمتعون

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/٣٨٩.

بالحياة إلى أجل، ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم وفاقا لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه، حسبنا هذا لندرك أمرين هامين:

أولهما: الاهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة فلعلهم ناجون.

وثانيهما: أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب... لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بانجائهم نتيجة لهذا العدول، فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها»[1].

ويمكن أن نضيف لذلك أمراً ثالثا وهو أن الأمم التى استفادت من تجارب مرة عاشتها الشعوب عبر التاريخ البشرى الطويل قليلة جداً منها قوم يونس، ولعل منها أمة محمد ﷺ فى فجر التاريخ الإسلامى حين قال تعالى فيها: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

أما بعد ذلك فإن المسلمين غفلوا عن هذه الحقيقة، فسلط الله عليهم الغرب فأذلوهم فى القرن التاسع عشر والعشرين إذلالا كبيراً، ثم لايزال الامتحان والابتلاء يجرى على يد كمشة من الإسرائيليين لا تزيد عن خمسة ملايين تقتل كما تشاء، وتضرب من تشاء، والشعوب العربية وحدها يزيد عددها عن ثلاثمائة مليون، لا يملكون أن يحركوا ساكنا عدا أطفال فلسطين الذين ثاروا ضد العدو بالحجارة، فكان العدو يرد عليهم من أجل القضاء على انتفاضتهم بالسلاح وأحيانا يقذفهم حتى بالطائرات، فقتل منهم فى أسبوع واحد ما يزيد على مائة وخمسين شخصا من الأطفال العزل الذين لا حول لهم ولا قوة، لمواجهة الحديد بالحديد، والرصاص بالرصاص، والأمة العربية لا تزيد على الاستنكار المحتشم فى لقاء الذل بشرم الشيخ تحت قيادة مصر وأمريكا فى نوفمبر من سنة ٢٠٠٠، بل إن بعضهم قد منع الشعوب حتي من المظاهرات التى تعبر عن الاستنكار لما يحدث فى فلسطين وأبناء فلسطين، خوفًا من إسرائيل وأمريكا أن تنزع من تحت السلاطين والرؤساء كراسى الملك الذليل.

---

(١) فى ظلال القرآن: ١٨٢١.

ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

هنا يطرح سؤال كبير: هل كانت إسرائيل تمثل الأقلية الصالحة لذلك غلبت، وكانت الأمة العربية تمثل الأكثرية الفاسدة لذلك انهزمت؟ أم أن وراء هذا الأمر سر أقوى من ذلك؟ وإذا كان هناك سر فما هو؟

فى الواقع يُفترض أن يُغلب بنوا إسرائيل لأنهم عاثوا فى الأرض فسادا، ولأنهم ظلموا وعلوا فى الأرض وتجبروا، فصدقت عليهم آيات سورة الإسراء تمام الصدق: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٤] ولكنهم غَلَبوا لسببين:

أولا: عدم وجود الأمة المؤمنة بأتم معنى الكلمة للأمة، أعنى بكل خصوصياتهم التى يأتى على رأسها وحدة الفكر ووحدة الشعور ووحدة الصف ووحدة الموقف.

ثانيا: وقوف أمريكا والدول الغربية وقفة واحدة لتدعيم إسرائيل مما جعلها لاتمثل الأقلية، بل صارت تمثل الأغلبية القوية بغيرها، وهذه الصفة ليست جديدة لقوله تعالى: ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١٢] فهم الآن الأقلية الممدوة بحبل من ناس الغرب الذين يمثلون أغنى وأقوى دول العالم المعاصر.

والغلبة فى الأساس تخضع لسنن الغلبة التى تحكمها القاعدة التالية: «الغلبة للأتقى فإن لم يكن بين المتقاتلين أتقى فللأقوى» وذلك لأن القوة التى لا تقهر هى تلك التى اعتصمت بحبل لا يقهر وهو حبل الله، ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فإن كانت الطائفتان المتصارعتان معتصمتين بحبل من الناس، فإن القوة ستأخذ مجرى السنن المادية التى تقضى بأن تكون الغلبة للأقوى، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٦].

وعلى هذا فإن إسرائيل لا تمثل الأقلية الصالحة، بل تمثل اليد التى تستخدمها القوة الغربية المهيمنة، لما تشعر به من ذل ومسكنة ضُربتا عليها وسلطتا عليها عقوبة بسبب الكفر وقتل الأنبياء بغير حق، وبسبب العصيان وكثرة الاعتداء على شرع الله وقانون الاجتماع البشرى.

وقد كانت إسرائيل وظلت تستنجد بالقوات العسكرية طول عهدها، فاستنجدت قديما بالفرس عندما غلبها البابليون، فمكثوا مائتى سنة تحت وصاية فارس (٥٣ - ٣٣ ق م)، ثم غلب عليهم المصريون وظلوا أذلاء حتي استنجدوا بالروم فأنجدوهم وبقوا من جديد تحت سلطتهم، فلما تمردوا عليهم أرسل قيصر الجيوش فى حدود سنة ٤٠م فخربت أورشليم وأحرق المسجد، ثم فرجت عليهم الدنيا فلم يحمدوا الله فسلط عليهم سنة ١٣٥ للميلاد الرومان من جديد فتفرقوا فى الأرض[١] ولم يعودوا إليها إلا بحبل من الناس جديد فى العصر الحديث وهو حبل بريطانيا وأمريكا فى البداية ثم الغرب كله فى النهاية.

ولاشك أن اليهود سيهزمون على الرغم من اعتمادهم حبلا من الناس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١١] وإنما لكى تتحقق هذه البشرى لابد من جيش مؤمن، وهذا لن يتحقق إلا فى ظل تربية إسلامية شاملة ترقى بالفرد والجماعة لمستوى المسئولية التى تصبح فيها قاعدة الغلبة هى: ﴿ **إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٥] وهذه القاعدة كما بينت الآية تقوم على الفقه، فقه قواعد الغلبة وأسسها الروحية والمادية، فالذين لا يفقهون هم الذين يُغلبون، وبمفهوم المخالفة يصبح الفقيه أقدر على الغلبة، وإنما غلب المؤمنون الكفار فى بدر لأنهم كانوا يفقهون سنن الغلبة، وخسروا شوطا فى حنين لما نسوا فقه الغلبة: ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا** ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير: ١٥ / ٣٨.

ومجمل القول: إن المآل الذى صار إليه أمر الأكثرية من جهة التمكين وعدمه إنما هو الاستئصال عن طريق الزلازل وقوى الطبيعة بأمر الله، أو الانهزام والسقوط الحضارى عن طريق الغلبة العسكرية.

والأسباب المؤدية لهذا المآل واحدة لا تتغير وهى إما الكفر بالنعم وما إلى ذلك، مما يبعث على البطر والجبروت، وإما العدوان والعتو فى الأرض والعمل على نشر الفساد، ويعبر عن هذا قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ** ﴾ [القصص: ٥٨ - ٥٩].

ولاشك أن حبل النجاة من التهلكة ممدود للأكثرية والأقلية على حد سواء، ولكنه محكوم بقاعدة الفقه الصحيح لسنة الله فى الاستخلاف. قال ابن خلدون: «الملك والسياسة إنما كانا - للإنسان - من حيث هو إنسان؛ لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان، فإذا خلال الخير فيه هى التى تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة»(١)، وقال: «إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال فى انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم»(٢).

وبناء على كل ذلك نستطيع أن نعرف لماذا لا يستقر الملك لبنى إسرائيل، فهم بما وضع الله فيهم من خلق الترف نتيجة حب المال أكثر من أى شعب آخر، وحرصهم على جمعه فإنهم سرعان ماتتدهور أحوالهم الخلقية مما ييسر ويمهد الطريق للتدهور السياسى، الذى ينجر عنه تحلل فى شبكة العلاقات الداخلية اجتماعيًا أولا ثم سياسيًا واقتصاديًا فيسرع إليهم الإفلاس وتسقط دولتهم نتيجة

---

(١) المقدمة: ١/٢٥١.
(٢) نفسه: ١/٢٥٢ - ٢٥٣.

ذلك، فتلك سنة الله فى خلقه، ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣].

هذا فى حالة الاستقرار السياسى، الذى يبنى على الدعم والترف أما إذا كان الأمر على غير ذلك، وظهر التدافع فى الوسط السياسى فإن عمر الدولة قد يطول لوجود أسباب ذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠] ففى مثل هذه الحال يصبح سبب الزوال هو التدافع الذى يتم بنصر الله لمن ينصر دينه ولا يكون خائنا كفورا ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ [الحج: ٣٨]، وسيأتى بيانه من بعد فى موضعه من هذا الباب.

* * *

● **المبحث الثالث : مآل الأكثرية الأخروى :**

النص القرآني الذى يحدد مآل الأكثرية الأخروى بلفظ صريح هو قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

من معانى اللفظ « ذرأ » كثر وخَلَقَ، وعلى هذا فإن معنى الآية، ولقد خلقنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، وقد يكون المعنى ولقد كثرنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، وعلى المعنى الأول يكون القصد التهيئة والإعداد، قال ابن كثير: « خلقنا وجعلنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، أى هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده »(١) والذى يفهم من العبارة : ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ أن الذين هيأهم المولى تبارك وتعالى لجهنم كثير، ولكن ليس فى هذه العبارة ما يبين أنهم يمثلون الأغلبية لذلك سنبحث فى آيات أخرى عما يبين ذلك، ففى قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٣] ما يشير إلى أن الأكثرية مآلهم جهنم، ذلك لأن الآية التى سبقتها تضمنت الإشارة إلى أن الشيطان سيعمل على أن يغوى الناس أجمعين إلا المخلصين من عباد الله . ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠] .

وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى حكاية عن الشيطان : ﴿ **ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧- ١٨]، فقوله ﴿ **وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ دل على أن الأكثرية

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٢ / ٢٦٨ .

كافرة، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بين المآل الذى ستصير إليه هذه الأكثرية التى لم تشكر الله، ولفظ (لأملأن) بدلالته المعجمية وصيغته التوكيدية يكشف عن هذه الأكثرية التى يأتى لفظ التوكيد (أجمعين) لبيانها.

ومما روى من الأحاديث الشريفة التي تبين مآل الأكثرية شرحا لهذه الآيات ما جاء فى مختصر التذكرة القرطبية فى باب: أمة محمد ﷺ شطر أهل الجنة وأكثر إذ قال: «روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: يا آدم فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول: أخرج بعث النار فقال يارب وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال فذلك حين يشيب الوليد وتضع كل ذات حمل حملها.. قال أبو سعيد الخدرى فاشتد ذلك عليهم، فقالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل؟ فقال أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم رجل، ثم قال والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا ثلق أهل الجنة، فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم فى الأمم كمثل الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود أو كالرقمة فى ذراع الحمار»[1].

فانظر إلى النسبة التى يحددها الرسول ﷺ، إنها تسعمائة وتسعة وتسعين فى الألف مآله النار، وواحد فى الألف يؤول إلى الجنة، أى (٩٩,٩ / ١٠٠) فى النار مقابل (٠,١ / ١٠٠) فى الجنة، ولكى يبين النسبة أكثر عمد إلى التشبيه الحسى فقال: «إن مثلكم فى الأمم كمثل الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود أو كالرقمة فى ذراع الحمار».

إن هذه النسبة هى النسبة التى تحدد أهل النار، وتبين أنها الأكثرية المطلقة، وإنما يذهب إلى النار بهذه النسبة (يأجوج ومأجوج)، وهذا النعت يبدو أنه صفة لكل أمة لا تفقه المعالم التى وضعها الله كأسس للحياة لتكون معبرا للنجاة فى الآخرة.

---

(١) القرطبى: مختصر التذكرة القرطبية ص ٧٥ ط ١ المطبعة الخيرية المصرية.

ولاشك أن الأحاديث التى تشير إلى النسبة التى تمثل الأكثرية التى يؤول أمرها إلى جهنم كثيرة منها قوله ﷺ: «رأيت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن»[1]، وعن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[2].

والآن هل تحدد الآيات والأحاديث النبوية العلة فى كون مآل الأكثرية إلى النار؟ ولماذا يكونون من يأجوج ومأجوج؟ ومَن يأجوج ومأجوج؟ وما سر أكثر أهلها النساء؟

فى الحقيقة من الناحية المنطقية إذا كنا قد وجدنا فى بحثنا كله أن الأكثرية دائما فى الموقف السلبى؛ فأكثرهم للحق كارهون، لا يعقلون ولا يعلمون ولا يفقهون، وأكثرهم من ثم فاسقون، يسيئون العمل ولا يصلحون، يعيشون بلا عهد، يأكلون أموال الناس بالباطل، يتولون الذين كفروا ويستكثرون منهم، إذا وجدنا ذلك كذلك فإن النتيجة هى أن يكون مآل الأكثرية النار وبئس المصير لهذه الأسباب وغيرها مما فصلناه فى البحث.

ولكن مع ذلك فإننا سنعتمد هنا على تكملة الآية التى كنا بصدد تحليلها لنقف على التعليل الذى يقدمه القرآن لمآل الأكثرية، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾

[الأعراف: ١٧٩]

فالعلة فى كون مآل الأكثرية هو جهنم يكمن فى مسألة أساسية وهى تعطيل وسائل الإدراك الثلاثة. القلب أو العقل والسمع والبصر، وبمعنى آخر لقد أصيبوا بالغفلة المطبقة ﴿**أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ قال الزمخشرى: «هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أن لا لطف لهم، وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم

---

(١) فتح البارى: ١/ ٨٣.

(٢) الترمذى: الجامع الصحيح: ٤/ ٦١٧ - رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.

إلى معرفة الحق ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الآذان وجعلهم لإغراقهم فى الكفر وشدة شتائمهم فيه، وأنهم لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار، دلالة على توغلهم فى الموجبات لها وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار»[1].

هذه الآيات إذن تبين الأسباب الحقيقية التى جعلت الأكثرية من بنى البشر تؤول إلى جهنم - أعاذنا الله منها ومن أسبابها - ولكن هناك حقائق أخرى ذكرت في الأحاديث تتعلق بالنسبة المئوية داخل النار نفسها وهى ارتفاع نسبة يأجوج ومأجوج فى النار، ونسبة النساء من أهل النار على نسبة الرجال من أهلها، وارتفاع نسبة الأغنياء على نسبة الفقراء.

أما الحديث الأول الذى يبين أن أكثر أهل النار من يأجوج ومأجوج فإن المفسرين يذكرون أنهما أمتان تمثلان عشرة أجزاء البشرية وبقية البشرية تمثل جزءا واحدا[2]، وأن سلوكهم سيىء جدا لدرجة أنهم يتسافدون حيث التقوا تسافد البهائم، وأنهم نتيجة كثرتهم وعدم انتظام تسافدهم فإنهم سيمثلون أكبر نسبة بشرية على وجه الأرض، ويستنتج الطبرى من ذلك أنهم سيجلون أهلها عنها ويفسدون فيها كثيرا[3].

أما الحديث الثانى الذى يبين أن أكثر أهل النار من النساء، فإنه يعلل ذلك بقوله ﷺ «يكفرن» وهذا الحديث له صيغة أوضح وردت فى صحيح البخارى هى: «عن ابن عباس، قال النبى ﷺ: أُريتُ النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، يكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط»[4] ووردت

---

(١) الكشاف: ٢ / ١٣١ - دار المعرفة بيروت.

(٢) زاد المسير: ٥ / ١٩٠.

(٣) تفسير الطبرى: ١٦ / ١٩.

(٤) صحيح البخارى: ١ / ١٥ / كتاب الإيمان باب كفران العشير.

فى الجامع الصحيح للترمذى جاء فيها: «قال – رسول الله ﷺ – يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر أهل النار، فقالت امرأة منهن: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال لكثرة لعنكن، يعنى وكفر كن العشير»(١).

فالحديث يبين العلة التى بسببها كانت النساء أكثر أهل النار، وهى كفران العشير وكثرة اللعن.

وأما الحديث الذى يبين النسبة بين الفقراء والأغنياء فهو الذى ينص بقوله ﷺ: «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء» وبمفهوم المخالفة يفهم أن أكثر أهل النار بالمعيار المالى هم الأغنياء، ولكن ليس بالمطلق وإنما المترفون منهم كما بين ذلك القرآن فى غير موضع، وقد بينا سبب كون المترفين ميالين إلى الظلم والطغيان والفسوق مما يجعل مآلهم هو النار، عند تحليل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦]، وقوله: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٤] وقوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ [سبأ: ٣٤] وقوله عز من قائل: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [هود: ١١٦].

فهذه الآيات كلها تبين دور الترف فى حصول الانحراف العقدى والأخلاقى، وقد جاءت كلها فى سياق الحديث عن الأكثرية بأى صيغة من الصيغ التى مرت بنا، فآية الإسراء سبقت قوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٧] وآية المؤمنين سبقت قوله تعالى: ﴿ **بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وآية سبأ جاءت قبل قوله عز وجل: ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ [سبأ: ٣٥]، أما آية هود فقد كانت مرتبطة بقوله عز وجل: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ**

---

(١) الجامع الصحيح ٥ / ١١

الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦].

فالعلاقة بين الترف والظلم والإجرام والتكبر والغرور وكره الحق والاقدام على الفساد فى الأرض واضحة فى النصوص، وواضحة فى الحياة بحيث يمكننا أن نعدها سنة من السنن الاجتماعية، وقديما قال ابن خلدون: «ومن مفاسد الحضارة أيضا الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف، فيقع التفنن فى شهوات البطن... ويتبع ذلك التفنن فى شهوات الفرج.. فيفضى ذلك إلى فساد النوع... إن غاية العمران هى الحضارة والترف وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ فى الهرم.. بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هى عين الفساد»(١)، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(٢).

ومجمل القول أن مآل الأكثرية الأخروى هو الجحيم، والسبب الجوهرى فى ذلك هو غياب الفقه والعلم – غالبا – فى الوسط الاجتماعى والثقافى للبشرية، مما يشجعهم على انتهاك حرمة الشرع جهلا بحدوده، وإنما غاب عنهم الفقه الحق بسبب تعطيلهم للمدارك الثلاثة، حتى صاروا أضل من الأنعام **﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾**.

وقد بينت الأحاديث أن الأكثرية التى فى جهنم تصنف باعتبار اختلاف الأسباب إلى طوائف، فمن حيث الفكر أكثر أهلها يأجوج ومأجوج، وهما أمتان لادين لهم يردعهم عن الكفر والفساد وهؤلاء يمثلون ١٠ / ١١، وبقية البشرية تمثل ١ / ١١، ومن حيث الجنس أكثر أهلها النساء لكفرهن العشير، ومن حيث

---

(١) المقدمة: ٢ / ٦٦٥ – ٦٦٦.

(٢) الجامع الصحيح ٤ / ٥٥٢.

المكانة الاجتماعية، أكثر أهلها الأغنياء بسبب ما يدفع إليه الترف من فساد فى الأخلاق ينجر عنه الظلم والإجرام الذى يسوق إلى جهنم.

وبهذه الخلاصة نعرف أن المآل الذى آل إليه الأكثرية هو الثبات على الكفر عقيدة، والتعرض للاستئصال والسقوط الحضارى تاريخًا، ودخولهم جهنم فى الآخرة كنتيجة للمآلين السبقين، والأسباب تكاد تكون واحدة وهى التمسك بأسباب الجاهلية من هجر لكتاب الله، وإقبال على الفجور والظلم بمعناه المطلق.

* * *

الفصل الثانى
مآلات الأقلية الدنيوية والأخروية

● **توطئـــة:**

قـال رسـول الله ﷺ فى حـديـث الغـرباء: «إن هذا الدين بدأ غـريبـا وبرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى»[1]، الذى يهمنا من هذا الحديث هنا هو مدلول عبارة (طوبى للغرباء) لأن الغربة التى يتحدث عنها الحديث هى الغربة الروحية التى يشعر بها المرء الصالح فى الوسط الموبوء، وهذا لن يكون إلاعندما تكون الأكثرية قد تجاوزت حدود الشرع وانتشر الفساد وصار الإصلاح موقوفا على الأقلية من الناس فيصبح من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر غريبا بين أهله وبين جلدته.

هذه هى الحال التى يكون الدين فيها غريبًا كما بدأ غريبًا، وتصبح هذه الأقلية بمثابة قناديل فى الظلام الدامس فتستحق التبشير الذى أشار إليه الحديث بقوله ﷺ «فطوبى للغرباء».

ومن هذا نستنتج أن مآل الأقلية هو دار الفردوس الأعلى، وربما لذلك قال سفيان الثورى: «اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله»[2] لأن الإنسان فى مثل هذه الظروف النفسية قد يحس بالغربة والوحشة فينساق لهذه التأثيرات النفسية وينحاز عن الجادة لقلة من يدعو إليها فيهلك بميله إلى الأكثرية.

والنصوص القرآنية التى تعالج مآل الأقلية ستكشف عن أوجه مختلفة من أوجه الخير العاجل والآجل، منها:

---

(١) الترمذى: الجامع الصحيح ٥ (كتاب الإيمان) ص١٩ رواه الترمذى وقال حسن صحيح.

(٢) الشاطبى: الاعتصام ص٢٦ تصحيح وضبط أحمد عبد الشافى – دار شريفة – الجزائر – دت

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

٢- وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء ٥٢ - ٥٩].

٣- وقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠ -١٦].

فهذه النصوص تشير إلى مآل الأقلية فى الدنيا وفى الآخرة، فيشير الأول إلى الأقلية التى ستكون من المؤمنين الصالحين لتحقيق العدل والقسطاس المستقيم وقليل ماهم، لأنها الفئة التى تحقق العدل وتحارب البغى، والثانى إلى أن أغنى الجبابرة يصرح بأن أتباع النبى موسى عليه السلام هم الأقلية، فهم ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾، والثالث يبين أن مآل الأقلية فى الآخرة هو الجنة التى لا يدخلها إلا ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾.

ولاشك أن النصوص التى تعالج المآل بصفة عامة كثيرة وقد اكتفينا هنا بالنصوص التى تتضمن الدلالة الصريحة لمآل الأقلية.

وما دامت النصوص تشير لثلاث قضايا أو أحوال منها اثنتان تتحدثان عن المآل فى الدنيا وواحدة فصلت الحديث فى المآل الأخروى لهذه الفئة فإننا سنعالجها فى مبحثين، يخصص الأول للمآل الدنيوى والثانى للمآل الأخروى، وبذلك سيتبين لنا أن الغرباء سيفلحون إن آجلا أوعاجلاً، إنما عليهم أن يفقهوا السنن بشكل واضح حتى يقاوموا ويصبروا أمام المحن حتى يتحقق لهم الانتصار.

* * *

● المبحث الأول : مآل الأقلية الدنيوى صلاحا وتمكينا :

النصان اللذان سنعتمدهما هنا بصورة أساسية يختلفان اختلاف تكامل من حيث القضايا التى يطرحانها، فالأول يعالج مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح والثانى يعالجه من جهة اعتراف العدو للأقلية بحنكتها على قلتها بحيث تغيظه وتخيفه حتى ليحذر بطشها، وترتبط هذه الفكرة بالاستخلاف فى الأرض لهذه الأقلية واندحار الأكثرية وانهزامها.

وعلى هذا فإنه من اللائق منهجيا أن نقسم هذا المبحث إلى عنصرين يتناول الأول مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح، ويتناول الثانى مآل الأقلية من جهة التمكين والغلبة والاستخلاف:

* * *

● المطلب الأول : مآل الأقلية من جهة العدل والصلاح :

العدل قوام الحضارات وعنوان التقدم ومؤشر استمرار الدولة، والظلم يؤذن بسقوط الدول وفناء الشعوب وفساد الأخلاق، والنص الذى بين أيدينا لمعالجة ذلك هو قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ [ص: ٢٤]، فعبارة الآية فى مجملها تلخص مشكلة العدل والبغى، وتجعل العدل صفة لسلوك الأقلية والبغى صفة لسلوك الأكثرية، والعبارة: ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ للدلالة على أن المؤمنين الصالحين الذين يعدلون حقا قلة، ولهذا جاءت الصيغة بهذه الصورة «للإبهام وفيه تعجب من قلتهم»[١]، والقصد الأساسى من الآية هو «الترغيب فى إيثار عادة الخلطاء الصلحاء الذين حكم لهم بالقلة، وأن يكره إليهم الظلم والاعتداء الذى عليه أكثرهم مع التأسف على حالهم، وأن يسلى المظلوم عما جرى عليه من خليطه وأن له فى أكثر الخلطاء أسوة»[٢].

ومعنى ذلك أن مآل الأقلية فى الدنيا هو السعى الجاد لتحقيق العدل بين البشر، وأن هذه الأقلية التى تحقق ذلك فعلا إنما هى التى تجمع بين صفتى الإنسان الكامل الذى يليق برسالة الاستخلاف فى الأرض، وهما الإيمان والعمل الصالح،

---

(١) الكشاف: ٣/ ٣٧١.

(٢) الكشاف: ٣/ ٣٧١.

فالذين تجتمع فيهم هاتان الصفتان هما المؤهلان للحكم بين البشر وقيادته، ولذلك استثناهم من الأكثرية التي يغلب عليها طابع الظلم والجور فقال: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾، فالتذييل بقوله ﴿ **وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** ﴾ حث للناس أن يكونوا من المؤمنين الصالحين لما هو متقرر في النفوس من نفاسة كل شيء قليل(١).

ولما كانت الآية قد وردت في سياق الاستخلاف والقضاء والحكم إذ جاء بعدها قوله: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ [ص: ٢٦] فإن القصد هو بيان أن مآل الأقلية هو الاستخلاف في الأرض، لتوفر مبررات ذلك وهي الإيمان والعمل الصالح، وهما العاملان اللذان رشحا داوود عليه السلام لمهمة القضاء والحكم بين الناس بالحق، بعيداً عن الأهواء والنزوات التي من شأنها التضليل عن الاحتكام إلى شرع الله وسبيله الذي اختاره لعباده وشَرَّعه لهم، قال ابن عاشور: «فرَّع على جعله خليفة أمره بأن يحكم بين الناس بالحق للدلالة على أن ذلك واجبه وأنه أحق الناس بالحكم بالعدل، ذلك لأنه هو المرجع للمظلومين، والذي ترفع إليه مظالم الظلمة من الولاة فإذا كان عادلاً خشيه الولاة والأمراء، لأنه ألف العدل وكره الظلم فلا يقر ما يجري منه في رعيته كلما بلغه فيكون الناس في حذر من أن يصدر عنهم ما عسى أن يرفع إلى الخليفة فيقتص من الظالم، وأما إن كان الخليفة يظلم في حكمه فإنه يألف الظلم فلا يغضبه إذا رفعت إليه مظلمة شخص ولا يحرص على إنصاف المظلوم»(٢).

والآن هل الأصل في البشرية حب الظلم لذلك قال ﴿ **وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾؟ أم أن الأصل والفطرة حب العدل، وإنما ذهب ذلك من النفوس بذهاب الإيمان والعمل الصالح اللذين من شأنهما الحفاظ على سواء الإنسان واستقامة بنيته النفسية ومنطقه في الحياة وشؤونها كلها، فلم يبق

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٣٦.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٣ / ٢٣٧.

من الخلق على السوية إلا قليل لذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؟ وإذا كان الأمر على الاحتمال الثاني فما سر انقلاب الإنسان على وجهه وسقوطه هذا السقوط الذي أفسد عليه جمال الحياة فجعلها ظلما وزورا؟

يرى ابن عاشور أن «السبب في ذلك من جانب الحكمة أن الدواعي إلى اللذات الدنياوية كثيرة والمشي مع الهوى محبوب ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهو الدين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني، وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلة في هذا الحكم بالقلة، وزيادة (ما) بعد (قليل) لقصد الإبهام.. وفي هذا الإبهام إيذان بالتعجب من ذلك بمعونة السياق والمقام»(١).

ولاشك أن تاريخ الإسلام يقدم لنا نموذجا حيا لهذه الأقلية التي استحقت الاستخلاف لتوافر شروط ذلك فيها على أقلية عددها وضعف عدتها، وقد بلغت هذه النماذج شأوا بعيدا في زمن الرسول ﷺ حتى وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وعقب على ذلك بما يشير إلى المقارنة بين المسلمين زمن الرسول ﷺ وأهل الكتاب فقال: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٢).

وعلى الجملة فإن مآل الأقلية من جهة العدل في القضاء هو الاستخلاف في الحكم والقضاء لقيام الاستخلاف على العدل والصلاح، وقيام هذين على الإيمان الحق. وهناك جانب آخر مهم في مآل الأقلية وهو دخولهم في الصالحين ليستقيم حالهم وتطمئن نفوسهم ويطيب لهم العيش لانسجامهم مع الأجواء الجديدة المناسبة لأجوائهم النفسية والفكرية والثقافية والسلوكية، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، هذا فضلا عن راحة الضمير.

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣ - ٢٣/ ٢٣٧.

(٢) نفسه.

● **المطلب الثانى : مآل الأقلية من جهة الغلبة والتمكين والاستخلاف :**

للغلبة قوانينها التى تفرضها طبائع البشر وموازين القوى، وللاستخلاف سننه الروحية التى تتحكم فيها إرادة الله، وسنقف عند هذه الظاهرة التى تتحكم فى حركة التاريخ من خلال النص التالى، لبيان حركتها فى ضوء مشكلة الأقلية والأكثرية، إذ كثيرا ما يتوهم الناس أن الغلبة تتحكم فيها القوة وأن القوة ناجمة عن الأكثرية، فى حين أن حركات الأنبياء والرسل فى التاريخ تبين أن قانون الاستخلاف والتمكين والغلبة لا يخضع لقاعدة القوة بذلك الفهم الواهم إذ أن القوة ليست وليدة الكثرة والغثائية كما سيتبين من بعد.

أن النص الذى سنعتمده فى دراسة هذا الموضوع هو قول الله تعالى :

١- ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء: ٥٢- ٥٩].

٢- ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٢٦].

٣- ومع النصين السابقين سنعتمد الأحاديث الشريفة، فنحن مضطرون لإتمام الموضوع - إلى اعتماد حديث الغثائية للإجابة عن قضية كبرى وحقيقة استراتيجية فى مشكلة الغلبة وعلاقتها بالأقلية والأكثرية، فقد روى عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال: قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السبيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل فى قلوبكم الوهن، قال: قلنا وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت؟[1]، كما سنحتاج إلى وقفة عند ظاهرة الاستكثار لصف العدو

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند ٥ / ٢٧٨ دار صادر بيروت.

جهلا بدور الحرب النفسية فى قانون الغلبة، مما يفرض استثمار الحديث الشريف: «عن أبى الأسود قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة فأخبرته فنهانى أشد النهى، ثم قال أخبرنى ابن عباس: أن ناسا من المسلمين كانوا من المشركين، يكثّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتى السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧]»(١).

من خلال هذه النصوص نجد أنفسنا أمام مجموعة من القضايا المرتبطة بمآل الأقلية من جهة الغلبة والاستخلاف، فى مقابل مآل الأكثرية من جهة الانهزام والاستئصال. فنحن أمام قضية الرؤية التى ينطلق منها الكفار بالنسبة لقانون الغلبة، ثم بيان الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى الذى لم يكن بالحسبان فى الرؤية الأولى، ثم التفسير النبوى لظاهرة الغثائية، ثم التنبيه على خطر ظاهرة استكثار صف الكفار.

(أ) الرؤية التى ينطلق منها الكفار فى تحليل قانون الغلبة وسننها:

عند تدبر قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء ٥٢ – ٦٧].

عند تدبر هذه الآيات تتبين لنا الرؤية التى ينطلق منها الكفار بالنسبة لقانون الغلبة، فهم يجهلون دور الغيبة فى مسألة الغلبة، ومن ثم لا يوظفون فى

---

(١) صحيح البخارى كتاب الفتن رقم ٧٠٨٥ – ج٤ ص٣٦٢.

رؤيتهم كل العناصر المتحكمة فى هذا القانون، لقد وظف فرعون هنا «مبدأ الأكثرية» فقط كعنصر حاسم فى العملية الحربية، لذلك أرسل عيونه لجمع القوات الكثيرة من كل حدب وصوب ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ ولفظ (حاشرين) مع لفظ (المدائن) هكذا بصيغة الجمع تفيد أن الكثرة عنده هى العنصر الحاسم فى عملية المغالبة، لقد أمر «بما يسمى التعبئة العامة، وأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجنود ليدرك موسى وقومه ويفسد عليهم تدبيرهم»(١).

وتكتمل هذه الرؤية عندما نراه يهوِّن من شأن قوم موسى ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ فهم من منظور معياره ليسوا مرشحين للغلبة لأنهم ليسوا أكثر من شرذمة، والشرذمة فى اللغة القليل من الناس غير المترابطين، وفى ذلك إيحاء بالتقليل من شأنهم من جهة الاستعداد القتالى، ويؤكد بلفظ (قليلون) أقلية جيش موسى.

(ب) الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى: لا شك أن هذه الرؤية غير سليمة، إذ أن العبرة ليست بالكم إنماهى بالكيف، وحتى الكيف ينبغى أن يدخل فيه العنصر الروحى والجانب الغيبى كى تكتمل المعادلة، فلا يكفى الاستعداد التقنى، بل لابد من التعبئة الروحية، الإيمان الذى يجعل الانتصار حتمية تاريخية، لأنه يدخل عندئذ فى السنن، كما بين ذلك القرآن فى مواطن كثيرة، كما فى قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فالآية هنا تعدِّل الرؤية لتبين أن قانون الغلبة يخضع لحتمية روحية «لا يملك فرعون أسباب رؤيتها، لأن رؤيته تتوقف فقط عند العلم بالظاهر ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم: ٧]، ولا يعرفون معنى لمعية الله.

ثم إن القرآن الكريم يبين أن التركيز على عنصر الكم فى الغلبة غلط فاحش

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥/١٩/٢٥٩٧.

في الرؤية حتي عند المسلمين في أوج قوتهم، فيقول مصححا هذه الرؤية: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥- ٢٦].

لقد كان المسلمون يظنون - فى لحظة غفلة - أن الغلبة قائمة على الكم، فاغتروا بالعدد والكثرة حتى قال أحدهم «لن نغلب اليوم من قلة»(١) فكانت النتيجة هى الانهزام الذى جعل الأرض سعتها تضيق عليهم من شدة ما يرون من بطش الأعداء، وترتب على ذلك الهروب ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ لقد «زل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ كلهم مكة وبقى رسول الله وحده».

ولكى تتم الصورة الحقيقية للرؤية السليمة بَيَّن أن دخول عنصر الروح فى معادلة الغلبة قد غير نتيجة المعركة جذريا ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾.

إن الغلبة كانت فى النهاية بالأقلية التى ثبتت مع رسول الله ﷺ، تلك التى ذهب عنها الغرور واعتمدت دور العنصر الغيبى والروحى فى الغلبة.

والأمر نفسه كان قد حدث فى المعركة الفاصلة بين سيدنا موسى وفرعون، إذ كانت النتيجة هى خيبة أمل فرعون فى كل تلك العدة التي أعدها لمغالبة شرذمة قليلة على حد تعبير القرآن عن رؤيته، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

والغريب أنه كما وقع بعض المسلمون فى خطأ إدراك معادلة الغلبة فظنوا أنها تخضع لمبدأ الكثرة، أخطأ كذلك بنو إسرائيل فى تقديرهم، فصحح لهم موسى عليه السلام رؤيتهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ

---

(١) الكشاف: ٢/١٨٢.

اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٦] «وقعت المعجزة وتحقق الذى يقول عنه الناس المستحيل، لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرر، والله الذى خلق السنن قادر أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد»(١).

تلك هى القاعدة الأساسية التى تحكم معادلة قوانين الغلبة في الصراع إذ ليست المعادلة قائمة على عنصرى العتاد والعدة بحيث نقول:

(عتاد + عدة = غلبة)

فهذه المعادلة غير صحيحة فى الرؤية الإسلامية إنما الصحيح هو المعادلة التالية:

(عتاد + عدة + العامل الروحى = الغلبة والقهر)

وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥].

ويؤكد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فهذه الآية ترسم مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف، ثم تبين النهاية فإذا هى النصر الناجم عن الغيث الربانى، فالله هو الذي آواهم ونصرهم وهم قليل مستضعفون فى الأرض لكنهم صاروا قاهرين بتأييد الله.

وهذا العامل الروحى شديد الوطأة فى معادلة الغلبة لدرجة أنه يدخل كما رأينا – فى تحليل قطب – فى دائرة المعجزة، لكونه يكون خارجا عن الحسابات الظاهرة فى قوانين الغلبة، فلا يدركه إلا قلب قوى الإيمان، شديد التوكل على الله، قلب يعرف معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠]، ولهذا العامل صور يظهر عليها، منها إلقاء السكينة فى

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥/١٩/٢٥٩٨.

قلوب المؤمنين كما رأينا فى تاريخ غزوة حنين، ومنها بث الرعب في قلوب الكفار كما يبين قوله تعالي: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [الأنفال: ١٢]، قال الزمخشرى: «لا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة»(١).

تلك هى الحقيقة الساطعة فى رؤية الإسلام لقانون الغلبة، وتلك هى المعادلة التى يقوم عليها الوعى الصحيح لهذا القانون، وكنا قد رأينا خطأ فرعون فى تقدير أطراف المعادلة وتبين لنا كذلك كيف كان تقدير المؤمنين حينما يكون الحس الظاهر هو الرقم الاعتبارى فى المعادلة، وكيف وقع قوم موسى فى الخطأ ثم تبين لهم وجه الحقيقة بعد النجاة، ثم كيف وقع المسلمون فيه ثم انكشف لهم فى المعادلة بعد الثبات النبوى ومن معه فى حنين، وبذلك عرف أن الكثرة قد تكون غثاء، وهو ما سنراه.

* * *

(١) الكشاف: ٢/١٤٨.

● **المبحث الثانى : التنبيه على خطرى الغثائية والاستكثار**

● **المطلب الأول : التفسير النبوى لظاهرة الغثائية :**

إذن بقى التساؤل الآتى : هل معنى ذلك أن الكثرة لا قيمة لها مطلقا؟

إن لدينا فى النص الأساسى العبارة ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء : ٦١] . إذ تعبر عن استخدام التقدير الحسى فى قوانين الغلبة، فقوم موسى خائفون من أن تدركهم الحشود الفرعونية، التى لا طاقة لهم لمغالبتها فى رؤيتهم الحسية، ومعنى ذلك أنهم لم يعرفوا أنهم لا يُدركون أصلا، فكيف يغلبون؟ وبمعنى آخر إنهم لم يعرفوا أن هذه الكثرة الفرعونية الطاغية ليست سوى غثاء كغثاء السيل، لا تمثل العنصر الفعال فى معادلة الغلبة، وهو ما يبينه قول الله تعالى : ﴿ **وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، فالكثرة لا تنفع شيئا أمام الإيمان المؤيد بنصر الله، بل إن الاعتماد على مبدأ الكثرة يبعث على الغرور الذى يجر إلى الهزيمة النكراء، ومن هنا كان القرآن يحذر من هذه الرؤية القاصرة بقوله : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال : ٤٧ – ٤٨] فالآية تصحح الرؤية، بالنهى عن الخروج القائم على الغرور والبطر الناجم عن الشعور بأن الكثرة هى العامل الحاكم فى المعركة، كما أوهمهم الشيطان حين قال لهم ﴿ **لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ** ﴾، والعجيب أنه بعد ذلك، وبعد أن وقع الكفار وأتباعه فى الفخ، ﴿ **نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ** ﴾ لقد تبين من كلامه أنه قد رأى العنصر الفعال فى معادلة الغلبة، ولذلك نكص على عقبيه، بينما بقى الكفار فى الأجواء الوهمية القائمة على الرؤية الحسية وحدها[1]، وهى رؤية يصدق عليها قول الشاعر الحكيم :

---

(١) الكشاف ٢ / ١٦٢ .

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فى من شحمه ورم

نعم هناك كثرة ضمن الإعداد الشامل للمعركة بين الحق والباطل كما الحال بين الفلسطينيين واليهود عليهم اللعنة، وهي رقم معتبر فى معادلة الغلبة، لذلك قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠] ولكن هذا الإعداد المادى القائم على العتاد والعدة يصبح غير ذى جدوى إذا دخل فى معادلة المغالبة عنصر الروح متمثلا فى «معية الله» التى لا تقهر، حتى لنرى الطفل من أبناء الحجارة يستحيى فى سلوكه موقف داودد عليه السلام حين أسقط طاغية بحجره.

وعلى هذا الأساس وجدنا الرسول ﷺ يقدم تفسيرا علميًا صحيحًا للظاهرة التي أطلق عليها مصطلح «الغثائية»، التى حملها إلينا الحديث الشريف: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل فى قلوبكم الوهن، قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت»(١).

هذا الحديث يفسر بإيجاز شديد القواعد التى تقوم عليها معادلة الغلبة بحيث نفهم أن لهذه المعادلة وجهين:

١ - **الوجه الأول**: وهو الذى يصور المعادلة فى طرفيها حين يقوم الصراع على المصالح بعيدا عن المبادىء، فلم تعد - فى هذه الحال - الدوافع إلى القتال والمصارعة هى الإيمان والتقوى وحب الجنة والخوف من النار، بل هى الغنائم والمحافظة على السلطة، ففى هذه الحال تكون الغلبة للأقوى والقوة هنا تعنى العتاد والعدة، وعندئذ تصاغ المعادلة هكذا: عتاد + عدة = الغلبة للأقوى.

وهذه المعادلة هى التى يفسرها الجزء الأول من الحديث: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها».

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند: ٥/٢٧٨.

٢- **الوجه الثاني**: وهو الذى يكشف عن طرفى المعادلة حين يكون الصراع حول المبادىء عن النزعة الذاتية والمصالح المادية، ففى هذه الحال يحضر عنصر جديد فى المعادلة إلى جانب العنصرين السابقين وهو (التقوى) وفى هذه الحال تكون (الغلبة للأتقى) وعندئذ تصاغ المعادلة كما يلى: العتاد + العدة + التقوى = الغلبة للأتقى.

وهذه المعادلة هى التي يفهم معناها من خلال تفحص عمق الحديث، لنعرف أن الغثائية مكمنها (العدة) القائمة على الكثرة العددية والمادية دون التعبئة الروحية وهذه الصورة هى التى تجلب البطر والخيلاء والغرور، فتؤدى إلى أن تنزع المهابة من قلوب الأعداء لتحل محل الكثرة الفارغة من المحتوى الجهادى، لأنها أمتلأت بحب السلطة بدلا من أن تمتلىء بحب الله ودينه فتستحق مؤازرته ومناصرته عن طريق توفيق الله وهديه عباده فى اللحظات الحرجة إلى الحلول الحقيقية مادية كانت أو غيبية كالتى قال عنها سيدنا موسى حين حوصر: ﴿ **كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ فجاءه الهدى والمدد: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الشعراء: ٦٢ - ٦٣] أو تلك التى رأيناها فى غزوة حنين تعبر عنها الآية: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٦].

ومن كل ذلك يتبين أن المعادلة الأساسية للغلبة إنما هى المعادلة التى تراعى عناصر الطرفين المتصارعين، بحيث يوضع عنصر الكثرة فى موضعه اللائق به لئلا يتحول إلى غثائية وهذا ما يفسر مقولة أبى بكر الصديق حينما أرسل مدداً يتكون من الفقهاء متجنبا الكثرة غير الواعية لما ينجر عنها من التزامات، وما يفسر قول أحد القادة الروم، قديما: «لا يرى قوم وجه خالد قلوا أو كثروا إلا انهزموا»[١]. لقد أصدر هذا القائد حكمه بناء على تجربة طويلة بالمعارك التى

---

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى ٢ / ٣٢٥.

يخوضها المسلمون ضده تحت إمارة خالد، هذه المعارك التى أدرك من خلالها أن معادلة المغالبة لاتخضع لمعيار العدة بقدر خضوعها لمعيار التقوى والإيمان الناجمين عن الفقه بأسرار الجهاد قبل الفقه بأسرار المعارك، وذلك لأن الكثرة قد تجر إلى مرض نفسى حذر منه الخليفة أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضى الله عنهما بقوله: «ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل»[1] وعبر عنه خالد بقوله: «إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر... اخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم»[2].

إن القادة المسلمين قد أدركوا هذه الحقيقة عن كثب، وتبين لهم أن العبرة ليست بالعامل المادى، حتى قال سعد بن أبى وقاص فى رسالة إلى عمر رضى الله عنهم أجمعين يخبره فيها عن انتصاره فى معركة مع الفرس «قد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك»[3]. وقال معاذ بن جبل يحرض الجيش: «لا يهولنكم جموعهم ولا عددهم»[4].

بل أدركوا أن العبرة كل العبرة بالعامل الروحى والأخلاقى حتى قال أبو بكر الصديق: «إن مثلكم لا يؤتى من قلة وإنما يؤتى العشرة آلاف (١٠٠٠٠) من الذنوب، فاحترسوا منها.. وليصل كل واحد منكم بصاحبه»[5]، وعلى هذا الأساس، وبناء على ما سبق فإن المستقبل الفلسطينى لمن يحارب على القدس لأنها رمز الإيمان والإخلاص والتضحية فى سبيل الله، ومن ثم فهى البرهان على حضور النصر الروحى الذى يبعد شبح الغثائية من دائرة الإسلام لتصبح سمة الجيوش اليهودية، ومن وراءهم من الكفار والخونة لعنة الله عليهم، ولكن أمام هذه المعادلة لابد من طرح أثر الأستكثار كمشكلة يعانى منها اليوم العالم الإسلامى كثيرا نتيجة الخيانات الناجمة عن عاملين أساسيين فى معادلة الغلبة وهما: ضعف الإيمان وقلة الفقة.

---

(١) نفسه ٢/٣٢٩.
(٢) ابن كثير: الكامل فى التاريخ: ٢/٤١١.
(٣) البداية والنهاية ٧/٤٦.
(٤) ابن أغنم: الفتوح ص٢٥٥.
(٥) ابن كثير: الكامل ٢/٤٠٦.

● **المطلب الثاني: التنبيه على خطر استكثار حزب الكفار:**

سبقت الإشارة إلى أن الكثرة حين تفرغ من محتواها تصبح غثائية، وهذا يطرح مشكلا آخر يدخل فى الحرب النفسية، التى تلعب الكثرة العددية فيها دوراً فعالاً فى إفشاء الرعب فى القلوب مما يؤدى فى الغالب إلى الهزيمة.

وهذا الجانب الهام فى المعادلة هو الذى تعبر عنه الآية: ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ [الأنفال: ٤٣- ٤٤].

المسألة هنا مسألة العوامل النفسية، الناجمة عن التأثيرات المظهرية المختلفة، والتي تتجلى خصوصا فى المظهر الخارجى للجيش أو الأمة، بحيث يتأثر ضعيف الإيمان بما يراه لدى الأعداء من عدة فيفشل، وينازع أصحابه نتيجة الخوف والهلع مما يرى: ﴿**وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ لقد أراهم الله لرسوله ﷺ فى منامه قليلا، وهم كثير، فحدَّث بذلك أصحابه فاستبشروا، وفى الغد رأوْهم بعين الحس مرتبطة مع بصيرة القلب فاستقلوهم، ونجم عن ذلك شجاعة فغلبوهم فى بدر وهي أول غزوة بإذن الله، قال قطب: «رآهم رسول الله - ﷺ - قليلا وهم كثير عددهم، ولكن قليل غناؤهم، قليل وزنهم فى المعركة، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع، والإيمان الدافع، والزاد النافع، وهذه الحقيقة الواقعة من وراء الظاهر الخادع هى التى أراها الله لرسوله، فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة، والله عليم بسرائرهم، مطلع على قلة عددهم وضعف عدتهم، وما تحدثه فى نفوسهم - لو عرفوا كثرة عدوهم - من ضعف المواجهة وتنازع عند الالتحام أو الاحجام»(١).

قال ابن مسعود رضى الله عنه «لقد قُللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة فأسرنا رجلا منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفا»(٢).

---

(١) فى ظلال القرآن ٣/١٠/١٥٢٧.

(٢) الكشاف ٢/١٦١.

ربما كان الهدف من تقليل الكفار فى أعين المسلمين هدفا نفسيا صرف، ليس له من غرض سوى تشجيع الصف الإسلامى، ولكن ما الهدف من تقليل المؤمنين فى أعين الكفار حتى قال بعض الكفار: إنهم أكلة جزور[1]؟ لا شك أنه هدف نفسى أيضا، ولكن يختلف من جهة الغرض، إذ هو أن يبعثهم الإعجاب بالنفس والكثرة فيصابوا بالغرور الذى يعد قاصمة الظهر فى الحروب، قال الزمخشرى: «قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ثم كثرهم فيما بعده ليجترؤا عليهم قلة مبالاة بهم، ثم تفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا وتفل شوكتهم حين يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم، ولئلا يستعدوا لهم وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولا وكثرتهم آخراً»[2].

ومما يدل على أن الهدف فى الحالين نفسى ما جاء فى آية سورة آل عمران تنبيها لليهود ليعتبروا[3]، فقال تعالى ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

غرض الآية هنا التذكير بالحادثة فى حقائقها الواقعية المحسوسة، لذلك أخبر تعالى بأن عدد الكفار برأى العين الحقيقية وليس بالتأثير النفسى الذى أوقعه الرسول ﷺ فى نفوس الصحابة عن طريق التبشير بالرؤيا، كان يبدو لهم بعد التحقق ضعفين، قال ابن كثير: «عندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشتركين مثليهم، أى أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع.. إن فى ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم، ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقَدَره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٦١.
(٢) نفسه.
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٥٠.

يقوم الأشهاد»[1]، وقال: «ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أى ضعفيهم فى العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم»[2].

من كل ذلك نستنتج حقيقة علمية هامة جدا، وهى أن العامل النفسى له تأثير كبير فى قضية الغلبة، وأن القرآن الكريم أكد عليه غيرما مرة، مبينا فى الوقت نفسه بصريح النص - كما رأينا فى آيتى آل عمران - على أن العامل الروحى هو الأقوى ﴿**واللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ ومن هنا طرح السؤال الفقهى الكبير: ما حكم استكثار مجالس الكفار وصفوفهم ما دام للاستكثار دوره العظيم فى التأثير النفسى؟؟؟

روى البخارى فى «باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم» عن أبى الأسود قال: اخبرنى ابن عباس: أن أناسا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ فيأتى السهم فيرمى فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه فيقتله فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ**﴾[3].

فسر ابن باديس هذا الحديث كما يلى: «إن قوما من المسلمين كان المشركون يخرجونهم معهم لا ليقاتلوا المسلمين، وإنما ليكثروا سواد المشركين ويظهروا عظم جيشهم، وكثرة عددهم فى أعين المسلمين، فكانوا يقتلون بما يصيبهم من رمى السهام وضرب السيوف فأخذهم الله بمجرد تكثيرهم سواد المشركين وإن لم يشاركوهم فى القتال ولا حضروه طائعين وأنزل الآية الكريمة فيهم»[4].

وقد استنتج ابن باديس من هذا الحديث حكما شاملا فى الاستكثار من صف الخير أو صف الشر هو: من حضر من قوم وكثّر جمعهم فهو منهم وشريك لهم فى عملهم سواء أكان خيراً أم شراً كما يفيده الحديث.. فأما فى الشر فالنص فيه حديث ابن عباس هذا، وأما فى الخير فحديث أبى هريرة فى الصحيح فى القوم الذين يجتمعون فيسبحون الله ويكبرونه ويستغفرونه فيقول الله للملائكة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٥٠. (٢) نفسه.

(٣) صحيح البخارى ٤ / ٣٦٢ الحديث رقم: ٧٠٨٥.

(٤) ابن باديس عبد الحميد: مجالس التذكير من حديث البشير النذير: ص٨٩.

عليهم السلام، «قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا، فتقول الملائكة: رب فيهم فلان خطاء، إنما مر فجلس معهم فيقول تعالى: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليس»[1].

من كل ذلك نخلص إلى أن تكثير سواد صف من الصفوف له تأثيره على الطرف الثانى سلبا أو إيجابا، وعليه فإن على المسلمين أن يعرفوا كيف يتحركون فى العصر الحديث سياسيا، فيعرفوا قيمة الاستكثار فى المظاهرات الاحتجاجية، وفى الانتماءات الكبرى بين الدول، بحيث يقفون مع الصفوف التى تناصر الحق، كما هو الحال بالنسبة للقضايا العربية والإسلامية الكبرى كقضايا التصفية الاستعمارية والتحرر الاقتصادى فى العالم وكقضية فلسطين وبيت المقدس بصفة خاصة، وقد رأينا فى انتفاضة أطفال الحجارة بفلسطين كم أرعب اليهود حينما رأوا الجماهير الغفيرة من الشعوب الإسلامية فى العالم تخرج فى مظاهرات ومسيرات صاخبة مستنكرة الاعتداء الصهيونى على المقدسات الإسلامية التى عمد - شارون - إلى تجنيسها بالمرور بساحة بيت المقدس، فثارت ثورة الشباب الفلسطينى بالمسجد أولا ثم أخذوا يتكاثرون حتى عمت كل فلسطين ثم انتشرت لتعم العالم الإسلامى، وبذلك اضطر القادة العرب إلى عقد قمة عربية لمناقشة القضية على الرغم من جمود العمل فى جامعة الدول العربية منذ ١٩٩٥ إلى غاية ٢١ أكتوبر سنة ٢٠٠٠.

بل لقد رأيت فى القنوات الفرنسية مظاهرة يهودية مضادة تحتج على فرنسا لأنها تقدم فى شاشاتها التليفزيونية صوراً للأعمال البشعة التى يقوم بها اليهود فى الأراضى المحتلة، ومنها الصورة الفعالة التى التقطها بعض الصحافيين للطفل - محمد الدرة - الذى قتله الصهاينة وهو يختبىء خلف أبيه كالعصفور بلّله القطر، فكان القطرة التى أفاضت الكأس، إن كل هذا الذى حدث لم يكن سوى نتيجة للاستكثار من سواد الصف الإسلامى، مما يبين دور الاستكثار فى نشر الحق أو الباطل على حد سواء.

---

(١) نفسه: ٨٩ - ٩٠.

ولهذا السبب بالضبط نهى الله عن مجالسة أهل الكفر وجعل من يجالسهم مثلهم، ولاشك عندى أن حضور المحاضرات الإسلامية بنية تكثير الصف الإسلامى فيه أجر كبير، لأنه فى العصر الحديث حرب على الكفر ما فى ذلك شك، لما يجلبه من مهابة للصف الإسلامى، ولما يزرعه من وعى وفقه بقانون الغلبة.

وخلاصة القول: فى هذا الفصل أن مآل الأقلية دائما هو الفوز والفلاح ولو بعد حين، لأن الله هو الذى يتولى حمايتهم والدفاع عنهم والتمكين لهم فى الأرض، فمن جهة الحكم فإن الله وعدهم بالتمكين فقال: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥] وذلك لأنهم صمام الأمان فى بقاء العدل فى الأرض وهو قوام الحياة واستمرار الوجود البشرى وصلاحه.

وعليه فإنه من جهة الصراع المادى سيهزم الكفار أمامهم بإذن الله مهما كانت عدتهم وعددهم، متى كان الصف الإسلامى ممتلئا بالإيمان خاليا من المنافقين والخونة، وأكثر من ذلك يُدخل الله هذه القلة المؤمنة فى الصالحين، ليقوى صف العمران بأهل الخير.

ومن جهة الغلبة فقد حللنا الرؤية التى ينطلق منها الكفار بالنسبة لقانون الغلبة، وبينا الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى الذى لم يكن بالحسبان فى رؤية الكفار وفى تحليلاتهم، ثم التنبيه على خطر الغثائية وبيان التفسير النبوى لها كظاهرة مرضية لها أسبابها التي يأتى على رأسها قلة الفقه وغياب التقوى، ثم التنبيه على خطر ظاهرة استكثار صف الكفار وما ينجر عنه من آثار سيئة، وكل ذلك يبين مآلات الأقلية على المستوى الدنيوى، مما يؤهلها للغلبة والاستخلاف مهما طال الأمد، والآن سنشرع فى بيان المآل الأخروى للأقلية.

* * *

● **المبحث الثالث : مآل الأقلية الأخروى :**

لاشك أن المآل الأخروى هو الهدف الأساسى الذى يسعى كل الأنبياء والمصلحين للفوز بخيره المطلق الذي يبدأ من نعيم الجنة ولذاتها إلى النظر فى وجه المولى تبارك وتعالى، فالمآل الأخروى لكل ذى عقل هو الثمرة التى لا يتعب من جناها خيراً، ولا يشقى من ذاق طعمها جنة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىٰ ﴾

[طه : ١١٩]

والنص الذى يجدد المآل الأخروى لجميع الفئات البشرية الصالحة منها والطالحة هو قول الله تعالى : **﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾** [الواقعة : ١ - ١٦].

هذه الآيات تبين أن البشرية تصنف باعتبار سعيها إلى ثلاثة مستويات :

١- أصحاب الميمنة

٢- أصحاب المشأمة.

٣- السابقون المقربون.

ولكن الآيات هنا تجمل ليأتى التفصيل فى المآلات، ولاشك أن المآلات مختلفة تبعا للأفعال، ولذلك سيكون مآل أصحاب الميمنة غير مآل أصحاب المشأمة، وغير مآل السابقين المقربين، لأن التصنيف تابع لطبيعة العمل كما جاء فى قوله تعالى : **﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾** [فاطر : ٣٢].

أما أصحاب الميمنة فهم أهل الجنة لقوله تعالى بعد ذلك فى السورة

نفسها: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٤٠].

واللفظ صريح فى كون هذه الفئة من الأقلية، إذ أنها لاتزيد عن ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، لأن الثلة في اللغة تعنى الجماعة والفرقة المقتطعة من الشيء فهى ثلث الشيء أى قطعته[1]، وقيل: «الثلة اسم للجماعة من الناس مطلقا قليلا كانوا أو كثيرا»[2]، ولكن السياق العام للقرآن يبين أن الثلة تعنى الشيء النفيس والعزيز الذى يقل وجوده لنافسته، وإن كانت الثلة أكثر من الأقلية داخل دائرة الصالحين كما سيتضح من بعد، حين نحلل آية السابقين.

وأما أصحاب المشأمة، وهم أصحاب الشمال، فهم أهل النار لقوله تعالى فى السورة نفسها: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٨].

فهذا هو مآل أصحاب الشمال، جهنم يصلونها بما كانوا يكسبون من الآثام بسبب الترف، وبكفرهم بالبعث، وهؤلاء بحكم السياق القرآنى كله الأكثرية المطلقة كما رأينا في المآل الأخروى للأكثرية، ولذلك سكت القرآن هنا عن التحديد بالثلة أو القلة.

وتبقى الفئة الثالثة وهم السابقون الذين هم طبقة أفضل من الطبقتين السابقتين، ولذلك قدمهم القرآن عند التفصيل بقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٤].

---

(١) القرطبى: الجامع...: ٢١/ ٢٠١. (٢) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٨٩.

والنص هنا صريح فى دلالته على أنهم يمثلون الأقلية القليلة من أجل الجنة، ولهذا يتعين أن فئتين فى الجنة هما أصحاب اليمين والسابقون إلى الخيرات، وفئة واحدة فى النار وهى فئة أصحاب الشمال والمشأمة، قال الصابونى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ «وكنتم - أيها الناس، أصنافا وفرقا ثلاثة، أصحاب اليمين وأهل الشمال وأهل السبق، فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلى فى الجنة، وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة، وأما أصحاب الشمال فهم أهل النار، وهذه مراتب الناس فى الآخرة»(١).

ولاشك أن كون فئتين من أهل الجنة وفئة ثالثة من أهل النار، يوحى بأن أهل الجنة أكثر عددا حتى قال أحد القدماء: «اثنان فى الجنة وواحد فى النار»(٢).

والواقع ليس كذلك تماما، إذ أن النصوص القرآنية والحديثية تبين أن نسبة أهل النار تفوق نسبة أهل الجنة بكثير جداً، كما رأينا فى مصير الأكثرية قبل(٣)، وإنما الآيات هنا فى سورة الواقعة هى بصدد بيان مآل الإنسانية، فبينت أن الجزاء يكون وفق العمل، فبدأت الآية فى التفصيل بالسابقين فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ثم أعقبت بأصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وثلثت بأصحاب الشمال فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾، فهذه مآلات ثلاثة، طائفتان مآلهما الجنة وطائفة مآلها النار، وقد جمعت سورة الواقعة هذه المآلات الثلاثة فى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ * فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ

---

(١) صفوة التفاسير: ٣ / ٣٠٦.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٨٣.
(٣) أنظر الفصل السابق من الباب السادس.

الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٦]، غير أن هذا لا يعنى أن نسبة أهل الجنة أكثر من نسبة أهل النار، وإنما يعنى أن أهل الجنة يتفاضلون بحسب الإحسان في العمل، وفى ذلك حث على التنافس على الخير ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

إن هذا التنافس هو الذى ميز طائفتين من أهل الجنة هما: السابقون وأصحاب اليمين، وأدى فضلا عن التمييز إلى اختلاف نسبة أصحاب اليمين عن نسبة السابقين، إذ قال بصدد الحديث عن السابقين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ وقال بخصوص أصحاب اليمين ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾، ومن الواضح أن لفظ (الثلة) يدل على نسبة أكثر من نسبة (قليل)، وهذا يبين أن نسبة أصحاب اليمين أكثر من نسبة السابقين، والسبب فى ذلك يعود إلى أن منزلة السابقين هي منزلة المقربين الذين ينالون هذه الحضرة عند الله بفضل السبق إلى الخيرات كما بين ذلك تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، قال ابن كثير «المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أُمِرُوا»(١)، وقال «من سابق فى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان»(٢).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن السبق هنا له دلالة زمنية وليست دلالته دلالة سبق فى الفعل فقط كما بينا(٣)، والواقع أن الأمر ليس كذلك، إذ فى كل زمان يوجد أهل الخير، وفى كل وقت يوجد المتسابقون على فعل الخيرات فيفوز بالسبق أصحاب الاجتهاد الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولم يتوانوا فى نصرة الإسلام، فكانوا السابقين إلى الفعل والسباقين إلى الشهادة فى سبيل الحق وهؤلاء

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٢٨٣. (٢) نفسه.
(٣) نفسه ٤ / ٢٨٣.

السباقون إلى فعل الخيرات هم المقربون كما بينت الآية ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وهم الأبرار كما بينت آية أخرى من سورة المطففين: ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٨ – ٢٨] فالأبرار هم الطائفة الفاعلة كل خير(١)، وعليه فهم يستحقون نتيجة ذلك أن يكونوا فى ﴿ عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ يتنعمون فيه مع المقربين بما كانوا يتنافسون فيه من عمل الخيرات، ومن هنا كان التنافس على النعيم الأخروى إيجابيا فى الدنيا، لأنه تنافس فى فعل الخيرات، «فالتنافس فى نعيم الآخرة لا يدع الأرض خرابا بلقعا كما قد يتصور بعض المنحرفين، إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار من الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق، على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله"(٢).

ومن كل ذلك يتبين أن السابقين لفعل الخير درجة من الاجتهاد ينالها ذووا العزم والإرادة القوية، والتى تتشكل من الإيمان العميق والعلم الدقيق الذى ينزل صاحبه منزلة أهل الوعى من الفقهاء العاملين، وهذه الدرجة لا ينالها فعلا إلا الأقلية، لنفاستها ولحاجتها إلى الجهد الذى لا يقوى عليه إلا القليل.

على أن الآية تبين أن نسبة السابقين تنقسم إلى قسمين؛ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ فمن هم الأولون ومن هم الآخرون؟ ولماذا كانت نسبة الأولين (ثلة) أعلى من نسبة الآخرين (قليل)؟

لاشك أن الدلالة هنا تحمل البعد الزمنى، ولذلك ذهب بعض المفسرين إلى أن الثلة الأولى يعنى بها السابقين إلى الخيرات من الأمم الماضية قبل عهد محمد ﷺ، ويقصد بالقليل من الآخرين أمة محمد ﷺ، وعلل القرطبى ذلك بقوله:

---

(١) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٠ / ٣٨٥٨.

(٢) نفسه ص ٣٨٦٠.

« سموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا »[1]، وهذا التعليل منطقى جدا، ولعله المقصود بقول الرسول ﷺ : « إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى »[2] ويمكن لمن يتأمل واقع الحياة المعاصرة أن يدرك أن نسبة أهل الخير من المسلمين أكثر من نسبة أهله فى سائر أهل الكتاب فضلا عن الأمم المشركة، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار العاملين الأساسين فى تقييم الأعمال وهما الإيمان والعمل الصالح، إذ من الواضح أن المؤمنين من أهل الكتاب يفتقرون – على مستوى العقيدة – إلى الإيمان بالرسل كلهم والإيمان بالكتب كلها، فينتهى المؤمنون من بنى إسرائيل عند الإيمان بموسى عليه السلام والتوراة، وينتهى المؤمنون من المسيحيين عند الإيمان بعيسى عليه السلام والإنجيل، بينما يؤمن المسلمون بكافة الأنبياء والرسل، ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ والكتب كلها تصديقا لما أمرهم به الله، وبيَّنه رسولهم محمد ﷺ بقوله: « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[3].

وعلى مستوى الأعمال نرى الآن فى العالم الغربى برمته، وبدون استثناء أعمالا وسلوكات لا تنم عن خير على مستوى الشرع مطلقا، وإن أظهروا تفوقا كبيرا على مستوى المدنية وما تستتبعه من أسباب العمران المادى، أما جانب الشرع فقد أعلنوا جهارا اعتمادهم مبدأ (فصل الدين عن الدولة)، مما شجع الأنام على الانخراف الخلقى انحرافًا عجيبًا، يمكن أن يكون مؤشرًا واضحًا للدلالة على أن نسبة الضلال فى مجتمع أهل الكتاب من غير المسلمين تفوق كل تصور.

وإذا كان ذلك كذلك فمن الطبيعى أن يكون معنى الآية ﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ** ﴾ يشير إلى النسبة الحاصلة من مجموع البشرية فى زمن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٢٠٠ . (٢) نفسه.

(٣) الترمذى : الجامع الصحيح ٥ / ٨ / الحديث رقم ٢٦١٠ .

الرسول ﷺ، وزمن ما بعده، ولما كان الإيمان بالرسول ﷺ واجبا على كل من أدركته الرسالة الإسلامية، فقد نستنتج من ذلك أن أمة محمد ﷺ ليست هى من اتبعه فقط، ولكن هى كل من أدركته الدعوة آمن أو لم يؤمن، والحديث فى ذلك واضح إذ روى مسلم فى باب «وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته» عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[1] وقال أيضا «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران»[2]، وأحسب أن هذا الحديث يمكن أن يكون تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحديد: ٢٨]، قال ابن عاشور: «احتمل قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...** ﴾ أن يكون مستعملا استعماله اللقبى أعنى: كونه كالعلم بالغلبة على مؤمنى ملة الإسلام، واحتمل أن يكون قد استعمل استعماله اللغوى الأعم، أعنى من حصل منه إيمان، وهو هنا من آمن بعيسى، والأظهر أن هذين الاحتمالين مقصودان ليأخذ خلص النصارى من هذا الكلام خطابهم وهو عودتهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ ليستكملوا ما سبق من اتباعهم عيسى فيكون الخطاب موجها إلى الموجودين ممن آمنوا بعيسى، أى يا أيها الذين آمنوا إيمانا خالصا بشريعة عيسى اتقوا الله واخشوا عقابه واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر وآمنوا بمحمد ﷺ»[3] وهذا معنى عالمية الرسالة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ [سبأ: ٢٨] وهو معنى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) صحيح مسلم: ١/٩٢ كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

(٢) نفسه.

(٣) التحرير والتنوير: ٢٧/٤٢٧.

وإذا صدق هذا التفسير فإنه من الممكن أن نبنى عليه فهمنا لتفسير حديث آخر، أخطأ جل المسلمون فى تقديره فقسموا الأمة فرقا مختلفة يكفر كل واحد منها غيره، والحال أنهم جميعا مؤمنون لأنهم يؤمنون بأركان الإيمان كلها جميعا سنيهم وشيعيهم وما الاختلاف بينهم إلا اختلاف فى وجهات نظر سياسية ترجع للاجتهادات ليس أكثر، ومع ذلك فقد أدت إلى تقاتل شنيع حتى أصحاب المذاهب الفقهية، من الحنفية والشافعية فخربت من جرائه كثير من مدارس المذهبين، وأحرقت خمس خزائن للكتب(١).

والحديث الذى نعنيه هنا هو قول الرسول ﷺ: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أهله علانية لكان فى أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا: ومن هى يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابى»(٢).

فمن هى أمة محمد ﷺ؟ ومن الفرقة الناجية من هذه الأمة.

إن لفظ (الأمة) فى هذا الحديث فُهم على أنه يعنى (الأتباع) وهو ليس كذلك، إنما يعنى الشعوب التى أدركها نبى من الأنبياء، فيصبح بهذا المعنى أمة موسى هم الشعوب التى بلغتها دعوة موسى عليه السلام آمنت أو لم تؤمن بها، وأمة عيسى عليه السلام هى الشعوب التى أدركت دعوته آمنت أو لم تؤمن بها، بما فى ذلك قوم موسى عليه السلام، وأمة محمد ﷺ هى كل أهل الأرض الذين بلغتهم رسالته آمنوا به أو لم يؤمنوا، فالأمة فى هذا الحديث لا يمكن أن تعنى الأتباع، وإنما تعنى كل الناس الذين سيحاسبون على شريعة محمد ﷺ، وهى بطبيعة الحال كل الأمم التى بلغتها الرسالة، والدليل على ذلك يوجد فى الحديث نفسه، إذ أنه ﷺ قد حدد الفرقة الناجية من الأمة بمواصفات تقوم على مبدأ

---

(١) ابن كثير: الكامل فى التاريخ ١١ / ٢٧٢ دار صادر (د.ت) وانظر نفسه ١١ / ٥٦١.

(٢) الترمذى: ٥ / ٢٦ الحديث رقم ٢٦٤١، رواه الترمذى وقال حديث مفسر غريب.

الاتباع فقال: «ما أنا عليه وأصحابى» ونحن نعلم أنه دعى فى ذلك الوقت نفسه بنى إسرائيل، وبلغت الدعوة النصارى فى الحبشة، وكاتب ملوك الروم والفرس، وهؤلاء جميعا سيحاسبون على أساس دين الإسلام فمن كان منهم على ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد نجا، ومن خالفه كان فى الفرق الأخرى غير الناجية، عددها اثنتان وسبعون فرقة، هى فرق الإنسانية من غير المسلمين المؤمنين برسالة محمد ﷺ، ويؤكد ذلك فكرة تناسخ الأديان، وقد أشار إليها عنوان الموضوع فى صحيح مسلم بقوله: «وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته».

والدليل على ذلك أحاديث كثيرة منها ما رواه البخارى عن أبى ذر قال: «قلت يا رسول الله سمعت صوتا تخوفت فذكرت له فقال: وهل سمعته؟ قلت: نعم قال: «ذاك جبريل أتانى، فقال، من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال وإن زنى وإن سرق»[1]، فلفظ الأمة هنا عام، يشمل كل من بلغه خطاب رسول الله ﷺ، ولكن النجاة من النار قصر على من مات من أمة الرسول ﷺ وهو على ملة التوحيد (لا يشرك بالله شيئا)، ويؤكد ذلك حديث آخر رواه البخارى قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى دخل النار»[2]، فلفظ الأمة هنا واضح الدلالة على ما فسرنا به الحديث السابق من أن أمته تعنى كل البشرية بعد مبعثه ولا تعنى فقط أتباعه، ولذلك كانت الجنة هنا لمن اتبع رسول الله ﷺ ولم يعصه، والنار لمن أبى الطاعة وآثر العصيان سواء أكان من بنى إسرائيل أو النصارى أو المجوس أو غيرهم من المشركين، ويؤيد ذلك بوضوح حديث رواه البخارى فى صحيحه عن نبينا محمد ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، فقيل يا رسول الله: كفار الروم؟ فقال ومن الناس إلا أولئك»[3]،

---

(١) صحيح البخارى ٤ / ١٩٧ الحديث رقم ٦٤٤٤، وانظر رقم ٦٤٤٣، ٦٢٦٨.

(٢) نفسه ٤ / ٤١٢.

(٣) صحيح البخارى: ٤ / ٤٢٤ الحديث رقم ٧٣١٩.

وفى رواية: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصاري؟ قال فمن»[1].

فانظر إلى لفظ الأمة فى ذلك الحديث لتتبين أنه يعنى الجيل الذى حضر الرسالة منذ أن جاءت إلى أن تقوم الساعة، لأن صاحبها خاتم الأنبياء والمرسلين، وانظر إلى لفظ (القرون) هنا كيف استخدم فى مقابل لفظ (الأمة) وانظر إلى الاتباع كيف يفرض نفسه فى زمن الأمة ليدل على أن اتباع كفار الروم، كما فى الحديث الأول، وأتباع اليهود والنصارى كما فى الحديث الثانى إنما هم الذين سلكوا طريق الكفر فى زمن الأمة المحمدية الممدود إلى قيام الساعة، وهذا أمر يبينه حديث آخر أكثر وضوحا فى تحديد مفهوم الأمة تحديدا زمنيا، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إنما أجلكم فى أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لى إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار على قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط، ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين، ألا لكم الأجر مرتين فغضب اليهود والنصارى، فقالوا نحن أكثر عملاً، وأقل عطاء، قال الله: هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلى أعطيه من شئت»[2].

فالأجل المحدد لأمة موسى عليه السلام ينتهى عند منتصف النهار حيث يبدأ أجل أمة عيسى عليه السلام لينتهى عند العصر، حيث يبدأ أجل أمة محمد ﷺ وهو زمن بعثته حتى تقوم الساعة.

---

(١) نفسه ٤ / ٤٢٤ الحديث رقم ٧٣٢٠ وانظر الحديث رقم ٣٤٥٦.

(٢) نفسه ٢ / ٤٠٤ الحديث رقم ٣٤٥٩.

ولما كان أجل أمة محمد ﷺ يعنى هذا الأجل المحدد فمن البدهي أن يكون له أتباع مؤمنون، وهم قليل، بالنسبة لأمته التي بلغت فى عصرنا الحديث ما يربو عن ستة ملايير ليس منها سوى مليار مسلم والبقية كلها على الكفر، ولعلها المقصودة بقوله ﷺ «لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[1]، وفى رواية «لا يزال من أمتى قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله»[2]، وفى أخرى «لايزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[3].

فالتعبير بلفظ (طائفة) فى الحديث يدل عن جزء من (الأمة) ولذلك جاء في رواية بمرادفه (قوم) وهم الموحدون جميعا بدون أى استثناء يقوم على النظرة الحزبية أو المذهبية التى أشغلت بعض العلماء فابتعدوا عن التأويل العلمى الصحيح لهذا الحديث، فتسببوا عن غير قصد فى تقسيم المسلمين فرقا مختلفات تبعا لأهوائهم، يحكمون على بعضهم البعض بالكفر ويحددون مآلهم الأخروى بالنار فى مقابل (الفرقة الناجية) التي لم يفهموها بسبب فهمهم غير الصحيح لدلالة لفظ (الأمة) التي فسروها بأنها تعنى (الأتباع) بينما هى تعنى (الجيل الرسالى).

وليس أدل على ذلك من قوله: «لا يزال أمة من أمتى..» فاستثنى أمة صغيرة هى أتباعه الموحدون من أمته الكبرى التى هى كل من سمع به آمن أو لم يؤمن.

ولعل الحديث الآتى يبين المآل بشكل أدق وأوضح، فقد روى البخارى أنه ﷺ قال: «ينادى مناد، ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب ثم

---

(١) نفسه ٤/٤٢٢ الحديث رقم ٣٧١١. (٢) نفسه ٤/٤٦٣ الحديث رقم ٧٤٥٩.
(٣) صحيح البخارى: ٤/٤٦٤ الحديث رقم ٧٤٦٠.

يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير بن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون؟ فيقولون نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون فى جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله؟ فيقال كذبتم، لم يكن له صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون، نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا فيتساقطون فى جهنم، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم، وقد ذهب الناس؟ فيقولون فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم، وإنا سمعنا مناديا ينادى: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا، قال فيأتيهم الجبار، فيقول: أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا؟ فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقولون: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب سيما فيعود ظهره طبقا واحدا ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم.. فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمن يومئذ للجبار، وإذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا ويعملون معنا فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه دينارا من إيمان فأخرجوه..»[1].

فهذا الحديث يبين مآل الأقلية من البشرية كلها، فيجعلها فى الجنة بسبب التوحيد فى مقابل مآل الأكثرية، وهم أهل النار بسبب الكفر والشرك، مما يبين أن المعيار الأساسى فى بيان أهل النجاة من أهل النار إنما هو الإيمان والعمل الصالح، ويبين ذلك قول الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**

---

(١) صحيح البخارى: ٤/٤٥٥ - ٤٥٧ - الحديث رقم ٧٤٣٩.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٣].

بهذه الصيغة كان يتعامل أهل الكتاب، ويتراشقون بالتهم المبنية على الظن فى أمور وضحتها الكتب السماوية تماما وبينت المعيار الذى ينبغى الاحتكام إليه وهو إسلام الوجه إلى الله والإحسان فى العمل، أى الإيمان والعمل الصالح.

على أن الإيمان لابد أن يكتمل، فإذا كان اليهود مثلا يؤمنون بالله وملائكته ويؤمنون بالآخرة ولكن ينتهون فى الإيمان بالكتب والرسل عند سيدنا موسى والتوراة ويكفرون بمن بعده، والنصارى يتوقف إيمانهم عند سيدنا عيسى والإنجيل ويكفرون بمن بعده فإن هذا يعد إيمانا غير مكتمل، ومن ثم تصبح نسبة المؤمنين يوم القيامة قليلة جدا، ولعله لذلك فسر بعض العلماء قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

بأن مقصود الإشارة إلى أن الذين كانوا قد آمنوا بالأنبياء والرسل من اليهود والنصارى مدعوون للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذى جاء به ليكتمل إيمانهم، فإن امتنعوا فقد كفروا، لأن الإيمان لا يعرف التبعيض الذى هو من صنع الهوى، يقول ابن عاشور: وصْفُ المخاطبين بأنهم آمنوا وإردافه بأمرهم بأن يؤمنوا بالله ورسله إلى آخره يرشد السامع إلى تأويل الكلام تأويلا يستقيم به الجمع بين كونهم آمنوا وكونهم مأمورين بإيمان، ويجوز التأويل خمسة مسالك منها -:

المسلك الأول: تأويل الإيمان فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بأنه إيمان مختل منه بعض ما يحق الإيمان به، فيكون خطاب لنفر من اليهود آمنوا، وهم عبدالله بن سلام وأسد وأسيد ابنا كعب.. سألوا النبى ﷺ أن يؤمنوا به وبكتابه، كما آمنوا بموسى وبالتوراة، وأن لا يؤمنوا بالإنجيل كما جاء فى رواية الواحدى عن الكلبى، ورواه غيره عن ابن عباس.

المسلك الثانى : أن المقصود بأمرهم بذلك إما زيادة تقرير ما يجب الإيمان به، وتكرير استحضارهم إياه حتى لا يذهلوا عن شيء منه اهتماما بجميعه، وإما النهى عن إنكار الكتاب المنزل على موسى وإنكار نبوءته، لئلا يدفعهم بعض اليهود وما بينهم وبينهم من الشتات إلى مقابلتهم بمثل ما يصرح به اليهود من تكذيب محمد ﷺ وإنكار نزول القرآن، وإما أريد به التعريض بالذين يزعمون أنهم يؤمنون بالله ورسله ثم ينكرون نبوءة محمد ﷺ وينكرون القرآن حسدا من عند أنفسهم ويكرهون بعض الملائكة لذلك، وهم اليهود، والتنبيه على أن المسلمين أكمل الأمم إيمانا، وأولى الناس برسل الله وكتبه، فهم أحرياء بأن يسودوا غيرهم لسلامة إيمانهم من إنكار فضائل أهل الفضائل، ويدل لذلك قوله : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ** ﴾ ويزيد ذلك تأييدا أنه قال : ﴿ **وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴾ فعطفه على الأشياء التى من يكفر بها فقد ضل مع أنه لم يأمر المؤمنين باليوم الآخر فيما أمرهم به، لأن الإيمان به يشاركهم فيه اليهود فلم يذكره فيما يجب الإيمان به، وذكره بعد ذلك تعريضا بالمشركين[1].

ويمكن أن يكون معنى الآية يا أيها الذين آمنوا بمحمد ﷺ من خلال ما جاء من تبشير به فى التوراة والإنجيل آمنوا به، وبما جاء به الآن فعلا ليكتمل إيمانكم فتنجوا من عذاب الآخرة، وتكونوا عندئذ من الفرقة الناجية.

ونستنتج من ذلك كله أن أمة محمد غير أتباعه، فأتباعه جزء من أمته، وعليه فإن المقصود بالفرقة الناجية هم الأتباع جميعا وهم من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وآمن بما جاء به، ولا دخل للمذاهب السياسية فى ذلك، لأن المذاهب جاءت تنظيما لشؤون المسلمين معتمدة على المناهج العلمية التى يدخلها الاجتهاد فى الأمور كلها بما فى ذلك المسائل السياسية، وللأسف فقد كان الاجتهاد فى تحديد صور الحكم السياسى وأنظمته سببا فى تأويل الأحاديث، فبدلا من التركيز على الرجل الصالح الذى تتوفر فيه شروط القائد

---

(١) التحرير والتنوير: ٥/٢٢٩ – ٢٣٠.

الناجح، توجهت التحليلات وجهة أخرى غير علمية، وغير موضوعية، بل هى قائمة على التعصب، وكانت المبالغة فى التعصب للفكرة السياسية سببا قويا ودافعا خطيرا للتكفير والتصنيف والتقسيم غير العلمى لقيامه على الهوى.

ولاشك عندى أن العلماء فى العصر الحديث يملكون كافة المعطيات العلمية التى تعينهم على إعادة النظر فى المنهج كى يضعوا المعايير الصحيحة للتصنيف، وسيصلون فى النهاية إلى توحيد الصف الإسلامى من جهة العقيدة.

وقد توقف غير واحد من المعاصرين عند هذا الحديث مستغربا، حتى قال أحد الباحثين بعد عرض أوجه الاختلاف فى فهم الحديث: «إن هذه الفرق والطوائف لم تختلف فيما بينها فى أصل من الأصول المتفق عليها أو أمر معلوم من الدين بالضرورة، ولكنها اجتهادات وآراء لم تمس جوهر العقيدة – هذا باستثناء الفرق الغالية الشاذة – ولم تؤد إلى التكفير وكل هذه الفرق يشملها اسم الإسلام وهى من أهل القبلة، فكيف يحكم الحديث بهلاكها، وأنها فى النار؟ هذه هى المشكلة»(١).

وسيبقى أمر المذاهب السياسية نسبيا؛ لأنه تابع لنجاح الأمة فى اختيار القائد أوعدم نجاحها فى ذلك طبقا للتجربة السياسية التى تمارسها، فتجربة السعودية غير تجربة إيران وهذه غير تجربة مصر والجزائر، وغير تجربة الإمارات العربية المتحدة، وتجربة بريطانية غير تجربة فرنسا وأمريكا.. فاختيار الرجل الصالح هو الأساس، بغض النظر عن أسلوب الاختيار ومرتكزاته، إذ هذا يقوم على تجارب الأمم والشعوب، وهذا واضح فى دول الشرق والغرب على حد سواء، إذ أن الهدف من اختيار المنهج والحاكم إنما هو تحقيق الخيرات، وهذه مرهونة بالحكمة لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) جمال فاروق جبريلى محمود الدقاق: الاختلاف فى المسائل الدينية مجالاته ودعائمه الخلقية: ٤٨.

● **وخلاصة القول:**

إن مآل الأقلية على المستوى الدنيوى هو الاستخلاف فى الأرض، بسبب الإيمان والسبق للعمل الصالح، إذ لا شك أن العمل الصالح هو مبرر القوة والغلبة الحضارية والعسكرية، ومآل الأقلية على المستوى الأخروى هو دخول النعيم، والنجاة من الجحيم، وأن سبب كون الناجين من النار هم الأقلية إنما يعود لكون الجنة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح، والبشرية غرها الشيطان والحسد فضلت من جهة العقيدة ضلالا بعيدا بحيث كفر بعضها كفراً كاملا، وهذا هو الملحد وكفر بعضها ببعض الأنبياء والكتب كبنى إسرائيل، وكفر بعضها بمحمد ﷺ والقرآن الكريم وهم المسيحيون، وبذلك كثر عدد الكفار وقلت نسبة المؤمنين، فكانت الجنة مآل الأقلية من المؤمنين، ثم إن المؤمنين منهم السابقون إلى الخيرات ومنهم المقصرون، فكان منهم من يذوق العذاب بسبب التقصير فى الأفعال، ثم يدخل الجنة فى درجة دنيا، وكان منهم من يدخل الجنة بسبب قلة اجتهاده فى السبق إلى الخيرات، وهؤلاء يمثلون النسبة الكبرى وهم المقصودون بقوله تعالى: ﴿**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**﴾ (إلى قوله) ﴿**ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾، وكان منهم من يدخل أعلى عليين وهم المقربون، لأنهم كانوا سبَّاقين لفعل الخيرات، وهم المعنيون بقوله تعالي: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ**﴾.

وقد لاحظنا أن فهم حديث الفئة الناجية فهما خاطئا أدى إلى انقسام المسلمين إلى طوائف يكفر بعضها بعضا ويقاتل بعضها - نتيجة لذلك - بعضا، حتى فسدت العلاقات بين أهل المذاهب الفقهية ليس على مستوى الشيعة والسنة وحسب بل حتى على مستوى أهل السنة أنفسهم كالذى حدث بين الحنفية والحنابلة من تقاتل أدى لخراب نيسبور وكثير من المدارس الفقهية ومكتباتها[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ١١ / ٥٦٢، ٥٦١، ٢٧٢.

في حين أن الفئة الناجية إنما هي تلك التي انطبق عليها قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾، وهذا معيار لاعلاقة له بصناعة المذاهب الفقهية والسياسية بدليل أن المسلمين قبل عصور التمذهب كانت على قلب رجل واحد، نرجو من الله أن يجعلنا من صنف ذلك الجيل الرسالى الذى يقول لسانُ حاله: الله واحد، والكتاب واحد، والنبى واحد، فلم الخلاف؟

* * *

خاتمة البحث

كانت الإشكالية المطروحة فى هذا البحث بحدة هى مشكلة الأقلية والأكثرية، إذ سار منطق الإنسان دائما إلى الانحياز نحو الأكثرية، معتبراً إياها معيار الحكم والتمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، ولكن من يتتبع آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يجد أن تاريخ البشرية كله لم يكن كذلك، وعليه فقد طرح البحث هذه المشكلة ذات الطابع العقدى والسياسى ليبحثها من خلال القرآن الكريم، وقد انتهى بعد بحث مدقق إلى نتيجة أساسية وهى أن الأكثرية (الجماهير الشعبية) على مدار التاريخ البشرى تقف فى الجانب السلبى، وأن الأقلية الواعية هى التى تقف فى الطرف الإيجابى متمثلة فى ما عبر عنه المصطلح الإسلامى بـ (جمهور العلماء) ومن اتبعهم.

وقد كانت هذه النتيجة الإجمالية صادقة فى المجالات الخمسة التى عالجها البحث، فى المجال العقدى، والمعرفى، وفى مواقف الخلق من الحقيقة، وفى طبيعة المعاملات والسلوك وفى العلاقات بين البشر، وكان من الطبيعى والحال هذه أن يكشف البحث فى الباب الأخير أن القرآن ينص على أن مآل الأكثرية هو الخسران فى الآجل والعاجل وأن مآل الأقلية هو الفلاح فى الآجل والعاجل، ولم يستثن القرآن هذه القاعدة إلا فى حالين، حال الملائكة إذ قال: ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴾ وحال قوم يونس إذ قال: ﴿ **فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [يونس: ٩٨].

أما بقية الأمم فإن الأغلبية كانت دائما فى الطرف السلبى، ولم يشر القرآن أبداً إلى عكس هذا، والأسباب الداعية إلى ذلك كثيرة، تتنوع تبعا للمستوى الذى تعرضه الآيات القرآنية، ويعالجه من خلالها البحث، وهذه النتيجة لاتزال وستبقى صادقة على السلوك البشرى، كما تبين حتى بعد طرح قاعدة الديمقراطية، إذ نرى العالم اليوم – مع ما يدعيه من وعى مزيف – يقف مع الظالمين تبعا للمصلحة الذاتية، ويمحق الضعفاء ما داموا كذلك، وتاريخ أوروبا

القديم والغرب المعاصر يشهد على ما نقول مما يستدعى تفصيل الحديث فى هذه النتيجة الشاملة.

فعلى مستوى العقيدة كانت النتيجة – فى الباب الأول – تشير إلى أن الأكثرية كافرة لدرجة أن الآية قد تعبر عن هذه الظاهرة بصيغة التعجب كما فى قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧] وأن هذه الأكثرية شملت كفر الملة وكفر النعمة، والسبب فى ذلك يرجع إلى عوامل متعددة؛ منها حقد الشيطان على الإنسان، واتباع الإنسان للهوى، وتعطيله لوسائل المعرفة التي تعينه على التلقي السليم للوحي، وهو ما تعبر عنه الآية: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان: ٤٣ – ٤٤] ونظرا لتمكن هذه الأسباب من الطبائع البشرية فإن القرآن يبين أن انتفاء تحقق الإيمان علي الأكثرية هو القاعدة السارية فى حياة الإنسان، بل إن معظم أهل الأرض نصَّبوا أنفسهم دعاة تضليل: ﴿ **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ** ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ونتيجة لكل ذلك فقد تبين أن الاستقامة على العقيدة السليمة لم يثبت إلا للأقلية، والسبب فى ذلك يعود إلى أن الإنسان مطبوع على العناد، فاليهود أخذهم العناد إلى التطرف فبدأ كفرهم يطفو على السطح وأنبياؤهم عليهم السلام بين أظهرهم، ولم يشذ عن ذلك إلا قليل ﴿ **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٦] لكنه اشتد مع سيدنا عيسى عليه السلام حتى عملوا على قتله لو استطاعوا، وقوى مع سيدنا محمد ﷺ فكادوا له المكائد الكبرى، والنصارى استبد بهم التطرف فأخذ كفرهم يقوى ويتزايد بعد مبعث النبى الخاتم ﷺ، وغير ذلك من الشعوب استبد بهم التقليد للآباء فضلوا على الشرك إلا قليلا منهم، وهكذا اتسعت دائرة أهل الكفر وقلت دائرة أهل الإيمان لتنحصر فى من يعرف معنى قوله تعالى: ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

والنتيجة لم تتغير في الباب الثانى على المستوى المعرفي، فكانت الأكثرية لا تعلم ولا تفقه ﴿ **مَا نَفْقَهُ كَثِيراً** ﴾ [هود: ٩١] ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾

[الأنبياء: ٢٤] والسبب فى ذلك لا يرجع إلى انقطاع الوحى، وإنما إلى الإعراض عن سماع العلم الذى بعث به الله الرسل مما أدى إلى انتشار الوعى المزيف ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ويؤكد القرآن عامل الإغراض عن العلم، ببيان تعطيل كل وسائل التعرف على محتوى الرسائل السماوية ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وقد ترتب على ذلك تعطيل كبير لمناهج التكفير على المستوى العقلى والنقلى معًا، أما المنهج الحسى فلم يتعطل والسبب فى ذلك هو طبيعة الإنسان الميالة إلى المادة مما جعل أدوات التعرف الحسى من لمس وبصر تشتغل بصورة أنشط فتميز المنهج التجريبى بنتائجه على المنهجين الآخرين، وقد ترتب على ذلك جهل كبير بالمعرفة الغيبية تمثلت فى قاعدة (اللائكية) مما أدى إلى أن الأكثرية كافرة، وترتب علي ذلك أفعال شنيعة تجسدت فى الفرعونية كنموذج للتاريخ وفى الصهيونية العالمية كنموذج للعصر.

ولم ينج من وباء الجهل إلا الأقلية ﴿ **بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ هذه الصفوة التى لم تعرض عن الحق إذ جاءها، ولم تعطل أدوات التلقى فاستوعبت الدرس الربانى، وعرفت الحق فاتبعته على جميع المستويات فنجت كما أثبتنا ذلك في دراسة المآلات من الباب الأخير.

ولاشك أن عنصر المعرفة هذا يعد أمرا أساسيًا جداً فى التحكم فى بقية العناصر الأخرى بما فى ذلك العنصر العقدى، ذلك لأن القاعدة الشاملة فى تغيير ما بالإنسان متوقفة على تغيير المحتوى الداخلى له، وهذا متوقف على قاعدة الإقبال على المعرفة ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾، فلما عطل الإنسان منهج التلقى للحقائق الغيبية غروراً وتكبراً فقد أدى ذلك إلى الجهل حيناً وإلى الوعى المزيف أخرى.

وعلى هذا الأساس لم تتغير نتائج الباب الثالث؛ فقد كانت الأكثرية – على مستوى الموقف من الحق – فى الجانب السلبى ﴿ **وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾،

ونتيجة لكره الحق، فقد عمدوا إلى إخفاء الحقيقة وتزويرها، والتركيز على الظن والكذب والغش فى نقل الحقائق حتى بلغ الأمر تحريف الكتب السماوية، والسبب فى أن تتجه الأكثرية هذه الوجهة النكراء هو مسايرة الأهواء والشيطان، لأن مع الباطل الدعة ومع الحق التعب أو كما يقول العلماء: الحق يتطلب الالتزام وهو صعب على النفوس الضعيفة «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» والشهوات بصيغة الجمع هذه شملت: حب النساء والمال والرياسة والجاه، والتقليد، والتطبع..

ولكن كون الالتزام صعبًا لا ينفى وجود من يلتزم بالحق فيحبه ويتبعه، وهذا منهج الأقلية، وهو فى الوقت نفسه علة وسبب أقلية أتباع الحق ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ** ﴾.

ولما كان الالتزام صعبا فقد ترتب على ذلك ميل الأكثرية إلى تعدى حدود الشرع، فنجم عنه أن أكثر الناس فاسقون، وظالمون معتدون: ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [التوبة: ٨].

ونتيجة لكل ذلك فقد ازدادت دائرة الأكثرية توسعًا، لأن الفسق يشمل الكفار وبغض العصاة من الموحدين نصارى كانوا أو مسلمين، وربما لذلك السبب قد وظف لفظ الناس الذى يفيد العموم، ووظف لفظ (الفسق) الذى يشمل الخروج عن طاعة الله عز وجل مطلقا فيقع على من خرج بكفره، ومن خرج بعصيانه كما يقول القرطبى.

وبقدر اتساع دائرة الأكثرية تنحصر دائرة الأقلية فنجد الذين ينهون عن الفساد هم الأقلية، سواء من المسلمين فى العصر الحديث أو فى أهل الكتاب كما يتبين من مواقف الناس من وقائع فلسطين: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ [هود: ١١٦]، والآية تبين السبب الرئيسى فى كون

الأغلبية تقع فى الطرف السلبى سلوكًا، وهو اتباع الترف والانغماس فى الشهوات، مما يبعد الناس عن الالتزام إلا قليلاً منهم، وهؤلاء درجات كما سيأتى فى المآلات.

وتأتى المعاملات، فى الباب الموالى لتبين أن حب المال يلعب فيها دوراً رئيسيا، فتنتشر أخلاق سيئة تجعل حتى أكثر الرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، وأكثر الخلق بلا عهد، وأغلبهم يتناجون بالسوء، وحتى أكثر الخلطاء يبغى بعضهم على بعض.

وسيكون كل ذلك سببًا فى تدهور معايير العلاقات بين الناس فتصبح العلاقات بين أكثر الخلق مبنية علي الأهواء والمصالح الضيقة حتى لو أدى ذلك إلى إفساد المجتمع، إذ تعلن الأكثرية ولاءها على المستوى الفردى والدولى لأهل الكفر والشيطان والجن، وقد تبين من الاستقراء التاريخى أن دولة إسرائيل ما قامت فى أرض فلسطين المغتصبة إلا بالولاء والتعاون بين الكافرين والملحدين الجدد من الماديين الغربيين والصهاينة المتجبرين، وإلا فمن الناحية القانونية ليس لهم فى فلسطين شبر واحد باعتبارهم دولة، ومن الطبيعى القول بأن ملك بنى إسرائيل لا يمكن أن يستقر لأسباب يعدها القرآن سننا تاريخية تقضى بحتمية زوال دولة بنى إسرائيل، وسورة الإسراء تشرح ذلك بوضوح.

وبالجملة تصل الجاهلية بالبشرية إلى أنهم ﴿ **يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ ويعادون من يحبهما ويطيع أمرهما الطاعة الكاملة، وقد ترتب على ذلك أن ظهرت أخلاق تحكم العلاقات بين الناس يكونون فيها مذبذبين – بين أهل الخير وأهل الشر – لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وعلى الجملة فإنك: ﴿ **تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ ولاشك أن السبب الرئيسى الذى تقوم عليه هذه العلاقات إنما هو طبيعة العقيدة ونوع المصالح. وقد تبين من خلال دراسة العلاقات بين الأقلية التى أساسها الإيمان والعمل الصالح فوجدنا الداعى إلى العلاقات الطيبة بينهم تقوم أساليبه على العقيدة والمصلحة العامة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا** ﴾.

ومن الطبيعى والحال هذه – على المستويات الخمسة، على مستوى العقيدة والمعرفة ومواقف الناس من الحق والسلوك وطبيعة المعاملات والعلاقات – أن يكون مآل البشرية فى الغالب هو الخسران المبين، فى الدنيا والآخرة فلم ينج إلا قليل منهم. فعلى مستوى الدنيا صار أكثر الناس إلى الكفر والظلم والطغيان والجبروت، مما أثار غضب الله على أكثرهم فقصمهم قصما ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١١– ١٢] فلم ينج من تلك القاصمة إلا قليل، هم أصحاب اليمين، والسابقون المقربون بسبب اجتهادهم فى التنافس على الخير إيمانا بالله واليوم الآخر، مما وضعهم فى الدنيا فى إطار السنن الإيجابية فأفلحوا بأن مكن لهم الله فى الأرض، كما رأينا فى قصة لوط، وموسى، ويونس، ونوح ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** ﴾ [الأنبياء: ٩] ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ١٠٣]، ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ** ﴾ [القصص: ٥ – ٦].

ومن البدهى أن تكون الغلبة للأقلية، لأن المعيار المعتمد فى الوراثة والتمكين، هو معيار القوة، وليس معيار الكثرة، والقوة دائما مع الله ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ وعندئذ وجدنا أنفسنا أمام جملة من القضايا الهامة جدا، قضية الرؤية التى ينطلق منها الكفار فى تقديرهم لقانون الغلبة، ثم بيان الطرح العلمى الحقيقى لسنة الغلبة باعتبار تدخل المبدأ الروحى الذى لم يكن بالحسبان فى الرؤية الأولى، ثم التفسير النبوى لظاهرة الغثائية، ثم التنبية على خطر ظاهرة استكثار صف الكفار، وكل ذلك يقوم على قواعد يتعانق فيها العلم بالسنن المادية مع العلم بالسنن الروحية.

تلك هى القاعدة الأساسية التى تحكم معادلة قوانين الغلبة فى الصراع إذ ليست المعادلة قائمة على عنصرى العتاد والعدة بحيث نقول:

(عتاد + عدة = غلبة)

فهذه المعادلة غير صحيحة فى الرؤية الإسلامية، إنما الصحيح هو المعادلة التالية:

(عتاد + عدة + العامل الروحى = الغلبة والقهر)

وهذا يكون مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]

وعلى مستوى الآخرة كانت جهنم للأكثرية مأوى وكانوا لها حطبا ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والسبب فى ذلك هو تعطيل وسائل التلقي الحق ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، بل وتوجيه تلك الوسائل إلى التلقي عن أهل الباطل من دعاة الشر ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وكان مآل الأقلية هو الجنة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ -١٢]، والآية التالية تلخص المآل الأخوى للبشرية كلها ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١]، وهكذا تطوى صفحة البشرية كلها فيصير المكذبون إلى مآلهم، النار وبئس القرار، ويصير المتقون إلى مآلهم، الجنة ونعم الدار، وسيطلع كل فريق على مصير الثاني فيتنادوا: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ولاشك أن كل ما سبق يترجم بصدق واقع البشرية اليوم إذ نلاحظ مثلاً على مستوى الدول الإسلامية نفسها مشكلة محاربة أصحاب الدعوة الإسلامية،

وكثرة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ويبغونها عوجًا، والعلة وراء كون الأكثرية دائما في الطرف السلبي، والأقلية فقط هي التي تكون في الطرف الإيجابي، هو أن الإنسان يكمن سر كماله واستقامته في استكمال قوته[1]، قوة النظر والعلم وقوة الكسب والعمل، فبالأولى يدرك الحق ويؤمن به ويغذى به نفسه وخلقه، وبالثانية يسلك طريق الخير والفلاح والهدى والرشاد ليحقق العمران ويحارب الخراب، فمن فقدهما – وهم الأكثرية – فقد خسر، ومن عمل بهما وأحسن نقلهما إلى الأجيال اللاحقه كما فعل الأنبياء والرسل فقد نجا وأفلح، وهذا ما تركزه سورة العصر في قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾.

ونتيجة النتائج: إن الإنسان لم يخلق عبثا ليترك لحريته المطلقة فيفعل ما يشاء، وإنما خلق لرسالة يجب عليه القيام بها، وبتحديد علاقته بهذه الرسالة يتحدد مبرر وجوده الدنيوى ونجاته في الآخرة.

وعليه فيجب على البشرية أن تراجع نفسها كلية وتأخذ الأمر بجد لتنظر في أسباب الصلاح فتتمسك بها، وتبحث أسباب السقوط فتتجنبها، وعليها أن تعلم أن ذلك مرجعه إلى احترام أهل الذكر حقًا، بحيث يكون القول هو ما قالوه، وعلينا أن نتأكد من أن علم علمائنا يؤدى فعلاً إلى الوعى الحقيقى لا الوعى المزيف الذى ضلل البشرية، ويكفى ما رأته البشرية من نكد العيش بسبب كذبة ماركس، فهل آن الأوان لنفكر بجد ونعود لعقلنا فنعطى القيادة للأقلية الصالحة وهم جمهور العلماء ومن سار على هديهم من الصالحين؟؟. ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾.

تمت مراجعة البحث بمشيئة الله في دبى بالإمارات العربية المتحدة
بتاريخ ١٩ ذو القعدة/ ١٤٢٢ للهجرة – الموافق: ٢/٢/٢٠٠٢ للميلاد
ولله الحمد في الأولى والآخرة عليه توكلت وإليه أنيب

* * *

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في تفسير القرآن لمحمود شلتوت ص٣٧.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- الآمدى على بن محمد: الإحكام فى أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلى، دار الكتاب العربى، ط: ٢/١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م.

٢- إبراهيم بيوض: فى رحاب القرآن - جمعية التراث - غرداية الجزائر.

٣- ابن أبى شيبة: مصنف ابن أبى شيبة مكتبة الرشد - الرياض - ١٤٠٩ - ط١/ كمال يوسف الحرث.

٤- ابن باديس عبدالحميد: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير مطبوعات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر - دار البعث ١٩٨٢ قسنطينة.

٥- ابن باديس عبد الحميد: مجالس التذكير من حديث البشير النذير مطبوعات وزارة الشؤون الدينية - الجزائر - دار البعث ١٩٨٢ قسنطينة.

٦- ابن تيمية أحمد الحرانى: الفتاوى: مقدمة التفسير - مكتبة دار المعارف / الرباط المغرب.

٧- ابن حبان: صحيح ابن حبان - مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣ ط٢ تحقيق شعيب الأرنؤوط.

٨- ابن حزم أبو محمد على بن أحمد بن سعيد الظاهرى: الإحكام فى أصول الأحكام، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، د. ت.

٩- ابن حزم الإحكام فى أصول الأحكام: تحقيق أحمد شاكر - مطبعة الإمام - مصر.

١٠- ابن حنبل أحمد: المسند: دار صادر بيروت + مكتبة قرطبة - مصر

١١- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، تصحيح وفهرست أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت - لبنان، ط: ٢/١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

١٢- ابن الزبير الغرناطى: ملاك التأويل: تحقيق سعيد الفلاح: دار المغرب الإسلامى: ١٩٨٣.

١٣- ابن الصلاح: مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث: دار الهدى - عين مليلة - الجزائر.

١٤- ابن عاشور: التحرير والتنوير - الدار التونسة والمؤسسة الوطنية للكتاب / الجزائر.
١٥- ابن العربى: أحكام القرآن: الجلبى - القاهرة ١٩٥٧.
١٦- ابن عطية: أبو محمد عبد الحق الأندلسى: المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، تحقيق وتعليق الرحابى الفاروق - عبد الله بن إبراهيم الأنصارى، السيد عبدالعالى السيد إبراهيم، محمد الشافعى صادق العنابى، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر، الدوحة، ط: ١/ ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
١٧- ابن القيم الجوزية: الأمثال فى القرآن - دار المعرفة - بيروت.
١٨- ابن القيم: أعلام الموقعين.
١٩- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم - دار الفكر - بيروت.
٢٠- ابن كثير: الكامل فى التاريخ: دار صادر بيروت.
٢١- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، اعتنى بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن الأدوقى ومحمد غازى بيضون، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط: ٢/ ١٤١٧ - ١٩٩٧.
٢٢- ابن ماجة: شرح سنن ابن ماجة: دار الفكر - بيروت - محمد فؤاد عبدالباقى.
٢٣- ابن منظور: لسان العرب المحيط، قدم له عبد الله العلايلى، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب بيروت - لبنان، د. ت (المجلدات الكبيرة) والمجلدات الصغيرة (١٧ جزء) دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان، دار صادر بيروت - لبنان، د. ت.
٢٤- ابن مريم: الإحكام فى أصول الأحكام.
٢٥- أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت - لبنان، د. ت.
٢٦- أبو حامد الغزالى: القسطاس المستقيم، قدم له وذيله وأعاد تحقيقه فيكتور شلحت، دار المشرق بيروت - لبنان، ط: ٢/ ١٩٨٢م.
٢٧- أبو داود: سنن أبى داود - دار الفكر - بيروت - ت: محمد محى الدين عبد الحميد.
٢٨- أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفى: الفتوح، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط: ١/ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٢٩- البخارى: صحيح البخارى - دار ابن كثير اليمامة بيروت ١٤٠٧ - ١٩٨٧ / ط٣ - تحقيق مصطفى ديب البغا.
٣٠- البغوى الحسن ابن المسعود: تفسير البغوى: المسمى معالم التنزيل: تحقيق خالد العك دار المعرفة - بيروت ١٩٨٧ -
٣١- البقاعى برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى: نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - دار الكتب العلمية - بيروت ط١ / ١٩٩٥.
٣٢- البيضاوى: تفسير البيضاوى دار الفكر بيروت ١٩٩٦.
٣٣- الترمذى: الجامع الصحيح - دار الحديث - الأزهر - القاهرة.
٣٤- الجلالين: تفسير الجلالين: دار الحديث - القاهرة.
٣٥- الزمخشرى: الكشاف - دار المعرفة - بيروت.
٣٦- سيد قطب: فى ظلال القرآن - دار الشروق - لبنان
٣٧- الشاطبى: الموافقات: دار المعرفة - بيروت.
٣٨- الشاطبى: الاعتصام - ضبط أحمد عبدالشافى - دار شريفة - الجزائر.
٣٩- الشوكانى: فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير - دار الفكر - بيروت.
٤٠- شايب لخضر: نبوة محمد - ﷺ - فى الفكر الغربى المعاصر - مخطوط رسالة دكتوره دولة - جامعة الجزائر - كلية أصول الدين - ١٩٩٩.
٤١- الصابونى محمد على: صفوة التفاسير، المكتبة الفيصيلية، مكة المكرمة، ط: ١٣٩٦هـ ١.
٤٢- الصاوى أحمد بن محمد: حاشية العلامة الصاوى على تفسير الجلالين، مراجعة على محمد الضباع، دار الجيل، بيروت - لبنان، د. ت.
٤٣- عبد الله العروى: مفهوم الإيديولوجيا - الدار البيضاء - المغرب - بيروت ١٩٩٩.
٤٤- القرطبى: الجامع لأحكام القرآن - دار الشعب - القاهرة تحقيق البردونى.
٤٥- القرطبى: مختصر التذكرة القرطبية: المطبعة الخيرية المصرية - مصر.
٤٦- مالك بن أنس: الموطأ - دار إحياء التراث العربى - بيروت - ١٣٩٢ مصر محمد فؤاد عبد الباقى.
٤٧- محمد باقر الصدر: فلسفتنا: دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٩٨٢.

٤٨- محمد بن عمر البجاوى: تفسير الكشف عن معنى القرآن المجيد.
٤٩- محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة - بيروت، ط: ٢ د.ت.
٥٠- محمد مكى الناصرى: التيسير فى أحاديث التفسير - الدار البيضاء - المغرب.
٥١- محمود الألوسى: روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - دار الكتب العلمية - بيروت.
٥٢- محمود شلتوت: إلى القرآن الكريم، مطابع الشروق - القاهرة، بيوت، د. ت.
٥٣- المراغى أحمد مصطفى: تفسير المراغى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت.
٥٤- مسلم: صحيح مسلم - دار إحياء التراث العربى بيروت أ تحقيق
٥٥- المهايمى: تفسير تيسير المنان - عالم الكتب - بيروت.
٥٦- ناصر الدين ابن المنير: الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - على هامش الكشاف - دار المعرفة - بيروت.
٥٧- النسفى عبد الله بن أحمد بن محمد: تفسير النسفى المسمى مدار التنزيل وحقائق التأويل، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه زكريا عبيدات، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط: ١/ ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٥٨- النووى: شرح النووى على صحيح مسلم - دار إحياء التراث العربى - بيروت - ١٣٩٢ - ط٢.
٥٩- النيسابورى: المستدرك على الصحيحين: دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠ط١ مصطفى عبدالقادر عطا.
٦٠- النيسابورى: الوسيط فى تفسير القرآن المجيد.
٦١- هانش كينغ: مشروع أخلاقى عالمى - تعريب جوزاف معلوم وأرسلا عساف - مكتبة البوليسية لبنان ط١ - ١٩٩٨.
٦٢- وهبة الزحيلى: التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان - دار الفكر - دمشق سورية، ط: ١/ ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
مـقـدمـة:	٧
الباب الأول: الأكثرية والأقلية على مستوى العقيدة	١٣
الفصل الأول: الأكثرية على مستوى العقيدة	١٦
المبحث الأول: مشكلة الكفر	١٦
توطئة : مفهوم الكفر	١٦
المطلب الأول: الكفر بالغيب	١٨
المطلب الثانى: الكفر بالنعمة	٢٥
المبحث الثانى: انتفاء الإيمان عند الأكثرية	٣٨
المبحث الثالث: مشكلة الشرك	٦٠
المبحث الرابع: الأكثرية فى الضلال والتضليل	٦٤
الفصل الثانى: الأقلية على مستوى العقيدة	٨٠
المبحث الأول: الإيمان	٨١
المبحث الثانى: الأقلية فى مجال شكر الله على النعم	٩٤
المبحث الثالث: الإخلاص	١٠٠
الباب الثانى: الأكثرية والأقلية على المستوى المعرفى	١٠٩
توطئـــة	١٠٩
الفصل الأول: الأكثرية على المستوى المعرفى	١١١
المبحث الأول: انعدام الفقه والعلم عند الأكثرية	١١٢
المبحث الثانى: تعطيل الأكثرية لوسائل المعرفة	١٤٥
الفصل الثانى: الأقلية فى المجال المعرفى	١٧٢

الموضـــــوع	الصفحة

توطئـــة: ١٧٢
المبحث الأول: طبيعة العلم عند الأقلية ١٧٣
المبحث الثانى: طبيعة الفقه عند الأقلية ١٧٧
المبحث الثالث: استخدام الأقلية لوسائل المعرفة ١٨٠
الباب الثالث: الأكثرية والأقلية على مستوى الموقف من الحق ١٩١
توطئـــة: ١٩١
الفصل الأول: موقف الأكثرية من الحق ١٩٣
المبحث الأول: الموقف العاطفى من مشكلة الحق ١٩٤
المبحث الثانى: إخفاء الحقيقة عند الأكثرية ٢١١
المبحث الثالث: الكذب واتباع الظن ٢٢٠
المطلب الأول: الكذب ٢٢٠
المطلب الثاني: اتباع الظن ٢٢٥
المبحث الرابع: الجدل ومشكلة الحق ٢٣٤
الفصل الثانى: موقف الأقلية من الحق ٢٤٢
توطئـــة: ٢٤٢
المبحث الأول: الهداية بالحق والعدل به ٢٤٣
المبحث الثانى: تذكر الحق ٢٤٦
الباب الرابع: الأكثرية والأقلية على مستوى السلوك ٢٥٧
توطئـــة: ٢٥٧
الفصل الأول: الأكثرية على مستوى السلوك ٢٥٩
المبحث الأول: الفسق كسلوك للأكثرية ٢٥٩
المبحث الثانى: إساءة العمل والمسارعة فى الإثم والعدوان ٢٨٠
المطلب الأول: إساءة العمل كسلوك للأكثرية ٢٨٢

الموضـــــوع	الصفحة

المطلب الثانى : المسارعة فى الإثم والعدوان عند الأكثرية ٢٨٨
المبحث الثالث : القتل والإيذاء ٢٩٢
الفصل الثانى : الأقلية على مستوى السلوك ٢٩٧
توطئـــة : ٢٩٧
المبحث الأول : النهى عن الفساد ٢٩٨
المبحث الثانى : الإذعان لأوامر الله وطاعة رسوله ٣٠٤
المبحث الثالث : الثبات والصبر عند الشدائد صفة الأقلية ٣١٠
المبحث الرابع : الأمانة والصدق صفة للأقلية ٣١٦
الباب الخامس : الأكثرية والأقلية فى المعاملات ٣٢٣
توطئـــة : ٣٢٣
الفصل الأول : معاملات الأكثرية ٣٢٥
المبحث الأول : العهود والمواثيق السياسية والفردية ٣٢٦
المبحث الثانى : التعامل المالى بين الخلطاء والشركاء ٣٣٣
المبحث الثالث : طبيعة الخطاب لدى الأكثرية فى مجال المعاملات ٣٣٨
خلاصة الحديث فى معاملات الأكثرية ٣٤٦
الفصل الثانى : طبيعة معاملات الأقلية ٣٤٩
توطئـــة : ٣٤٩
المبحث الأول : معاملات الأقلية فى العهود ٣٥١
المبحث الثانى : الاعتدال فى المعاملات المالية ٣٥٤
المبحث الثالث : الخطاب السرى النزيه وتجنب قول السوء ٣٥٨
خلاصة الحديث فى معاملات الأقلية ٣٦٣
الفصل الثالث : الأكثرية والأقلية على مستوى العلاقات ٣٦٥
توطئـــة : ٣٦٥

الموضـــــوع	الصفحة

المبحث الأول: طبيعة العلاقات بين الأكثرية ٣٦٨
المطلب الأول: العلاقات بين أهل الكفر من البشر ٣٦٩
المطلب الثانى: العلاقات بين أهل الكفر والشياطين ٣٧٤
المبحث الثانى: طبيعة العلاقات بين الأقلية ٣٧٧
الباب السادس: مآلات الأكثرية والأقلية ٣٨٣
توطئـــة ٣٨٣
الفصل الأول: مآلات الأكثرية ٣٨٤
المبحث الأول: المآل العقدى للأكثرية ٣٨٦
المبحث الثاني: مآل الأكثرية فى الحكم استئصالا واستبدالا ٣٩٠
المبحث الثالث: مآل الأكثرية الأخروى ٤٠١
الفصل الثانى: مآلات الأقلية الدنيوية والأخروية ٤٠٨
توطئـــة: ٤٠٨
المبحث الأول: مآل الأقلية الدنيوى إصلاحًا وتمكينًا ٤١٠
المطلب الأول: مآل الأقلية عدلا وإصلاحًا ٤١٠
المطلب الثانى: مآل الأقلية غلبة واستخلافا ٤١٣
المبحث الثانى: التنبية على خطر الغثائية والاستكثار ٤١٩
المبحث الثالث: مآل الأقلية الأخروى ٤٢٨
خاتمة البحث ٤٤٥
قائمة المصادر والمراجع ٤٥٣
فهرس البحث ٤٥٧

* * *

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٩٢٢٢

الترقيم الدولى: I.S.B.N: 977-17-1829-0